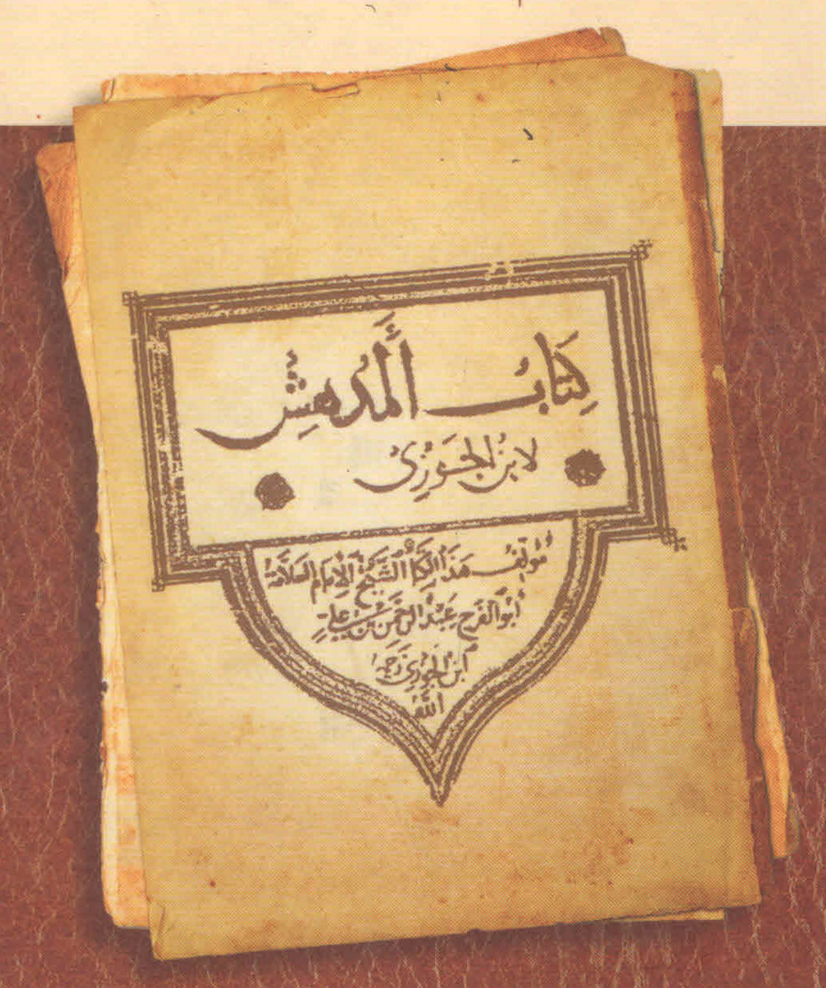
المدهش

تأليف

الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي



كتاب المدهش

لابن الجوزي

مؤلف هذا الكتاب الشيخ الإمام العلامة

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي

ابن الجوزي رحمه

الله

بعناية

عبد الكريم محمد منير تتان

خلدون عبد العزيز مخلوطة

المجلد الأول

دار القلم

دمشق

المُدهِش

المجلّد الأوّل



الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

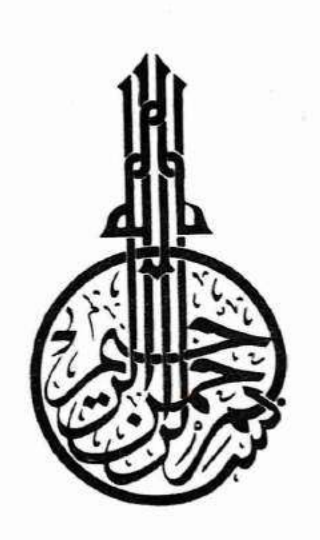
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

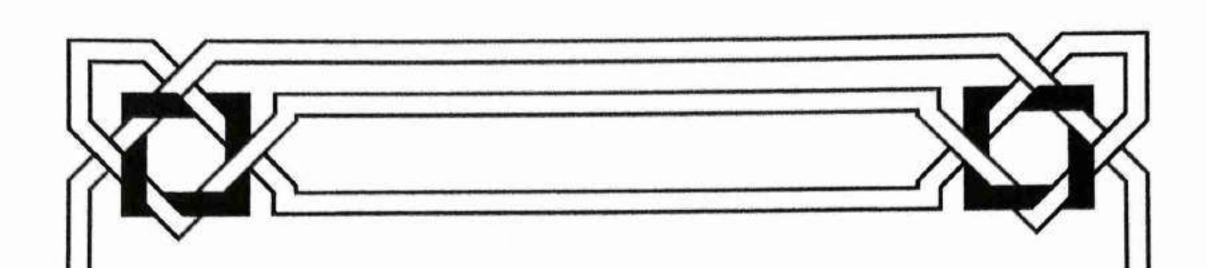
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤





الإهداء

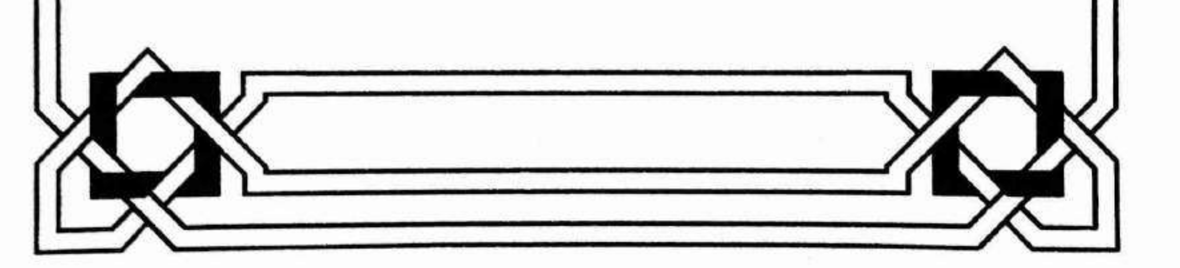
إلى كل مَن تجذبه الفكرة الناضجة..

وتُطربه العبارة الرشيقة، والنكتة الأنيقة..

ويحلو به الرمز الذكي، والمعنى البكر..

ويأسره الموقف المتميّز الصادق..

ويسمو بهمته السلوك الرباني..



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بقلم

فضيلة الشيخ وهبي سليمان غاوجي

قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ يومٍ إلّا والذي بعدَه شرٌّ منه حتّى تَلْقَوْا ربَّكُمْ»**[1].

(١)

فإذا كان الإمام أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول في **(المدهش)** مايقول في أغنياء زمانه، وعلمائهم وقادتهم وحكامهم كما نقل الشيخ عبد الكريم في مقدمة **(المدهش)** ـ مما سيقرؤه القارئ ـ فماذا كان يقول ـ رحمه الله تعالى ـ لو عاصر زماننا، وقد ظهر فيه الأمر بالمنكر، والنهيُ عن المعروف بألوان من الصور، وضروب من الوسائل، وأضحى أكلُ المال بالباطل مطلباً للعامة، يتبارون على التعامل مع المصارف الربوية أخذاً من مالها، ودفعاً إليها طمعاً في الربا، وأضحى المجون والفجور له نواديه، وله دعاته، وله أبواقه، وأضحى الزنى واللواطة وشرب الخمر مظهراً من مظاهر المدنيَّة، وزاد ظهورُ العقوق، حتى أقيمت مساكن يؤوي إليها كبار السن بأيدي أبنائهم البررة؟! . . . كما وقع قريباً.

فقد كان رجلٌ يتمشّى مع عائلته بجوار البحر ليلاً، حتى إذا كاد ينتصفُ الليل، رأى الرجلُ امرأةً عجوزاً تقعد وحدها بجوار البحر، ليس معها أحد، فدنا منها، وقال للسيدة: لقد تأخر الوقتُ كما ترين، وما نرى معك أحداً، فهل يمكننا أن نأخذك إلى بيتك؟ فقالت: لا، إنَّ ولدي وضعني في هذا المكان، وترك معي هذه الورقة! أخذ الرجل الورقة فإذا فيها: «من ينظر في هذه الورقة، فيرجى منه أن يأخذ حاملة هذه الورقة إلى دار رعاية العجزة!».

---

(١) رواه الإمام أحمد في (مسنده).

لقد أضحى للباطلِ كلُّ سلاحٍ باطلٍ، ولم يكد للحق مكان يعلن فيه عن نفسه بما شاء، ولئن كان إيثار الهوى والركون إليه بل الاطمئنان إليه ديدنُ بعض الناس، فقد أضحى فيما بعدُ ديدن كثير من القوانين والأحكام، فإنَّ من لا يتَّبع أحكام الله تعالى إنما يتبع الهوى، ولئن كان للأمم فتن يختبرون بها، وفتنة هذه الأمة المال، فقد أضحى الكثير حقّاً لا يبالون من أين جاءهم المال؟ أمن حرام أم من حلال؟ فالحلال عندهم ما حلَّ في اليد، والحرام ما حُرِموا منه!.

ولئن كان فساد النساء والشباب محدوداً في السابق، فقد أضحى شارةَ الوقت، وعلامةَ الزمان، وفتحت المؤتمراتُ المختلفة أبوابَ الفجور، ودلَّت على وسائل الفساد بما لم يكن قبل، وفي الحديث: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ**»... إلخ.

(٢)

ومع ذلك نقول على يقين: إنه لا يأس مع الحياة، وإن جولةَ الباطلِ إلى زوال، وإننا لنرى تباشير فجر العودة إلى الله تعالى تبدو، وأنوارها تشعُّ على قلوب بعض الناس وحياتهم، وقريباً يملأ الضياءُ القلوبَ الكثيرة، والأرض الكبيرة، فيشمُّ بذلك الناسُ عبير العودة إلى الله، ويعيشون بنور من الله تعالى، ويومئذ يفرح المؤمنون، عجَّل الله تمام ذلك الأمر الصالح وقرَّبه. آمين.

لما تقدم، وأكثر، كانت الحاجة ماسَّة إلى حديث يُوجَّه إلى القلوب فيهزّها بالموعظة، ويطلق من عيونها الدمع والدم عبرة، ثم تستكين إلى رحمة الله تعالى وفضله.

(٣)

كانت الحاجة ماسة إلى من يقف للناس في الطريق المزخرَف المزيَّنِ بالشهوة والباطل، المحفوف بالورد والزهر؛ ليقول للناس: هذه الطريق مَسبعة، مهلكة، حُفَّت النار بالشهوات، فاستقيموا على الجادة تسعدوا.

كانت الحاجة ماسة إلى من يحضر منتدياتِ الناس واجتماعاتهم؛ ليذكّرهم

أنّ هذه المجالس ستصبح قريباً آثاراً! والاجتماعات أخباراً! ثم يكون المآل إلى ما زرع كلُّ زارعٍ في هذه الدار، وإنها لجَنَّةٌ أبداً أو لنارٌ أبداً.

(٤)

لقد كان الإمام ابن الجوزي، ذلك الديدبان الذكي، والحارس الأمين على المحارم، والقائم على مراقبة الناس في أحوالهم وأعمالهم.. فكانت عظاته ناراً تحرق شهوات النفوس، وتقذف الهدى في القلوب.

يقول في وصف وعظه الرحالة ابن جُبير: «... ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت لها النفوس احتراقاً، إلى أن علا الضجيجُ، وتردد بشهقاته النشيجُ، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كلٌّ يلقي بناصيته بيده فيجزّها، ويمسحُ على رأسه داعياً له، ومنهم من يُغشى عليه، فَيُرْفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوسَ إنابةً وندامةً، ويُذكّرها هولَ يوم القيامة.

فلو لم نركب ثبجَ البحرِ، ونعتسفْ مفازاتِ القفرِ إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل؛ لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على أنْ مَنَّ بلقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله[1]... إلخ».

وستجد أيها القارئ طلبة النفس الظمأى إلى التذكرة، والقلب اللاحب إلى الريّ، والشوق المحرق إلى الخير.. ستجد في **(المدهش)** الذي أحسن الشيخان ـ عبد الكريم وخلدون ـ أيما إحسان، إذ قاما بتحقيقه، وتزيينه وتقريبه من حيث التصحيح وتزويق الكلم والسطور، وأسأل الله تعالى أن يثيبهما على ما بذلاه من جهد، وينفع المسلمين بعلميهما.

(٥)

حياة ابن الجوزي ووفاته: قال ابن العماد: كان ابن الجوزي كثير التعبد

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٩٥ ـ ٢٠٠.

والصلاة، يختم القرآن كلّ أسبوع، ويزهد ويتقلل من الدنيا، ويتحرَّى الحلال في مطعمه. يقول سبطه أبو المظفر: كان زاهداً في الدنيا، متقللاً منها، وما مازح أحداً قط، ولا لعب مع صبي، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلّها، وما زال على ذلك الأسلوب إلى أن توفاه الله تعالى.

وقيل أيضاً: وكان يختم في كلّ أسبوع ختمة، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة والمجلس.

لم يَسْلَمْ ابنُ الجوزي من طعن الحُسَّاد، أو ممن حملت نفوسهم الضغينة والحسد بسبب هجومه وانتقاده له، وقد وصل بهؤلاء الحاقدين أن وَشَوا به إلى الخليفة الناصر، ونجحت الوشايةُ، فجاء من شتمَ ابنَ الجوزي وأهانه، وأقفل داره، وأخذه مقبوضاً عليه، مغلولاً بيديه، ورُحّل بسفينة إلى مدينة واسط، فسجن بها، وظل خمسَ سنين في هذا المحبس، وفي تلك المحنة كان يغسِلُ ثيابه، ويقوم بشؤونه وحدَه، وقد بلغ من الكبر مبلغاً، فكان في ذلك شدة ومحنة نالت منه، وأثرت فيه.. حتى توسَّط له ابنُه يوسف، فجاء إلى واسط، فأخرجَ أباه من السجن، وكان الشيخ إذ ذاك ابن ثمانين سنة.

وعاد ابنُ الجوزي إلى بغداد، فاستقبله أهلها فرحين، مستبشرين بقدومه، ولم تحجزه الشيخوخة عن مجالس وعظه، فعاد إليها في يوم السبت سنة سبع وتسعين وخمسمئة هجرية، وجلس عند تربة أم الخليفة عند معروف الكرخي في مجلس، وبينما هو كذلك قطع المجلسَ منشداً يعلنُ أبياتاً، منها قوله:

اللهَ أَسْأَلُ أنْ يُطَوِّلَ مُدَّتِي ... لأنَالَ بِالإنْعَامِ مَا فِيْ نِيَّتِي
لِيْ هِمَّةٌ فِي الْعِلْمِ ما إنْ مثلها ... وهِيَ الَّتِي جَنَتِ النُّحولَ هيَ الَّتِي

(٦)

وإذا ذُكِرَ الإمامُ ابن الجوزيّ في مواعظه، فحسَنٌ أن يُذكَرَ الإمامُ المربّي (تاج الدين ابن عطاء الله السكندري)، وأنقل هنا عبارات عنه من رسالة (تاج العروس) فيها ما أرجو من الخير والنفع لي ولإخواني المسلمين:

قال في التوبة، ص١٠: «من تاب ظفر، ومن لم يتب خسر، ولا تقطع

يأسك، وتقول: كم أتوب وأنقض؟! فالمريضُ يرجو الحياةَ ما دامت فيه الروحُ».

«إذا تاب العبد فرحت بـه داره من الجنـة، وتفرحُ به السـماء والأرض، والرسول ﷺ، فالحقّ سبحانه لم يرضَ أن تكون محبّاً بل محبوباً، وأين المحبوب من المحب؟!».

«أفٍّ لعبد يعلمُ إحسانَ المحسنِ فيجترئ على معصيته، ولكن ما عرف إحسانه من آثر عصيانه، وما عرف قدره من لم يراقبه، وما ربح من اشتغل بغيره، وعلم أنَّ النفـسَ تدعوه إلى الهلكـة فتبعها، وعلم أنَّ القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصيّ فواجهه بالمعصية.

ولو علم اتصافه بعظمته لما قابله بوجود معصيته، ولو علم قرب مولاه، وأنّه يراه، لسارع لما عنه نهاه، ولو علم أثر الذنب المرتب عليه دنيا وأخرى، وغيبـاً وشهادة، لاستحيا من ربه. ولو علم أنّه في قبضته لما قابله بمخالفته».

«واعلم أنّ المعصيةَ تتضمن: نقض العهد، وتحليلَ عقد الود، والإيثار على المولى، والطاعة للهوى، وخلع جلباب الحياء، والمبادرة لله بما لا يرضى، والجمود في العين، والكسل في الخدمة، وترك الحفظ للحرمة وظهور كسب الشهوات، وذهاب بهجة الطاعات».

ويقول عن التوبة في موضع آخر: «إنْ تفضّلَ عليك بالتوبة فمن فضله تبتَ إليه، وإنك تذنب سبعين ذنباً فتتوبَ إليه في نَفَسٍ واحد، فيمحو ما عملته في تلك المدة».

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

«فالمؤمن كلّما ذكر ذنبه حزن، وكلّما ذكر طاعته فرح».

ويقول موبخاً للغافل: «ولكن ما أرخصَ نفسَك عليك! لولا هوانها عليك ما عرَّضتها لعذاب الله سبحانه وتعالى، وما أغلاها في طلب الدنيا وجمعها، والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجّم عن حاله، ولا يسأل كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ».

«إذا ضعفتَ عن العبادة، فَرَقِّعْ عبادتَكَ بالبُكَاءِ والتَّضَرُّعِ، إذا قيل لك: من يُبكى عليه؟ فقل: عبدٌ عوفي، فأنفقَ عافيتَه في معصية الله!».

ويقول ناصحاً للمتذكر ضعيف الجسم: «هب أنك تريدُ الجدّ، ولكن لا تساعدك القوى، فاعمل على قدر حالك، ورقّع الباقي بالذكر، فإنّه لا شيءَ أسهلُ منه، يمكنك في حال القيام والقعود، والمرض والاضطجاع، فهذا أسهل العبادات، وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**وليكنْ لسانُك رطباً بذكرِ الله**»، وأيُّ دعاءٍ أو ذكرٍ سهلُ عليك فواظب عليه، فإنّ مدده من الله عزَّ وجلّ، فما ذكرته إلا ببره، وما أعرضت عنه إلا بسطوته وقهره، فاعمل واجتهد، فالغفلة في العمل خير من الغفلة عنه».

وقال: «يا عبد الله تنتخب لنفسك الطيبات، بل تنتخب لدابتك العلف، وتعامل الله بالمجازفة[1]! وربما قلّبت عشرين بطيخة حتى تصلحَ لك واحدةٌ لدهليز مرحاض، وتقع عند الأكل متربعاً، وربما طوّلت في الأكل، وإذا جئت إلى الصلاة نقرتها نقر الديك، والوساوس والخواطر الرديئة تأتيك في صلاتك، مثال من هذه حالتُه كمن نصَّب نفسه للهدف، وقعد والرماح والسهام تقصده من كلّ جانب، أفما هذا أحمق؟! لقد مر رسول الله ﷺ على قوم تحلّقوا حول رجل يضحكون منه، فسأل عن حاله؟ فقالوا: مجنون، قال ﷺ: «**قولوا مصابٌ، المجنون من ثابرَ على معصية الله تعالى**». **والعياذ بالله**».

الرجوع إلى الله تعالى: قال مذكِّراً بذلك: «كفى بك جهلاً أن تتردد إلى مخلوق وتترك باب الخالق، فقد ارتكبتَ المعاصي من كل جانب، أفلا تكونُ محزوناً على نفسِك؟ والعجبُ كلُّ العجبِ من عبدٍ يُقبل على صحبة نفسه، ولا يأتيه الشر إلا منها، ويتركُ صحبةَ اللهِ، ولا يأتيه الخيرُ إلا منه».

فإن قيل: كيف الصحبة لله؟.

فاعلم أن صحبة كلِّ شيء على حسبه؛ فصحبته لله سبحانه وتعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وصحبة الملكين بأن يمليهما الحسنات، وصحبة الكتاب والسُّنَّة أن يعمل بهما، وصحبتك السماء بالتفكر، وصحبتك الأرض بالاعتبار لما فيها.

---

(١) أي: دون تمحيص.

وليس من لازمِ الصحبة وجودُ الرتبة[1]، فالمعنى في صحبة الله سبحانه وتعالى صحبة أياديه ونعمه، فمن صحب النعم بالشكر، وصحب البلايا بالصبر، وصحب الأوامر بالامتثال، والنواهي بالانزجار، والطاعة بالإخلاص، فقد صحب الله تعالى، فإذا تمكنت الصحبة، صارت خلّة.

(٧)

وأختم هذه النقول الكريمة بمناجاةٍ لعلي رضي الله عنه، جعلنا الله من المتحلّين بها، والمقبلين عليها:

إلـٰهي! ما ألطفك بي مع جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي، وما أقربك مني وما أبعدني عنك، وما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك؟!.

إلـٰهي! كلَّما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلَّما أيئستني أوصافي أطمعتني مِنَّتُك.

إلـٰهي! مَنْ كانت محاسنُه مساوئ، فكيف لا تكون مساويه مساوئ؟ ومن كانت حقائقُه دعاوى، فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟!.

إلـٰهي! كيف أعزِمُ وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنتَ الآمر؟! ترددي في الآثار يوجِبُ بعدَ المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك. آمين.

(٨)

خاتمة: لقد أكرم الله تعالى الأستاذ المربي الشيخ (عبد الكريم) والشيخ (خلدون) بخدمة (المدهش) وتحقيقه وتصحيحه، وتقديمه إلى الناس تحفةً علميّةً رائدة إلى الخير، ودالة على جميل السلوك.

لقد أفاضَ الله تعالى بكلماتِ ابن الجوزي الدموعَ من عيون الغافلين والمذنبين فسالت، وسالت حتى غسلت القلوبَ من أدرانها، وفاضتِ المآقي، فزال عنها غبشُ الرؤية، وأوضحت معالم الطريق، وأفاضت على آذانها وأسماعها

(١) أي: كون الصاحِبِ بمرتبة المصاحَب

خريرَ أنهار الجنة، وأصوات الحور العين، فسكنت إلى ذلك، واطمأنت به، ووجهت السلوك، ووضعت صور الحق وأعلام النور في الطريق، فَهُدي الضالّ، وأرشد الحائر، وأخذت بيد الناس على لطف وحنان، فانقاد بها إلى الله تعالى.

لقد كان ابنُ الجوزي بحاله وقاله وعلومه الرائدَ الذي لا يكذِبُ أهله، والنذيرَ الذي ينذر قومه، فكم تاب وأناب على يديه من البشر، وساحت دموعهم، وعلا نشيجهم، واشتد شهيقهم بين يديه في مواعظ ودروس!.

لقد كان الحاديَ العاقلَ الحكيمَ، والدليلَ المرشدَ الخبيرَ، كان كأنه يقولُ للناس في كل موعظة، وكل درس، وعند كل عبرة، وعند كل خاطرة:

فحـيَّ علـى جنـاتِ عَـدْنٍ فـإنَّهـا مَنَـازِلُـكَ الأُولـى وفيهـا المُخَيَّـمُ

فاهنأ أيها القارئ الكريم بهذا الكتاب، واهنأ يا شيخ عبد الكريم ويا شيخ خلدون من الله تعالى بفضل وثواب.

وصلَّى الله على سيدنا محمد النبيّ الأمي، وعلى آله وصحبه وإخوانه ونحن معهم وسائر المسلمين... والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إنَّ الحمد لله الذي منَّ على العباد بنعمتي الإيجاد والإمداد، بل لا يخرج عنهما موجود شمّ بعد عُدمه رائحة الوجود، وأفاض على قلوب مَنْ شاء من عباده ما شاء من الأنوار والأمداد، ونصبهم على درب الهدى منارات وأدلةً، وأقامهم مناهلَ يرِدُها كل صاد إلى ما ينقَعُ الغلة، بل جعلهم أوعيةً تموجُ فيها لآلئ المعاني، وتلقي في مجالس الأنس والتذكير أصدافَ المباني، تشنّفُ الأسماعَ، وتَبلُغُ من القلوب الشغاف.

والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ المصطفى المختار، مَنْ حباه المولى بالأنوار، وأعطاه جوامع الكلم؛ فيعبّر بالكلمات القليلة عن المعاني الغزار، وأطلقَ في سماءِ الدنيا شمساً دونها شمس النهار، إذ هذه تغيب، وهاتيك لا تعرف المغيب، فتح الله به قلوباً غُلفاً، وآذاناً صمّاً، وأعيناً عمياً.

أما بعد: فها هو ذا كتاب **(المدهش)**، المدهش في بابه، جمع بين دفتيه من المعارف والعلوم شذرات، ومن المعاني والبصائر فيوضاً، نرجو أن ينفَع الله سبحانه وتعالى به القارئ الذي أقبل بالقلب عليه، ونهل ـ مما قُدر له ـ من بين دفتيه، بادئين ـ بعدَ حمد الله سبحانه وتعالى، والصلاة والسلام على نبيه ـ بعبارات تجلِي نظرَة أصحابِها من العلماء إلى ابن الجوزي، كاتبِ هذا الكتاب ومنشيه، وفي مجالس وعظه وتذكيره ممليه.

ورجاؤنا مِنْ هذا دعوةٌ صالحةٌ يلحقنا نورها إلى عالم البرزخ إن شاء الله تبارك وتعالى.

* * *

قالوا في الإمام ابن الجوزي

«شيخُنا جمالُ الدين، صاحبُ التصانيف في فنون العلوم؛ من: التفسير، والفقه، والحديث، والتواريخ، وغير ذلك، وإليه انتهت معرفةُ الحديثِ وعلومِه، والوقوفُ على صحيحِه من سقيمه، وكان مِنْ أحسنِ الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً».

أبو عبد الله الدُّبيثي

«الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسّر، شيخُ الإسلام، مفخرُ العراق، جمالُ الدين أبو الفرج ابن الجوزي القرشيّ، التيميّ البكريّ، البغداديّ الحنبليّ، الواعظُ، صاحبُ التصانيف».

الحافظ الذهبي

«كان ابنُ الجوزي لطيفَ الصورةِ، حلوَ الشمائلِ، رخيمَ النغمةِ، موزونَ الحركاتِ والنغمات، لذيذَ المفاكهةِ».

الموفق عبد اللطيف

ويقول ابن الجوزي هو عن نفسه:

«إلٰهي أيقظتني في الصبا، وأقمتني أدلَّ الخلقَ عليك، ومزجتَ كأسَ نُطقي بعذوبة، وجعلتني في أخباري معروفاً بالأمانة، فركنَ إليَّ أهلُ المعاملة، ولو عرفوا إفلاسي ما عُوملت.

إلٰهي طالما اجتذبتُ العُصاةَ بعد أن تهافتوا في النار، أفيُصدِورن وأرِد؟!. سيدي إنْ لم أصلحْ للرضا فالعفوَ العفوَ».

المدهش

* * *

ترجمة الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله تعالى

لمعرفة أي شخصية من شخصيات التاريخ يُسْلَكُ واحدٌ من مسلكين:

إما أن **تُتناول الشخصية مباشرةً،** فتُدرسَ الأسرةُ والخصائصُ والتعلّمُ والمكانةُ والثمرات. . . إلخ؛ وهذا يدعو إلى البحث في البيئة العامة والخاصة، والتعرف إلى الصفات البارزة النفسية والعقلية، والعوامل الأخرى التي ميّزت تلك الشخصية، أو دفعت بها إلى الظهور فيما ظهرت فيه.

وإما **أن يسلك مسلك الاتصال المباشر بالشخصية عبرَ ما أنتجت،** أي من خلال الآثارِ التي تركتها، فتلتمس ملامحها العامة، وصفاتها الخاصة من خلالها ما دَبَّجَ يَرَاعُهُ، ويماط اللثام عنها بتحليل الإنتاج، وتتبع أنفاس الكاتب فيه، ومنابع ثقافته، ووجهة نظره فيما تناوله، كذلك تَتَبدَّى معالمُ شخصيته من المواقف الحياتية التي نُقِلَتْ عنه.

ونحن في هذه المقدمة سنعَرِّف بالكاتب صاحب (المدهش)؛ سالكين المسلكين معاً، فنتعرّف إليه من خلال البيئة الخاصة (النشأة والأسرة)، والعامة (العصر وما اتسم به)، ومن خلال (الإنتاج والمواقف)، ثم نختم بمسرد لأهم مؤلفات ابن الجوزي.

أولاً: اسمه ونسبه وشهرته:

هو العلامة الحافظ[1] المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، أبو الفرج

---

(١) انظر مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢١/٣٦٥؛ وفيات الأعيان: ١/٢٧٩، ٢/٣٢١؛ البداية والنهاية: ١٣/٢٨ ـ ٣٠؛ مفتاح السعادة: ١/٢٠٧؛ ذيل الروضتين: ٢١/٢٨؛ ابن الوردي: ٢/١١٨؛ شذرات الذهب: ٤/٣٢٩؛ دائرة المعارف: ١/١٢٥؛ الكامل، لابن الأثير: ١/٢٢٨؛ اليافعي: ٣/٤٨٩ ـ ٤٩٢؛ =

عبد الرحمن بن علي أبي الحسن بن محمد بن علي بن جعفر الجوزي[1]. وقد لُقِّبَ جعفرُ بالجوزي نسبة إلى (مشرعة الجوز) على نهر البصرة، أو إلى جوزة (شجرة تثمر الجوز المعروف) كانت في داره، وهو الملقّبُ جمال الدين الحافظ، وهو عربيّ قرشيّ تيميّ بكريّ، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعرف بالبغدادي[2] مولداً وإقامة، وبالحنبليّ مذهباً[3]، وهو علاّمة عصره، وإمام وقته في الحديث، وفي صناعة الوعظ[4]، صاحبُ التصانيف، ولد سنة تسعٍ[5] ـ أو عشر ـ وخمسمئة للهجرة.

ثانياً: نشأته وسيرته التعليمية:

مات والد ابن الجوزي وله ثلاث سنين، وقيّضَ الله له من يساعده على تجاوز اليتم، والوقاية من كثير من مرائر آثارِه، والإهمالُ أمرُّها، وكان لعمّته فضلٌ كبير، إذْ هي التي تولّت تربيتَه ورعايتَه، ودفعت به في دروب العلم، وهذا شأن كثير من العلماء النابغين، وحسبك البخاري، ينشؤون يتامى في كنف الكفيل خاصّةً، والأمة بعامة، قال ابن الجوزي: «.. فإن أبي مات وأنا لا أعقل، والأم لم تلتفت إليّ»[6]. حملته عمته صغيراً ابن ثلاث إلى دروس العلم التي كانت تعمرُ بها مساجد بغدادَ، وكان أولُ سماعِهِ سنة (٥١٦هـ)، واختارت له مسجد خاله المحدث اللغوي الفقيه الحافظ (محمد بن ناصر الحنبلي)[7]، فاعتنى به عناية

= مختصر دول الإسلام: ٩/ ٧٩٢؛ النجوم الزاهرة: ٦/ ١٧٤ ـ ١٧٦؛ تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣١ ـ ١٣٥؛ الأعلام: ٢/٣١٦.

(١) لدى ابن خلكان نسبة إلى (فرضة الجوز)، ولدى ابن العماد إلى (محلة الجوز).

(٢) جاء أنه ولد ببغداد في زقاق درب حبيب.

(٣) وأنت ترى أن العلماء السابقين لا يخرجُ واحدٌ منهم عن مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة، ولو بلغ مرتبة الاجتهاد فيه. فلا تجد عالماً دون مذهب التزم به مهما بلغ من العلم، ورقى في مضماره.

(٤) انظر: ابن خلكان: ١/ ٢٧٩.

(٥) لدى ابن العماد أنه ولد سنة (٥١٠هـ) أو قبلها، وتردد ابن خلكان أنه بين سنة ثمان وعشر.

(٦) هناك من قال: توفي والده فرعته أمه وعمته.

(٧) توفي الحافظ محمد بن ناصر سنة (٥٥٠هـ).

فائقة، وكان أول معلّم.

قال ابن الجوزي عن استعداده الفطري وعناية خاله به: «فركز في طبعي حُبّ العلم، وما زال يوقفني على المهم فالمهم، ويحملني إلى مَنْ يحملني على الأصوب، حتى قُوِّمَ أمري».

وبهذا تكون قد أتيحت له نشأة ذكية، واتجاه قويم، فسمع بنفسه الكثير، وعني بالطلب، وحبس نفسه على التحصيل، ولم يلتفت إلى ما يلتفتُ إليه مَنْ كان في مثل سنه، ونظر في جميع الفنون.

حفظ ابن الجوزي في هذه المرحلة المبكرة من عمره القرآن الكريم، وقرأه على جماعة من القراء بالروايات، وسمعَ الحديث الشريف، ولا سيما: (مسند الإمام أحمد) و(جامع الترمذي) و(صحيحي البخاري ومسلم)، وتعلم اللغةَ والأدب، ومرن على الوعظ، وسمع (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي.

كان خاله ابن ناصر أحد شيوخِه الذي أكثرَ الرواية عنه، وقد سمع من علي الدينوري، وابن الحصين، وأبي عبد الله البارع، وأبي الوقت السجزي، وقد وصل عدد شيوخه إلى سبعة وثمانين شيخاً. وكان معظِّماً لأبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وتابعه في كثير من آرائه، وبهذا يتبين أنَّ ابن الجوزي سمع ـ على غرار العلماء الراسخين ـ من الكثيرين، ولم يكن صحفيّاً يحتطب، ولا ماخراً لعباب العلم جامعاً ما يطيق، من دون أن يتتلمذ على أيدي العلماء، الذين يغذونه بالمعرفة وفق مناهج محددة، ويبصرونه بمواقع المناهل على طريق التحصيل، ويسددون خطاه فكراً وسلوكاً، إنه سمع الحديث، وحفظ القرآن الكريم على الحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر (خاله)، ثم درس الوعظ على أبي القاسم الهروي، وبعده صاحَبَ الفقيه ابن الزاغوني الحنبلي، فأخذ عنه من فنون العلم حظّاً وافراً، وبخاصة الحديثُ والفقهُ والوعظ.

وكان المحدّث ابن الطبري الحريري المتوفى سنة (٥٣١هـ) من أساتذته، ثم إنّه قرأ الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري، والقاضي أبي يعلى وغيرهما كثير؛ كابن مندة.

إنه لم يرحل في طلب الحديث كسُنَّة العلماء الطالبين، لكن كان عنده

(مسند الإمام أحمد)، و(الطبقات) لابن سعد، و(تاريخ الخطيب)، وأشياء عالية، و(الصحيحان)، و(السنن الأربعة)، و(الحلية) لأبي نعيم، وعدة تآليف وأجزاء يخرّج منها[1].

ثالثاً: أهم الصفات التي تميَّز بها:

١ ـ الهمة العالية في طلب العلم:

تميَّزَ ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ بالجَلَدِ، وشدّة الانكباب على الجمع والتصنيف مع التصوّن والتجمّل، وحسن السيرة والشارة ورشاقة العبارة، يقول متحدثاً عن نفسه: «وعينُ همّتي لا تَرى إلا لذّةَ تحصيل العلم، فأثّر ذلك عندي».

ثم يصف شغفه وتعلّقه بالعلم فيقول: «إنّي رجل حُبِّبَ إليّ العلم من زمن الطفولة، فتشاغلت به، ثم لم يحبَّبْ إليّ فنٌّ واحدٌ منه، بل فنونه كلها».

ويتحدث عن مدى عواقب علو الهمة على صاحبها قائلاً: «ما ابتلي الإنسانُ قط بأعظم من علوِّ همةٍ، فإن علت همتُه يختار المعالي، وقد لا يساعِدُ الزمان، وقد تضعف الآلة، فيبقى في عذاب، وإني أُعطيت من علوِّ الهمةِ، فأنا به في عذاب»[2].

يقول الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (مشكلات في طريق الحضارة الإسلامية): «ابن الجوزي من علماء القرن السادس الهجري لو رأى المسلمين ـ الآن ـ في عصر الفضاء ينظرون إلى غزاة الجو ببلاهة، لحملَ السَّوْطَ، وجلد به الظهور، ولبرأ الإسلام من هذا الانتماء المخزي».

ويقول: «من الأمارات النضرة في ثقافتنا كلمات لابن الجوزي يدعو فيها إلى علوّ الهمة، ويطلب من المسلم أن يكون طليعة سابقة في كلّ ميدان قال: «ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح القبائح رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض!» أسمعتَ مثل هذه الصيحة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٦٦.

(٢) انظر: صيد الخاطر، ص١٥، ٢٦.

الشمّاء تنضحُ من وحي الإيمان بالحق؟! هذه ثمرة يانعة من خصائص التربية الإسلامية في الشروق المحمدي، شروق قادة رجال أصحاب عزمات شداد، وآمال عراض، فطووا في سباقهم المشارق والمغارب، وعلّموا الإنسان كيف تكون الحياة الكريمة الحقة».

٢ ـ ترجمة العلم عملاً وسلوكاً:

كان ابن الجوزي رحمه الله على منهج السلف في ترجمة العلم إلى عمل؛ دلالة على إخلاص صاحبه، وثمرة طيبة من ثمار تلقي العلم وحفظه، واستمع إليه كيف يعتبر عدم العمل بالعلم متاجرة يُسأل عنها صاحبها يوم القيامة: «من يهمل العمل بعلمه أو يتراخى في جوانب منه، فيكون كالمتاجرين بالعلم عند الحكام والأمراء».

ومما نصح به ولده قوله: «وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به».

وبهذا يجلّي العلاقةَ العميقة بين العلم والسلوك، فالعلم شجرةٌ ثمارُها وظلالُها العمل.

قال في كتابه (لفتة الكبد) ص٥٨: «إنّ الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا، قد أعرضوا عن العمل بالعلم، فمنعوا البركة والنفع».

ولعل هذا الربط بين العلم والعمل من وراء التأثير بالموعظة، وهذا الفيض من الدقائق والرقائق والحقائق؛ إذ مَنْ عمل بما علم أُورثَ علم ما لم يعلم، وأوتي من أبكار ما لا تَفتَضُّها فحول القرائح.

٣ ـ اغتنام الأوقات والمحافظة على اللحظات:

من المعلوم: أنّ السلف الصالح كانوا يغتنمون اللحظات، ويحرصون عليها حرصَ الشحيح على ماله، وكان ابن الجوزي رحمه الله على هذا النهج، إذ ضنّ بساعات عمره أن تضيعَ دون تحصيل فائدة، وإليك نبذة من سيرته لتشهَدَه كيف عرف شرفَ الوقت وقيمتَه، وكيف كان يكسبُ الوقتَ إذا زاره ضيوف، أو نزل به ثقلاء بطالون؟ قال ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (صيد الخاطر)[1]:

---

(١) صيد الخاطر، ص٢١، ٤٦.

«ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيّع منه لحظة في غير قربة، ويقدّم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور، بما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث الشريف: «**نيةُ المرءِ خيرٌ مِنْ عملِهِ**»[1]. وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات، فنقل عن عامر بن عبد قيس ـ أحد التابعين العباد الزهاد ـ: أنَّ رجلاً قال له: كلّمني، فقال له عامر: أمسك الشمسَ. وهيهات أن يمسكها فيوقف الزمان!».

ويتابع ابن الجوزي قائلاً: «وقد رأيتُ عمومَ الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر، وإن طال النهار فبالنوم.. وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد والتهيؤ للرحيل، فاللهَ اللهَ في مواسم العمر، والبدارَ البدارَ قبل الفوات، ونافسوا الزمان. وأعوذ بالله من صحبة البطّالين.

لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطيلون الجلوس.. فلما رأيتُ أنَّ الزمان أشرف شيء، والواجبُ انتهابه بفعل الخير، كرهتُ ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرتُ عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافعُ اللقاء جهدي.. ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من الاستعداد للقائهم قطْعَ الكَاغِدِ ـ أي: قص الورق ـ وبَري الأقلامِ، وحَزْمَ الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بدَّ منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي».

رابعاً: ابن الجوزي واعظاً:

لا بدَّ قبل الكلام عن تألّق ابن الجوزي في الوعظ وسحر البيان أن نكشفَ

---

(١) جزء من حديث ضعيف، أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير): ٦/ ٢٢٨؛ وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد): ١/ ٦١؛ والسيوطي في (الجامع الصغير) بشرح المناوي: ٦/ ٢٩٢.

ملامحَ البيئة التي امتاز بها العصر الذي عاشه ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وذلك حتى نكونَ على بصيرة في مدى الحاجة الماسة لأولئك العلماء الذين يقومون بتذكير الأمة، والأخذ بيدها إلى طريق السعادة والصلاح:

١ ـ لمحة موجزة عن طبيعة العصر الذي عاشه ابن الجوزي:

هذه نظرة سريعة على العصر الزاخر الذي وجد فيه ابن الجوزي، فولادته في أوائل القرن السادس الهجري أيام الدولة العباسية ووفاته في آخره سنة (٥٩٧هـ)، فهو عمر مديد ـ كما ترى ـ في حقبة من أهم سماتها التشققات السياسية التي ألمَّت بكيان الدولة، والنزعات الانفصالية الرهيبة التي تبنت توجهات دنيوية بحتة، لا حظ فيها لمباشرة الحقائق الإيمانية شغاف القلوب.

وقد قام السلطان السلجوقي وقتذاك بإدارة شؤون البلاد بتفويض من الخليفة تفويضاً مطلقاً سنة (٤٤٩هـ) بعد أن أوصاه بتقوى الله تعالى، وعمارة البلاد، وإصلاح العباد، ونشر العدل، وكفّ الظلم، وكان السلاجقة على مذهب أهل السنة والجماعة، مما حال دون كثير من ألوان الشقاق والنزاع التي سعت بها فرقٌ تبنت مذاهب أخرى، وعملت على تفتيت وحدة الأمة.

هذا، ولم تخلُ هذه الحقبة من خصومات هيَّجتها الأهواء والمصالح الشخصية[1]، فكانت معارك داخلية زادت الطين بلة، والتصدعات غوراً. ولا ريب أن هذه الأوضاع تركت بصماتها على وجه الحياة الاجتماعية بعامة دون الحركة العلمية.

وقد تناول قلم ابن الجوزي هذا الواقع[2]، وصوّره بقلمه، وبَيَّن ألواناً من الفساد ظهرت وتسرّبت إلى دواخل كثير من النفوس، ولم ينجُ منها سوقٌ ولا قصر، وشغف الكثير بجمع المال، وقامت للدنيا والانهماك فيها سوق رائجة، وزحفت الغفلةُ عن الآخرة، لتحتلَّ النفوسَ، وتأخذَ بمجامع الهمم، وظهر تطفيف المكيال، وتخسير الميزان، وأكل الربا، وهضم الحقوق، وخفتت الأصواتُ

---

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٧٠ ـ ٧١؛ والكامل، لابن الأثير: ٩/ ٦١٠.

(٢) انظر تصوير ابن الجوزي هذا الواقع في: (صيد الخاطر) مفرقاً في مواضع، منها: ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

الصادقة المخلصة، وفي مجال العبادات باتت الصلاة نقر ديك، وربما جُمع بين الصلاتين الظهر والعصر في آخر وقت الظهر وأول العصر دون عذر، وإنّما التخفف من النهوض إلى الصلاة، والتقليل من اعتياد المساجد، والانفلات من ضبط الصلاة للسلوك، والطامّة ـ هنا ـ التي أخذت تنوء بِكَلْكَلِهَا انتشارُ الجهل في الأرياف، فلا يدري الكثيرُ حتى أحكامَ الطهارةِ! فمن يتصدّى لهذا الفسادِ الكبير، والشر المستطير، الذي يمهّدُ لتسليط الأعداء؟.

قال ابن الجوزي مصوراً حال العلماء في ذلك العصر: وأما العلماء **فالمبتدئون منهم** ينقسمون إلى ذي نية خبيثة، **يقصد** بالعلم المباهاة لا العمل، ويميل إلى الفسق ظنّاً أنّ العلم يدفع عنه، وإنما هو حجة عليه.

وأما **المتوسطون والمشهورون** فأكثرهم يغشى السلاطين، ويسكت عن إنكار المنكر، وقليل من العلماء تسلمُ له نيته، ويحسن قصده. فإذا كان العلماء ـ وهم المصلحون ـ بهذه المثابة، فكيف بمن هم دونهم؟!.

هذا وقد ذكر الرحالة ابن جبير[1] الأحوال بعامة، ورصد منها مظاهر، ومما قال: «وأما أهلها ـ أي بغداد ـ فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنّع بالتواضع رياءً، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء، يزدرون الغرباءَ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمّن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخَلَدِهِ أن الوجود كله يصغرُ بالإضافة لبلده.. كأنّهم لا يعتقدون أنّ لله بلاداً أو عباداً سواهم، يسحبون أذيالهم أشراً وبطراً، ولا يغيّرون في ذات الله منكراً، يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً، وما منهم من يحسِنُ فرضاً.. لا تكاد تظفَرُ من خواصّ أهلها بالوَرَعِ العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبتَ له الويل في سورة التطفيف، ولا يبالون في ذلك بعيب، وكأنّهم من بقايا مَدْين قوم النبيِّ شعيب عليه السلام، فسوء معاشرة أبنائها يغلبُ على طبع هوائها ومائها، ويقلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها، أستغفر الله، إلا فقهاءهم المحدّثين، ووعّاظهم المذكرين». أرأيتَ بعد هذا كله سبب اكتساح التتار لديار المسلمين من المشرق، وهجمات الصليبيين الحاقدة من المغرب؟!.

---

(١) رحلة ابن جبير، ص١٩٤، دار بيروت، ١٣٨٤هـ.

٢ ـ الحاجة الماسة للعلماء الربانيين والوعاظ المذكرين :

من خلال إلقاء نظرة سريعة إلى تاريخنا نجد أنه قُيّضَ للأمة أئمة أعلام، خدم كل فريق منهم ركناً من أركان هذا الدين العظيم، فمرتبةُ الإسلام قُيّضَ لها الأئمة الأربعة : الإمام أبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠هـ)، والإمام مالك (٩٥ ـ ١٧٩هـ)، والإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ)، والإمام أحمد (١٦٤ ـ ٢٤١هـ). وقد نضجت الأحكام الفقهية في العبادات والمعاملات وغيرها أيّما نضج على أيدي هؤلاء الأعلام وتلامذتهم.

وقد تصدى لأمر العقيدة علماءُ التوحيد، ففصلوا فيها، وجَلَّوْهَا بالأدلة والبراهين، وذبُّوا عن حياضها، وهدَّموا بمعاول الحق الشبه التي أثارها مَنْ أوقعهم الشيطان في حبائله.

وكذلك قام علماء التزكية والتربية والسلوك المرشدون المربون بدورهم، وقامت مدارس تسعى كلُّها إلى تحقيق مقام الإحسان، الركن الثالث من أركان الدين، فكان منهم الجُنيد (ت٢٩٧هـ)، والجيلاني (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ)، والرفاعي (٥١٢ـ ٥٧٨هـ).

وقد جمع تراثنا العظيم بين دفتيه حِكَماً وتوجيهات، ولفتات ربانية، شارك فيها الرجالَ النساءُ كذلك، قالت عائشة بنت أبي عثمان : «مَنْ تهاونَ بالعبيدِ فلقلَّةِ معرفتِهِ بالسيِّد، ومَنْ أحبَّ الصانعَ أحبَّ صنعته».

ومن لفتات السيد الرفاعي رحمه الله : «أي أخي! أما تنظر الطفل إذا ولد يبرز إلى الدنيا قابضاً كفّه حرصاً عليها، وإذا خرَج يخرجُ باسطاً كفه، معترفاً بفراغ يده من الأمر العارض الذي حرص عليه، كفى بالموت واعظاً».

وعصر ابن الجوزي رحمه الله كان بحاجة ماسة لقيام المذكرين الواعظين بواجب الوعظ والتذكير، ولا ريبَ أنَّ ثمةَ فئة قليلة فاضلة من أهل العلم ـ وهؤلاء لا يخلو منهم زمان ـ كان لهم حضور طيب، أخذوا يدعون إلى الله تعالى بصدق وإخلاص بعد أن انتشر الجهل وعمّ الترف. إلى جانب ذلك نشأت في ذلك العصر مدارس شرعية من أهمها (المدرسة النظامية)، وقد كانت مجالس العلم تعقد فيها

وفي المساجد، وقد تسلّم ابن الجوزي مشيخةَ مدرسةٍ في بغداد كانت من قبلُ داراً لنظام الدين أبي نصر بن جُهير، ثم جعلت مدرسةً، ووقفت على أصحاب الإمام أحمد، فكانت هناك نهضة علمية واسعة لم تتأثر هذه الحركة المباركة بما مسَّ نظامَ الحكم والخلاف السياسي من ضعف.

٣ ـ تألق ابن الجوزي في الوعظ وجودة الأداء:

إنّ من المعلوم أنّ الوعظ يقومُ على أسس، منها: جودة المباني وعمق المعاني، وقد استكمل ابن الجوزي هذا، إذ كان يختار لعرائس المعاني نفائس المباني وأزواج الألفاظ الأكفاء، ويعقد بينهما قِراناً، لا يُنقَضُ بعدم الكفاءة، ولا يجد المطلع عليه، أو السامع له إلا الانفعال، وأخذة الانبهار.

لقد نال ابن الجوزي في فن الوعظ قصب السبق، وله فيه الحظ الأسمى، والقدح المعلَّى، وإليه فيه المنتهى، قال الحافظ الذهبي رحمه الله في ترجمة ابن الجوزي: «أحبَّ الوعظَ، ولهجَ به وهو مراهق، فوعظ الناس وهو صبي، ثم ما زال نافِقَ السوق، معظّماً، متغالياً فيه، مزدَحَماً عليه، مضروباً برونق وعظه المثل، كماله في ازدياد واشتهار، إلى أن مات رحمه الله وسامحه»[١].

وقال عنه كذلك: «كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويُسهب، ويُعجب، ويُطرب، ويُطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثلُه، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة»[٢].

وقال عنه الحافظ ابن كثير رحمه الله: «تفرَّد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه، ولا يلحق شأوه فيه، في طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته، وعذوبة كلامه، وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك؛ بحيث يجمعُ المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة، وقد حضر مجلسَ وعظه الخلفاءُ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٦٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.

والوزراءُ، والملوكُ والأمراءُ، والعلماءُ والفقراءُ، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مئة ألف أو يزيدون، وربما تكلّم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً، وبالجملة كان أستاذاً فرداً في الوعظ وغيره»[1].

٤ ـ لمحات من خصائص وعظ ابن الجوزي:

بالإضافة لما سبق من فصاحته وبلاغته، وعذوبة كلامه، وغوصه على المعاني الفريدة، فإنّ مِنْ عواملِ نجاح ابن الجوزي في وعظه مراعاةُ مقتضى الحال، إذ أتقن التحدُّثَ بالمعاني التي يرى أن المستمعين يحتاجون إليها، وفي هذا يقول: «كلامي ثوبٌ مفصَّلٌ على قدر أسماعكم، فهو لا يصلحُ إلا لكم».

ثم بيّن مجالس الآخرين التي خلت من معرفة ما يحتاجُ إليه المستمعون فقال[2]: «إنَّ العاميَّ إذا دخل إلى مجلسهم ـ يقصد مجالس القصاص الذين لا علم لهم ـ وهو لا يحسِنُ الوضوءَ؛ كلّموه بدقائق الجنيد وإشارات الشبلي، فرأى ذلك العاميُّ أنَّ الطريقَ الواضحَ لزوم زاوية، وترك الكسب للعائلة، ومناجاة الحقِّ في خلوة على زعمه، مع كونه لا يعرفُ أركانَ الصلاة، ولا أدَّبَه المعلم، ولا قوّمَ أخلاقه شيءٌ من مخالطة العلماء، فلا يستفيدُ من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإصطبل».

وقال: «في الوعّاظ من يتكلّم على طريق المعرفة والمحبة، فترى الحائكَ والسوقيَّ الذي لا يعرف فرائض الصلاة يمزّقُ أثوابه بدعوى محبة الله»[3].

ويرسم للوعظ حدوداً مع العوام فيقول: «الواعظ مأمورٌ بألا يتعدّى الصوابَ، ولا يتعرّض لما يفسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح أمورهم بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة، فإنَّ من العوام مَنْ يعجبُه حسن اللفظ، ومنهم من تعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت الشعر، من هنا كان أحوج الناس إلى البلاغة الواعظ، ليجمعَ مطالبهم، لكنّه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيهم

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣١ ـ ٣٢.

(٢) صيد الخاطر، ص١١٨.

(٣) المصدر السابق، ص٩٩.

من المباح في اللفظ قدرَ الملح في الطعام، ثم يجذبهم إلى العزائم، ويعرّفهم طريق الحق».

هذا، ولم يغفل ابن الجوزي ـ وهو بصدد مراعاة مقتضى الحال ـ أن يضعَ معياراً لوعظ السلطان، حيث يقول[1]: «ينبغي لمن وعظ سلطاناً أن يبالغ في التلطّف، ولا يواجهه بما يقتضي أنه ظالم. وإنما ينبغي أن يمزجَ وعظه بذكر شرف الولاية، وحصول الثواب في رعاية الرَّعايا، وذكر سير العادلين من أسلافهم، ثم لا بدَّ أن ينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه، وقد جاءنا أنَّ المنصور بن عمار كان يعظ الرشيد وهو يبكي، وأبو حازم وعظ سليمان بن عبد الملك فأبكاه، ومجلس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان عامراً بالتذكرة واستحضار الآخرة».

بالإضافة إلى ذلك كلِّه فإنَّ خبرةَ ابن الجوزي بالنفوس وتقلباتها من وراء إتقانه فنّ الوعظ؛ قال مرّة[2]: «قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة، فتدبرتُ السببَ في ذلك فعرفته: الحالة العامة أنّ القلبَ لا يكونُ على صفة واحدة من اليقظة عندَ سماع الموعظة وبعدها، لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها، إيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أنَّ حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مُزاحَ العلة ـ أي: أزيحت علته ـ قد تخلّى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، فكيف يصحُّ مع تلك الجواذب أن يبقى كما كان، وهذه حالة تعمُّ الخلقَ، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر، فمنهم من يعزم بلا تردد، ويمضي بغير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا، كما قال حنظلة رضي الله عنه عن نفسه: «نافق حنظلة!».

---

(١) صيد الخاطر، ص٤٠٢.
(٢) المصدر السابق، ص١١.

ومنهم أقـوام يميل بهم الطبع إلى الغفلـة أحياناً، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحياناً، فهم كالسنبلة تميلها الرياح.

وأقوام لا يؤثّر فيهم إلا بمقدار سماعه كماء دحرجته على صفوان».

٥ ـ تصوير بديع لأحد مجالس ابن الجوزي في الوعظ:

وإليك ما كتبه الرحالة محمد بن أحمد بن جبير في كتابه: (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار)[١] حين مرّ ببغداد، واستمع إلى أبي الفرج ابن الجوزي في ثلاثة مجالس، يقول: «لو لم تكن تلك الرحلةُ ـ بعد حج بيت الله ـ إلا لمشاهدةِ مجلسٍ من مجالس ذلك العلامة لكانت صفقةً رابحةً، ووجهةً ناجحةً».

ويقول أيضاً: «ما كنّا نحسبُ أنّ متكلّماً في الدنيا يُعطَى من ملكة النفوس، والتلاعب بها ما أُعطي هذا الرجل، فسبحانَ مَنْ يخصُّ بالكمال من يشـاء من عباده».

ثم كتب يصف المجلس الأول: «ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت.. مجلسَ الشـيخ الفقيـه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل عبـد الرحمن بـن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي، وفي آخره على اتصالٍ من قصور الخليفة.. وهو يجلسُ به كلَّ يوم سبتٍ، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرٍو ولا زيد، وفي جوف الفَرَا كلُّ الصيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيسُ الحنبلية، والمخصوصُ في العلوم بالرُّتب العلية، إمامُ الجماعة، وفارسُ حلبة هـذه الصناعـة، والمشـهودُ له بالسـبق الكريم في البلاغة والبراعة، ملكُ أزمَّةِ الكلامِ في النظم والنثر، والغائصُ في بحر فكره على نفائس الدّر، فأما نظمُـه فرضيٌّ[٢] الطباع، مهياريُّ[٣] الانطباع، وأما نثرُهُ فيصدع بسحر البيان، ويعطّل المثل بقُسٍّ[٤] وسَحْبان[٥]، ومن أعظم آياته، وأكبر معجزاته: أنّه يصعدُ المنبرَ،

---

(١) انظر: (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) المشهور برحلة ابن جبير، ص١٩٥ ـ ٢٠٠.
(٢) نسبة إلى الشاعر الشريف الرضي.
(٣) نسبة إلى الشاعر مهيار الديلمي.
(٤) **قُس بن ساعدة الإيادي**: خطيب جاهلي مشهور.
(٥) **سحبان وائل**: خطيب إسلامي مشهور.

ويبتدئ القُرَّاء بالقراءة وعددهم نيِّفَ على العشرين قارئاً، فينزعُ الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسقٍ بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا، تلت طائفةٌ أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آياتٍ من سورٍ مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءةً، وقد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكادُ المتقد الخاطر يحصّلُها عدداً، أو يسمّيها نسقاً.

فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريبُ الشأن في إيراد خطبته عَجِلاً مبتدِراً، وأفرغَ في أصداف الأسماع دُرراً، وانتظمَ أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فِقَراً، وأتى بها على نسقِ القراءةِ لها، لا مقدِّماً ولا مؤخِّراً، ثم أكمل الخطبة على قافيةِ آخرِ آيةٍ منها، فلو أنَّ أبرعَ مَنْ في مجلسِه تكلّف تسميةَ ما قرأ القراءُ به آيةً فآيةً على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً، ويورد الخطبة الغرَّاء عجلاً ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. فحدِّث ولا حرجَ عن البحر، وهيهات ليس الخَبرُ عنه كالخُبْر.

ثم إنه أتى بعد أن فرغَ من خطبته برقائق من الوعظ، وآياتٍ بيّناتٍ من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابتْ لها الأنفسُ احتراقاً، إلى أن علا الضجيجُ، وتردّدَ بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كلٌّ يلقي بناصيته بيده فيجزّها، ويمسحُ على رأسه داعياً له، ومنهم من يُغشَى عليه، فيُرْفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويُذكّرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلسٍ من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقةُ الرابحةُ والوجهةُ المفلحةُ الناجحةُ، والحمد لله على أنْ مَنَّ بلقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله. وفي أثناء ذلك يبتدرون المسائل، وتطير إليه الرقاع، فيجاوب أسرعَ من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضلُ بيد الله يؤتيه من يشاء، لا إلـه سواه».

خامساً: شهادة العلماء لابن الجوزي:

يقول ابن كثير في (البداية والنهاية): «فهو ـ أي: ابن الجوزي ـ أحدُ أفراد

العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمعَ المصنّفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمئة مصنف، وكتب بيده نحواً من مئتي مجلدة، وله في العلوم كلِّها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنظر في النجوم والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات ما يضيقُ هذا المكان عن تعدادها وحصر أفرادها»[1].

وقال الموفق عبد اللطيف في تأليف له[2]: «كان ابنُ الجوزي لطيفَ الصورة، حلوَ الشمائل، رخيمَ النغمة، لذيذَ المفاكهة، يحضر مجلسه مئة ألفٍ أو يزيدون، لا يضيّعُ من زمانه شيئاً، يكتبُ في اليوم أربع كراريس، وله في كل علم مشاركة، لكنّه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفّاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كاف، وأما السجع فله فيه ملكة قوية».

قال ابن خِلِّكَان في (وفيات الأعيان)[3]: «كان علّامةَ عصره، وإمامَ وقته في الحديث وصناعة الوعظ، وصنّف في فنون عديدة».

قال أبو عبد الله الدّبيثي في تاريخه (الذيل، ص١٢٢ ـ ١٢٣): «شيخُنا جمال الدين صاحبُ التصانيف في فنون العلوم من التفسير، والفقه، والحديث، والتواريخ، وغير ذلك، وإليه انتهت معرفةُ الحديث وعلومه والوقوف على صحيحه من سقيمه، وكان من أحسنِ الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودِهم بياناً... وأنشدني لنفسه:

يا سَاكِنَ الدُّنْيا تَأَهَّبْ ... وانْتَظِرْ يَوْمَ الفِرَاقِ
وَأَعِدَّ زَاداً للرَّحِيْلِ ... فَسَوْفَ يُحْدَى بالْفِرَاقِ
وابْكِ الذّنوبَ بأدْمُعٍ ... تَنْهَلُّ مِنْ سُحُبِ المآقي
يا مَنْ أضَاعَ زَمَانَهُ ... أَرَضِيْتَ مَا يَفْنَى بِبَاقِ؟

وترجم له أبو الخير الجَزري في (غاية النهاية) فقال[4]: «الإمام الحافظ

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣١.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٧١.
(٣) الوفيات: ٣/ ١٤٠.
(٤) غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري: ١/ ٣٧٥.

أبو الفرج شيخُ العراق، وإمامُ الآفاق، تلا بالعَشْرِ على أبي بكر محمد بن الحسين المرزوقي».

وفي (طبقات المفسرين)[1] للداوودي نجده يقول: «الإمام العلامة، حافظ العراق، وواعظ الآفاق، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم من التفسير والفقه والوعظ والزهد والتاريخ والطب وغير ذلك».

وغير هؤلاء من العلماء كثير شهدوا، وإنما اكتفينا بالشعاع عن الشمس.

سادساً: مختارات من غُرَر ألفاظِ ابن الجوزي[2]:

ـ عقارِبُ المنايا تلسَعُ، وخَدَرانُ جسمِ الآمال يمنعُ، وماءُ الحياةِ في إناءِ العُمْرِ يَرْشَحُ.

ـ يا أميرُ! اذكر عندَ القدرةِ عدلَ الله فيك، وعندَ العقوبةِ قدرةَ اللهِ عليك، ولا تشفِ غيظَك بسقمِ دينك.

ـ ومن أجوبته الحكيمة السديدة: أنَّ رجلاً ـ أيام ظهور الشيعة ـ سأله: أيُّهما أفضل: أبو بكر أو علي؟ فأجاب: «أفضلُهما مَنْ كانت ابنته تحته». والمعروف أنَّ السيدة عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما أم المؤمنين وزوجة رسول الله ﷺ، والسيدة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ وزوجة علي رضي الله عنه، وعلى هذا يفهم الجواب على الوجهين.

ـ وسأله رجلٌ مرةً: أيهما أفضل.. أُسَبِّح أو أستغفر؟ قال: «الثوبُ الوسخُ أحوجُ إلى الصابون من البخور».

ـ واستمع إلى تعليقه على الحديث الشريف: «**أعمارُ أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلُّهم من يجوز ذلك**»[3]. حيث يقول: «إنّما طالتْ أعمارُ الأوائل لطولِ الباديةِ، فلمَّا شارفَ الركبُ بلدَ الإقامةِ قيل: حثّوا المطي».

---

(١) طبقات المفسرين، للداوودي: ١/ ٢٧٦.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٥٥) بسند حسن؛ وابن ماجه برقم (٤٢٣٦)؛ والخطيب البغدادي في تاريخه؛ وصححه ابن حبان (٢٤٦٧)؛ والحاكم: ٢/ ٤٢٧ ووافقه الذهبي.

- ومن حكمتـه في وعظه الكبراء، قوله: «يا أميرَ المؤمنين! إنْ تكلّمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خِفْتُ عليك، وأنا أقدِّم خوفي عليك على خوفي منك؛ فقولُ النَّاصحِ: اتق الله، خيرٌ من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم».

سابعاً: أشهر مؤلفات ابن الجوزي:

قال الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ)[1]: «ما علمتُ أحداً من العلماء صنّف ما صنف هذا الرجل - أي ابن الجوزي - ويكفي فيه ما نقله القمّي في (الكُنى والألقاب)[2]: أن بُراية أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديثَ جُمعت فحصل منها شيءٌ كثير، وأوصى أن يسخَّنَ بها الماء الذي يُغسّل به بعد موته، ففُعل ذلك، فكفت وفضل منها».

وقـال الحافظ ابـن رجب فـي (ذيـل طبقـات الحنابلـة) في ترجمـة ابـن الجوزي[3]: «لم يترك فنّاً من الفنون إلا وله فيه مصنّف، وسُئل عن عدد تآليفه فقال: زيادة على ثلاثمئة وأربعين مصنفاً، منها ما هو عشرون مجلداً؛ ومنها ما هو كراس واحد».

وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: «سمعتُ جَدّي يقول على المنبر في آخر عمره: كتبتُ بأصبعيَّ هاتين ألفَ مجلّد».

وقد ألف الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتاباً باسم (مؤلفات ابن الجوزي)، وعدد فيه أسماء مؤلفاته فبلغت (٥١٩) كتاباً، ما بين كبير في أكثر من عشـر مجلدات، وصغير في صفحات. ومع ذلك فاته مؤلفات أخرى.. وإليك أخي القارئ ثَبْتاً بأهمّ ما ألف صاحب (**المدهش**) من المطبوع فحسب:

١ - إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث.

٢ - أخبار الحمقى والمغفلين.

---

(١) ٤/ ١٣٤٤.
(٢) الكنى والألقاب، للقمي: ١/ ٢٤٢.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ١/ ٤١٢ - ٤١٣.

٣ ـ أخبار الظراف والمتماجنين.

٤ ـ أخبار النساء.

٥ ـ الأذكياء.

٦ ـ إعلام العالم بعدد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه.

٧ ـ بستان الواعظين.

٨ ـ تاريخ عمر بن الخطاب.

٩ ـ تقويم اللسان.

١٠ ـ تلبيس إبليس.

١١ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير.

١٢ ـ دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة.

١٣ ـ تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث.

١٤ ـ صيد الخاطر.

١٥ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز.

١٦ ـ ذم الهوى.

١٧ ـ الوفا في فضائل المصطفى.

١٨ ـ مناقب عمر بن عبد العزيز.

١٩ ـ مناقب بغداد.

٢٠ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

٢١ ـ صفة الصفوة.

٢٢ ـ زاد المسير في علم التفسير.

٢٣ ـ (المدهش) وهو كتابنا هذا الذي بين يديك.

٢٤ ـ كتاب القرامطة.

ثامناً: وفاته:

لعل شـهادة جنازتـه تقوم وحدهـا في التدليل على ما ترك في الناس من بصمات، إنّه مرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين، الثالث عشر من رمضان سنة (٥٩٧هـ) في داره بقطُفْتا، وحضر غسله الشيخ ابن سُكينة وقت السحر، وغلّقت الأسواقُ يومها، واجتمع خلق كثير في جنازته، وصلّى عليه ابنه أبو القاسم علي، لأنَّ الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور، فصلوا عليه.

وكان يوماً مشهوداً، لم تصل الجنازةُ إلى حفرتها بمقبرة الإمام أحمد إلى وقت صلاة الجمعة، وكان رمضان وقتها في تموز ـ وهو شهر حار ـ فأفطر خلق من شدة الظمأ، ورمى كثيرون أنفسهم في الماء طلباً للتبرد، وأُنزل في الحفرة والمؤذن يقول: الله أكبر، وحزن عليه الخلق، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون القرآن، وقد رآه ـ في النوم ـ تلك الليلة المحدّث أحمد سليمان السُّكَّر، وهو على منبر من ياقوت، وهو جالس في مقعد صدق، والملائكة بين يديه.

هذا وقد أوصى ابن الجوزي أن يكتب على قبره:

يـــا كثيـــرَ العَفْـــوِ عَمَّـــنْ ... كَثُـــرَ الـــذَّنْـــبُ لَـــدَيْـــهِ
جـــاءكَ المُـــذْنِـــبُ يَـــرْجـــو الـصَّـ ... ـفْـــحَ عَـــنْ جُـــرْمِ يَـــدَيْـــهِ
أنـــا ضَيْـــفٌ وجَـــزاءُ الضَّـ ... ـيْـــفِ إحْســـانٌ إليـــهِ[1]

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٧٩ـ ٣٨٠.

تعريفٌ عام بكتاب المدهش

سنبيّنُ تحتَ هذا العنوان الموضوعَ الذي عالجه هذا الكتاب، وتحقيق نسبته إلى مؤلفه ابن الجوزي، وكذلك قيمة الكتاب، وأهميته، وأشهر العلماء الذين نقلوا عن الكتاب دون الإشارة إلى ذلك، مع إبراز بعض العبارات الرائقة الممتعة البليغة في هذا الكتاب.

أولاً: موضوع الكتاب:

الموضوع الذي يعالجه كتاب (**المدهش**) هو الوعظ والتذكير، وتنشيطُ الهمة للاستعداد للدار الآخرة، واستغلالُ الأوقاتِ والأعمارِ، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية.

ولما للموعظةِ من أهمية وأثرٍ، فقد كان النبيُّ ﷺ يتعهّدُ بها أصحابَه بين الفينة والأخرى، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يتخوّلنا بالموعظةِ في الأيام كراهةَ السآمة علينا[1].

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يقيمَ على كلِّ قلبٍ أسلم له واعظاً يسدِّدُ خطواته، إذ قد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**وعلى رأسِ الصراطِ واعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مسلم**»[2].

وواعظُه هنا حججه التي تنهاه عن الدخول فيما منعه الله منه، وحرّمه عليه، كذلك البصائر التي جعلها فيه، وهذه وتلك تحرّكها موعظةُ الواعظين، ويكفي في بيان أثر الموعظة في النفس ما قيل: «السعيدُ من وُعِظَ بغيره، والشقيُّ من اتعظَ به غيرُه».

وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية يتبيَّنُ أنَّ الوعظ والموعظة هما النصح والتذكير بالعواقب، قال (ابن سِيدَهْ) يُحدّدُ معنى الوعظ: «هو تذكيرك الإنسانَ بما

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم (١١)، ودعوات (٦٩)؛ ومسلم في كتاب المنافقين (٨٢)؛ والترمذي في كتاب الأدب (٧٢)؛ والإمام أحمد: ١/ ٣٧٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده؛ والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي.

يُليِّنُ قلبَه من ثوابٍ وعقابٍ».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. جاء هذا في سياقِ بيان حرمة الربا.

وقالوا: «الوعظُ: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ».

وقال الخليل: «هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب.

والعظَةُ مصدر وَعَظَ، والاسم منه الموعظة.

ويلاحظُ أثر الموعظة إذا تلقتها النفوس تلقياً صحيحاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال سبحانه وتعالى بعدما أمر بالسير في الأرض والتعرّف إلى سنن اجتماعية وعواقب ترتبت على التكذيب: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقد جاءت المواعظ حشو التوراة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

على أنَّ مساحةً واسعةً في الكتاب تناول فيها المؤلِّفُ بعضاً من علوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، والسيرة النبوية، واللغة، وغرائبَ من عيون التاريخ، مع تركيزِه على الجانب الوعظيِّ فيما عرضَ من قصص.

ثانياً: توثيق نسبة الكتاب لابن الجوزي:

إنَّ نسبةَ الكتاب ثابتةٌ لابن الجوزيِّ رحمه الله، وذلك من خلال الرجوع إلى المصادر المعتمدة التي ذكرت **المدهشَ** من مؤلفاته، وهناك عِدَّةُ تسميات أطلقت على هذا الكتاب، لكنّها كلَّها اتفقت على كلمة **المدهش**، واختلفت في بعض الزيادات المضافة إليها. فالعلماء الذين أطلقوا عليه (كتاب المدهش) فقط دون زيادةٍ هم: **الحافظ الذهبي** في (تذكرة الحفاظ): ٤/ ١٣٦، و(سير أعلام النبلاء): ٢/ ٣٦٨، **وابن رجب البغدادي** في كتابه (الذيل على طبقات الحنابلة): ١/ ٤١٧، **وسبط ابن الجوزي** في كتابه (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان): ٨/ ٤٨٨، **وبروكلمان** في كتابه (تاريخ الأدب العربي): ١/ ٦٦١ ـ ٦٦٦ تحت رقم (١٠٦).

وذُكِرَ أحياناً باسم (**المدهش في المحاضرات**) كما في (كشف الظنون عن

أسماء الكتب والفنون) لحاجي خليفة: ٢/ ١٦٤٥، وكذا في كتاب (هدية العارفين): ٥/ ٥٢٠ . كما ذكر باسم (**المدهش في الوقائع العجيبة**) وهذا في كتاب (روضات الجنات) للخوارنساري: ٣/ ٤٢٧ . وفي أحيانٍ أخرى ذكر باسم (**المدهش في المواعظ وغرائب الأخبار**)، وهذا في كتاب (الأعلام) للزركلي: ٣/ ٥٢٠ .

ثالثاً: أشهر العلماء الذين نقلوا عن (المدهش):

نظراً للمكانةِ المرموقةِ التي احتلّها كتابُ (المدهش)، فقد اعتنى به العلماء المتقدمون عنايةً كبيرةً، وأدلُّ دليلٍ على ذلك النقولاتُ الكثيرةُ التي تضمنتها كتبهم منه، إما نقلاً كاملاً بكلماته وحروفه، أو اقتباساً لبعض كلماته محاكاةً لأسلوبه.

وقبل أن نستعرض بعضَ الكتب التي نقلت عن (**المدهش**) لابدَّ أن نذكرَ أمراً هو من الأهمية بمكان، وهو أنَّ عادةَ العلماء المتقدمين النقلُ من كتبٍ غيرِ كتبهم، دونَ الإشارةِ إلى المصدر الذي أخذوا عنه، وهذا لا يؤثِّرُ في أمانتهم العلمية، لأنَّ نظامَ الجمع والتأليف يختلِفُ من زمانٍ لآخر، وخاصّةً إذا علمنا أن نقلهم كان عن علماء قد عُرفوا بأسلوبهم المميَّز في الفصاحة والبلاغة، وشهرة أصحاب هذه العبارات تُغني عن ذكر أسمائهم عندما تتمُّ عمليةُ النقل من كتبهم.

ولعلَّ أشهرَ منْ نقلَ عن كتاب (**المدهش**) ـ حسب علمنا ـ الإمام ابن قيم الجوزية في كتابيه (الفوائد) و(بدائع الفوائد)، وكذلك الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه (لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف).

وإليك عرضاً لأهم المواضع التي ذكرت فيها عباراتٌ منقولةٌ عن كتاب (**المدهش**):

● في كتاب (**بدائع الفوائد**): ٣/ ٢٢٣ ـ ٢٣٩ تحت عنوان: (فصل: حكم ومواعظ وعبر)؛ تكاد تكونُ جميع هذه الصفحات مأخوذة بجملتها من كتاب (**المدهش**) مع تقديم وتأخير، وإليك بعض الأمثلة لما ذكر فيه:

ـ في ص٢٢٣: «**ليس العجبُ من أمرِ الخليلِ بذبح الولدِ، وإنَّما العجبُ من مباشرةِ الذبحِ بيدِه**»، وهو في نهاية الفصل السابع في قِصّةِ الذبيح بحروفه من (**المدهش**).

ـ وفي ص٢٢٤ : «لمّا تمكّنَ الحسدُ من قلوب إخوة يوسف أُري المظلومُ مآلَ الظالم في مرآه : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف : ٤]»، وهو مذكورٌ في الفصل العاشر في قصة يوسف عليه السلام .

ـ وفي ص٢٢٤ : «مَنْ أدلجَ في غياهبِ الليلِ على نجائبِ الصَّبْرِ صبَّحَ مَنزِلَ السرورِ، ومن نامَ على فراشِ الكَسَلِ أصبحَ ملقًى بوادي الأسفِ . .

ما حظيَ الدِّينارُ بنقشِ اسمِ الملكِ فيه، حتى صبرت سبيكتُه على الترداد إلى النارِ . .»، هكذا بحروفِهِ في الفصل الخامس من المواعظ .

ـ وفي ص٢٢٥ : «الحيوانُ البهيمُ يتأمَّلُ العواقبَ، وأنت لا ترى إلا الحاضرَ، ما تكادُ تهتمُّ بمؤونة الشتاءِ حتى يقوى البردُ . .»، بحروفِهِ من الفصل السادس من المواعظ .

ـ وفي ص٢٢٨ : «حِرْصُ العصفورِ يخنقه، وقنع العنكبوت في زاوية الضعف يسـوقُ إليها الذبابَ قوتاً لها، ربَّ ساعٍ لقاعدٍ . .»، بحروفه من الفصل التاسع والثمانين .

ـ في ص٢٢٩ : «قُفْلُ قلبِكَ روميّ، ما يقع عليه فَشَّ، متى خامر من جنود عزمك عليك واحد لم تأمن قلبَ الهزيمةِ عليكَ . .»، بحروفه من الفصل السابع والثمانين .

ـ في ص٢٣٣ : «فتّش على القلب الضائع قبل الشروع، فحضورُ القلبِ أولُ منزلٍ من منازلِ الصلاةِ، فإذا نزلتَه انتقلتَ إلى بادية المعنى»، من الفصل الحادي والثمانين .

ـ في ص٢٣٤ : «يا حاضرين معنا بنيّةِ النُّزهةِ لستم معنا، عودوا إلى أوكارِ الكسلِ، فالحربُ طعنٌ وضربٌ، ويا مودعين ارجعوا فقد عبرنا العذيب . .»، من الفصل التاسع والسبعين .

ـ في ص٢٣٥ : «إذا لم تخلص فلا تتعب، لا تَحْدُ وما لكَ بعيرٌ . . شجرة الصنوبر تثمِرُ في ثلاثين سنة، وشجرة الدّبَّاء تصعد في أسبوعين . .»، من الفصل الثالث والسبعين .

● وفي كتـاب (**الفوائد**) من الصفحـات (٣٦ إلى ٥١)، وإليـك بعض الأمثلة:

ـ في ص٣٦: «هبّت عواصفُ الأقدار في بيداءِ الأكوان، فتقلّبَ الوجودُ وعمَّ الخيرُ، فلما ركدتِ الريحُ إذا أبو طالب غريقٌ في لُجّةِ الهلاك، وسلمانُ على ساحلِ السلامة..»، بحروفه من الفصل التاسع عشر من المواعظ.

ـ وفي ص٤٥: «كان ذو البجادين يتيماً في الصغر، فكفله عمُّه، فنازعتْهُ نفسُه إلى اتباع الرسول ﷺ، فهمّ بالنهوضِ، فإذا بقيةُ المرضِ مانعةٌ..»، كذا بحروفه من الفصل العاشر من المواعظ.

ـ وفي ص٥١: «كن من أبناءِ الآخرة، ولا تكنْ من أبناء الدنيا، فإنَّ الولدَ يتبعُ الأم»، «الدنيـا لا تسـاوي نقل أقدامـك إليها، فكيف تعدو خلفها..»، من الفصل الحادي والثلاثين.

● وفي كتاب (**لطائف المعارف**) لابن رجب، نجد مقتطفات من كتاب **المدهش** في الصفحات التالية:

(٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٨٧، ٣١٠، ٣٧٦) وإليك بعض الأمثلة:

ـ فـي ص٢٦١: «سـلامُ اللهِ علـى تلـك الأرواح، رحمـةُ اللهِ علـى تلـك الأشباح، ما مثلنا ومثلهم..»، من الفصل الثالث والستين.

ـ وفي ص٣٧٦: «التوبةَ التوبةَ قبل أن يصلَ إليكم من الموتِ النوبة، فيحصلِ المفرّط على الندم والخيبة. والإنابةَ الإنابةَ قبل غلْقِ باب الإجابة. والإفاقةَ الإفاقةَ فقد قرب وقت الفاقة»، بحروفه من الفصل الرابع والعشرين من المواعظ.

رابعاً: عرض نماذج لبعض العبارات الرائقة في (المدهش):

وقد اخترنا لك من رائقِ عباراته، وناصعِ أسلوبه، وما يدلُّ على قُدرتِه الفائقة على التعبير البليغ، والتصوير الدقيق الشرود، والغوص الماهر الذكي على

العلاقات الخفية بين المباني والمعاني، والرمز والمرموز إليه، والخبرة الحصيفة بتاريخ الكلمة وتوظيفاتها، اخترنا العبارات الآتية التي لا تشعر معها بفارق الزمن بينك وبين كاتبها، فكأنه بأسلوبه يكتب الآن، وبأرقى ما تكون الكتابة، ولا ننكر أننا وجدنا بعض عباراته قد غلب عليها التصنُّع، مما أفقدها رواءها وتأثيرها، وإن كانت لا تُخرِج أسلوبه بعامة عن التأنق والتألق لقلتها وغلبته.

قال: «كلامي نهرٌ يأخذ من بحر الكتاب والسُّنَّة، صافٍ ما تغيّر قط، يسقي قلوبكم سيحاً بلا كلف، وقد قنع من الخراج بالدعاء» يرصد مناهله العذبة وحرصه على صفاء ما يأخذ، لا تشوبه شوائب النفس، ولا تكدره تلوثات الأهواء، ثم لا يبتغي من ذلك أجراً إلا من الله تعالى.

وقال: «هل في مجلسي نقص؟ فيقال: لو أنه. أو عيب؟ فيقال: إلا أنه. أوَرأيتم مثله؟فيقال: كأنه. آهٍ لو كان من أعجمي، ولكنه أبلغ بلفظي منزل المعنى، وما طال سفر العبارة، المعاني واسعة الفيافي، والألفاظ ضيقة العِراص، وما يقدر على حشو العرصة فوق ما تسع إلا مهندس لآلئ».

ألا ترى فيما قال افتخاراً بالقدرة على التعبير القريب، والمعنى الكبير، وهذا من أهم أدوات الوعظ؛ قال: «إذا مرضت الأفهام السليمة من وباء طعام العبارات الركيكة عمل لفظي في شفائها، ولا رُقَى الهند، كَلِمٌ تُداوي كلَّ كَلْم، ظلمٌ قياسها بعذوبة الظَّلْم، وجواهر كلها يتيم، توجد مفقودةَ المثال».

ويرى تفوّقه في هذا الميدان فيقول: «تجنب الغائصون عنها عجزاً، وجاشت بحارُها لي».

ويرصد أثر الموعظة الصادقة فيقول: «لوّح للقوم فأجابوا، وكرر الصياح بك وما تلقفتَ، إذا سمعوا موعظةً غرست في قلوبهم نخيل العزائم».

وبيَّن أثر سلوك الواعظ في تأثير كلامه فقال: إذا صدر العلمُ من عاملٍ به كان كالعربية ينطق بها البدوي .. جمعتُ بين الكتاب والسُّنَّة ففتحا لي هذه المعاني، فهي تنادي السامعين: «**ولدت من نكاح لا من سفاح**»[1].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الأوسط؛ والبيهقي في الدلائل؛ وابن سعد في الطبقات بلفظ: «**خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح**».

إن ابن الجوزي كان طِبّاً بالقلوب، خبيراً بالنفوس وحاجاتها يقول: «أنا طبيبٌ لبيبٌ، أمزجُ التحذير بالتشويق للعاملين، وأجعل كأسَ التخويف صِرْفاً للغافلين، وأجتهُد في التلطّف جهدي بالعارفين». كأنه يقول: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠]، والساقي أعظم.

ثم يقول: «وا عجباً لألفاظي وعملها، بطل السحر عندها، كل المذكورين رجّالة وأنا فارس، أخرج إلى المعاني في كمين فأصيدها لا بأحبولة، إذا حضرتُ ملكتُ العيونَ، وإذا غبتُ استرهنتُ القلوبَ».

إنّه يرى مدى تأثير كلامه وحاله في الناس، حيث جعلوا قلوبهم عنده رهائن، إذا غاب ينتظرون منه الإياب، ويذرفون الدموع إذا وعظ، ويعود ليرصدَ آثار الوعظ المخلص فيقول: «إذا هبّتْ رياحُ المواعظ أثارتْ من قلوب المتيقظين غَيْمَ الغمِّ على ما سلف، وساقت إلى بلدِ الطبع المنحرف برعدِ الوعيدِ، وبرقِ الخشيةِ، فترقى دموعُ الأحزان من بحر قعر القلب إلى أوج الرأس، فتسيلُ في ميازيب الشؤون على سطوح الوجناتِ، فإذا أعشبَ السرُّ، اهتزّ فرحاً بالإنابة».. هل سمعت بمثل هذا التغلغل في حركة النفس، وهي تتلقى إشعاعات التوجيه ونبضات الإرشاد، وترفعُ لها مصابيح الدلالة.

ولا يغفِلُ ابنُ الجوزي آفاقاً أخرى من التعلق بالله تعالى سوى الإنابة والخشية والرغبة والرهبة فيقول: «قال ذو النون: لقيتُ امرأةً متعبّدةً، فوعظتني فبكيتُ، فقالت: لم تبكي؟ قلتُ لها: أو العارف لا يبكي؟ قالت: إذا بكى استراحَ، ولا راحةَ للمؤمنِ دونَ لقاءِ ربِّه».

* * *

السّبب في إعادة طبع الكتاب

طبع كتاب (المدهش) لأول مرة في بغداد بمطبعة الآداب عام (١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) بعنوان **(المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة والتاريخ والوعظ)** بعناية الشيخ محمد السماوي، ثم أعيد تصوير هذه الطبعة في بيروت بالمؤسسة العالمية عام (١٩٧٣م)، ثم طبع مرة ثانية بدار الكتب العلمية حيث ضبطه وصححه وعلّق عليه الدكتور مروان قباني، وقد اعتمد على الطبعة البغدادية.

إلا أن هاتين الطبعتين قد حُشيتا أخطاءً وتحريفاً، مما لا يتناسب مع نفاسة الكتاب وتألُّقه، وطرافة ما زخر به من فوائد. ولو اقتصر الأمرُ على الأخطاء لكان بالإمكان أن يلحق بالكتاب جدولٌ يضمّ إليه، يستطيع القارئ على ضوئه تصويبها، لكنْ ما حلَّ به من تحريف رهيبٍ جعلَ من المستحيل الاستفادة منه على ما هو عليه، إنّه تحريفٌ لا ندري لكثرته ما سببه؟! وكأن الذي تولّى طباعته أبى إلا أن يسلخَ الكتابَ عن صاحبه سلخاً، لم يبق له فيه منه إلا اسمه، تحريف باتت فيه كثير من العبارات طلاسم، لايفهمها أمهرُ القرّاء، وقد ترك هذا التحريفُ بصماتِ الإهمالِ والإعراضِ عن الكتاب، إذ كيف يُقبل القارئ على كتابٍ فيه هذا الكمُّ من الالتواءات في العبارات، وفاضَ من ثنايا سطوره غموضٌ غطّى وجه كثيرٍ من معانيه، فبدا مشوّهاً مهشّماً، كأنما مسَّه زلزال، ولم يبق منه إلا ذماء، وبقية روحه.

تلك دعتنا إلى أن نعيدَ طباعته محققاً، ونكشفَ تلك الغُمة عن وجهه الذي لا يزال وضاءً في مخطوطته، فلبينا الدعوة، وشمّرنا له زمناً ليس بالقصير، حتى خرجَ على هذه الصورة التي يراها القارئ الكريم.

إننا حين أقبلنا على قراءة المطبوع، ووجدنا هذا الكمّ الهائل من الأخطاء الصارخة، التي لا نستطيع بسببها الوصول إلى معانيها ولو بتأويلٍ، وشدَّنا موضوع الكتاب بجاذبيةٍ نبضتْ بها معانيه، وتألّقت مبانيه، والتي لمسناها مِنْ عموم الكتاب، واعترضتنا عباراتٌ منه عرجاء عوجاء، وجمل كثيرة استغلقت

على الفهم، حتى كِدْنا نتَّهم المؤلِّفَ على جلالةِ قدره مضطربين، لولا وقوفنا على مخطوطتين للكتاب، فدفعنا ذلك إلى إعادة قراءة الكتاب ومطابقته مع ما جاء في المخطوطتين.

أولاً: منهج التحقيق والخطوات التي سلكناها لإخراج الكتاب:

١ ـ قمنا بمطابقة ما جاء في الكتاب المطبوع ـ في طبعتيه المعروضتين في السوق ـ مع المخطوطتين، فوقفنا على مدى ما في المطبوع من أخطاء ونواقص ومباينات، فتتبعناها حتى بلغنا بالكتاب ما نرجو له من سلامةٍ تليقُ بروعةِ مضمونه، ونفاسةِ معانيه، ودقة تعابيره.

٢ ـ أشرنا للنسخة الأولى ـ وهي الأقدم ـ بالرمز (أ) وجعلناها الأصل والعمدة، والثانية أشرنا لها بالرمز (ب)؛ فأيّ زيادة وجدناها في النسخة الثانية (ب) قمنا بإثباتها في السياق ضمن معكوفتين [ ]، أما الاختلاف بين النسختين فأشرنا له في هامش الكتاب.

٣ ـ بيَّنا موقع الآيات القرآنية من سورها، وذلك ليتمكن القارئ من الرجوع إليها، خاصة وأنَّ من خصائص أسلوب ابن الجوزي في كتابه، التوظيفَ الدقيقَ للآيات، والإشارة إلى المعنى غالباً عبر كلمة من آية ما، وأحياناً أكثر من كلمة، تركيزاً على موطن الشاهد، وإبرازاً للمعنى المشار إليه فيها.

٤ ـ خَرَّجْنا الأحاديث الشريفة بصورة شاملةٍ إلا ما لم نقف له على أصل، وذلك بعد الرجوع إلى كثيرٍ من المصادر والموسوعات الحديثية والفهارس، وقد رصدنا من خلال ذلك بعض أحاديث ضعيفة أوردها ابن الجوزي، وهذا لا يضرُّ بقيمةِ الكتاب ومكانته، ذلك لأن (**المدهش**) كتابُ وعظٍ وتذكيرٍ، وإيقاظٍ وحفزٍ، ومعلومٌ أنَّ العلماء قد تساهلوا في الوعظ بإيراد أمثالها، ولم يشترطوا فيها أن تكون قد استكملت شروط الصحةِ التي لا بد منها فيما يتعلّق بالحلال والحرام والعقيدة.

٥ ـ قمنا بالتعليق على ما أورده المؤلف من أخبار تتعلّقُ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مما سمّاه علماؤنا: الإسرائيليات، وبينّا أنها تتعارض مع العقيدة الراسخة في النبوات وعالم الملائكة، ومثال ذلك: ما أورده في حقِّ

سيدنا داود وأيوب ويوسف عليهم السلام، وكذلك هاروت وماروت.

٦ ـ ضبطنا الأشعار ضبطاً يعينُ القارئَ العادي على القراءة السليمة، ورجعنا إلى كثير من الدواوين الشعرية الميسرة، واعتمدنا الموسوعة الشعرية المبرمجة على قرص حاسوبي للتحقق مما ورد من أشعار زخر بها الكتاب، والإشارة إلى مواطنها من تلك الدواوين ما أمكننا ذلك.

٧ ـ لم نكتفِ بضبط الأشعار الواردة في الكتاب، بل قمنا بضبط غالب كلمات الكتاب، وقد وجدنا ذلك ضرورياً، خاصة في كتابٍ يعتبَرُ مُعجماً لغوياً ثرّاً، وخزانةَ نصوصٍ شعريةٍ ونثريةٍ، ومناهلَ لمعانٍ لبِست في صورتها الحسية ألواناً من البلاغة، وكان الجناس السِّمةَ البارزةَ فيها، ومعلومٌ أنَّ الضبطَ فيه أمر ضروريٌّ، ليفـرِّق القارئ بين المعاني في كلمات اتفقت في أشكال حروفها، واختلفت في معانيها بسبب حركةٍ في حرف من حروفها.

٨ ـ حاولنا إضاءة بعض العبارات بعد أن شرحنا الكلمات الغريبة أو التي ألغز بها المؤلف، وذلك ليكونَ القارئ على بصيرة من مغزاها. وقد أحجمنا عن شرح عبارات جاءت ومضاً فيها إشارات لطيفة تدركها بأدنى ملامسة الروحُ الشفيفة، إذ وجدنا أنَّ أيَّ توضيحٍ لمعناها إغماضٌ، وأيَّ تعليقٍ عليها تحجيمٌ، فاحترمنا قدرةَ القارئ على التفاعلِ العميق معها، فتركناها تأخذُ سبيلَها إليه دون الحاجة لدهاليز التعليقات.

٩ ـ وضعنا علامات الترقيم التي تساعد القارئ على فهم العبارات والوقوف الصحيح عند نهايات الجمل.

١٠ ـ إنَّ الكتاب قد عبق بأسماء صالحينَ وصالحات، فكانوا مادّةً ثرّةً فيه، ووقعت لفتات بين الحين والآخر، تطلّبت تبصيراً بصاحبها وبالموقف، وهذا تطلّب منا أن نعكفَ على جلِّ الشخصيات التي ورد ذكرُها في الكتاب، وقد قام أخونا (نور الدين البوريني) فجمع تراجمَ الكثيرين منها في موضع واحد، ورتبها ترتيباً ألف بائيّاً، وألحقناها بالكتاب، وذلك لئلا تضيع في ثناياه، وليسهل التعرفُ عليها، ولنقف على مدى ما أحاط به المؤلف من سير الصالحين، فكانت مادة أساسية لوعظه، كيف لا؟ وهو الذي ألّف كتاب (صِفَة الصفوة) بعدما حفظ كتاب

(حليـة الأولياء) لأبي نُعيم، وأتقنَ ما فيـه، فكان مَنْجَماً لهذه السـير، وبحراً لأصداف لآلئه، وقد أبى باذِلُ هذا الجهد جزاه الله كل خير - إلا أن يحلِّي ما يتصل بالشـخصية المترجَم لها بما له صلة واشجة بالكتاب وعظاً وتبصيراً بالسـلوك الراشد الرباني، فتكون التراجم على هذا كتاباً متصلاً منفصلاً يجلِّي أنماطاً من السلوك ومناراتٍ على طريق الهدى.

وحرصنـا على ضبط الأعلام في الكتـاب احتراماً لأسـمائهم أن تحرِّفَها الألسـنةُ، خاصةً أسـماء أولئك الذين شـهدوا أول معركة فاصلـة بين التوحيد والشرك، والإسلام والجاهلية: معركة بدر الكبرى، والذين شهدت لهم النبوّةُ بالجنة وسعادة الأبد.

ثانياً: وصف المخطوطتين:

عندما عزمنا على إعادة طبع هذا الكتاب، حاولنا البحث عن مخطوطة له، فلم نجد سـوى مخطوطة واحـدة في مركز (جمعـة الماجد للثقافـة والتراث)، وعندما اطلعنا عليها وجدناها ناقصة في كثير من فصول الكتاب، بالإضافة إلى رداءة خطها، وعدم وضوحه، والاهتراء الكبير الذي أصاب جوانبها، فأثَّر في كثير من كلماتها فطمسها، فأعرضنا عنها.

عند ذلك قررنا قراءة الكتاب المطبوع لتصحيح ما أمكن من الأخطاء، وفك التراكيب الغامضة المبهمة فيه، ووضع علامات الترقيم المناسبة بين جمله، وبعد أن فرغنـا من قراءته تماماً إذا بنـا نفاجأ ببشرى سارة من قبل القائمين على مركز (جمعة الماجد للثقافة والتراث) جزاهم الله كلَّ خير أنهم استطاعوا الحصول على مخطوطتين لكتاب (**المدهش**)، ثم تكرَّموا علينا مأجورين بنسخة مصورة عن كلِّ مخطوطة.

وإليك أخي القارئ وصف هاتين المخطوطتين اللتين قمنا بالمطابقة عليهما:

١ ـ النسخة الأولى ـ والمرموز لها بالرمز (أ):

نسخة مصوّرة عن أصل محفوظ في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم (٣٣١٥/ أدب ٥٧٠).

بدأت بـ (قال شيخُ الأمة، وعلمُ الأئمة، ناصرُ السنة فخر الإسلام، جمالُ الدين وزينُ الأنام، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي: الحمدُ لله الذي لا منتهى لعطاياه ومِنحِه، حمداً يقوم بالواجبِ من شكره ومِدَحِهِ.. أما بعدُ: فإني قمتُ بحمدِ الله في عِلْمِ الوعظ بأصحه وأملحه..). وختمت بالفصل المئة المنتهي بأبيات من الشعر آخرها:

قُلْ لِذِي الأَلْبَابِ أَهْلِ التُّقَى قنطرةُ العَرْضِ لَكُمْ مَوْعِدُ

وانتهت بقوله: (تم كتاب المدهش بحمد الله وعونه وصلواته على خير خلقه سيدنا محمد ﷺ، وكان الفراغ من نسخها في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول سنة (٧٤٩هـ). عدد صفحاتها (٤١٧) صفحة، بمعدل (١٩) سطراً في كل صفحة).

ملاحظات حول النسخة:

١ ـ كُتبت النسخةُ بخط نسخي متوسط الجودة.

٢ ـ عليها عددٌ من التملّكات: تملُّكٌ باسم عبد السلام بن برهان بن أحمد ابن برهان بن أحمد الحراكي الحسيني الشافعي القادري المعرّي، وآخر باسم عبد الباقي الجزائري الحسني، وباسم أحمد بن حيدر بن محمد الحنفي الحلبي، وباسم البرهان بن البرهان الحسيني.

٣ ـ ومطالعة باسم إبراهيم جاويش.

٤ ـ نسخة جيدة تنقص من الآخر عدةَ ورقات، حيث شمل النقص الفصولَ الثلاثة الأخيرة بعد المئة والخاتمة.

٥ ـ فيها بعض التصحيحات القليلة.

٢ ـ النسخة الثانية ـ المرموز لها بالرمز (ب):

نسخة مصورة عن أصل محفوظ في دار الكتب الظاهرية برقم (٧٠٥٢/ أدب).

كتبت في أواخر شهر ربيع الثاني سنة (١١٤٢هـ)، والناسخ: مصطفى بن

بكتـاش، وفيها زيادة ثلاثة فصول بعد المئة، حيث قال في تمام المئة: «ولما أتممتُ المئة التي ضمّنتُها رأيتُ الثلاثةَ الأُوَل كالخارج عن الوعظيات، لمشابهتها القصص، فعزمت هاهنا ثلاثة عوضها لتخلص مئة وعظية، والله الموفق».

وقال في آخـرها: «فرغ منه ناظمـه يوم الثلاثاء رابع عشـر جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وخمسمئة، حامداً الله تعالى ومصلياً على رسولهﷺ».

ملاحظات حول النسخة:

١ ـ كتبت النسخةُ بخط نسخي جميل وواضح.

٢ ـ نسخة مصححة ومراجعة، مع تعليقات تضمنت لبعض كلماتها.

٣ ـ عدد ورقاتها (١٨٨) ورقة، أي (٣٧٦) صفحة، بمعدل (٢٩) سطراً في كل صفحة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخ الامة وعلم الايمة • ناصر السنة • نجم الاسلام
جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي
ابن حمادى بن الجوزي الحمد لله الذي
لا منتهى لعطاياه ومننه • حمداً نقوم بالواجب من شكره •
ومدحه • وصلى الله على اشرف نبي وانصحه • وعلى
اصحابه وازواجه ما استتر طرف في مرحه اما بعد
فاني قمت بحمد الله في علم الوعظ بأصحه واملحه •
وآثرت ان انتقي في هذا الكتاب من ملحه • والله
الموفق في كل عمل لاصلحه • وقد قسمته خمسة ابواب
الباب الاول في ذكر علوم القران العزيز
الباب الثاني في تصريف اللغة وموافقة القران لها
الباب الثالث في علوم الحديث الباب
الرابع في عيون التواريخ الباب الخامس في ذكر
الوعظ وهذا الباب ينقسم قسمين قسم نذكر فيه
القصص وقسم نذكر فيه المواعظ مطلقا والله الموفق

واصلحه

الباب

الصفحة الأولى من النسخة (أ) وهي الأصل المعتمد

دارت على الكل كاس الحمام • ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام • الى متى من احمر الانعام • ردوا هذه الانفاس بزمام • ازجروا هذه القلوب عن الاثام • اقرأوا صحا يف الخير بالسنة الاقلام • موت الجيران شكل واخذ الاقران اعجام • يا من اجله خلفه وامله قدام • رب يوم لم يمض ما اليه ختام • يا مقتحما على الحرام اى اقتحام • ستعلم من يبكى فى العقبى عقبى الاجرام • وتشارك الندامى شاى الندامى والمدام • يا طول المرض متى يبرا السقام • يا من ان تعد فللدنيا وكذا انت تام • اول الدنيا هم واخرها موت زوام • حل لها الفراق وحرم عليها الدوام • سحايبها لا تمطر وسمارها قتام • كلها عيب فى جنب وذام فى ذام • انجبها عند محبها متى يسمع العذل مستهام • خلها واخرج عنها بسلام الى دار السلام • فالجنة رخيصة ثم ما تغلو على مستام • خذها اليك نصيحة من طب يداوى الاسقام • يضع الهنا موضع النقب ويعرف اصل الالام ويركب المرهم من خبر ويدبر كيف شاء الكلام ما بعدها نصيحة تكفى والسلام اخر كتاب المدهش

الحمد لله عدد انفاس اهل الجنة وصلواته على محمد واله وسلم كثيرا وشرف وكرم فرغ منه ناظم عبد [illegible] على بن الجوزى يوم الثلاثا رابع عشر جمادى الاخرة سنة احدى وتسعين وخمساية حامدا لله سبحانه ومصليا على رسوله محمد وعلى اله وصحبه [illegible]

[illegible]

وافق الفراغ من نسخه فى اواخر شهر ربيع الثانى [illegible]

[illegible]

الصفحة الأخيرة من النسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم، رب يسر يا كريم

قال شيخ الأمة وعلم الأئمة ناصر السنة جمال الدين فخر الإسلام زين الأنام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي قدس الله روحه ونور ضريحه: الحمد لله الذي لا تنتهي عطاياه ومنحه، حمداً يقوم بالواجب من شكره ومدحه، وصلى الله على أشرف نبي وأفصحه وعلى آله وأصحابه وأزواجه ما استتر طرف في مرحه، أما بعد فإني قد تبحرت بحمد الله في علم الوعظ بمديحه وملحه، وآثرت أن أنتقي في هذا الكتاب من ملحه، والله الموفق لكل عمل الأصلح، وقد قسمته خمسة أبواب.

الباب الأول

في علوم القرآن وبيانه

في ذكر غ

الباب الثاني

في تصريف اللغة وموافقة القرآن لها

الباب الثالث

في علوم الحديث

الباب الرابع

في عيون التواريخ

الباب الخامس

في ذكر المواعظ

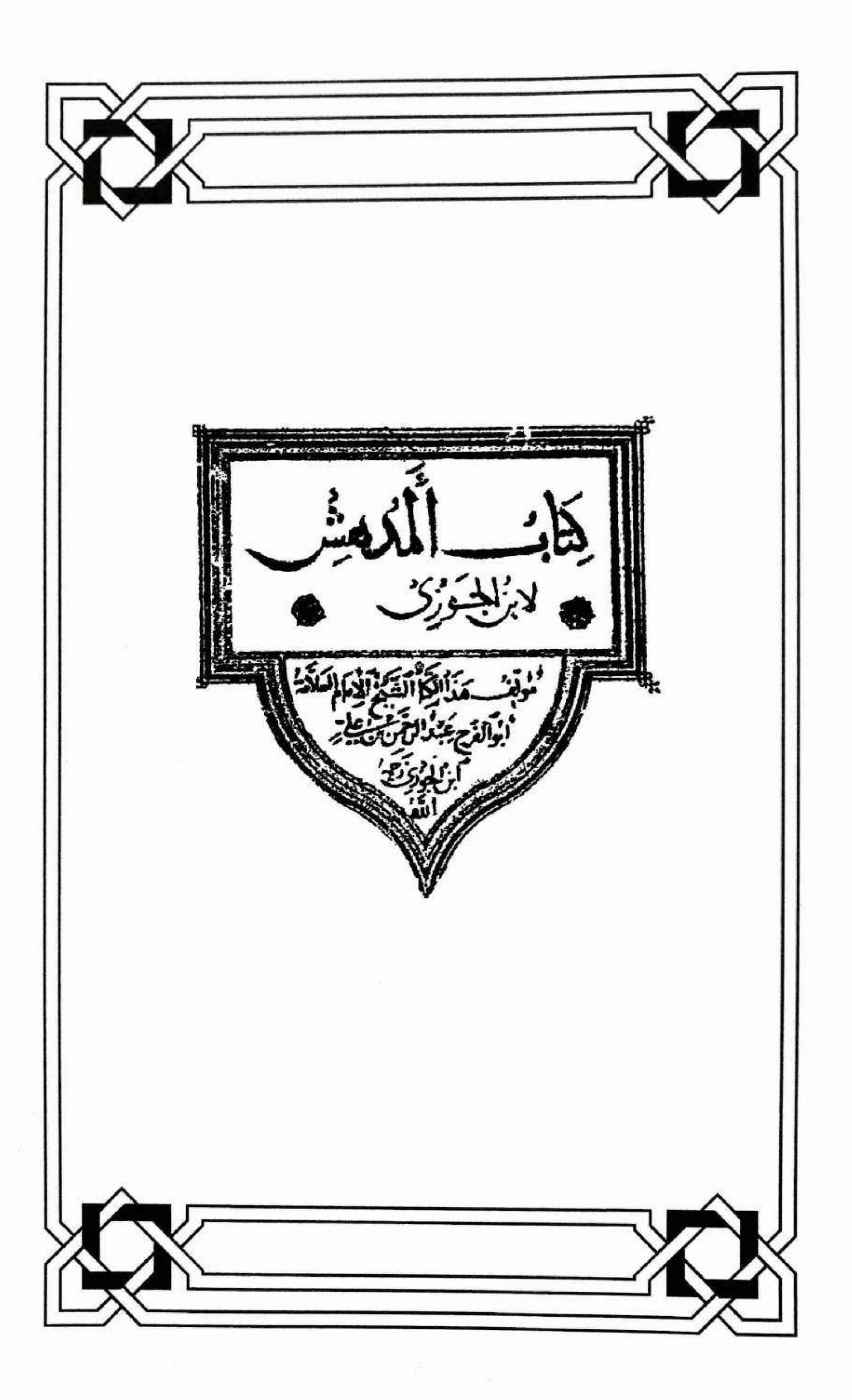
وهذا الباب ينقسم قسمين: قسم فيه ذكر القصص، وقسم فيه المواعظ مطلقاً، والله الموفق.

الصفحة الأولى من النسخة (ب)

٤٢٧

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان الفراغ من نسخه
في العشر الاوسط من شهر ربيع الاول سنة تسع
واربعين وستمائة غفر الله لمن نسخه ولقاريه ولجميع
المسلمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
وحسبنا الله ونعم الوكيل

الصفحة الأخيرة من النسخة (ب)


كتاب المدهش
لابن الجوزي
مؤلف هذا الكتاب الشيخ الإمام العلامة
أبو الفرج عبد الرحمن بن علي
ابن الجوزي رحمه
الله

بسم الله الرحمن الرحيم

[ربي يسِّر يا كريم][1]

قال شيخ الأمة، وعلمُ الأئمة، ناصرُ السنة، [نجمُ الإسلام][2]، جمال الدين زينُ الأنام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن حمادي ابن الجوزي، رحمه الله تعالى:

الحمدُ للهِ الذي لا منتهى لعطاياه ومِنَحِه، حمداً يقوم بالواجب من شكره ومدحه، وصلى الله على أشرف نبي وأنصحِه، وعلى أصحابه وعلى آله وأزواجِه ما استنَّ[3] طِرْفٌ[4] في مَرَحِه[5].

أما بعدُ: فإني قمتُ بحمدِ الله في عِلْمِ الوعظ بأصحِّه وأملحِه، وآثرت أن أنتقي في هذا الكتاب من مُلحه[6]، والله الموفق في كلِّ عمل لأصلحه، وقد قسمته خمسةَ أبواب:

- **الباب الأول: في ذكر علوم القرآن العزيز وبيانه[7].**
- **الباب الثاني: في تصريف اللغة وموافقة القرآن لها.**

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) زيادة من (ب).

(٣) **استن**: جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة.

(٤) **طرف**: بكسر الطاء وسكون الراء: الفرس الكريم الأبوين.

(٥) **مرح**: كفرح: النشاط.

(٦) **مُلحه**: جمع ملحة كسبحة: الأحاديث الحسنة.

(٧) زيادة من (أ).

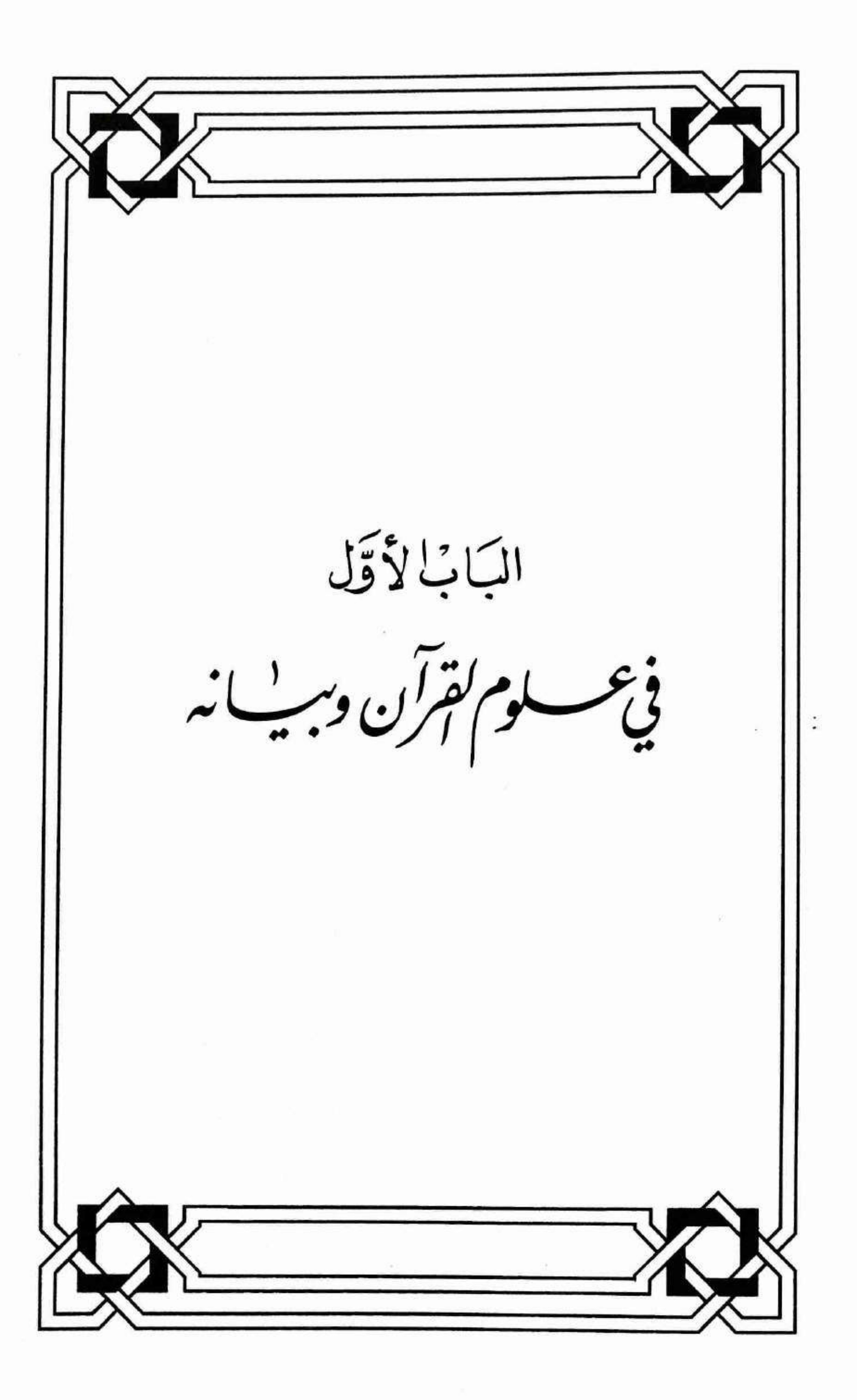
- **الباب الثالث : في علوم الحديث .**
- **الباب الرابع : في عيون التواريخ .**
- **الباب الخامس : في ذكر المواعظ . وهذا الباب ينقسم قسمين :**

ـ قسمٌ فيه ذكر القصص .

ـ وقسمٌ فيه المواعظ مطلقاً .

والله الموفق .

* * *



البَابُ الأوَّل

في علوم القرآن وبيانه

فصل

في ذكر أقسام الخطاب في القرآن

● **الخطاب في القرآن على خمسةَ عشر وجهاً:**

١ ـ خطاب عام: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

٢ ـ وخطاب خاص: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٣ ـ وخطاب الجنس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النساء: ١].

٤ ـ وخطاب النوع: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦، ٣١].

٥ ـ وخطاب العين: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ [طه: ١١٧].

٦ ـ وخطاب المدح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

٧ ـ وخطاب الذم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التحريم: ٧].

٨ ـ وخطاب الكرامة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

٩ ـ وخطاب الإهانة: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤].

١٠ ـ وخطاب التودد: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١١ ـ وخطاب الجمع بلفظ الواحد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ﴾ [الانفطار: ٦].

١٢ ـ وخطاب الواحد بلفظ الجمع: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦].

١٣ ـ وخطاب الواحد بلفظ الاثنين: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [سورة ق: ٢٤].

١٤ ـ وخطاب الاثنين بلفظ الواحد: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

١٥ ـ وخطاب العين والمراد به الغير: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤].

١٦ ـ وخطاب التلون[١] ؛ وهو ثلاثة أوجه :

الأول : أن يخاطِبَ ثم يخبرَ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : ٢٢] .

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] .

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴾ [الحجرات : ٧] .

والثاني : أن يخبرَ ثم يخاطب :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم ﴾ [آل عمران : ١٠٦] .

﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان] .

والثالث : أن يخاطب عيناً ثم يصرف الخطاب إلى الغير :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الفتح] .
وهذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، فإنهما قرأا بالياء[٢] .

* * *

---

(١) **خطاب التلون : الالتفات ، وهو العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم أو على العكس . (انظر : التعريفات ، للجرجاني ، ص٩١) .**

(٢) **لعله على غير قراءة ابن كثير ، فإن قراءة (لتؤمنوا) فيها خطاب إليهم بعد مخاطبة النبي ﷺ ، بخلاف قراءة (ليؤمنوا) فإنها إخبار بالغيبة بعد الخطاب .**

فصل

في ذكر أمثال القرآن

● **في القرآن اثنان وأربعون مثلاً[1]:**

١ ـ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] .

٢ ـ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] .

٣ ـ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] .

٤ ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ١٧١] .

٥ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

٦ ـ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

٧ ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] .

٨ ـ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] .

٩ ـ ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] .

١٠ ـ ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

١١ ـ ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١١٧] .

١٢ ـ ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الأنعام: ٧١] .

١٣ ـ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

١٤ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤] .

---

(١) من الكتب الجامعة في هذا الموضوع: (الدر واللآل في بدائع الأمثال) لمحمد علي الأنسي، فقد جمع فيه أمثال القرآن والسُّنَّة والكتب السماوية.

١٥ ـ ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ [هود: ٢٤] .

١٦ ـ ﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ [الرعد: ١٤] .

١٧ ـ ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] .

١٨ ـ ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥] .

١٩ ـ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [إبراهيم: ١٨] .

٢٠ ـ ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: ٢٤] .

٢١ ـ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] .

٢٢ ـ ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥] .

٢٣ ـ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [النحل: ٧٦] .

٢٤ ـ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ [النحل: ١١٢] .

٢٥ ـ ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] .

٢٦ ـ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥] .

٢٧ ـ ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١] .

٢٨ ـ ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ [الحج: ٧٣] .

٢٩ ـ ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] .

٣٠ ـ ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] .

٣١ ـ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١] .

٣٢ ـ ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] .

٣٣ ـ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس: ٧٨] .

٣٤ ـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ [الزمر: ٢٩] .

٣٥ ـ ﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد: ٢٠] .

٣٦ ـ ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [محمد: ١٥] .

٣٧ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

٣٨ ـ ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الحشر: ١٥] .

٣٩ ـ ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٦] .

٤٠ ـ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ [الجمعة: ٥] .

٤١ ـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [التحريم: ١٠] .

٤٢ ـ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [التحريم: ١١] .

● وكم من كلمة تدور على الألسن مثلاً، جاء القرآن بأخصر[1] منها وأحسن، فمن ذلك:

١ ـ قولهم: «القتل أنفى للقتل» مذكور في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] .

٢ ـ وقولهم: «ليس المُخْبِرُ كالمعاين» مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

٣ ـ وقولهم: «ما تزرع تحصُد» مذكور في قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] .

٤ ـ وقولهم: «للحيطان آذان» مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] . وقوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] .

٥ ـ وقولهم: «الحمية رأس الدواء» مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١] .

٦ ـ وقولهم: «احذر شرَّ مَنْ أحسنتَ إليه» مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٤] .

---

(١) (ب) بألخص.

٧ ـ **وقولهم**: «من جهل شيئاً عاداه» مذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

٨ ـ **وقولهم**: «خير الأمور أوسطها» مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

٩ ـ **وقولهم**: «من أعان ظالماً سلّطه الله عليه» مذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

١٠ ـ **وقولهم**: «لمّا أنضجَ رمّد»(١) مذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤].

١١ ـ **وقولهم**: «لا تلد الحية إلا حيّة» مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

* * *

---

(١) ذكر ابن الأثير في النهاية: شوى أخوك حتى إذا أنضج رمّد، مثلٌ يضرَبُ لمن يصنع المعروف، ثم يفسده بالمنّة أو يقطعه، ومعنى رمّد الشواء: ملّهُ في الجمر.

فصول
في عيون المتشابه

• فصل في الحروف المبدلات:

- في [البقرة: ٢٩] ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وفي [حم السجدة: ١٢] ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾.

- في [البقرة: ٣٥] ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وفي [الأعراف: ١٩] ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾.

- في [البقرة: ٥٧] ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾، وفي [الأعراف: ١٦٠] ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾.

- في [البقرة: ٦٠] ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾، وفي [الأعراف: ١٦٠] ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾

- في [البقرة: ١٢٠] ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وفي [الرعد: ٣٧] ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

- في [البقرة: ١٢٥] ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾، وفي [الحج: ٢٦] ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾.

- في [البقرة: ١٣٦] ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وفي [آل عمران: ٨٤] ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

- في [البقرة: ١٧٠] ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾، وفي [المائدة: ١٠٤] ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

- في [آل عمران: ١٥٣] ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾، وفي [الحديد: ٢٣] ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟﴾.

- في [النساء: ١] ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وفي [الأعراف: ١٨٩] ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

- في [النساء: ١٤٩] ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا ﴾، وفي [الأحزاب: ٥٤] ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْئًا ﴾.

- في [الأنعام: ١٥١] ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾، وفي [بني إسرائيل: ٣١] ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾.

- في [الأعراف: ١٠٥] ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، وفي [طه: ٤٧] ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

- في [الأعراف: ١١١] ﴿ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾، وفي [الشعراء: ٣٦] ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

- في [الأعراف: ١٢٤] ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾، وفي [طه: ٧١] ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾.

- في [التوبة: ٣٢] ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ ﴾، وفي [الصف: ٨] ﴿ لِيُطْفِـُٔواْ ﴾.

- في [يونس: ٩٠] ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾، وفي [طه: ٧٨] ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾.

- في [هود: ٨٢] ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾، وفي [الحجر: ٧٤] ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾.

- في [الحجر: ١١] ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾، وفي [الزخرف: ٧] ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

- في [الحجر: ١٢] ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾، وفي [الشعراء: ٢٠٠] ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ ﴾.

- في [الكهف: ٣٦] ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾، وفي [حمٓ السجدة: ٥٠] ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾.

- في [الكهف: ٥٧] ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾، وفي [السجدة: ٢٢] ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾.

- في [طه: ٥٣] ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾، وفي [الزخرف: ١٠] ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾.

- في [الأنبياء: ٧٠] ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، وفي [الصافات: ٩٨] ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

- في [الأنبياء: ٩٣] ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، وفي [المؤمنون: ٥٣] ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾.

- في [النمل: ٨٧] ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي [الزمر: ٦٨] ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

- في [القصص: ٦٠] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، وفي [حمٓ عٓسٓقٓ (الشورى): ٣٦] ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾.

- في [العنكبوت: ٣٥] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ﴾، وفي [القمر: ١٥] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

- في [حمٓ السجدة: ٥٢] ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، وفي [الأحقاف: ١٠] ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾.

- في [المدثر: ٥٤] ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾، وفي [عبس: ١١] ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

● فصل في الحروف الزوائد[١] والنواقص:

- في [البقرة: ٢٣] ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وفي [يونس: ٣٨] ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

- في [البقرة: ٣٤] ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، وفي [سورة صٓ: ٧٤] ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾.

- في [البقرة: ٣٨] ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾، وفي [طه: ١٢٣] ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾.

---

(١) ليس في القرآن حرف زائد دون معنى، إنما أراد ابن الجوزي رحمه الله المقارنة بين بعض المواضع في الآيات.

- في [البقرة: ٤٩] ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم﴾، وفي [الأعراف: ١٤١] ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم﴾.

- في [البقرة: ٤٩] ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وفي [إبراهيم: ٦] ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

- في [البقرة: ٥٨] ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، وفي [الأعراف: ١٦١] ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

- في [البقرة: ٥٨] ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي [الأعراف: ١٦١] ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

- في [البقرة: ٥٩] ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا﴾، وفي [الأعراف: ١٦٢] ﴿مِنْهُمْ قَوْلًا﴾.

- في [البقرة: ٨٣] ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وفي [النساء: ٣٦] ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

- في [البقرة: ١٣٦] ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾، وفي [آل عمران: ٨٤] ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾.

- في [البقرة: ١٩٣] ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾، وفي [الأنفال: ٣٩] ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

- في [آل عمران: ٩٩] ﴿مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، وفي [الأعراف: ٨٦] ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا﴾.

- في [آل عمران: ١٢٦] ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ﴾، وفي [الأنفال: ١٠] ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ﴾.

- في [النساء: ٢٢] ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وفي [بني إسرائيل: ٣٢] ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

- في [الأنعام: ٨١] ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾، وفي [آل عمران: ١٥١، الأعراف: ٣٣، الحج: ٧١] ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾.

- في [الأنعام: ٥٠] ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾ ، وفي [هود: ٣١] ﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾ .

- في [الأعراف: ١١٠] ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ ﴾ ، وفي [الشعراء: ٣٥] ﴿ بِسِحۡرِهِۦ ﴾ .

- في [الأعراف: ١١٤] ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وفي [الشعراء: ٤٢] ﴿ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ .

- في [الأعراف: ١١٦] ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ ﴾ ، وفي [طه: ٦٦] ﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ ﴾ .

- في [الأعراف: ١٥٠] ﴿ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ ﴾ ، وفي [طه: ٩٤] ﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ ﴾ .

- في [التوبة: ٣٩] ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ ﴾ ، وفي [هود: ٥٧] ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ ﴾ .

- في [هود: ٧٧] ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا ﴾ ، وفي [العنكبوت: ٣٣] ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ ﴾ .

- في [يوسف: ٢٢] ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا ﴾ ، وفي [القصص: ١٤] ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ .

- في [النحل: ٧٠] ﴿ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ ﴾ ، وفي [الحج: ٥] ﴿ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ ﴾ .

- في [النحل: ٧٢] ﴿ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ ، وفي [العنكبوت: ٦٧] ﴿ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾ .

- في [النحل: ١٢٧] ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ ، وفي [النمل: ٧٠] ﴿ وَلَا تَكُن ﴾ .

- في [الحج: ٢٢] ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ، وفي [الٓمٓ السجدة: ٢٠] ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ .

- في [الحج: ٦٢] ﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ ، وفي [لقمان: ٣٠] ﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ .

ـ في [الشعراء: ٧٠] ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾، وفي [الصافات: ٨٥] ﴿ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴾.

ـ في [النمل: ٤٠] ﴿ وَمَن شَكَرَ ﴾، وفي [لقمان: ١٢] ﴿ وَمَن يَشۡكُرۡ ﴾.

ـ في [القصص: ٨٢] ﴿ وَيَقۡدِرُۖ ﴾، وفي [العنكبوت: ٦٢] ﴿ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ ﴾.

ـ في [النازعات: ٣٥] ﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾، وفي [الفجر: ٢٣] ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ﴾.

● فصل في المقدَّم والمؤخَّر:

ـ في [البقرة: ٥٨] ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾، وفي [الأعراف: ١٦١] ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾.

ـ في [البقرة: ٦٢] ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾، وفي [الحج: ١٧] ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾.

ـ في [البقرة: ١٢٠، والأنعام: ٧١] ﴿ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ ﴾، وفي [آل عمران: ٧٣] ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾.

ـ في [البقرة: ١٤٣] ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾، وفي [الحج: ٧٨] ﴿ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾.

ـ في [البقرة: ١٧٣] ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾، وفي [المائدة: ٣، الأنعام: ١٤٥، النحل: ١١٥] ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ ﴾.

ـ في [البقرة: ٢٦٤] ﴿ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ ﴾، وفي [إبراهيم: ١٨] ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ﴾.

ـ في [آل عمران: ١٢٦] ﴿ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ ﴾، وفي [الأنفال: ١٠] ﴿ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ ﴾.

ـ في [النساء: ١٣٥] ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾، وفي [المائدة: ٨] ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾.

ـ في [الأنعام: ١٠٢] ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾، وفي [حمٓ المؤمن: ٦٢] ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾.

- في [الأنعام: ١٥١] ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾، وفي [بني إسرائيل: ٣١] ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾.

- في [النحل: ١٤] ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾، وفي [فاطر: ١٢] ﴿ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾.

- في [بني إسرائيل: ٤١] ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾، وفي [الكهف: ٥٤] ﴿ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ ﴾.

- في [بني إسرائيل: ٩٦] ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾، وفي [العنكبوت: ٥٢] ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾.

- في [المؤمنون: ٨٣] ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾، وفي [النمل: ٦٨] ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾.

- في [القصص: ٢٠] ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾، وفي [يس: ٢٠] ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾.

* * *

أبواب منتخبة من الوجوه والنظائر

● **باب (أو):**

ـ **تكون بمعنى التخيير:** ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

ـ **وتكون بمعنى الواو:** ﴿أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

ـ **وتكون بمعنى بل:** ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

ـ **وتكون بمعنى الإبهام:** ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

● **باب (أدنى):**

ـ **تكون بمعنى أجدر:** ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ [المائدة: ١٠٨].

ـ **وتكون بمعنى أقرب:** ﴿مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

ـ **وتكون بمعنى أقل:** ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٧].

ـ **وتكون بمعنى أدون:** ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

● **باب (الإنزال):**

ـ **تكون بمعنى الحط من علو:** ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٨].

- **وبمعنى الخلق**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

- **وتكون بمعنى القول**: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

- **وبمعنى البسط**: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

● باب (الأرض):

- **الأرض**: تذكر ويراد بها **أرض الأردن**: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

- ويراد بها **القبر**: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

- ويراد بها أرض **مكة**: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

- ويراد بها **أرض المدينة**: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧].

- ويراد بها **أرض الإسلام**: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤].

- ويراد بها **أرض التيه**: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

- ويراد بها **أرض الشام**: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

- ويراد بها **الأرضون السبع**: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

- ويراد بها **أرض مصر**: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

- ويراد بها **أرض الحِجْر**: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

- ويراد بها **القلب**: ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

- ويراد بها **أرض العرب**: ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].

- ويراد بها **الجنة**: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- ويراد بها **أرض الروم**: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣].

ـ ويراد بها **أرض بني قريظة** : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٧] .

ـ ويراد بها **أرض فارس** : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ [الأحزاب : ٢٧] .

ـ ويراد بها **أرض القيامة** : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٩] .

● **باب (الأمر):**

ـ **الأمر** : يُذكر ، ويراد به **قتل بني قريظة وجلاء النضير** : ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٠٩] .

ـ ويراد به **النصر** : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

ـ ويراد به **استدعاء الفعل** : ﴿ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] .

ـ ويراد به **الخصب** : ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

ـ ويراد به **الذنب** : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ [المائدة : ٩٥] .

ـ ويراد به **المشورة** : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٠] .

ـ ويراد به **قتل كفار مكة** : ﴿ لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

ـ ويراد به **فتح مكة** : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

ـ ويراد به **الحذر** : ﴿ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة : ٥٠] .

ـ ويراد به **القضاء** : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس : ٣] .

ـ ويراد به **القول** : ﴿ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود : ٤٠] .

ـ ويراد به **الغرق** : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣] .

ـ ويراد به **العذاب** : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود : ٤٤] .

ـ ويراد به **الشأن** : ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : ٩٧] .

ـ ويراد به **القيامة** : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١] .

● **باب (الإنسان)**[1]:

ـ **الإنسان**: يذكر ويراد به **أبو حُذيفة بن عبد الله**: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢].

ـ ويراد به **عُتبة بن ربيعة**: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩].

ـ ويراد به **النَّضر بن الحارث**: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١].

ـ ويراد به **أُبيّ بن خلف** ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [مريم: ٦٧].

ـ ويراد به **آدم**: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

ـ ويراد به **بديل بن ورقاء**: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

ـ ويراد به **سعد بن أبي وقاص**: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ [لقمان: ١٤].

ـ ويراد به **عيّاش بن أبي ربيعة**: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ﴾ [العنكبوت: ٨].

ـ ويراد به **أبو بكر الصديق رضي الله عنه**: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ـ ويراد به **عُقبة بن أبي معيط**: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

ـ ويراد به **بنو آدم**: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ﴾ [سورة قٓ: ١٦].

ـ ويراد به **بَرْصيصا**[2]: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

---

(١) من المستقر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإسقاط النصّ على شخص معين لا يعني أنه لا يشمل غيره، بل يعم سائر أفراد الجنس، وما ذكره الشيخ إنّما ذكر أسباب نزول هذه النصوص.

(٢) **برصيصا**: عابدٌ كان من بني إسرائيل، ثم وسوس. ذكره الزبيدي في (تاج العروس). وقال القرطبي (١٨/ ٣٧) عند تفسيره قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ =

- ويراد به **الأخنس بن شُريق**: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩].

- ويراد به **عديّ بن أبي ربيعة**: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة: ٣].

- ويراد به **أُمية بن خلف**: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ﴾ [الفجر: ١٥].

- ويراد به **الحارث بن عمرو**: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

- ويراد به **الأسود بن عبد الأسد**(١): ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ [الانشقاق: ٦]

- ويراد به **كلدة بن أسيد**: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦].

- ويراد به **الوليد بن المغيرة**: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

- ويراد به **أبو طالب بن عبد المطلب**: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥].

- ويراد به **عتبة بن أبي لهب**: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤].

- ويراد به **قرط بن عبد الله**: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦].

- ويراد به **أبو جهل**: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ [العلق: ٦].

- ويراد به **أبو لهب**: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢].

- ويراد به **الكافر**: ﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٣].

● باب (الباء):

- **الباء**: تذكر بمعنى **اللام**: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ [البقرة: ٥٠].
- وبمعنى **عند**: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

= [الحشر: ١٦]: وقال ابن عباس: كان راهبٌ في الفترة يقال له: برصيصا، قد تعبّدَ في صومعته سبعين سنة، لم يعصِ الله فيها طرفةَ عين، حتى أعيا إبليس، فجمع إبليسُ مردةَ الشياطين، فقال: ألا أجدُ منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال واحد منهم: أنا أكفيكه، فانطلق، ولم يزل ببرصيصا حتى أغواه عبر جارية من بنات الملك، فزنى بها، ثم قتلها، ثم أومأ للشيطان ساجداً لينقذه، ثم تبرأ منه بعدما كفر. انظر قصته كاملة في تفسير القرطبي.

(١) الذي ذكره المفسرون أنه أبو الأشد بن كلدة الجُمحي، وسماه أبو حيان أسيد، فلعلّ الصحيح الأسود أبو الأشد.

- وبمعنى **في** : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

- وبمعنى **بعد** : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

- وبمعنى **على** : ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء : ٤٢] .

- وتكون صلة : ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ ﴾ [النساء : ٤٣] .

- وبمعنى **للمصاحبة** : ﴿ وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ٦١] .

- وبمعنى **إلى** : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

- وبمعنى **السبب** : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ١٠٠] **أي من أجله** .

- وبمعنى **عن** : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

- وبمعنى **مع** : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ [الذاريات : ٣٩] **أي مع جنده** .

- وبمعنى **من** : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان : ٦] .

● باب (الحق):

- **الحق** : يأتي بمعنى **الجرم** : ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٦١] .

- وبمعنى **البيان** : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٧١] .

- وبمعنى **المال** : ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

- وبمعنى **القرآن** : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة قٓ : ٥] .

- وبمعنى **الصدق** : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

- وبمعنى **العدل** : ﴿ وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

- وبمعنى **الإسلام** : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ [الأنفال : ٨] .

- وبمعنى **المنجز** : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [التوبة : ١١١] .

- وبمعنى **الحاجة** : ﴿ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ [هود : ٧٩] .

- وبمعنى **لا إلـه إلا الله** : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الرعد : ١٤] .

- ويراد به الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

- وبمعنى التوحيد: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

- وبمعنى الحظ: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج: ٢٤].

● **باب (الخير):**

- **الخير**: يذكر ويراد به **القرآن**: ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

- ويراد به **الأنفع**: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

- ويراد بها **المال**: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة: ١٨٠].

- ويراد بها **ضد الشر**: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

- ويراد بها **الإصلاح**: ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- ويراد بها **الولد الصالح**: ﴿ وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

- ويراد به **العافية**: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ [الأنعام: ١٧].

- ويكون بمعنى **المنافع**: ﴿ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

- وبمعنى **الإيمان**: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [الأنفال: ٢٣].

- وبمعنى **رخص الأسعار**: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ [هود: ٨٤].

- وبمعنى **النوافل**: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

- وبمعنى **الأجر**: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ [الحج: ٣٦].

- وبمعنى **الأفضل**: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

- وبمعنى **العفة**: ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢].

- وبمعنى **الصلاح**: ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ٣٣].

- وبمعنى **الطعام**: ﴿ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

- وبمعنى **الظفر**: ﴿ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

- وبمعنى **الخيل**: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [سورة ص: ٣٢].

- وبمعنى **القوة**: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ [الدخان: ٣٧].

- وبمعنى **حسن الأدب**: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- وبمعنى **حب الدنيا**: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

● باب (الدِّيْن):

- **الدين**: يذكر ويراد به **الجزاء**: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

- ويراد به **الإسلام**: ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

- ويراد به **العدد**: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

- ويراد به **الطاعة**: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩].

- ويراد به **التوحيد**: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

- ويراد به **الحكم**: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

- ويراد به **الحد**: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

- ويراد به **الحساب**: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

- ويراد به **العبادة**: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦].

- ويراد به **الملة**: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

● باب (الذِّكر):

- **الذكر**: يذكر ويراد به **ذكر اللسان**: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

- ويراد به **الحفظ**: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣].

- ويراد به **الطاعة**: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

- ويراد به **الصلوات الخمس**: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ـ ويراد به **ذكر القلب** : ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

ـ ويراد به **البيان** : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٣] .

ـ ويراد به **الخير** : ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٣] .

ـ ويراد به **التوحيد** : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ [طه : ١٢٤] .

ـ ويراد به **القرآن** : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ [الأنبياء : ٢] .

ـ ويراد به **الشرف** : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

ـ ويراد به **العيب** : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] .

ـ ويراد به **صلاة العصر** : ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾ [سورة صٓ : ٣٢] .

ـ ويراد به **صلاة الجمعة** : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] .

● باب (الروح):

ـ **الروح** : يذكر ويراد به **الأمر** : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] .

ـ ويراد به **جبريل** : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : ١٧] .

ـ ويراد به **الريح**[1] : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

ـ ويراد به **روح الحيوان** : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ـ ويراد به **الحياة** : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة : ٨٩] ، على قراءة من ضَمَّ الراء في (رُوح) .

● باب (الصلاة):

ـ **الصلاة** : تذكر ويراد بها **الصلوات الخمس** : ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [المائدة : ٥٥] .

---

(١) تأتي الروح في اللغة بمعنى الريح كما ذكره أبو البقاء الكفويّ في (الكليات) ، ولكن يستبعد إرادة هذا المعنى في هذه الآية .

- ويراد بها **صلاة العصر**: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

- ويراد بها **صلاة الجنازة**: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ﴾ [التوبة: ٨٤].

- ويراد بها **الدعاء**: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

- ويراد بها **الدين**: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧].

- ويراد بها **القراءة**: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

- ويراد بها **موضع الصلاة**: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: ٤٠].

- ويراد به **المغفرة والاستغفار**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فصلاة الله تعالى المغفرة[١]، وصلاة الملائكة الاستغفار.

- ويراد بها **الجمعة**: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩].

● باب (عن):

- ترد **صلة**: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١].

- وتكون بمعنى **الباء**: ﴿بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣].

- وبمعنى **من**: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤].

- وبمعنى **على**: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨].

- وبمعنى **بعد**: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

● باب (الفتنة):

- تذكر ويراد بها **الشرك**: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

- ويراد بها **القتل**: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١].

- ويراد بها **المعذرة**: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

---

(١) الصلاة من الله سبحانه وتعالى الرحمة، ومنه على نبيه ﷺ زيادة رحمة، أو الرحمة المقرونة بالتعظيم، أو الرحمة والمغفرة، أو التمجيد والثناء.

- ويراد بها **الضلال**: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٤١].

- ويراد بها **القضاء**: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

- ويراد بها **الإثم**: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

- ويراد بها **المرض**: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ [التوبة: ١٢٦].

- ويراد بها **العبرة**: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ [يونس: ٨٥].

- ويراد بها **العقوبة**: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣].

- ويراد بها **الاختبار**: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣].

- ويراد بها **العذاب**: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

- ويراد بها **الإحراق**: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

- ويراد بها **الجنون**: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

● **باب (في):**

- تكون بمعنى **الظرف**: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

- وبمعنى **نحو**: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

- وبمعنى **الباء**: ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠].

- وبمعنى **إلى**: ﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

- وبمعنى **مع**: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨].

- وبمعنى **عند**: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١].

- وبمعنى **عن**: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

- وبمعنى **على**: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

- وبمعنى **اللام**: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

- وبمعنى **من**: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: ٢٥].

● **باب (القرية):**

- تذكر ويراد بها **أريحا**[1] : ﴿ ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [البقرة : ٥٨] .

- ويراد بها **دير هرقل**[2] : ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

- ويراد بها **أيلة**[3] : ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ [الأعراف : ١٦٣] .

- ويراد بها **مصر** : ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف : ٨٢] .

- ويراد بها **مكة** : ﴿ قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ ﴾ [النحل : ١١٢] .

- ويراد بها **مكة والطائف** : ﴿ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

- ويراد بها **جميع القرى** : ﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا ﴾ [الإسراء : ٥٨] .

- ويراد بها **قرية لوط** : ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ [الفرقان : ٤٠] .

- ويراد بها **أنطاكية** : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ [يس : ١٣] .

● **باب (كان):**

- ترد بمعنى **وجد** : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

- وبمعنى **الماضي** : ﴿ كَانَ حِلّٗا ﴾ [آل عمران : ٩٣] .

- وبمعنى **ينبغي** : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

- وبمعنى **صلة** : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء : ٩٦] .

- وبمعنى **هو** : ﴿ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٩] .

- وبمعنى **صار** : ﴿ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾ [الواقعة : ٦] ، أي : منثوراً .

---

(١) **أريحا** : بفتح الهمزة وكسر الراء المهملة ، وسكون الياء آخر الحروف ، ثم الحاء المهملة والألف الممدودة : بلدة بالشام .

(٢) في معجم البلدان : **(دير هرقل)** دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرّم .

(٣) **أيلة** : بالفتح ؛ مدينة على خليج العقبة .

● باب (كلا):

هي في القرآن على وجهين:

ـ أحدهما: أن تكون بمعنى **لا**، ومنه:

في [مريم]: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا﴾، وفي [مريم]: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا﴾.

وفي [المؤمنون: ١٠٠]: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ﴾.

وفي [الشعراء]: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا﴾، وفي [الشعراء]: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾.

وفي [سبأ: ٢٧]: ﴿أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا﴾.

وفي [المعارج]: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ﴾. وفي [المعارج]: ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ﴾.

وفي [المدثر]: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ﴾، وفي [المدثر]: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا﴾.

وفي [القيامة]: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا﴾، وفي [القيامة]: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا﴾.

وفي [المطففين]: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا﴾.

وفي [الفجر]: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾.

وفي [الهمزة]: ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا﴾.

فهذه خمسة عشر موضعاً **يَحْسُنُ الوقوف عليها**.

ـ والثاني: بمعنى **حقاً**، ومنه:

في [المدثر: ٣٢]: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾، وفي [المدثر: ٥٤]: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾.

وفي [القيامة: ٢٠]: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وفي [القيامة: ٢٦]: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾.

وفي [النبأ]: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

وفي [عبس: ١١]: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، وفي [عبس: ٢٣]: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

وفي [الانفطار: ٩]: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

وفي [المطففين: ٧]: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، وفي [المطففين: ١٥]: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، وفي [المطففين: ١٨]: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

وفي [الفجر: ٢١]: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾.

وفي [العلق: ٦]: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾، وفي [العلق: ١٥]: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، وفي [العلق: ١٩]: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾.

وفي [التكاثر: ٣]: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وفي [التكاثر: ٤]: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وفي [التكاثر: ٥]: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾.

فهذه تسعة عشر موضعاً يَحْسُن الوقف عليها.

وجملةُ ما في القرآن أربعة وثلاثون حرفاً هي هذه، وليس في النصف الأول منها شيء.

وقال ثعلب: **لا يوقفُ على ﴿كَلَّا﴾ في جميع القرآن.**

● باب (اللام):

اللام في القرآن على ضربين مفتوحة ومكسورة:

ـ **فالمفتوحة ترد بمعنى التوكيد:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ [هود: ٧٥].

وبمعنى **القسم:** ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨].

وزائدة أي للتوكيد: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢].

ـ **والمكسورة ترد بمعنى الملك:** ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وبمعنى **أن:** ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وبمعنى **إلى**: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

وبمعنى **كي**: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: ٤].

وبمعنى **على**: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٢].

و**صلة**: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وبمعنى **عند**: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨].

وبمعنى **الأمر**: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ [النور: ٥٨].

وبمعنى **العاقبة**: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨].

وبمعنى **في**: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢].

وبمعنى **السبب والعلة**: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].

● باب (لولا):

وهي في القرآن على وجهين:

ـ أحدهما: امتناع الشيء لوجود غيره، وهو ثلاثون موضعاً:

في [البقرة: ٦٤]: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، وفي [البقرة: ٢٥١]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾.

وفي [النساء: ٨٣]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وفي [النساء: ١١٣]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾.

وفي [الأنفال: ٦٨]: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾.

وفي [يونس: ١٩]، و[هود: ١١٠]، و[طه: ١٢٩]، و[حمٓ السجدة: ٤٥]، و[عٓسٓقٓ: ١٤]: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

وفي [يوسف: ٢٤]: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

وفي [بني إسرائيل: ٧٤]: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾.

وفي [الحج: ٤٠]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾.

وفي [النور: ٢٠]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
وفي [النور: ٢١]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾.

وفي [الفرقان: ٤٢]: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، وفي [الفرقان: ٧٧]: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

وفي [القصص: ١٠]: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾، و﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [القصص: ٤٧]، و﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [القصص: ٨٢].

وفي [العنكبوت: ٥٣]: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

وفي [سبأ: ٣١]: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾.

وفي [الصافات: ٥٧]: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾، و﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

وفي [عٓسٓقٓ: ٢١]: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾.

وفي [الزخرف: ٣٣]: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾.

وفي [الفتح: ٢٥]: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾.

وفي [الحشر: ٣]: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾.

وفي [نٓ: ٤٩]: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ﴾.

والوجه الثاني: لولا بمعنى هلّا، وهو أربعون موضعاً:

في [البقرة: ١١٨]: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾.

وفي [النساء: ٧٧]: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ﴾.

وفي [المائدة: ٦٣]: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾.

وفي [الأنعام: ٨]: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وفي [الأنعام: ٣٧]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾، وفي [الأنعام: ٤٣]: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾.

وفي [الأعراف: ٢٠٣]: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾.

وفي [يونس: ٢٠]: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وفي [يونس: ٩٨]: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾.

وفي [هود: ١٢]: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾، وفي [هود: ١١٦]: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

وفي [الرعد: ٧]: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.

وفي [الكهف: ١٥]: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾، وفي [الكهف: ٣٩]: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾.

وفي [طه: ١٣٣]: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، وفي [طه: ١٣٤]: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

وفي [النور: ١٢]: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ﴾.

وفي [الفرقان: ٧]: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وفي [الفرقان: ٢١]: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وفي [الفرقان: ٣٢]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾.

وفي [النمل: ٤٦]: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾.

وفي [القصص: ٤٧]: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ﴾، وفي [القصص: ٤٨]: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾.

وفي [العنكبوت: ٥٠]: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وفي [سجدة المؤمن: ٤٤]: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾.

وفي [الزخرف: ٣١]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، وفي [الزخرف: ٥٣] ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾.

وفي [الأحقاف: ٢٨]: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾.

وفي [سورة محمد: ٢٠]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.

وفي [الواقعة: ٥٧] ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، وفي [الواقعة: ٦٢]: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وفي [الواقعة: ٧٠]: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، وفي [الواقعة: ٨٣]: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، وفي [الواقعة: ٨٦]: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ﴾.

وفي [المجادلة: ٨]: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾.

وفي [المنافقون: ١٠]: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾.

وفي [نٓ: ٢٨]: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

● باب (من):

- **تكون صلة**: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

- وبمعنى **التبعيض**: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

- وبمعنى **عن**: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

- وبمعنى **الباء**: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

- **ولبيان الجنس**: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١].

- وبمعنى **على**: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

- وبمعنى **في**: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

● باب (الواو):

قال ابن فارس: لا تكون الواو زائدة **أولاً**[١]، وقد تزاد **ثانية**[٢]، نحو كوثر، **وثالثة**: نحو جدول، **ورابعة**: نحو قرنوة[٣]، وهو نبت يدبغ به الأديمُ، **وخامسة**: نحو قَمحدوة[٤].

- **والواو** في القرآن، تكون بمعنى **إذ**: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) أي: في أول الكلمة.

(٢) أي: في الحرف الثاني من الكلمة.

(٣) **القرنوة**: بالقاف والراء المهملة والنون كتَرْقُوَة.

(٤) **القَمَحْدُوَة**: بفتح القاف، والميم المفتوحة، والحاء المهملة والساكنة، والدال المهملة المضمومة، والواو المفتوحة، والتاء، وهي عظمة بارزة في مؤخر الرأس فوق القفا، أعلى القذال خلف الأذنين.

ـ وبمعنى **الجمع** : ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣] .

ـ وبمعنى **القسم** : ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٣] .

ـ وتكون **مضمرة** : ﴿لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ﴾ [التوبة: ٩٢]: المعنى أتوك وقلت.

ـ **وصلة** : ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] .

ـ وبمعنى **العطف** : ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٧] .

● باب (الهدى):

ـ يكون بمعنى **الإرشاد**[1] : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] .

ـ وبمعنى **البيان** : ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] .

ـ وبمعنى **الرسول** : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] .

ـ وبمعنى **السُّنَّة** : ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

ـ وبمعنى **الإصلاح** : ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] .

ـ وبمعنى **الدعاء**[2] : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] .

ـ وبمعنى **القرآن** : ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٩٤] .

ـ وبمعنى **الإيمان** : ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] .

ـ وبمعنى **الإلهام** : ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] .

ـ وبمعنى **التوحيد** : ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [القصص: ٥٧] .

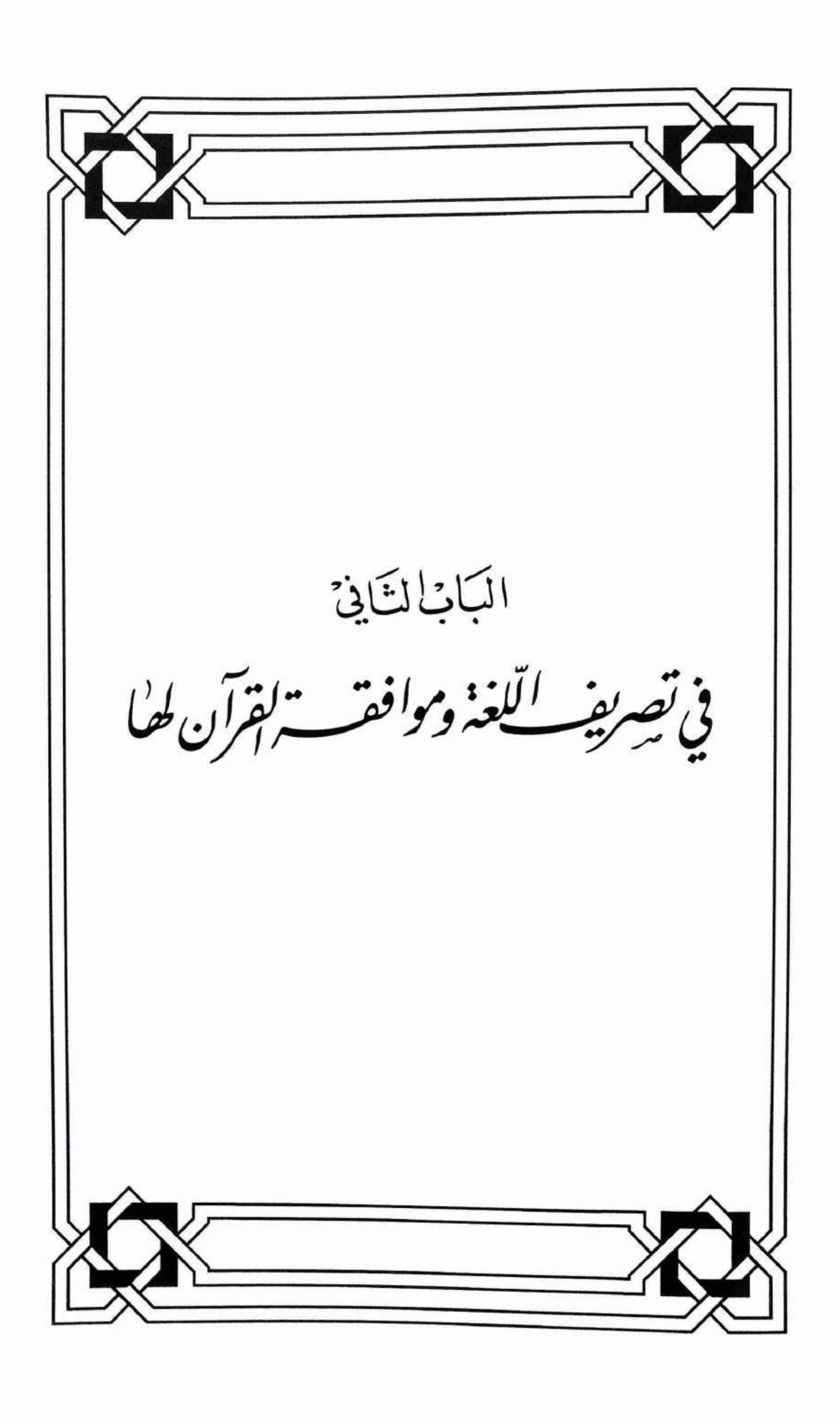
ـ وبمعنى **التوراة** : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣] .

* * *

---

(١) في (ب) الثبات بدل الإرشاد، وتفسير الهداية ـ هنا ـ بالثبات أدق.

(٢) أي: داع يدعوهم إلى الله.



البَابُ الثَّانِي

في تصريف اللغة وموافقة القرآن لها

فصل

[في انقسام اللغة إلى قسمين واشتمال القرآن عليهما][1]

لما كانت اللغة تنقسم قسمين:

أحدهما: **الظاهر الذي لا يخفى على سامعيه، ولا يحتمل غير ظاهره.**

والثاني: **المشتمل على الكنايات والإشارات والتجوزات، كان هذا القسم** هو المستحلى عند العرب.

وقد نزل القرآن بالقسمين، ليتحقق عجزُهم عن الإتيان بمثله، فكأنّه قال: عارِضوه بأي القسمين شئتم، ولو نزل كلُّه واضحاً لقالوا: هلاّ نزل بالقسم المستحلى عندنا، ومتى وقع في الكلام إشارة أو كناية أو استعارة أو تعريض أو تشبيه كان أحلى وأحسن.

قال امرؤ القيس:

وما ذرَفتْ عيناكِ إلاّ لِتَضْرِبي ... بِسَهْمَيْكِ في أعْشارِ قلبٍ مُقتَّلِ[2]

فشبه النظرَ بالسهم، فحلا هذا عندَ السامع.

وقال أيضاً:

فقلتُ لَهُ لمّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وأرْدَفَ أعْجَازاً وناءَ بكَلْكَلِ

فجعل لليل صُلباً وصدراً على جهة التشبيه.

وقال الآخر:

---

(١) زيادة من المحققين.

(٢) **سهميك**: مثَّل عينيها بسهمي الميسر: **المعلا**: وله سبعة أنصباء، **والرقيب**: وله ثلاثة أنصباء، فصار جميعُ أعشار قلبه للسهمين، ومثَّل قلبه بأعشار الجزور.

مِنْ كُمَيْتٍ[1] أجادَها طابخاها لَمْ تَمُتْ كلَّ موْتِها في القُدُوْرِ

أراد بالطابخين الليلَ والنهارَ.

فنزل القرآنُ على عادة العرب في كلامهم.

● فمن عادتهم **التجوّزُ**، وفي القرآن: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦]. ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧].

● ومن عاداتهم **الكناية**: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥][2]، ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣].

وقد **يكنون عن شيء ولم يجرِ له ذكر**: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

وقد **يصلون الكناية بالشيء وهي لغيره**: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون].

●ومن عاداتهم **الاستعارة**: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: ٢٩].

●ومن عاداتهم **الحذف**: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

●ومن عاداتهم **زيادة الكلمة**: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢].

ويزيدون الحرف: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

ويقدمون ويؤخرون: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا﴾ [الكهف].

ويذكرون عامّاً ويريدون به الخاص: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، يريد نُعيم بن مسعود.

وخاصّاً ويريدون به العام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

---

(١) **كُميت**: بضم الكاف وفتح الميم وسكون الباء: الخمرة، لما فيها من سواد وحُمرة.

(٢) قوله: **سرّاً**: أي نكاحاً.

وواحداً ويريدون به الجمع : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي ﴾ [الحجر: ٦٨]، ﴿ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴾ [غافر: ٦٧] .

وجمعاً ويريدون به الواحد : ﴿ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ ﴾ [التوبة: ٦٦] .

وينسبون الفعل إلى اثنين، وهو لأحدهما : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف: ٦١] ، ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] .

وينسبون الفعل إلى أحد اثنين، وهو لهما : ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢] ، ﴿ ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾ [الجمعة: ١١] .

وينسبون الفعل إلى جماعة وهو لواحد : ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا ﴾ [البقرة: ٧٢] .

ويأتون بالفعل بلفظ الماضي وهو مستقبل : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] .

ويأتون بلفظ المستقبل وهو ماض : ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩١] .

ويأتون بلفظ فاعل في معنى مفعول : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ [هود: ٤٣] ، ﴿ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴾ [الطارق: ٦] ، ﴿ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ [القارعة: ٧] .

ويأتون بلفظ مفعول بمعنى فاعل : ﴿ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ [مريم: ٦١] ، ﴿ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٥] ، ﴿ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠١] .

ويأتون بفعَّلت في التكثير : ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ [يوسف: ٢٣] ، **وفي التقليل :** ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

ويضمرون الأسماء : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ [الصافات: ١٦٤] ، **أي منزلة .**

ويضمرون الأفعال : ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا ﴾ [البقرة: ٧٣] **أي فضربوه .**

ويضمرون في الحرف : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] .

● ومن عاداتهم : **تكرير الكلام**، وفي القرآن : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] .

وقد يريدون **تكرير الكلمة**، ويكرهون إعادة اللفظ، فيغيرون بعض الحروف، وذلك يسمى **الإتباع**، فيقولون: (أسوان أتوان): أي حزين، وشيء (تافه نافه)، وإنه (لثقف لقف)، و(جايع نايع)، و(حِل وبلّ)، و(حيّاك الله وبيّاك)، و(حقير نقير)، و(عين حَدرة بَدرة): أي عظيمة، و(خضر نضر)، و(سمج لمج)، و(سيغ ليغ)، و(شَكِس لكس)، و(شيطان ليطان)، و(تفرقوا شذر مذر)، و(شغر بغر)، و(يوم علكّ لكّ) إذا كان يوماً حارّاً، و(عطشان نطشان) و(عفريت نفريت)، و(كثير بثير)، و(كَزْ لَزْ)، و(كن أن)، و(حار جار يار)، و(قبيح لقيح شقيح)، و(ثِقة تِقة نِقة)، وهو (أشق أمق جبقّ)، للطويل، و(حسن بسن قَسَنْ)، و(فعلت ذلك على رغمه ودغمه وشغمه)، و(مررت بهم أجمعين أكتعين أبصعين)[1].

* * *

(١) وقد أفرد العلماء هذا الباب بالتصنيف، من ذلك: (الإتباع) لأبي الطيب اللغوي، وقد نشره المجمع العلمي بدمشق، بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي؛ و(الإتباع والمزاوجة) لابن فارس، وقد نشرته وزارة الثقافة في سورية. (الناشر)

فصلٌ

ورودُ عبارتين متّصلتين لجهتين مختلفتين

وقد تأتي العرب بكلمة إلى جانب كلمة كأنها معها، وهي غيرُ متصلة بها.

وفي القرآن: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٠] هذا قول الملأ. فقال فرعون: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٠].

ومثله: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٥١]، فقال يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ٥٢].

ومثله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل: ٣٤] انتهى قول بلقيس، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤].

ومثله: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ [يس: ٥٢]. انتهى قول الكفار، فقالت الملائكة: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

* * *

فصلٌ

رجوعُ كلٍّ من المجتمعين إلى ما يليقُ به

وقد تجمعُ العربُ شيئين في كلام واحد، فترُدُّ كلَّ واحدٍ منهما إلى ما يليق به.

وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] . والمعنى يقول المؤمنون: متى نصر الله، فيقول الرسول: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ .

ومثله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] . فالسكون بالليل، وابتغاء الفضل بالنهار.

ومثله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] . فالتعزير والتوقير للرسول ﷺ، والتسبيح لله عزَّ وجلّ.

* * *

فصلٌ

مجيءُ البيانِ متصلاً بالمبيَّنِ ومنفصلاً عنه

وقد يحتاجُ بعضُ الكلام إلى بيانٍ، فيبيِّنُونَهُ متصلاً بالكلام تارةً، ومنفصلاً أخرى.

وجاء القرآن على ذلك:

- فمن **المتصل** بيانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤].

- وأما **المنفصل**: فتارة يكون في **السورة** كقوله في [براءة: ٩٤]: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾، بيانه فيها عند قوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [براءة: ٤٧].

وتارة يكون في غير السورة: كقوله في [البقرة: ٤٠]: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، بيانه في [المائدة: ١٢]: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾.

وفي سورة [النساء: ١٤٢]: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾، بيانه في [الحديد: ١٣]: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾.

وفي [الأعراف: ٣٧]: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾، بيانه في [تبارك: ٩]: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾.

وفي [الأعراف: ٣٧]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾، بيان النصيب في [الزمر: ٦٠]: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾.

وفي [الأعراف: ١٣٧]: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾، بيانها في [القصص: ٥]: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾.

وفي [براءة: ١١٤]: ﴿ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ ، بيانها في [مريم: ٤٧]: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ .

وفي [يونس: ٧١] ﴿ وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ، بيانها في [نوح: ١٥]: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ .

وفي [يونس: ٦٤]: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ، بيانه في [حمّ السجدة: ٣٠]: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ .

وفي [إبراهيم: ٤٤]: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ، بيانه في [النحل: ٣٨]: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ ﴾ .

وفي [إبراهيم: ٤٥]: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ، بيانه في [العنكبوت: ٤٠]: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ .

وفي [النحل: ١١٨]: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ ، بيانه في [الحجر: ٤٠]: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

وفي [مريم: ٨٣]: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، بيانه في [بني إسرائيل: ٦٤]: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ .

وفي [طه: ٤٤]: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ ، بيانه في [النازعات: ١٨]: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

وفي [طه: ٩٤]: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ ، بيانه في [الأعراف: ١٤٢]: ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ .

وفي [النمل: ٤٥]: ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ، بيان خصومتهم في [الأعراف: ٧٥]: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وفي [الأحزاب: ٢٢]: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ، بيان الوعد في [آل عمران: ١٤٢]: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ .

وفي [الصافات: ٧٥]: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ ، بيانه في [القمر: ١٠]: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ .

وفي [الصافات: ٣١]: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ﴾ ، بيانه في [سورة صٓ: ٨٥]: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ .

وفي [الصافات: ١٧١]: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ ، بيانه في [المجادلة: ٢١]: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ .

وفي [المؤمن: ١١]: ﴿ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ ، بيانه في [البقرة: ٢٨]: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

وفي [المؤمن: ٣٢]: ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ ، بيانه في [الأعراف: ٤٤]: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ، و[الأعراف: ٥٠]: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

وفي[المجادلة: ١٨]: ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ ﴾ ، بيانه في [الأنعام: ٢٣]: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

وفي [نٓ: ٤٨]: ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ ، بيانه في [الأنبياء: ٨٧]: ﴿ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ .

* * *

فصلٌ

مجيءُ جوابِ الكلامِ مقارِناً له، أو بعيداً عنه

وقد تذكر العرب جوابَ الكلام مقارِناً له، وقد تذكره بعيداً عنه.

وعلى هذا ورد القرآن.

ـ فأما **المقارن** من الجواب؛ كقوله في [البقرة: ١٨٩]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، و[البقرة: ٢١٩]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ـ وأما **البعيد** فتارة يكون في السورة، كقوله في [الفرقان: ٧]: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، جوابه فيها [الفرقان: ٢٠]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾

وتارة يكون **في غير** السورة؛ كقوله سبحانه وتعالى في [الأنفال: ٣١]: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾، جوابه في [بني إسرائيل: ٨٨]: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

في [الرعد: ٤٣]: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، جوابه في [يٰس: ٣]: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

في [الحجر: ٦]: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، جوابه في [نٓ: ٢]: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

في [بني إسرائيل: ٩٢]: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، جوابه في [سبأ: ٩]: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

في [الفرقان: ٦٠]: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، جوابه في [الرحمن]: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

في [سورة ص: ٦]: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، جوابه في [حمٓ السجدة: ٢٤]: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

في [المؤمن: ٢٩]: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، جوابه في [هود: ٩٧]: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

في [الزخرف: ٣١]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، جوابه في [القصص: ٦٨]: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.

في [الدخان: ١٢]: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾، جوابه في [المؤمنون: ٧٥]: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

في [القمر: ٤٤]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، جوابه في [الصافات: ٢٥]: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

في [الطور: ٣٣]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾، جوابه في [الحاقة: ٤٤]: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾.

* * *

فصلٌ

تصرُّفُ العرب في اللفظ بالحركات، والإعجامِ، والقلْبِ

واعلم أنَّ لغة العربِ واسعةٌ، ولهم التصرُّف الكثيرُ:

- فتراهم يتصرّفون في اللفظة الواحدة **بالحركات**، فيجعلون لكلِّ حركة معنى كالحِمْل والحَمل[1]، والرُّوح والرَّوْح[2].

- وتارة **بإعجام**: كالنضح والنضخ[3]، والقبضة والقبصة[4]، والمضمضة والمصمصة[5].

- **وتارة يقلبون حرفاً من كلمة ولا يتغير عندهم معناه**، كقولهم: صاعقة وصاقعة، وجَبَذ وجذب، وما أطيبه وأيطبه، وربض ورضب، وأنبَض في القوس وأنضب، ولعمري ورعملي، واضمحل وامضحل، وعميق ومعيق، وسبسب وبسبس، ولبكت الشيء وبلكته، وأسير مكلب ومكبل، وسحاب مكفهر ومكرهف، وناقة ضمرز وضرزم إذا كانت مسنة، وطريق طامس وطاسم، قفا الأثر وقاف الأثر، وقاع البعير الناقة وقعاها، وقوس عطل وعلط (لا وتر عليها)، وجارية قتين وقنيت (قليلة الدر)، وشرخ الشباب وشخره (أوله)، ولحم خنز وخزن، وعاث يعيث وعَثِي يَعْثى (إذا أفسد)، وتنح عن لقم الطريق ولمق الطريق،

---

(١) بكسر الحاء في الأول، وفتحها في الثاني.

(٢) بضم الراء في الأول، وفتحها في الثاني.

(٣) النضح بالحاء المهملة أقل من النضخ بالخاء المعجمة.

(٤) القبضة بالضاد المعجمة في الكف، وبالصاد المهملة في الأصابع.

(٥) المضمضة بالمعجمتين ملأ الفم، وبالمهملتين بطرف الشفاه.

وبطيخ وطبيخ، وماء سلسال ولسلاس، ومسلسل وملسلس (إذا كان صافياً)، ودقم فاه بالحجر ودمقه (إذا ضربه)، وفثأت القدر وثفأتها (إذا سكَّنْت غليانها)، وكبكبت الشيء وبكبكته (إذا طرحت بعضه على بعض).

* * *

فصلٌ

التصرفُ في إطلاقِ الأسماءِ ودقتها

ومن سَعةِ اللغة وحسنِ تصرُّفها، أنَّ العربَ تضعُ للشيءِ أسماءَ من غيرِ تغيُّرٍ يعتريه، **فيقولون**: السيف، والمهند، والصارم.

ويغيرون الاسم بتغير يعتريه **فيقولون** لمن ينزل في الركي[1] يملأ الدلو: مايح، وللمستقي من أعلاها: ماتح، فالتاءُ المعجمة من فوق لمن فوق، والياء المعجمة من تحت لمن تحت.

وتضع العرب للشيء الواحد أسماء تختلف باختلاف محالّه، **فيقولون** لمن انحسرَ الشَّعرُ عن جانبي جبهته: **أنزع**، فإذا زادَ قليلاً قالوا: **أجلح**، فإذا الانحسارُ نصَّفَ رأسه قالوا: **أجلى، وأَجْلَهُ**، فإذا زاد قالوا: **أصلع**، فإذا ذهبَ الشعرُ كلُّه قالوا: **أحص، والصلع** عندهم: ذهاب الشعر، **والقرع**: ذهاب البشرة.

ويقولون: شـفةُ الإنسان، ويسـمّونها من ذوات الخف: **المشْفر**، ومن ذوات الظِّلف: **المِقَمَّة**، ومن ذوات الحافر: **الجَحْفَلَة**، ومن السباع: **الخَطْم**، ومن ذوات الجناحِ غير الصائد: **المنقار**، ومن الصائد: **المِنْسَر**، ومن الخنزير: **الفِنْطيسة**.

ويقولون: صدر الإنسان، ويسمونه من البعير: **الكركرة**، ومن الأسد: **الزَّور**، ومن الشاة: **القَصّ**، ومن الطائر: **الجُؤجؤ**، ومن الجرادة: **الجَوْشَن**.

والثدي للمرأة، وللرجل: **ثَنْدُوَة**، وهو من ذوات الخف: **الخَلْف**، ومن ذوات الظِّلف: **الضَّرْعُ**، ومن ذوات الحافر والسباع: **الطَّبي**.

---

(١) **الركي**: جنس للركية، وهي: البئر.

والظُّفر للإنسان، وهو من ذوات الخف: **المِنْسم**، ومن ذوات الظِّلف: **الظِّلف**، ومن ذوات الحافر: **الحافر**، ومن السباع والصائد من الطير: **المِخْلب**، ومن الطير غير الصائد والكلاب ونحوها: **البُرْثُن**، ويجوز البُرْثن في السباع كلها.

والمعدة للإنسان بمنزلة **الكَرِش** للأنعام، **والحَوْصلة** للطائر[1].

* * *

(١) انظر في هذا الفصل والذي بعده كتاب: (فقه اللغة سِرُّ العربية) لأبي منصور الثعالبي.

فصلٌ

اختلافُ الأسماءِ باختلاف أحوال المسمّى

وتُفَرِّقُ العربُ في الشهوات، **فيقولون**: **جائع في الخبز**، **قَرِم إلى اللحم**، **عطشان إلى الماء**، **عَيْمان إلى اللبن**، **قَرِد إلى التمر**، **جَعِم إلى الفاكهة**، **شبق إلى النكاح**.

ويقولون: **البيض** للطائر، **والمُكْنُ** للضِّباب، **والمازن** للنمل، **والسَّرو** للجراد، **والصؤاب** للقمل.

ويفرقون في المنازل، فإن كان من مَدَر، قالوا: **بيت**، وإن كان من وبر، قالوا: **بجاد**، وإن كان من صوف، قالوا: **خِباء**، وإن كان من الشعر، قالوا: **فُسْطاط**، وإن كان من غَزْل، قالوا: **خَيْمة**، وإن كان من أدَم، قالوا: **قِشَع**. مفرده قَشع[1].

ويفرقون في الأوطان، **فيقولون**: **وطنُ الإنسانِ**، **وعَطَنُ البعيرِ**، **وعرينُ الأسدِ**، **ووِجَارُ** الذئب والضَّبُع، **وكِنَاس** الظبي، **وعُشُّ** الطائر، **وقرية** النمل، **وكُوّر** الزنابير، **ونافقّاء** اليُرْبوع.

ويقولون لما يضعه الطائر على الشجر: **وَكْر**، فإن كان على جبلٍ أو جدارٍ فهو: **وَكْن**، وإذا كان في كِن فهو: **عش**، وإذا كان على وجه الأرض فهو: **أُفْحوصٌ**، والأُدْحيُّ للنعام خاصة.

ويقولون: **عَدا** الإنسانُ، **وأحضرَ** الفرس، **وأرْقلَ** البعير، **وعسَّلَ** الذئب، **ومَزَع** الظَّبْيُ، **وزَفَّ** النعام.

---

(١) **قشْع**: على وزن فَلْس.

ويقولون: **طَفَر** الإنسان، **وضَبَر** الفرس، **ووَثَبَ** البعير، **وقَفَز** العصفور، **وطَمَر** البرغوثُ.

ويفرقون في أسماء الأولاد، **فيقولون** لولد كل سَبُع: **جَرْوٌ**، ولولد كل ذي ريش: **فرخٌ**، ولولد كل وحشية: **طِفْل**، ولولد الفرس: **مُهْرٌ وفَلُوٌ**، ولولد الحمار: **جَحْش وعفو**، ولولد البقرة: **عجل**، ولولد الأسد: **شبل**، ولولد الظبية: **خِشْف**، ولولد الفيل: **دَغْفَل**، ولولد الناقة: **حُوَار**، ولولد الثعلب: **هجرس**، ولولد الضب: **حِسْل**، ولولد الأرنب: **خِرِنْق**، ولولد النعام: **رَأْلٌ**، ولولد الدُّب: **دَيسم**، ولولد الخنزير: **خنَّوْص**[1]، ولولد اليَرْبُوع والفأرة: **دِرْصٌ**، ولولد الحية: **حَرِيش**.

ويفرِّقون في الضرب، **فيقولون** للضرب بالراح على مقدم الرأس: **صقعٌ**، وعلى القفا: **صفْعٌ**، وعلى الوجه: **صكٌّ**، وعلى الخد ببسط الكف: **لطمٌ**، وبقبضها: **لَكْمٌ**، وبكلتا اليدين: **لدْمٌ**، وعلى الذقن والحنك: **وهْزٌ**، وعلى الجنب: **وَخْزٌ**، وعلى الصدر والبطن بالكف: **وَكْزٌ**، وبالركبة: **زبْنٌ**، وبالرجل: **ركْلٌ**، وكل ضارب بمؤخرِه من الحشرات كلها كالعقارب: **لسعٌ**، وكل ضارب منها بفيه: **لدغٌ**.

ويفرّقون في الكشفِ عن الشيء من البدن، **فيقولون**: **حسرَ** عن رأسه، **وسفرَ** عن وجهه، **وافترَّ** عن نابه، **وكشَّر** عن أسنانه، **وأبدى** عن ذراعيه، **وكشفَ** عن ساقيه، **وهتك** عن عورته.

ويُفرِّقون في الجماعات؛ **فيقولون**: **موكب** من الفرسان، **وكَبْكَبة** من الرجال، **وجوْقة** من الغلمان، **ولمَّةٌ** من النساء، **ورعيل** من الخيل، **وصَرْمة** من الإبل، **وقطيع** من الغنم، **وسِرْب** من الظباء، **وعرْجَلة** من السباع، **وعِصابة** من الطير، **ورِجْل** من الجراد، **وخَشْرمٌ** من النحل.

ويفرقون في الامتلاء **فيقولون**: بحر **طام**، ونهر **طافح**، وعين **ثرَّة**، وإناء **مفعَمٌ**، ومجلس **غاصٌّ** بأهله.

---

(١) كجردحل، وجمعه: خنانيص.

ويفرِّقون في اسم الشيء الليّن؛ **فيقولون**: ثوب **لَيِّن**، ورمح **لدْن**، ولحم **رَخْص**، وريح **رُخَاء**، وفراش **وثير**، وأرض **دَمِثة**.

ويفرقون في تغيّر الطعام وغيره، **فيقولون**: **أرْوَحَ** اللحم، **وأسِنَ** الماء، **وخنِز** الطعام، **وسَنِخَ** السمن، **وزنِخَ** الدهن، **وقتِم** الجوز، **ودَخِن** الشراب، **وصدِئ** الحديد، **ونَغِل** الأديم.

ويقولون: يدي من اللحم **غمِرة**، ومن الشحم **زَهِمة**، ومن البيض **زَهِكَة**، ومن الحديد[1] **سَهِكَة**، ومن السمك **صَمِرة**، ومن اللبن والزبد **شتِرة**، ومن الثريد **مردة**، ومن الزيت **قنِمة**، ومن الدهن **زَنِخَة**، ومن الخل **خَمِطة**، ومن العسل **لزِقة**، ومن الفاكهة **لزِجَة**، ومن الزعفران **ردِغة**، ومن الطين **وَدِغَة**، ومن العجين **وَدِخَة**، ومن الطيب **عبِقة**، ومن الدم **ضَرِجة وسَطِلة وسَلِطة**، ومن الوحل **لَثِقَة**، ومن الماء **بلِلَة**، ومن الحمْأةِ **ثَئِطة**، ومن البَرَد **صرِدة**، ومن الأشنان **قضِضة**، ومن المداد **وَجِدة**، ومن البزر والنفط **نَمِشَة ونَثِمَة**، ومن البول **قَتِمَة**، ومن العذرة **طَفِسة**، ومن الوسخ **دَرِنة**، ومن العمل **مَجِلة**.

ويفرقون في الوسخ، فإذا كان في العين قالوا: **رَمَصٌ**، **فإذا** جف قالوا: **غَمَص**، فإذا كان في الأسنان قالوا: **حَفَر**، فإذا كان في الأذن فهو: **أفٌّ**، وإذا كان في الأظفار فهو: **تُفٌّ**، وإذا كان في الرأس قالوا: **حَزازٌ**، وهو في باقي البدن: **دَرَن**.

ويقولون: في الريـاح: فإذا وقعت الريحُ بين ريحين فهي: **نَكْبـاء**، فإذا وقعت بين الجنوب والصَّبا فهي: **الجِرْبِيَاء**، فإذا هَبَّتْ من جهات مختلفة فهي: **المتناوِحَة**، وإذا جاءت بنَفَس ضعيف فهي: **النسيم**، فإذا كانت شديدة فهي: **العاصف**، فإذا قويت حتى قلعتِ الخيامَ فهي: **الهَجُوم**، فإذا حركت الأشجار تحريكاً شديداً وقلعتها فهي: **الزَّعْزَع**، فإذا جاءت بالحصباء فهي: **الحاصِب**، فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء فهي: **الإعصار**، فإذا جاءت بالغبرة فهي: **الهَبْوَة**، فإذا كانت باردة فهي: **الحَرْجَف والصَّرْصَر**، فإذا كان مع بردها

---

(١) **من الحديد**: أي: من صدئه.

ندى فهي : **البَليل**، فإذا كانت حارَّة فهي : **السَّمُوم**، فإذا لم تُلْقح ولم تحمل مطراً فهي : **العقيم**.

ويفرّقون في المطر، فأوله **رشٌّ**، ثم **طشٌّ**، ثم **طل**، ورذاذ، ثم **سحٌّ**، ثم **نضخ**، ثم **هطل**، **وتهتان**، ثم **وابل**، وجود.

فإذا أحيا الأرض بعد موتها فهو : **الحيا**، فإذا جاء عقيب المحل أو عند الحاجة فهو : **الغيث**.

وإن كان صغار القطر فهو : **القَطْقِط**، فإذا دامَ مع سكون فهو : **الدّيمة**، فإذا كان عامّاً فهو **الجَدا**، وإذا روّى كلَّ شيء فهو : **الجود**، فإذا كان كبير القطر فهو : **الهطل**، و**التهتان**، فإذا كان ضَخْمَ القطر شديد الوقع فهو : **الوَبْل**.

ويقولون : **هَجْهَجْت** بالسباع، **وشايعت** بالإبل، **ونَعَقت** بالغنم، و**سأسَأت** بالحمار، **وهَأهَأت** بالإبل: إذا دعوتها للعلف، **وجأجأت** بها : إذا دعوتها للشرب، و**أشليت** الكلب : دعوته، و**أسدته** : أرسلته.

ويفرقون في الأصوات فيقولون: **رغا** البعير **وجرْجَر** **وهدر** **وقبقب**، **وأطلت** الناقة، **وصهل** الفرس **وحمْحم**، **ونهم** الفيل، **ونهَق** الحمار **وسَحَل**، **وسَحِج** البغل، **وخارت** البقرة **وجأرت**، **وثاجت** النعجة، **وثغت** الشاة **ويَعَرت**، **وبَغَم** الظبي **ونَزَب**، **ووعوع** الذئب، **وضَبَح** الثعلب، **وضَغَت** الأرنب، **وعوى** الكلب **ونبح**، **وصَأت** السِّنَّوْر، **وضَأت** الفأرة، **وفحَّت** الأفعى، **ونعق** الغراب **ونَعَب**، **وزقا** الديك **وسقَع**، **وصَفَر** النسر، **وهدَر** الحمام **وهدل**، **وغرَّد** المكّاء، **وقبَع** الخنزير، **ونقَّت** العقرب، **وأنقَضَت** الضفادع **ونَقّتْ**، **وعَزَفت** الجن.

* * *

فصل

اختلافُ الأوصاف باختلاف الموصوف

وتقولُ العربُ في الأمـر: **وهْنٌ**، وفي الثـوب: **وهيٌ**.

وفي الحساب: **غَلَتٌ**، وفي غيره: **غَلَط**.

من الطعام: **بَشَمٌ**، ومن الماء: **بَغَرٌ**.

وحلا الشيء في فمي، وحَلِيَ في عيني.

* * *

فصل

اختلافُ الأسماءِ مع اتفاقِ الأحوال

المراهق من الغلمان بمنزلة **المُعصِر** من الجواري .

والحَزَوَّر من الصبيان بمنزلة **الكاعب** .

والكهل من الرجال بمنزلة **النَّصَف** من النساء .

والقارح من الخيل بمنزلة **البازل** من الإبل .

والعجل من البقر ، **والشادن** من الظباء ، **كالناهضِ** من الفراخ .

والبِكر من الإبل بمنزلة الفتى ، **والقَلُوص** بمنزلة الجارية ، **والجمل** بمنزلة الرجل ، **والناقة** بمنزلة المرأة ، **والبعير** بمنزلة الإنسان .

والغـرْز للجمل **كالركـاب** للفرس ، **والغُدّة** للبعيـر **كالطاعون** للإنسـان ، **والهالـة** من القمر **كالدّارة** من الشمس ، **والبصيرة في القلب كالبصر في العين** ، **والأسباط** في بني إسحاق **كالقبائل** في بني إسماعيل ، **وأرداف** الملوك في الجاهلية **كالوزراء** في الإسلام ، **والأقيال** لحِمْير **كالبطارق** للروم ، **والقواد** للعرب .

* * *

فصل

للعربِ في ألفاظِها عامٌّ وخاصٌّ

وللعرب خاصٌّ وعامٌّ:

فالبغض عام، **والفَرْك** بين الزوجين خاص.

والنظر إلى الأشياء عام، **والشَّيْم** إلى البرق خاص.

الصُّراخ عام، **والواعية** على الميت خاص.

الذنَب للحيوان والبهائم عام، **والذُّنابى** للفرس خاص.

السير عام، **والسُّرى** بالليل خاص.

الهرب عام، **والإباق** للعبيد خاص.

الرائحة عام، **والقُتَار** للشواء خاص.

* * *

فصل

أسماءُ تطلقُ على مسمّياتها بشروط

ومن جملة المُسلَّم للعرب: أنهم لا يقولون **مائدة** إلا إذا كان عليها طعام، وإلاّ فهي: **خِوَان**.

ولا للعظم **عِرْق** إلا ما دام عليه لحم.

ولا **كأس** إلا إذا كان فيه شراب، وإلا فهي: **زجاجة**.

ولا **كوز** إلا إذا كانت له عُرْوة، وإلا فهو: **كوب**.

ولا **رُضاب** إلا إذا كان في الفم، وإلا فهو: **بصاق**.

ولا **أريكة** إلا للسرير إذا كان عليه قُبة، فإن لم يكن عليه قبة فهو: **سرير**.

ولا **ريطة** إلا إذا كانت لفْقتين ، وإلا فهي: **مِلاءة**.

ولا **خِدْر** إلا إذا كان فيه امرأة، وإلا فهو: **ستر**.

ولا للمرأة **ظعينة** إلا إذا كانت في الهودج.

ولا **قلم** إلا إذا كان مبرياً، وإلا فهو: **أنبوب**.

ولا **عِهن** إلا إذا كان مصبوغاً، وإلا فهو: **صوف**.

ولا **وقود** إلا إذا اتقدت فيه النار، وإلا فهو: **حطب**.

ولا **رَكيّة** إلا إذا كان فيه ماء، وإلا فهي **بئر**.

ولا للإبل **راوية** إلا ما دام عليها الماء.

ولا للدلو **سَجْل** إلا ما دام فيه الماء.

ولا **ذَنوب** إلا ما دامت ملأى .

ولا **نَفَق** إلا إذا كان له منفذ ، وإلا فهو : **سَرَب** .

ولا **لسرير نعشٌ** إلا ما دام عليه الميت .

ولا **للخاتِم** خاتِم إلا إذا كان عليه فَصٌّ .

ولا **رُمح** إلا إذا كان له زَجٌّ وسِنان ، وإلا فهو : **أنبوب وقناة**.

ولا **لطيمَة** إلا للإبل التي تحمل الطِّيْبَ والبزَّ خاصة .

ولا **حمولة** إلا للتي تحمل الأمتعة خاصة .

ولا **بدنة** إلا للتي تُجعل للنحر .

ولا **رَكْب** إلا لركبان الإبل .

ولا **هضبة** إلا إذا كانت حمراء .

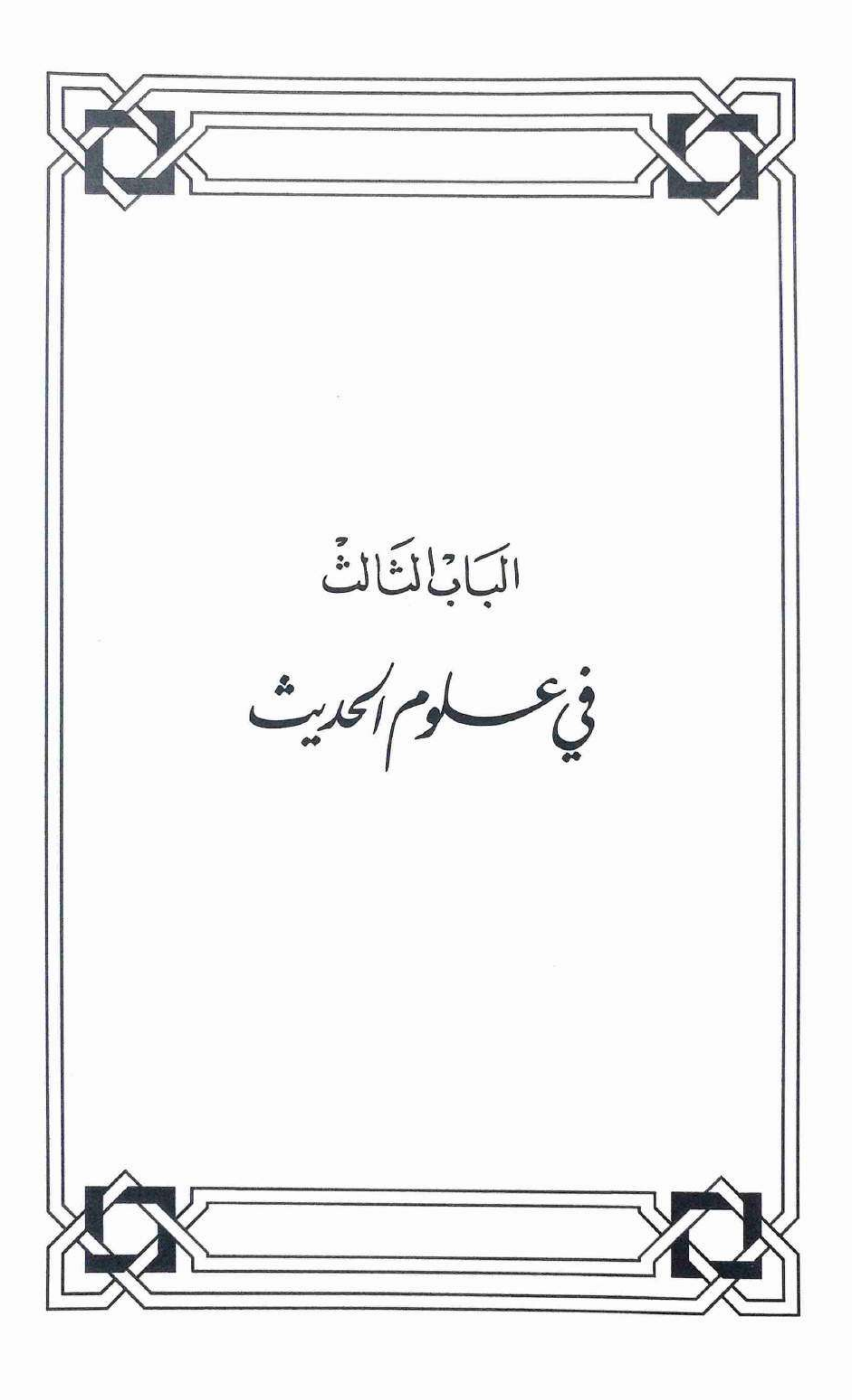
ولا **يقال غيث** إلا إذا جاء في إبّانه[1] ، وإلا فهو : **مطر** .

ولا يقال **عُشٌّ** حتى يكونَ عيداناً مجموعةً ، فإذا كان نَقْباً في جَبلٍ أو حائط فهو : **وكر ، ووكن**.

* * *

---

(١) **إبّانه** : أي جاء في وقته .



البَابُ الثَالِثُ

في علوم الحديث



فصل

في ذكر نبينا محمد ﷺ

● ذكر نسبه ﷺ:

هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَناف بن قُصيّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان[1] بن إدّ بن أُدد بن زيد بن يَقدر بن يَقدم ين الهُمَيْسَع بن النَّبْت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالَخ بن أرْفَخشذ بن سام بن نوح بن لامك بن متوَشلَح بن أخنوخ بن يارد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

● ذكرُ أسمائه ﷺ:

هو محمد ﷺ، وأحمد، والماحي، والحاشر [والعاقب[2]، والمقفّي، ونبيُّ الرحمة، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الملاحم، والشاهد، والبشير، والنذير،

---

(١) حكي عن النبي ﷺ أنه كان إذا انتسب لم يتجاوز عدنان، روى مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم**».
وقال ابن كثير في (السيرة): «هذا النسبُ (أي إلى معد بن عدنان) لا خلافَ فيه بين العلماء، وقد حرّره ابنُ إسحاق وابنُ عساكر، كذلك حرر الكلامَ فيه أبو جعفر بن جرير رحمه الله في أول تاريخه، وجاء بالنافع الجيد» انظر: ١/ ١٨٣.

(٢) هذه الأسماء وردت في صحيح البخاري: ٤/ ١٦٢.

والضَّحوك، والقتّال، والمتوكل، والفاتح، والخاتم، والمصطفى، والرسول، والنبيّ، والأميّ، والقُثم].

فالعاقب آخر الأنبياء، والمقفي تبع الأنبياء، والضحوك صفته في التوراة، لأنه كان طيِّبَ النفس فكِهاً، والقُثَم من القَثْم: وهو الإعطاء.

● ذكر عمومته ﷺ:

الحارث، والزُّبير، وأبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، والغَيْداق، والمُقَوِّم، وضِرار، والعبَّاس، وقُثم، وحِجْل واسمه المغيرة.

● ذكر عماته ﷺ:

أمُّ حكيم وهي البيضاء، وبَرّة، وعاتكة، وصَفِيَّة، وأروى، وأُميمة. وأسلمت صَفيّة، واختلف في عاتكة وأروى وأميمة.

● ذكر أزواجه ﷺ:

تزوَّج خديجةَ، ثم سَوْدة، ثم عائشة، ثم حَفْصة، ثم أمَّ سلمة، ثم جُويْرية، ثم زينبَ بنت جحش، ثم زينبَ بنت خُزيمة، ثم أمَّ حَبيبة، ثم صَفيَّة، ثم ميمونة. فماتت خديجةُ وزينب بنت خُزيمة في حياته، وتوفي عن التسع البواقِ.

● ذكر أولاده ﷺ:

القاسم، وعبدُ الله ـ وهو الطيِّب والطاهر ـ، وإبراهيم، وفاطمة، وزينب، ورُقيّة، وأُمُّ كُلْثوم.

● ذكر مواليه ﷺ:

أسْلَم، ويُكنى أبا رافع، أو آخر والد البهي، حُمران، أنسة، أُسامة، أفلح، ثوبان، ذكوان، رافع [رباح][1]، زيد بن حارثة، سلمان، سالم، سليم، سابق، سعيد، شُقران واسمه صالح، ضميرة، عبيد الله، عبيد، فضالة، كيسان، مهران وهو سَفينة، وقيل اسمه: سفينة، وقيل: رومان، وقيل: عبس، مِدْعم،

---

(١) زيادة من (ب).

نافع، نفيع وهو أبو بكرة، نبيه، واقد، وَردان، هشام، يسار، أبو أثيلة، أبو الحمراء، أبو ضميرة، أبو عبيد، أبو مُوَيهبة، أبو واقد، أبو لُبابة، أبو لقيط، أبو هند، سابورا.

● ذكر مؤذّنيه ﷺ:

بلال، وسعد، وابن أم مكتوم، وأبو محذورة.

● ذكر كتّابه ﷺ:

أبو بكر، عمر، عثمان، علي، أُبيّ، زيد، معاوية، حنظلة، خالد بن سعد، أبان بن سعيد، العلاء بن الحضرمي، وكان المداومَ على الكتابة زيدٌ ومعاوية.

● ذكر نقباء الأنصار رضي الله عنهم:

أسعدُ بن زرارة، أُسيد بن حضير، البراء بن مَعْرور، رافع بن مالك، سعد ابن خَيْثمة، سعد بن الربيع، عبد الله بن رواحة، عبد الله بن عمرو بن حرام، عُبادة بن الصامت، سعد بن عُبادة، المنذر بن عمرو، أبو الهيثم بن التيهان، ونَقَّب النبي ﷺ على النقباءِ أسعدَ.

● تسمية من جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله ﷺ:

عثمانُ بن عفان، أُبي، معاذ بن جبل، أبو الدرداء، زيد بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، قال ابن سيرين: وتميم الداري، وقال القرطبي: وعُبادة بن الصامت، وأبو أيوب.

● تسمية من كان يفتي على عهد رسول الله ﷺ:

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن مسعود، وأُبي، ومعاذ، وعمار، وحُذيفة، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو موسى، وسلمان.

● تسمية من تأخر موته من الصحابة رضي الله عنهم:

آخر من مات من **أهل العقبة**: جابر بن عبد الله بن عمرو، **ومن أهل بدر**: أبو اليسر، ومن **المهاجرين**: سعد بن أبي وقاص، **وهو آخر العشرة موتاً**، وآخر

من مات بمكة من الصحابة: ابن عمر، **وبالمدينة**: سهل بن سعد بن معاذ، **وبالكوفة**: عبد الله بن أبي أوفى، **وبالبصرة**: أنس بن مالك، **وبمصر**: عبد الله بن الحارث بن جُزْء، **وبالشام**: عبدالله بن بُسْر، **وبخراسان**: بُريدة، **وآخر الناظرين إلى رسول الله ﷺ موتاً**: أبو الطفيل عامر بن واثلة.

● تسمية فقهاء المدينة السبعة رضي الله عنهم:

سعيد بن المسيِّب، والقاسم، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وخارجة، وعبيد الله بن عبد الله، وعُروة، وسليمان بن يسار.

* * *

منتخب من ذِكر الأوائل

أوَّل ما خلق الله : **القلم** .

أول جبل وضع في الأرض : **أبو قبيس** .

أول مسجد وضع في الأرض : **المسجد الحرام** .

أول ولد آدم : **قابيل** .

أول من خط وخاط : **إدريس** .

أول من اختتن وضاف : **إبراهيم** .

أول من ركب الخيل وتكلم بالعربية : **إسماعيل** .

أول من عمل القراطيس : **يوسف** .

أول من سرد الدروع وقال : أمّا بعد : **داود** .

أول من صبغ بالسواد : **فرعون** .

أول من دخل الحمام وعمل الصابون : **سليمان** .

أول من طبخ الآجر : **هامان** .

● فصل أوليّـات في الجاهلية:

أول من سيَّب السوائب : **عمرو بن لحي** .

أول من سَنَّ الدية مئةً من الإبل : **عبد المطلب** .

أول من قطع في السرقة في الجاهلية، وقضى بالقَسامة، وخلع نعليه عند دخول الكعبة : **الوليد بين المغيرة** .

أول من قضى في الخُنثى من حيث يبول : **عامر بن الظرب** .

أول عربي قسم للذكر مثل حظ الأنثيين : **عامر بن جُشَم** .

● **فصل أوليّـات في الإسلام:**

أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

أول آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩].

أول من أسلم من الرجال: **أبو بكر**، ومن الصبيان: **علي**، ومن الموالي: **زيد**، ومن النساء: **خديجة**، ومن الأنصار: **جابر بن عبد الله بن رباب**.

أول من هاجر إلى الحبشة: **حاطب بن عمرو**، وإلى المدينة: **مصعب بن عمير**، ومن النساء: **أم كلثوم بنت عقبة**.

أول من بايع ليلة العقبة: **أسعد بن زرارة**، أول من بايع بيعة الرضوان: **أبو سنان الأسدي**.

أول من أذن: **بلال**.

أول من بنى مسجداً في الإسلام: **عمَّار**.

أول من سل سيفاً في الإسلام: **الزبير**.

أول من عدا بفرسه في سبيل الله: **عبد الله بن جحش**، وهو أول من دُعيَ بأمير المؤمنين.

أول شهيد في الإسلام: **سُمَيَّة**.

● **فصل أوائل متفرقة:**

أول ظِهار كان في الإسلام: ظهارُ **أوس بن الصامت** من المجادِلة.

أول خُلْعٍ كان في الإسلام: خُلْع **حبيبة بنت سهل** من ثابت بن قيس.

أول لِعان كان في الإسلام: لعان **هلال بن أمية** مع زوجته.

أول مرجوم كان في الإسلام: **ماعز**.

أول من سَنَّ الصلاة عند القتل: **خُبيب**.

أول من أوصى بثلث ماله: **البراء بن معرور**.

أول من دفن بالبقيع: **عثمان بن مظعون**.

● **فصل أوائل متنوعة:**

أول من جمع القرآن: **أبو بكر**.

أول من قصّ: **تميم**.

أول من وضع النحو: **أبو الأسود**.

أول من نقّط المصحف: **يحيى بن يعمر**.

● **فصل أوليّـات مستقبلية:**

أول ما يُرفع من الناس: **الخشوع**.

أول ما تفقدون من دينكم: **الأمانة**.

أوَّل الآيات: **طلوعُ الشمس من مغربها**[1].

أول من تنشق عنه الأرض: نبيّنا **محمد** ﷺ. وهو أول من يقرع باب الجنة، وأول شافع، وأول مشفَّع.

أول من يُكسى: **إبراهيم**.

أول ما يحاسب به العبد: **الصلاة**.

أول أُمَّةٍ تدخل الجنة: **أمّة نبينا محمد** ﷺ.

* * *

---

(١) ليس هناك من الأدلة ما يقطع بأن أولّ علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها. انظر: (التصريح بما تواتر في نزول المسيح) للإمام الكشميري، ص١٣٢.

منتخب في ذكر المنسوبين إلى غير آبائهم

ـ فمن المنسوبين إلى أمهاتهم :

بلال بن حمامة ، واسم أبيه : رباح .

ابن أم مكتوم ، واسم أبيه : عمرو .

بشير بن الخصاصيّة ، واسم أبيه معبد .

الحارث بن البرصاء ، واسم أبيه مالك .

خُفاف بن ندبة ، واسم أبيه عمير .

سعد بن جنبة ، واسم أبيه بجير .

شُرحبيل بن حسنة ، واسم أبيه عبد الله .

عبد الله بن بحينة ، واسم أبيه مالك .

مالك بن نميلة ، واسم أبيه ثابت .

معاذ ومعوِّذ ابنا عفراء ، واسم أبيهما الحارث .

يعلى بن سيابة ، واسم أبيه مرة .

يعلى بن مُنيَة ، واسم أبيه أمية .

وهؤلاء كلُّهم صحابة .

ـ ومن العلماء بعدهم :

إسماعيل بن عُلية ، واسم أبيه : إبراهيم .

منصور بن صفية ، واسم أبيه عبد الرحمن .

محمد بن عائشة، واسم أبيه : **حفص** .

إبراهيم بن هراسة، واسم أبيه : **سلمة** .

محمد بن عثمة، واسم أبيه : **خالد** .

* * *

فصل

في ذكر أسماء تساوى فيها الرجال والنساء

فمن ذلك ما تساوى فيه الاسم والنسب :

ـ **أميَّةُ بن أبي الصلت**، قال فيه النبي ﷺ : «كاد أُمية أن يُسلم»(١) .

أمية بنت أبي الصلت، روى حديثها ابن إسحاق .

ـ **أمية بن عبد الله** : حدث عن ابن عمر .

أمية بنت عبد الله : تروي عن عائشة .

ـ **عمارة بن حمزة** : من ولد عكرمة .

عمارة بنت حمزة : وهي التي اختصم فيها عليٌّ وجعفرُ وزيدٌ .

ـ **فضالة بن الفضل** : حدّثَ عن أبي بكر بن عياش .

فضالة بنت الفضل : روى عنها عبد الرحمن بن جبلة .

ـ **طلحة بن أبي سعيد المصري** : روى عن القاسم بن محمد .

طلحة بنت أبي سعيد : روى عنها ابن أبي جبلة أيضاً .

ـ **هند بن المهلب** : روى عنه محمد بن الزبرقان .

هند بنت المهلب : حدثت عن أبيها .

ـ **هبة الله بن أحمد** : شيخنا .

هبة الله بنت أحمد : حدّثت عن أحمد بن محمود القاضي .

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٨٤١)؛ ومسلم وابن ماجه والإمام أحمد.

فصل

التشابه في الخط والاختلاف في اللفظ

ومن ذلك ما تشابه في الخط ويتباين في اللفظ مع تساوي الأب :

- **بُسْرة بنت صفوان** : صحابية .

يُسرة بن صفوان : حدث عن إبراهيم بن سعد .

- **حمزة بن عبد الله جماعة**[1] .

جمرة بنت عبد الله : صحابية .

- **خيثمة بن عبد الرحمن** : روى عن ابن عمر .

حَنْتمةُ بنت عبد الرحمن : أخت أبي بكر بن عبد الرحمن الفقيه .

* * *

---

(١) **جماعة** : أي تسمّى بحمزة جماعةٌ .

فصل
أسماء أُطلقت على الرجال والنساء معاً

ومن الأسماء التي تساوى فيها الرجال والنساء دون أنسابهم:

- أسماء بن حارثة، وأسماء بن رباب (صحابيان).

أسماء بنت أبي بكر، وأسماء بنت عُميس (صحابيتان).

- بركة أم أيمن (مولاة رسول الله ﷺ)، بركة أم عطاء بن أبي رباح.

ومن **الرجال**: بركة بن الوليد (روى عن ابن عباس)، وبركة بن نشيط (روى عن عثمان بن أبي شيبة).

- بريدة بن الحُصَيْب (صحابي). بريدة بنت بشر (صحابية).

- جويرية بن مسهر (يروي عن علي)، جويرية بن بشير (يروي عن الحسن)، جويرية بن أسماء (عن نافع)، جويرية بن الحجاج (شاعر).

ومن **النساء** جويرية (أم المؤمنين)، جويرية بنت زياد، جويرية بنت علقمة.

- ومن **الرجال** حمَيضة بن رقيم (صحابي)، حميضة بن الشَّمَرْدل (تابعي)، حميضة بن قيس (شاعر).

ومن **النساء**: حميضة بنت ياسر، حميضة بنت أبي كثير.

- الرباب بنت البراء بن معرور، الرباب [بنت كعب][1] (أم حذيفة)، الرباب بنت النعمان (عمة سعد بن معاذ)، الرباب (زوجة الحسن بن علي).

---

(١) زيادة من (ب)

ومن **الرجال**: تابعي يقال له: رباب، سمع من ابن عباس.

ـ زيد في الرجال كثير.

وزيد بنت مالك بن عميت.

ـ ومن **الرجال**: عصيمة (حليف للأنصار من بني أسد)، عصيمة (حليف لهم من أشجع) ـ كلاهما شهدا بدراً.

ومن **النساء**: عصيمة بنت حبار، عصيمة بنت أبي الأفلح (تابعيتان).

ـ علية بن زيد (صحابي).

ومن **النساء**: علية بنت شريح (أم السائب ابن أخت نمر)، وعلية بنت المهدي.

ـ عميرة بن يثربي (قاضي البصرة لعمر بن الخطاب)، عميرة بن سعد (يروي عن علي رضي الله عنه)، وعميرة بن زياد (عن ابن مسعود).

ومن **النساء**: عميرة بنت سهل، عميرة بنت ظهير، عميرة بنت ثابت (صحابيات).

* * *

فصل

أسماء وقع فيها إشكال

ومما يقع الإشكال فيه :

- إسحاق الأزرق، وإسحاق بن الأزرق، فالأول مصري روى عنه الليث بن سعد، والثاني يروي عن الثوري.

- عياش بن الأزرق، وعباس الأزرق، فالأول بالشين المعجمة(روى عن جعفر الفرياني)، والثاني بالسين المهملة (روى عنه حماد).

- هاشم بن البريد، وهاشم البريد، فالأول **كوفي** حدَّث عن أبي إسحاق السَّبيعي، والثاني **بصري** يروي عن عبد الصمد بن عبد الوارث.

* * *

منتخب من الأسماء المفردة[1]

أجمد بن عجيان، أثال، أثان، أرطيان، أسفع، أيقع، أفلت، أكيل، أخيل، بحبح، يشمين، بلهط، بلج، بيحرة، ثهلان، جاحل، جيب، جحدل، خنفر، خِرباق، ديسم، رعيان، زنيح، ركيح، زبيد، سرق، سياك، شبيب، شتير، شنيف، شُويس، شَبيم، صحار، صمصم، ضريك، طيسلة، عِتريس، عذافر، عرزب، عرعرة، عسعس، عبّاق، فصافص، فنج، قحذم، قريع، كركرة، كهدل، لبي، لبطة، لمازة، مراجم، مشرح، معقس، مقلاص، مليل، هلقام، المنقع، منجل، ياسم، نبتل، نسطاس، نوسجان، وقدان، هبيب، هجنع، هداج، هرماس، هصان، ينحس، يعفر، هيطان.

* * *

---

(١) أي: الأسماء التي لم يسمَّ بها أحد سوى المذكورين.

منتخب من مشتبه الأسماء

ـ **أحمد** : كثير ، **أجمد بن عجيان** الذي شهد فتح مصر .

ـ **أنس** : كثير ، **وأتش** جد محمد بن الحسن بن أنس الصنعاني .

ـ **بشر** : كثير ، **وبسر بن أبي أرطأة صحابي** ، **ونشر** هو محمد بن نشر الكوفي ، روى عن ابن الحنفية ، **ويسر أبو اليسر** هو صحابي ، **ويسر** بن أنس هو متأخر ، **ونسر** هو جد يحيى بن أبي بكير قاضي كرمان .

ـ **بيان** : كثير ، **وبنان بن محمد الزاهد** ، **وبنّان ين يعقوب** ، **وبتان** هو سعيد بن بتان الأيلي .

ـ **يزيد** : كثير ، **وبريد بن أصرم** يروي عن علي ، **وتزيد بن جُشَم** في نسب الأنصار ، **وبرند** هو عرعرة بن البرند .

ـ **حماد** : كثير ، **وحماد بن أيوب** روى عن حماد بن أبي سليمان .

ـ **جَرير** : كثير ، **وجُرير**[1] : هو عبد الله بن جرير ، **وحريز بن عثمان** ، **وحرير** أم الحرير تروي عن طلحة بن مالك ، **وجريز بن صدقة الجريز** ، يروي عن شعبة .

ـ **جماز** هو الهيثم بن جماز ، وحبيب بن **حماز** ، ونعيم بن **خمار** ، وعياض ابن **حمار** ، **وحماز** يروي عن ابن مسعود .

ـ **خباب** : صحابي ، **وحباب** بن المنذر صحابي ، **وجناب** بن الخشخاش يروي عن أبي كلدة ، **وجباب** بن صالح ، **وحتات** بن يحيى .

ـ **خُبيب** : كثير ، **خَبيب صحابي** ، **وخُبيب**[2] **صحابي** ، **وجبيب** بن النعمان ابن يحيى ، **وجبيب** أخو حمزة الزيات .

---

(١) هذا مصغر ، وما قبله مكبر .

(٢) هذا مصغر ، وما قبله مكبر .

خنيس بن حذافة صحابي، وهب بن **حنيش** صحابي، **حبيش بن خالد** صحابي، **حبيس بن عايد** مصري.

نعيم: كثير، **يغنَم** بن **سالم** يروي عن أنس.

* * *

فصل
من مشتبه النسبة

ـ الحسن **البصري**، طلحة بن عمرو **النصري**، الحسين بن الحسن **النضري**.

ـ سفيان **الثوري**، محمد الصلت **التَّوْزي**، محمد بن عمرو **البُوري**، أبو الحسين **النُّوري**.

ـ أبو بكر **الخياط**، فطر بن خليفة **الحنّاط**، مسلم **الخبَّاط**، وقد جمع مسلم هذه الصفات الثلاث.

ـ **الخزّاز** جماعة، وعبد الله بن عون **الخراز**، وعيسى بن يونس **الجزاز**، ويحيى بن **الجزار**.

ـ أبو عمرو **الشَّيْباني**، أيوب بن سويد **السيباني**، الفضل بن موسى **السَّيْناني**.

ـ فرقد **السَّبْخي**[1]، سليمان بن معبد **السنْجي**، أبو بكر **السبْحي**، بدر **الشيحي**.

ـ عامر **الشَّعْبي**، معاوية بن حفص **الشُّعْبي**، زكريا بن عيسى **الشغبي**، حذيفة بن اليمان **العبسي**، عمار بن ياسر **العنسي**، صعق بن حزم **العيسي**، وتقع النسبة في المحدثين إلى هذه الألفاظ الثلاثة، قال الحسن بن سفيان الفسوي: كلَّما ورد في الحديث عبسي فهو كوفي، وعنسي فهو بصري، وعيسي فهو مصري.

ـ إبراهيم بن يزيد **الخوزي**، محمد بن يزيد **الحوزي**، محمد بن يزداد الجوري، عبد الرحمن بن علي الجوزي[2].

* * *

(١) **فرقد السبخي**: بفتح السين المهملة والباء الموحدة وبخاء معجمة، صدوق عابد، لكنه لين الحديث كثير الخطأ.

(٢) **عبد الرحمن**: هو مؤلف كتاب (**المدهش**) الذي تقرؤه.

بيان أحاديث أهمل فيها تبيين الأسماء المشتبهة

● **حديث:**

روى أبو قُلابة عن أنس عن النبيِّ ﷺ: **«أنَّ الله تعالى وضَعَ عِن المسافر شَطْرَ الصَّلاةِ، وعنِ الحاملِ والمُرْضِع يعني الصيام»**[1]، **أنسٌ هذا هو ابن مالك القُشيري.**

● **أحاديث:**

روى **عطاء** عن أبي هريرة قال: **«في كلِّ صلاةٍ يُقرأ،** فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم، وما أَخْفَى عنا أخفينا عنكم»[2].

وروى **عطاء** عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يجتمعُ حُبُّ هؤلاءِ الأربعة في قلبِ منافقٍ: أبو بكر، وعمرُ، وعثمانُ، وعلي»**[3].

وروى **عطاء** عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أقيمتِ الصلاةُ فلا صلاةَ إلا المكتوبة»**[4].

وروى **عطاء** عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ سجد في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[5].

وروى **عطاء** عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مضى ثُلثُ الليل**

---

(١) ولفظه: «.. **والصوم عن المسافر وعن المرضع والحبلى**»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب القراءة في الفجر، رقم (٧٧٢).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط وابن عساكر، انظر: كنز العمال، رقم (٣٣١٠٣).

(٤) رواه مسلم والأربعة.

(٥) ولفظه: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾» رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي شيبة.

يقولُ اللهُ: ألا داعٍ يجابُ»[1].

عطاء الأول: هو ابنُ أبي رباح، والثاني: الخراساني، والثالث: ابن يسار، والرابع: ابن ميناء، والخامس: مولى أم صُبية.

● أحاديث:

روت **عَمْرةُ** عن عائشةَ قالت: لو أنّ رسولَ الله ﷺ رأى ما أحدثَ النساءُ بعدَه لمنعهنّ مِنَ المساجدِ كما مُنع نساءُ بني إسرائيل[2].

وروت **عَمْرةُ** أنها دخلت مع أمها على عائشة فسألتها: ما سمعتِ من رسولِ الله ﷺ يقول في الفرار من الطاعونِ؟ قالت: سمعته يقول: **«كالفرار من الزحف»**[3].

وروت **عَمْرةُ** قالت: خرجتُ مع عائشةَ سنةَ قُتِل عثمانُ إلى مكةَ، فمررنا بالمدينة، ورأينا المصحفَ الذي قُتل وهو في حِجْرِه، فكانتْ أولُ قطرةٍ قَطرَتْ على هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] قالت: فما مات منهم رجل سويّاً[4].

وروت **عَمْرةُ** عن عائشةَ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ ينهى عن الوِصَال[5].

---

(١) رواه ابن جرير، انظر: كنز العمال، رقم (٣٣٩١).

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والدارمي والإمام أحمد.

(٣) رواه ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها ـ بلفظ: **«الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف»** ورمز السيوطيُّ لصحته. وفي مسند الإمام بلفظ: **«الفار من الطاعون كالفار من الزحف»** المسند: ٦/ ٢٥٥ بإسنادٍ جيدّ، وابن عبد البر في التمهيد.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ٧/ ١٨٨، ثم قال: ولما بلغ سعدُ بن أبي وقاص قتلَ عثمان استغفر له وترحّمَ عليه، وتلا في حق الذين قتلوه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، ثم قال: اللهم ندمهم ثم خذهم. وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحدٌ من قتلة عثمان إلا مقتولاً. رواه ابن جرير. قال ابن كثير: وهكذا ينبغي أن يكون، لوجوه منها: دعوة سعد المستجابة، كما ثبت في الحديث الصحيح. وقال بعضهم: ما مات أحدٌ منهم حتى جُنّ.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

عمرة الأولى: هي بنت عبد الرحمن الأنصارية، والثانية: بنت قيس العدوية، والثالثة: بنت أرطأة، والرابعة: يقال لها: الطاخية.

● **أحاديث:**

روى **حمَّادُ** عن ثابت عن أنسٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ سمع في النخل صوتاً فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: يؤبِّرُ النخلُ، فذكر الحديث[1].

وروى **حماد** عن ثابت عن أنس قال: رأى رسولُ الله ﷺ على عبد الرحمن صُفرَة، فقال: «**ما هذا؟**» قال: تزوجتُ، قال: «**أَوْلِم**»[2].

روى **حماد** عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ أُمّتي مثلُ المطرِ**»[3].

حماد الأول: هو ابن سلمة، والثاني: ابن زيد، والثالث: الأبح.

واعلم أنّ مثل هذه الأسماء المشتبهة إذا لمُ يصرّحْ في الحديثِ ببيانها لم يفرِّق [بينها] إلا الناقدُ المجوّدُ.

وفي الفرق بينها فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ بعضَ الرواة ثقة، ومشابهه في الاسم يكون ضعيفاً، فَيُطلب الفرقُ لذلك.

مثاله: أن يروي قتادةُ عن **عكرمةَ**، وهو يروي عن عكرمة مولى ابن عباس، وذاك ثقة، وعن عكرمة بن خالد، وهو **ضعيف**.

وكذا قول وكيع: حدثنا **النضر** عن عكرمة، وهو يروي عن النضر بن عربي وهو **ثقة**، وعن النضر بن عبد الرحمن وهو **ضعيف**.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله ﷺ تشريعاً؛ وابن ماجه والبزار والطبراني والإمام أحمد، و(**التأبير**): هو تلقيح النخل.

(٢) وتمامه: «**أولم ولو بشاة**» رواه البخاري والنسائي وأحمد وغيرهم. **والصُّفرة**: هي لونٌ لنوع من الطيب يُتَّخَذُ من الزّعفران، وعبد **الرحمن**: هنا هو ابنُ عوف رضي الله عنه. **والوليمة**: هي طعامُ العرسِ.

(٣) وتمامه: «**لا يُدْرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه**» رواه أحمد والترمذي عن أنس؛ وفي الجامع الصغير برقم (٨١٦١)، وصححه السيوطي.

ومثله قول حفص بن غياث: عن **أشعث** عن الحسن، وهو يروي عن **أشعث** بن عبد الملك وهو **ثقة**، وعن أشعث بن سوار وهو **ضعيف**.

* * *

منتخب من المُتّفق والمُفترق

- أنس بن مالك **خمسة**: اثنان من الصحابة: أبو حمزَة الأنصاريّ، وأبو أميةَ الكعْبيّ، والثالث أبو مالك الفقيه، والرابع كوفيّ، والخامس حِمصيّ.

- أسامةُ بن زيد **ستة**: أحدهم مولى النبيّ ﷺ، والثاني تنوخِيّ، والثالث ليثيّ، والرابع كلبيّ، والخامس شيرازيّ، والسادس مولى لعمرَ.

- أحمد بن جعفر بن حمدانَ **أربعة في طبقة واحدة**: أحدهم دِيْنَوريّ، والثاني طَرْسَوسيّ، والثالث قطيعيّ، والرابع سقطيّ.

- جابر بن عبد الله **سبعة**: أحدهم ابن عمرو، والثاني ابن رباب صحابيان، والثالث سلميٌّ، والرابع محاربيّ، والخامس غطفانيّ، والسادس مصريّ، والسابع بصريّ.

- الخليل بن أحمد **خمسة**: ثلاثة بصريون، والرابع أصفهانيّ، والخامس سجزيّ.

- سعيد بن المسيِّب **ثلاثة**: أحدهم مَدَنيّ، والثاني بَلَويّ، والثالث شيرازيّ.

- عبد الله بن المبارك **ستة**: أحدهم مروزيّ، والثاني خراسانيّ، والثالث بخاريّ، والرابع جوهري، والباقيان من أهل بغداد.

- عمر بن الخطاب **سبعة**: : أحدُهم أمير المؤمنين، والثاني كوفيّ، والثالث بصريّ، والرابع إسكندرانيّ، والخامس سجسْتانيّ، والسادس راسبيّ، والسابع عنبريّ.

- عثمان بن عفان **اثنان**: أحدهما أمير المؤمنين رضي الله عنه، والثاني سجزيّ.

- علي بن أبي طالب **ثمانية**: أحدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه، والثاني

بصريّ، والثالث جُرْجانيّ، والرابع استراباذيّ، والخامس تَنُوخيّ، والسادس بكراباذيّ، والسابع بغداديّ، والثامن يقال له: الدّهان.

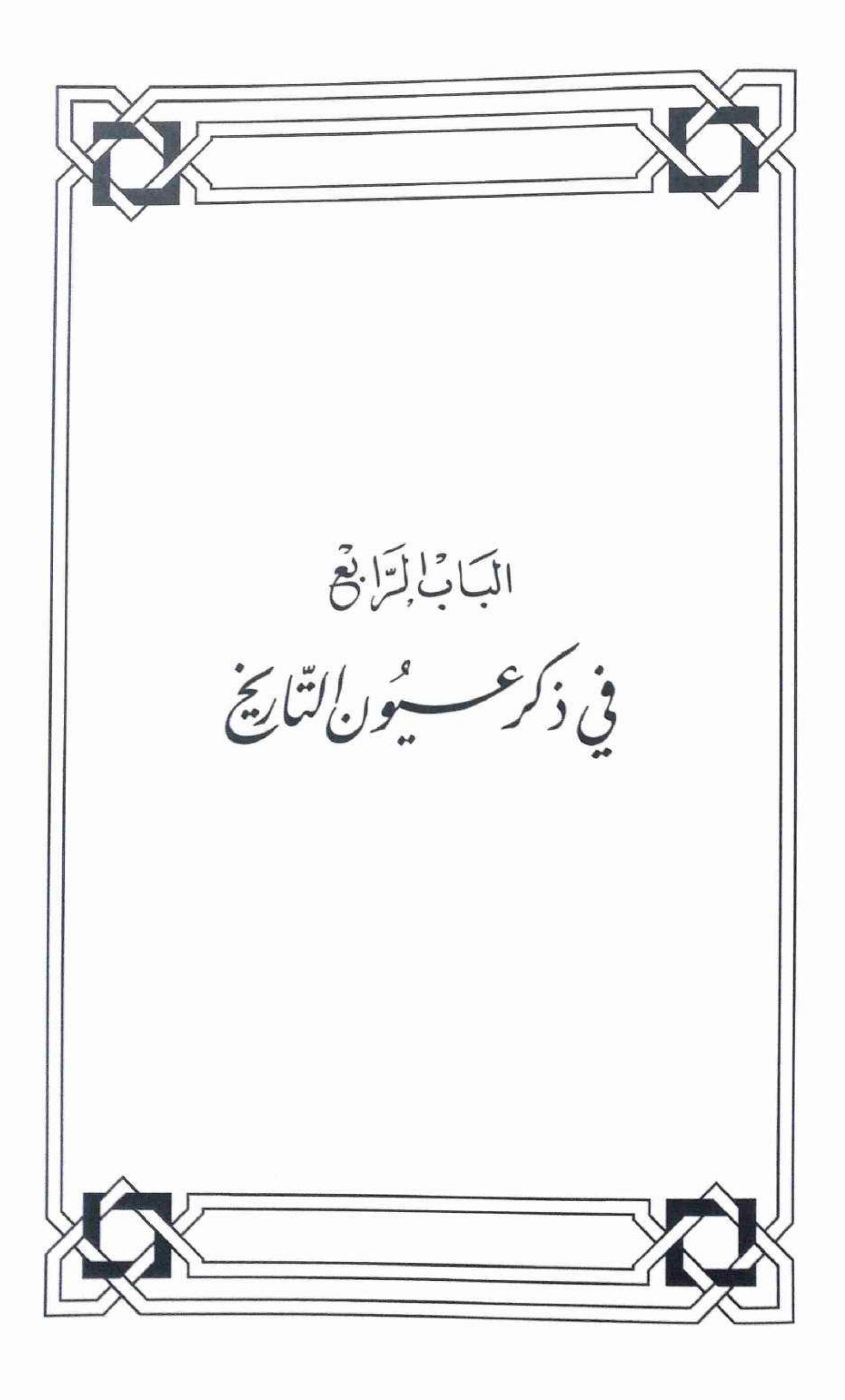
- عُمران بن حصين **أربعة**: أحدهم صحابيّ، والثاني ضبي نَيْسابوريّ، والثالث بصريّ، والرابع أصبهانيّ.

- فضيل بن عياض **اثنان**: أحدهما مصريّ، والثاني مكيّ.

- يحيى بن معاذ **ثلاثة**: أحدهم نيسابوري، والثاني رازي، والثالث تُسْتريّ.

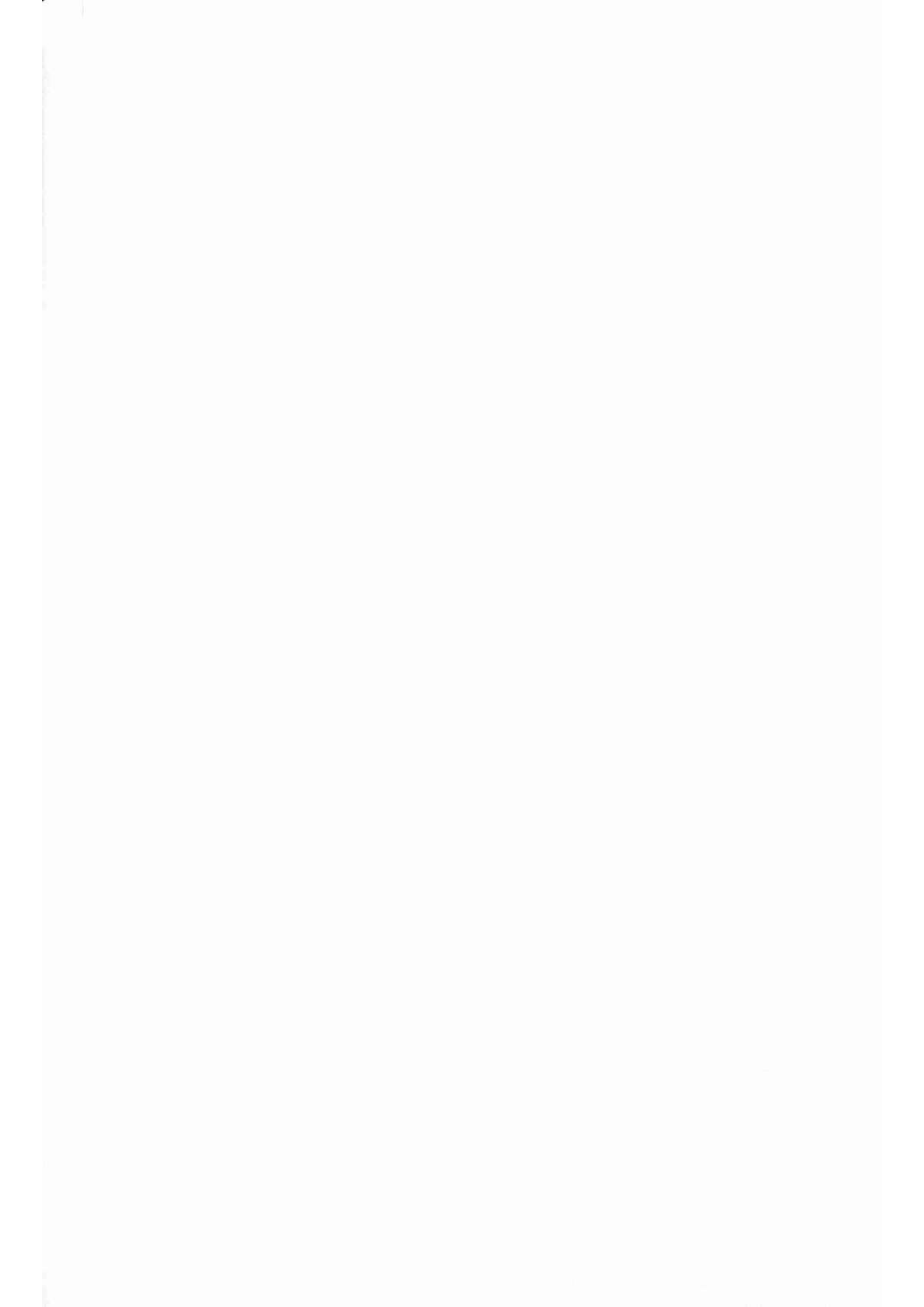
- يوسفُ بن أَسْباط **ثلاثة**: أحدهم كوفيّ، والثاني حمصيّ، والثالث سُلَميّ.

* * *



الباب الرابع

في ذكر عيون التاريخ



الباب الرابع
في ذكر عيون التاريخ

روى أبو هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلقَ اللهُ تعالى التربةَ يوم السَّبتِ، وخلقَ الجبالَ فيها يومَ الأحدِ، وخلقَ الشَّجَرَ فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النورَ يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس، وخلقَ آدمَ يومَ الجمعة بعد العصر**»[1].

قال علماءُ التاريخ: الأرضُ كلُّها على صخرة. الصخرة على مَنْكِبَيْ مَلَك، والمَلَك على الحوت، والحوت على الماء، والماء على متن الريح[2].

● **فصل في أقاليم الأرض:**

أقاليمُ الأرضِ سبعةٌ: فالإقليم الأول **الهند**، والثاني إقليم **الحجاز**، والثالث إقليم **مصر**، والرابع إقليم **بابل**، والخامس إقليم **الروم والشام**، والسادس إقليم **بلاد الترك**، والسابع إقليم **بلاد الصين**.

وأوسط الأقاليم: إقليم بابل، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب، وفيه **العراق** الذي هو سُرّةُ الدنيا[3] **وبغداد** في أوسط هذا الإقليم، فلاعتدالِهِ اعتدلت ألوانُ أهله، فسَلِموا من شُقرةِ الروم، وسواد الحَبَش، وغِلَظ الترك، وجفاءِ أهلِ الجبال، ودمامة أهل الصين، وكما اعتدلوا في الخِلقة لطُفوا في الفِطنة.

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد بن حنبل: ٢/ ٣٢٧، واللفظ للإمام أحمد. وقد تكلَّمَ في هذا الحديث ابن المديني، والبخاري، وابن كثير في تفسيره، وغيرهم من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار. انظر: فيض القدير: ٣/ ٤٤٨.

(٢) لا أصل لهذا القول لا في الشرع ولا في الواقع.

(٣) هذا الكلام مخالِفٌ لما ثبتَ من كون الكعبة المشرفة هي سرّةُ الأرض.

● **فصل في الجبال:**

قال علماء التواريخ: جميع ما عُرِفَ في الأرض من الجبال مئة وثمانية وتسعون جبلاً، ومن أعجبها جبل سرنديب[1]، وطوله مئتان ونيف وستون ميلاً، وفيه أثرُ قدم آدم حين أُهبط، وعليه سنا البرقِ لا ينقطع شتاءً ولا صيفاً، وحوله حجارة ياقوت، وفي واديه حجر الماس الذي يقطع به الصخور، ويثقب اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل، ودابة المسك، ودابة الزَّباد[2].

وجبل الردم الذي فيه السد، طوله سبعمئة فرسخ، وينتهي إلى البحر المظلم.

● **فصل معادن الأرض:**

قالوا: في الأرض سبعمئة معدن، ولا ينعقدُ الملح إلا في السَّبَخ[3]، ولا الجصّ إلا في الرمل والحصى، والبحر الأعظم محيطٌ بالدنيا، وجميعُ البحار تستمد منه[4].

● **فصل آدم ونوح عليهما السلام وأولادهما:**

قالوا: وعاش آدم ألفَ سنة، وولدت له حواءُ أربعين بطناً، في كلِّ بطنٍ ذكر وأنثى، قالوا: فأول أولاده قابيل، وتوءمته أقليميا، ولم يمت آدم حتى رأى من أولاده وأولاد أولاده أربعين ألفاً، وانقرض نسلُهم، غير نسل شيث.

ثم انقرض النسل، وبقي أولاد نوحٍ وهم: سام، وحام، ويافث؛ فسام أبو العرب، وحام أبو الزَّنْج، ويافث أبو الروم والترك، ويأجوج ومأجوج بنو عم الترك.

---

(١) جبل في جزيرة سيلان، وهي تقع في المحيط الهندي جنوب شبه القارة الهندية.

(٢) **دابة الزَّباد**: الزَّباد: مثل السنور الصغير، يجلب من نواحي الهند، وقد يأنس فيقتنى، ويحتلب شيئاً شبيهاً بالزُّبد يظهر على حَلْمته بالعصر مثل ما يظهر على أنوف الغلمان المراهقين، وله رائحة طيبة.

(٣) **السَّبخ**: السَّبخة واحدة السِّباخ، يقال: أرض سبخة ذات ملح ونزّ.

(٤) ما ذكره الشيخ في هذا الفصل استناداً إلى ما كان شائعاً في عصره من العلوم الجغرافية.

● فصل في تسمية الحواريين:

شمعون الصفا، وشمعون القناني، ويعقوب بن زنـدي، ويعقوب بن حلقي، وقولوس، ومارقوس، وأندراوس، وبرثملا، ويوحنا، ولوقا، وتوما، ومتى.

● فصل من ملوك فارس:

كـان أول ملوك الفرس: دارا، ملكَ نحواً من مئتي سنة، ثم ملـك بعده خمسة وعشرون؛ منهم امرأتان، وكان آخر القـوم يزدجرد، هلـك في زمـان عثمان، وكان مُلْكُهم خمسمئة سنة وكسراً.

وكان أظرفهم ولايةً ذو الأكتاف، فإنه لا يُعْرَف مَنْ مَلَك وهو في بطن أمه غيرُه، لأن أباه كان قد مات ولا ولد له، وإنّما كان هذا حَمْلاً، فقال المنجِّمون: هذا الحَمْل يملك الأرض، فوُضِعَ التاجُ على بطنِ الأمِّ، وكتب منه إلى الآفاق، وهو جنين، وسمي سابورَ، وإنَّما لقّبَ بذي الأكتاف، لأنه حين ملك كان ينزع أكتاف مخالفيه، وهو الذي بنى الإيوان، وبنى نيسابور وسجِسْتان والسوس.

وما زال الملكُ ينتقل بعده فيهم إلى أن ملك أنوشروان، وكان أحزمَهم، وكان له اثنا عشر ألف امرأة وجارية، وخمسون ألف دابة، وألفُ فيلٍ إلا واحداً، وفي زمانه ولد نبيُّنا محمد ﷺ، ومات لثمان سنين مضت من مولد نبينا ﷺ، ولما دخل المسلمون المدائن، أحرقوا ستر باب الإيوان، فأخرجوا منه ألفَ ألفِ مثقالٍ ذهباً.

● فصل في عجائب الأقرباء نسباً وحالاً:

أربعةٌ تناسلوا، رأوا رسولَ الله ﷺ: أبو قحافـة، وابنه **أبـو بكر**، وابنـه **عبد الرحمن**، وابنه **محمد**، ويكنى أبا عتيق.

أربعة إخوة كان بين كلِّ واحد منهم وواحد عشرُ سنين: أولادُ أبي طالب: **طالب، وعقيل، وجعفر، وعلي**، فكان طالبُ أسنَّ من عقيل بعشر سنين، وعقيل أسنَّ من جعفر بعشر سنين، وجعفر أسنَّ من علي بعشر سنين.

ولا يعرف أخوان تباعدا في السنِّ مثل موسى بن عبيدةَ الرَّبذي وأخيه **عبيد الله بن عبيدة، فإنَّ عبد الله أسنُّ من موسى بثمانين سنة.**

ومن العجائب: **ثلاث إخوة ولدوا في سنة واحدة، وقتلوا في سنة واحدة،** ولهم من العمر **ثمان وأربعون سنة**: يزيد، وزياد، ومدرك بنو المهلّب بن أبي صُفرة.

ومن العجائب: **أربعة أنفس رزق كل واحد منهم مئة ولد: أنس بن مالك، وعبد الله بن عمير الليثي، وخليفة السعدي، وجعفر بن سليمان الهاشمي.**

ومن العجائب: **ثلاثةٌ بنو أعمام،** كلُّهم كانوا في زمان واحد، كل واحد منهم اسمه علي، ولهم ثلاثة أولاد، كل واحد منهم اسمه محمد. الآباء والأبناء علماء أشراف، وهم: **علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعلي بن عبدالله ابن العباس، وعلي بن عبد الله بن جعفر.**

ومن العجائب: **أنه في ليلة السبت** لأربعَ عشْرَةَ بقين من ربيع الأول سنة تسعين ومئة، مات الهادي، واستُخْلِف الرشيدُ، ووُلد المأمون.

ومن العجائب: **أنّه** سلَّم على الرشيد بالخلافة **عمُّه** سليمانُ بن المنصور، **وعم أبيه** المهدي وهو العباس بن محمد، **وعم جَدِّه** المنصور، وهو عبد الصمد ابن علي، وقال له عبد الصمد يوماً: يا أميرَ المؤمنين هذا مجلسٌ فيه أمير المؤمنين وعم أمير المؤمنين وعمُّ عمِّ أمير المؤمنين وعمّ عمِّ عمِّه، وذلك أنّ سليمان بن أبي جعفر عمُّ الرشيد، والعباس عمُّ سليمان، وعبد الصمد عمُّ العباس.

ومن العجائب: **أنَّ** عبد الصمد حجَّ بالناس سنة خمسين ومئة، وقد حجَّ قبلـه يزيد بن معاوية سـنة خمسين: **وهما في النسب إلى عبد مناف سواء،** لأن يزيـد هو ابن معاويةَ بنِ صخر بن حـرب بن أميةَ بن عبد شمس بن عبد مناف، وعبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

ومن العجائب: وقد سلَّم على المتوكل بالخلافة **ثمانية،** كلهم ابن خليفة: المنتصر ابنه، ومحمد بن الواثق، وأحمد بن المعتصم، وموسى بن المأمون،

وعبد الله بن الأمين، وأبو أحمد بن الرشيد، وأبو العباس بن الهادي، والمنصور ابن المهدي.

ومن العجائب: قد ولي الخلافة: أخوان، وثلاثة، وأربعة.

فأما **الأخوان**: فالسفاح والمنصور، والهادي والرشيد، والواثق والمتوكل ابنا المعتصم، والمسترشد والمقتفي.

وأما **الثلاثة**: فالأمين والمأمون والمعتصم بنو الرشيد، والمستكفي والمقتدر والقادر بنو المعتضد، والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر.

وأما **الأربعة فلم يكونوا إلا بني عبد الملك**[1].

-ومن العجائب المختصة بالنساء:

من ذلك **أن امرأة شهد لها بدراً سبعة بنين مسلمين** وهي: **عفراء بنت عبيد**، تزوجها الحارث بن رفاعة، فولدت له معاذاً ومعوِّذاً، ثم تزوجها بُكير فولدت له إياساً وخالداً، وعاقلاً وعامراً، ثم رجعت إلى الحارث، فولدت له عَوْفاً، فشهدوا كلُّهم بدراً، ويخرج من هذا جواب السائل هل تعرفون أربعة إخوة لأب وأم شهدوا بدراً مسلمين؟

ومن هذا الجنس: **امرأة كان لها أربعة إخوة وعَمَّان شهدوا بدراً، فأخوان وعمٌّ مع رسول الله ﷺ، وأخوان وعمٌّ مع المشركين، وهي هند بنت عتبة بن ربيعة، فالأخوان المسلمان: أبو حذيفةَ بن عتبة ومصعب بن عمير، والعم المسلم: معمر ابن الحارث، والأخوان المشركان: الوليد بن عتبة وأبو عزيز، والعم المشرك شيبةُ بن ربيعة.**

ومن العجائب: أن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان كان له أربع بنات: عبدة، وعائشة، وأم سعيد، ورقية، تزوجهن أربعة من الخلفاء: تزوج عبدةَ الوليد بن عبد الملك، وعائشة سليمان، وأم سعيد يزيد بن عبد الملك، ورقية هشام.

---

(١) وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام.

وكان لهذا الرجل، أعني عبد الله بن عمرو، ولدٌ اسمه محمد كان يقال له: الديباج لحسنه، وكان لمحمد بنتٌ اسمها حفصةُ لا يُعرف امرأة ولَدها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير والحسين وابن عمر سواها.

أما **ولادة رسول الله ﷺ لها**، فإن أمَّ أبيها محمدٍ فاطمةُ بنت الحسين بن علي، وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

ومن طريق **الحسين بن علي** ولادته لها، وولادة **علي** لها.

وأما ولادة أبي بكر لها، فإنَّ أمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير، وأم عروة أسماء بنت أبي بكر الصديق، ومن طريق عروةَ ولدها **الزبير**.

وأما ولادة عمر لها، فإنّ أم جدّها عبدِ الله زينب بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب، فمن هذه الطريق ولادة عمر لها.

وأما **ولادة عثمان لها**، فمن طريق أبيها.

وأما **ولادة طلحة** فإنّ جدتها من قِبَلِ أبيها هي أم إسحاقَ بنتُ طلحةَ بنِ عبيد الله.

ومن العجائب: **امرأة ولدت خليفتين**، وهنّ **ثلاث**:

الأولى: **ولادة بنت العباس العبسية**: تزوّجها عبد الملك بن مروان، فولدت له: **الوليدَ وسليمان** فَوليا الخلافة.

والثانية: **شاهْفِرِنْد بنت فيروز بن يزدجرد**: تزوجها الوليد بن عبد الملك، فولدت له: **يزيدَ وإبراهيم**، فوليا الخلافة.

والثالثة: **الخَيْزُران**: ولدت للمهدي **الهاديَ والرشيدَ**.

● فصلٌ في الجدوب وعموم الموت:

أجدبت الأرض (في سنة ثماني عشرة) فكانت الريحُ تسفي تراباً كالرماد، فسمي **عامَ الرمادة**، وجعلت الوحوشُ تأوي إلى الإنس، فآلى عمرُ ألا يذوقَ سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناسُ، واستسقى الناسُ بالعباسِ فسُقوا.

وفيها كان **طاعونُ عَمْواس**، مات فيه أبو عبيدة، ومعاذ، وأنس.

وفي سنة أربع وستين وقع **طاعونٌ بالبصرة** وماتت أم أميرهم، فما وجدوا مَنْ يحملها.

وفي سنة ست وتسعين كان **طاعون الجارف**، هلك في ثلاثة أيام سبعون ألفاً، ومات فيه لأنس ثمانون ولداً، وكان يموتُ أهلُ الدار، فَيُطَيَّنُ الباب عليهم.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئة مات أولَ يوم في **الطاعون** سبعون ألفاً، وفي الثاني نيفٌ وسبعون ألفاً، وفي اليوم الثالث خمد الناس.

وفي سنة تسعَ عشرةَ وثلاثمئة **كثر الموت**، وكان يُدفَنُ في القبرِ الواحدِ جماعة.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة ذُبِحَ الأطفال، وأُكِلَتِ الجيفُ، وبيع العقارُ برغيفَيْن، واشتري لمُعزِّ الدولة كُرٌّ[1] دقيقٍ بعشرين ألف درهم.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمئة **عمت الأمراض البلاد**، فكان يموتُ أهلُ الدار كلهم.

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة أصاب أهل البصرة حرٌّ، فكانوا يتساقطون **موتى في الطرقات**.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمئة **عم القحطُ**، فأُكلتِ الميتةُ، وبلغ المكُّوك[2] من بزر البقلة سبعة دنانير، والرُّمَّانةُ بدينار، والسفرجلة بدينار، والخيارة واللينوفرة بدينار.

وورد الخبرُ من مصر بأنَّ ثلاثةً من اللصوص نقبوا داراً فوُجِدُوا عند الصباح موتى، أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الثياب المكوَّرة.

---

(١) **الكُرّ**: مكيال يعادل (٢٨٨٠) كغ من القمح. انظر: (المكاييل والموازين) من منشورات الجامعة الأردنية.

(٢) **المكّوك**: مكيال يعادل (٦) كغ من القمح. المرجع السابق.

وفي السنة التي تليها وقع وباءٌ، فكان تحفر زُبْية[1] لعشرين وثلاثين فيُلقَوْن فيها، وتاب الناس كلُّهم، وأراقوا الخمور، ولزموا المساجد.

وفي سنة ست وخمسين وأربعمئة **وقع الوباءُ**، وبلغ الرطل من التمر الهندي أربعة دنانير.

وفي سنة اثنين وستين وأربعمئة **اشتد الجوع والوباءُ بمصرَ**، حتى أكل الناسُ بعضهم بعضاً، وبِيْعَ اللوز والسكر بوزن الدراهم، والبيضةُ بعشرة قراريطَ، وخرج وزير صاحب مصر إليه فنزل عن بغلته، فأخذها ثلاثة فأكلوها، فصُلبوا، فأصبح الناس لا يرون إلا عظامهم تحت خشبهم، وقد أُكلوا.

وفي سنة أربع وستين وأربعمئة **وقع الموتان[2] في الدواب**، حتى إنَّ راعياً قام إلى الغنم وقت الصباح ليسوقها فوجدها كلَّها موتى.

● **فصل في الزلازل والآيات:**

زلزلت الأرض على عهد عمرَ في سنة عشرين.

ودامتِ الزلازل في سنة أربع وتسعين: أربعين يوماً، وقعت الأبنيةُ الشاهقةُ، **وتهدَّمت أنطاكية**.

وفي سنة أربع وعشرين ومئتين **زلزلت فِرْغانة**، فمات فيها خمسةَ عشرَ ألفاً.

وفي السنة التي تليها **رجفت الأهواز**، وتصدّعتِ الجبال، وهرب أهلُ البلد إلى البحر والسفن، ودامت ستة عشر يوماً.

وفي السنة التي تليها **مُطر أهل تيماء[3]**، مطراً وبَرَداً كالبيض، فقتل بها ثلاثمئة وسبعون إنساناً، وسُمع في ذلك صوت يقول: ارحمْ عبادك، اعفُ عن

---

(١) **الزبية**: بالضم حفيرة الأسد.

(٢) **الموتان**: ضد الحيوان، والمواتُ والموتان: كله الموت، يقع في المال والماشية، قال الفرَّاء: وقع في المال موْتان: هو الموت، وفي الحديث: «**يكون في الناس موتان كقُعاص الغنم**» والموتان: الموت الكثير الوقوع.

(٣) بالفتح والمد: بليدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام.

عبادك، ونظروا إلى أثر قدم طولها ذراع بلا أصابع، وعرضها شبران، والخطوة إلى الخطوة خمسةُ أذرعٍ أو ست، فاتبعوا الصوتَ فجعلوا يسمعون صوتاً ولا يرون شخصاً.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومئتين **رجفت دمشق** رجفةً حتى انقضَّتْ منها البيوت، وسقطت على مَنْ فيها، فمات خلقٌ كثير، وانكفأت قريةٌ في الغوطة على أهلها، فلم ينجُ منهم إلا رجلٌ واحد، **وزلزلت أنطاكية** فمات منها عشرون ألفاً.

وفي السنة التي تليها **هبت ريحٌ شديدة** لم يُعهد مثلُها، فاتصلت نيفاً وخمسين يوماً، وشملت بغدادَ والبصرة والكوفة وواسط وعَبَادان والأهواز، ثم ذهبت إلى همذان، فأحرقتِ الزرع، ثم ذهبت إلى الموصل، فمنعتِ الناسَ من السعي، فتعطلت الأسواق. **وزُلزلتْ هراةُ** فوقعت الدور.

وفي سنة ثمان وثلاثين [ومئتين][1] وجَّه طاهر بن عبد الله إلى المتوكل حجراً سقط بناحية طبرستان، وزنه ثمانمئة وأربعون درهماً، أبيض، فيه صدع، وذكروا أنّه سُمعَ لسقوطه هدَّة أربع فراسخ في مثلها، وأنه ساخَ في الأرض خمسة أذرع.

وفي سنة أربعين ومئتين خرجت ريحٌ من بلاد الترك، فمرت بمرو فقتلت خلقاً كثيراً بالزكام، ثم صارت إلى نيسابور، وإلى الري، ثم إلى همذان وحلوان، ثم إلى العراق، فأصاب أهلَ بغداد وسرَّ مَنْ رأى حُمَّى وسُعال وزكام.

وجاءت كتب من المغرب أن ثلاث عشرة قرية من **قرى القَيروان** خُسِفَ بها، فلم ينجُ من أهلها إلا اثنان وأربعون رجلاً سودُ الوجوهِ، فأتوا القيروان فأخرجهم أهلها، وقالوا: أنتم مسخوطٌ عليكم، فبنى لهم العامل حظيرة خارج المدينة فنزلوها.

وفي سنة إحدى وأربعين [ومئتين][2] **ماجت النجوم في السماء**، وجعلت تتطاير شرقاً وغرباً كالجراد، من قبل غروب الشمس إلى الفجر، ولم يكن مثلُ

---

(١) زيادة من المحققين للتوضيح.

(٢) زيادة من المحققين للتوضيح.

هذا إلا عند ظهور رسول الله ﷺ.

وفي السنة التي تليها **رُجمت قرية يقال لها**: **السويداء** ناحية مصر بخمسة أحجار، فوقع حجر منها على خيمة أعرابي فاحترقت، ووزن منها حجرٌ فكان فيه عشرة أرطال.

وزلزلت الرَّي وجرجان وطبرستان ونيسابور وأصبهان وقم وقاشان كلها في وقت واحد، **وزلزلت الدامغان** فهلك من أهلها خمسة وعشرون ألفاً، وتقطعت جبال، ودنا بعضها من بعض، وسمع للسماء والأرض أصوات عالية، فهلك من أهلها [خمس وأربعون ألفاً][1].

وسار جبل باليمن، عليه مزارع، حتى أتى مزارع قوم آخرين.

ووقع طائر أبيض دون الرخمة وفوق الغراب على دُلبة[2] بحلب، لسبع مضيْنَ من رمضان، فصاح: يا معشر الناس، اتقوا الله، اللهَ، اللهَ، حتى صاحَ أربعين صوتاً ثم طار، وجاء من الغد فصاح أربعين صوتاً ثم طار، فكتب صاحبُ البريد بذلك، وأشهد خمسمئة إنسان سمعوه.

ومات رجل في بعض كور الأهواز فسقط طائر أبيض على جنازته، فصاح بالفارسية والحوزية: إنَّ الله قد غفر لهذا الميت ولمن شهده.

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين **زلزلت أنطاكية فسقط منها ألف وخمسمئة دار، ووقع من سورها نيف وتسعون برجاً، وسمع أهلها أصواتاً هائلة، من كُوى المنازل.**

وسمع أهل تنيس صيحة هائلة دامت فمات منها خلق كثير.

وذهبت جيلة[3] بأهلها.

وفي سنة خمس وثمانين ومئتين مطرت قريةٌ حجارةً بيضاء وسوداء.

---

(١) ما بين حاصرتين من المنتظم: ١١/ ٢٩٤، للمؤلف.

(٢) **دُلبة**: شجرة.

(٣) حصن باليمن.

وفي سنة ثمانٍ ومئتين زلزلت دُنْبُل[1] في الليل، فأصبحوا، ولم يبق من المدينة إلا اليسير، فأخرج من تحت الهدم خمسون ومئة ألف ميت.

وفي سنة تسعَ عشرة وثلاثمئة عَدَلَ الحاجُّ عن الجادة خوفاً من العرب، فرأوا في البرية صورَ ناسٍ من حجارة، ورأوا امرأة قائمة على التنور وهي من حجارة، والخبز الذي في التنور من حجارة.

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة هبت ريحٌ **بفم الصلح**[2]، شبهت بالتنين، جرفت دجلة، حتى ذكر أنّه بانت أرضها، وأهلكت خلقاً كثيراً، واحتملت زورقاً منحدراً، وفيه دواب، **فطرحته في أرض جوحى**[3].

وفي سنة عشرين وأربعمئة جاء **بَـرَد هائل**، ووقعت بردة حُزِرت بمئة وخمسين رطلاً، فكانت كالثور النائم[4].

وفي سنة أربع وثلاثين [وأربعمئة][5] **زلزلت تبريز**، فهدم سورها وقلعتها، وهلك تحتَ الهدمِ خمسون ألفاً.

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمئة كانت **بأذربيجان زلازل**، انقلعت منها الحيطان، فحكى من يعتمَدُ على قوله أنّه كان قاعداً في إيوان داره، فانفرج سقفه حتى رأى السماء من وسطه ثم عاد.

وفي سنة ستين وأربعمئة كانت **زلزلة بفلسطينَ**، هلك فيها خمسة عشر ألفاً، وانشقت صخرة بيت المقدس، ثم عادت فالتأمتْ، وغاضَ البحر مسيرةَ يوم، فساخ في الأرض، فدخل الناس يلتقطون، فرجع عليهم فأهلك خلقاً كثيراً منهم.

وفي سنة اثنتين وستين [وأربعمئة][6] **خُسف بأيلة**[7].

---

(1) **دُنْبُل**: كقنفد؛ أكراد حول الموصل، فأراد موضعهم.

(2) **فم الصلح**: نهر عند واسط.

(3) **جوحى**: بالجيم والواو فالحاء المهملة والألف المقصورة، قرية من عمل بغداد.

(4) في خ ل: القائم.

(5) زيادة من المحققين للتوضيح.

(6) زيادة من المحققين للتوضيح.

(7) **أيلة**: مدينة على ساحل خليج العقبة.

وفي سنة ست وخمسمئة **سُمع ببغداد هدةٌ عظيمةٌ** في أقطار بغداد في الجانبين، قال شيخنا أبو بكر بن عبد الباقي: أنا سمعتها، فظننتُ حائطاً قد وقع، ولم يُعلم ما ذاك، ولم يكن في السماء غيم، فيقال: رعدٌ.

وفي السنة التي تليها وقعت **زلزلة بناحية الشام**، فوقع من سور الرها[1] ثلاثة عشر برجاً.

وخُسف **بسميساط**[2] وقلب بنصف القلعة.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمئة **زلزلت الأرض ببغداد** يوم عرفة، فكانت الحيطان تمرُّ وتجيء.

وفي سنة خمسَ عشرةَ **وقع الثلج ببغداد**، فامتلأت منه الشوارعُ والدروب، ولم يُسمع قبله بمثله.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة كانت **زلزلة بِجَنْزة**[3]، أتت على مئتي ألف وثلاثين ألفاً فأهلكتهم، وكانت في مقدار عشرة فراسخَ في مثلها.

وفي السنة التي تليها **خُسف بجَنْزة**، وصار مكان البلد ماء أسود، وقدم التجار من أهلها فلزموا المقابر يبكون على أهليهم.

وزلزلت حلوان فتقطع الجبل، وهلك خلق كثير.

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمئة كانت **زلازل بالشام** في ثلاثة عشر بلداً من بلاد الإسلام، فمنها ما هلك كله، ومنها ما هلك بعضه.

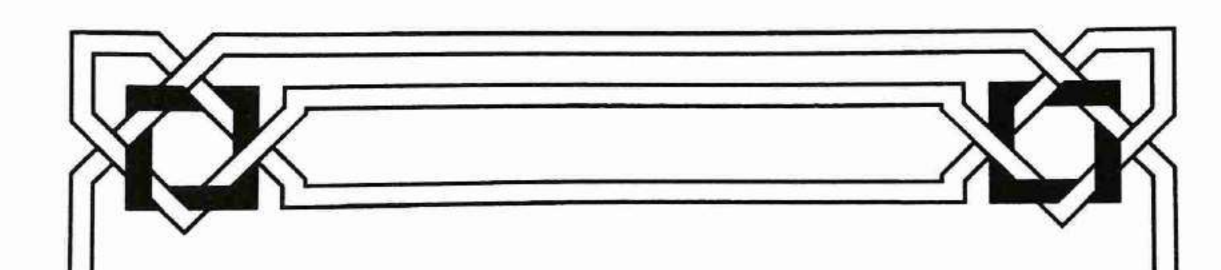
* * *

---

(١) **الرها**: بلد بنواحي الشام.

(٢) **سميساط**: بلد على الفرات.

(٣) **جنزة**: بفتح الجيم وسكون النون والراء المعجمة بلدة عظيمة بإيران.



البَابُ الخَامِسُ

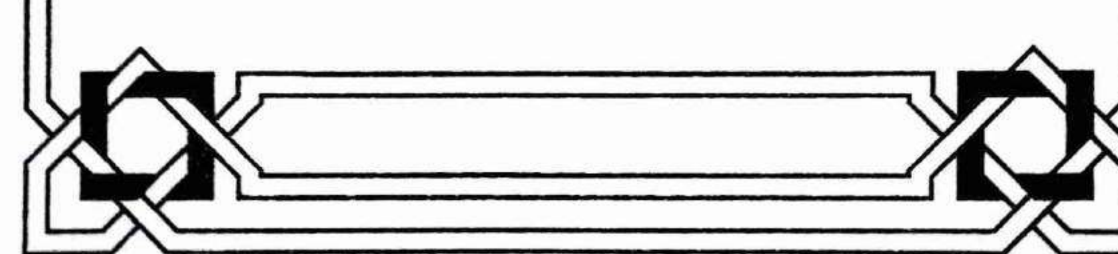
في ذكر المواعظ

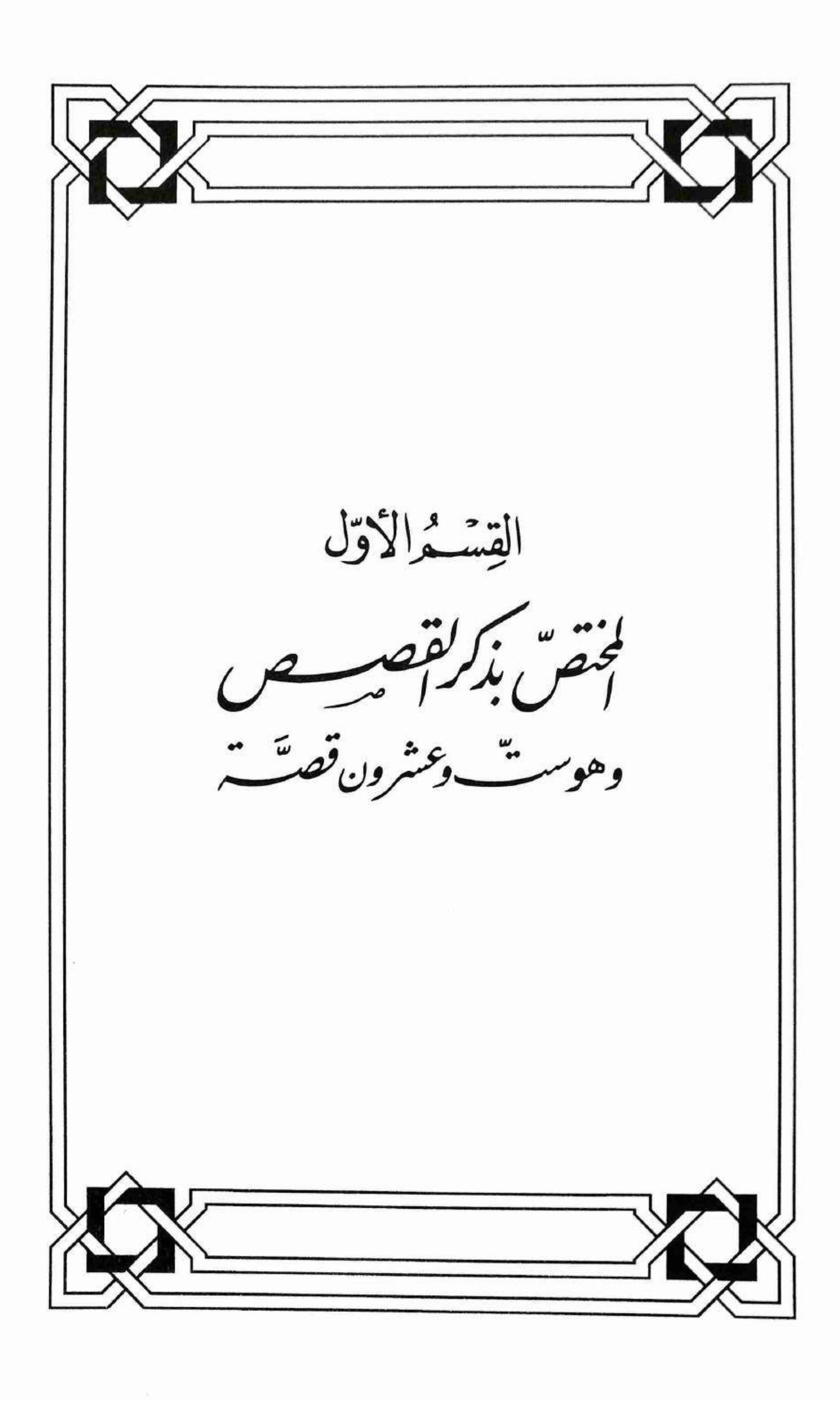
وهذا الباب ينقسم قسمين:

القسم الأول: يختص بذكر القصص.

والقسم الثاني: فيه المواعظ والإشارات مطلقاً.

* * *

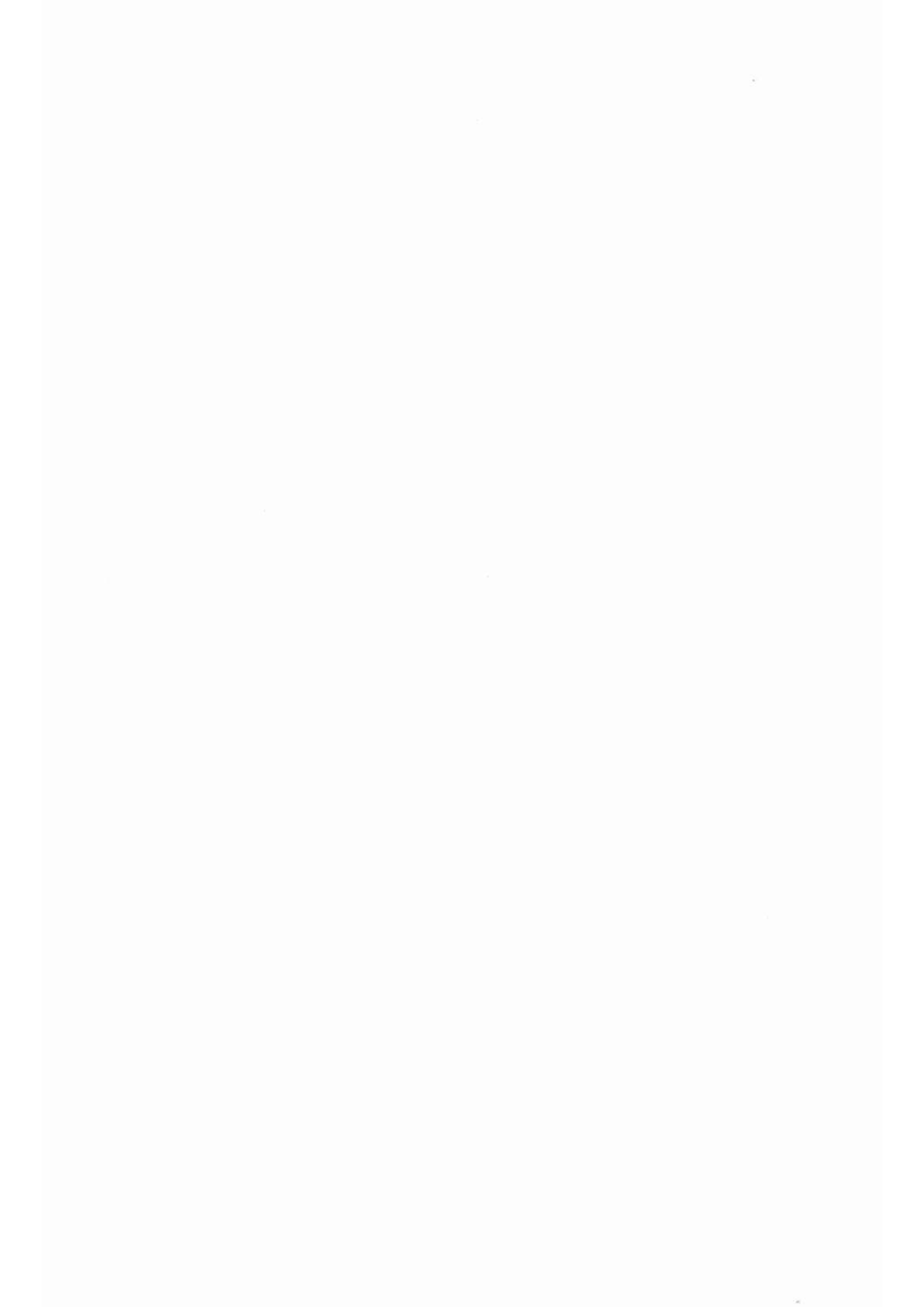




القِسمُ الأوّل

المختصّ بذكر القصص

وهو ستّ وعشرون قصّة



الفصل الأول

في قصة آدم عليه السلام

اعلموا أنَّ الله تعالى خلق آدم عليه السلام آخر الخلق، لأنه مهَّدَ الدارَ قبلَ الساكنِ، وأقامَ عُذْرَه قبلَ الزَّللِ، بقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فظنَّتِ الملائكةُ أنَّ تفضيله بنفسِه، فضنَّتْ بالفضلِ عليه، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقوبلوا بلفظ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٣٠].

فلما صوَّره، ألقاه كاللَّقا[١]، فلمّا عاين إبليسُ تلكَ الصورةَ، باتَ مِنَ الهمِّ في صَوْرة[٢]، فلمّا نُفخَ فيه الروحُ باتَ الحاسِدُ ينوحُ.

ثم نودي في نادي الملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فتطهروا من غديرِ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وغودر الغادِرُ نَجِساً بكبرياء ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ [صٓ: ٧٦]. ثم حام العدوُّ حولَ حمى المحمي، فلولا سابِقُ القدر، ما قَدِرَ على آدم.

فلمَّا نـزلَ إلى الأرض، خـدَّ خدَّ[٣] الفَرَحِ بمدمعِ التَّرَحِ[٤]، حتى أقلقَ الوجودَ، فجاء جبريلُ، فقال: ما هذا الجهدُ؟ فصاحَ لسانُ الوَجدِ:

(للخفاجي):

مـا رحلـتِ العيـسُ عـن أرضِكُـم ... فــرأتْ عينــايَ شيئــاً حَسَنــا
هــل لنــا نحــوكــم مِــنْ عَــوْدَةٍ ... ومِــنَ التَّعليـلِ قـولـي: هَـلْ لنـا

(١) كاللقا: كالعصا: الشيء الملقى المطروح كاللقطة.
(٢) صورة: يقال: إني لأجد في رأسي صَورة، أي: شبه الحكّة يجدها الإنسان في رأسه حتى يشتهي أنه يُفلى.
(٣) خدَّ الأولى: حفر، خدَّ الثانية: خدّ الوجه.
(٤) الترحُ: الحزنُ.

يا آدمُ! لا تجزعْ مِنْ كأسِ خطأٍ كانَ سببَ كَيَسِكَ، فلقد استَخرجَ منك داءَ العُجْبِ، وألْبسَكَ رداءَ النُّسكِ، «لو لم تُذْنِبُوا لذهبَ اللهُ بكم، وجاءَ بقومٍ»[1]

(للمتنبي):

لعـلَّ عَتْبَـكَ محمـودٌ عـواقِبُـه ... وربَّمـا صَحَّـتِ الأجسـامُ بـالعِلَـلِ

لا تحزن لقولي لك: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، فلك خلَقْتُها، ولكنِ اخرُجْ منها إلى مزرعةِ المجاهدةِ، وسُقْ من دمعِك ساقيةَ ساقيةٍ[2] لشجرةِ ندمِكَ، فإذا عادَ العُوْدُ خَضِراً فعُد.

(للبحتري):

إنْ جَـرَى بيننـا وبينـكِ عتـبٌ ... أو تنـاءَتْ منـا ومنـكِ الـدِّيـارُ

فـالغليـلُ[3] الـذي عهِـدْتِ مقيـمٌ ... والـدمـوعُ التـي شَهِـدْتِ غِـزَارُ

ما زالتْ زَلَّةُ الأكلةِ تعادِهِ[4]، حتى استولى داؤه على أولادِه، فنمت هينمةُ[5] الملائكة، بعبارةِ نظرِ العاقبةِ، فنشروا مطويَّ ﴿أَتَجْعَلُ﴾ [البقرة: ٣٠].

قرعوا بعِصيِّ الدعاوي ظهورَ العُصاة، فقيل لهم: لو كنتم بين أفاعي الهوى وعقارب اللذات، لباتَ سليمُكم سليماً[6]، فأبـوا للجرأة إلا جرَّ جرير[7] الدعاوي، وحدّثوا أنفسهم بالتُّقى والتقاوي[8]، فقيل: نقّبوا عن خيارِ نقبائكم، وانتقُوا مَلَك الملكوت، فما رأوا لمثلها مثلَ هاروت وماروت[9]، فآبا لسفر البِلا

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) بلفظ: **«لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم»**.

(٢) **ساقية الأولى**: اسم فاعل من سقى، **وساقية الثانية**: مجرى ماء.

(٣) **الغليلُ**: شدّة العطش.

(٤) **تعاده**: لعلها تعاوده، أي: تأتيه ذكراها مرة بعد مرة.

(٥) الصوت الخفي.

(٦) **سليمكم سليماً**: سليم الأولى بمعنى المعافى، سليم الثانية بمعنى: الملدوغ.

(٧) **جرير**: كأمير؛ الحبل.

(٨) **التقاوي**: إظهار القوة.

(٩) أخرج القصة الإمام أحمد في (المسند)، وابن ماجه، والطبري في (التفسير)؛ والحاكم=

بالبلية، فما نزلا مِنْ مقام العصمة، فنزلا منزل الدعوى، فَرَكبا مركب البشرية، فمرّت على المرأين[1] امرأةٌ يقال لها: الزُّهرة، بيدها مِزهرُ زهرةِ الشهوة، فغنّت الغانيةُ بغنّة أغنّ[2]، فرنت قيانُ الهوى، فهوى الصوتُ في صوبِ قلبِ قَلْبيهما، فقلبَهما عن تقوى التقويم، فانهارَ بناءُ عزمِ هاروت، ومارَ همُّ حزمِ ماروت، فأراداها على الردى فراوداها، وما قتل الهوى نفساً فوداها[3]، فبسطت نِطْع التنطّع على تخت التخيير، إما أن تُشركا، وإما أن تَقْتلا، وإما أن تشربا، فظنّا سهولة الأمر في الخمر، وما فطنا، فلمّا امتد ساعِدُ الخلاف، فسقى فِسْقاً[4]، فدخلا سككَ السُّكر، فزلا في مزالقِ الزنى، فرآهما مع الشخصية شخصٌ، فشَخصا إليه فقتلاه، ففشت فتنتُهما في فئة الملائكة، فاتخذوا لتلك الواردة وِرْداً من تضرع: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

* * *

= في (المستدرك). وقد أعلّها غيرُ واحد من العلماء، وعدها من خرافات بني إسرائيل التي لا يعوّل عليها، ورفعُها للنبي ﷺ خطأ ووهم. انظر: كتاب التوابين، لابن قدامة، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ص١٤.

(١) **المرأين**: المقصود: هاروت وماروت حين ظهرا بصورة رجلين.

(٢) **غنة أغن**: الغنة: صوت في الخيشوم، والأغن: الذي يتكلّم من قبل خياشيمه.

(٣) **فوداها**: أي دفع ديتها.

(٤) **فسقًا**: أي خمراً.

الفَصْلُ الثَّانِي

في بناء الكعبة

لما علا كعبُ الكعبةِ على سائرِ البقاعِ بقاعِ العلم، أبرزتْها كفُّ الإيجادِ كالكاعِبِ[1] قبلَ وجودِ الأرضِ، وكان آدمُ أولَ من ساسَ الأساسَ، ثم بَيَّتَ للبيتِ البياتُ[2] طوافَ الطُّوفان، فحلَّ ماحِلَ[3] أزرارِ حُللِ الخليلِ.

فلمّا هاجرَ الخليلُ بهاجر وابنها، أوضعَ[4] بهما، فوضعهما هنالك، وتولّى راضياً بمَنْ تولاه يومَ ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فقالت هاجر: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجعت متوكئة على مِنْسأة[5] التوكل على من لا ينْسى، فجعلت تشربُ ما معها من ماء، وتُرضِعُ لبنَها ابنَها، فلما نفدا، جعل إسماعيلُ يتلوَّى على رَمَض[6] رمضانِ الصوم، فانطلقت لتبذل المجهودَ في مأمور ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك: ١٥]، فصعدتْ بأقدام الصَّفا على الصَّفا[7]، فلمَّا أطلت الطَّلةُ[8] على الطَّلَلِ[9]، توكّفت[10] طَلَّ[11] روحٍ ينْقَع الغُلَّة[12]، ثم جَرَتْ فجدَّتِ

---

(١) **كالكاعب**: الفتاة التي نهد ثدياها.

(٢) **البيات**: هو أن يُقصد المبيَّتُ في الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة.

(٣) **ماحِلَ الأرض**: الجدب القفر.

(٤) **أوضع**: أسرعَ.

(٥) **المنسأة**: العصا.

(٦) **رمَض**: شدة الحر.

(٧) **بأقدام الصفا على الصفا**: الصفا الأولى من الصفاء، والثانية هي جُبيلٌ صغيرٌ يبدأ منه الحاج أو المعتمر أشواطَ السعي حاكياً ما فعلته هاجر رضي الله عنها.

(٨) **الطلة**: المرأة؛ أي: هاجر.

(٩) **الطلل**: هو الموضع المرتفعُ من المكان، ويقصد به الصفا.

(١٠) **توكّفت**: توكّف الأثر: تتبّعه، والخبر: توقعه.

(١١) **طل**: الطل: المطر الصغار القطر الدائم، وهو أرسخ المطر ندى.

(١٢) **ينقع**: يروي. **الغلة**: شدة العطش وحرارته.

الجُدَدَ[١] بالجِدِّ هابطةً، فلما طَرِفَ طَرَفُ[٢] الوادي، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثم وسَّعت خُطاها، وسعَتْ للجَهد بجُهدِ[٣] ذَرْعِها[٤]، ثم أتت المرأةُ المروةَ، وعادت إلى الصفا سبعاً، فلذلك أُمِرَ المكلَّفُ أن يسعى، لأنه أثرُ قدمٍ مِقدام لتُصيبَ الأقدامُ نصيباً من مواطئ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فسمعت صوتاً مِنْ صوبٍ[٥]، فنزل الملَكُ ليزيلَ النازلةَ، فهيأ نُزُلَ النزيلِ النزيهِ، فزمزمَ[٦] ماءُ زمزمَ، ونزا نَزْواً[٧]، لا نزَّ[٨] نزّاً، فَحَصْحَصَ[٩] الماءُ في صَحْصَحِ[١٠] الحصى، فامتدَّ كفُّ الحِرْصِ فلفَقَت[١١] كالحوضِ، فقيل لها: ليس هذا الماءُ من كِيْسِ كسبكِ، فما هذا المذقُ[١٢] من حرصِ فعلكِ، ولو تركتِ زمزم لكانت عيناً معيناً[١٣].

فمرّت رِفقةٌ من جُرْهمٍ[١٤]، فجرَّهم[١٥] سؤالُ ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فأقاموا.

واشتاق الخليلُ إلى ابنِه، فاستاقَ راحلةَ الرحيل، فاشترطَ لسانُ غَيْرةِ

---

(١) **الجدد**: الأرض المستوية، **وجدّت**: قطعت.
(٢) **طَرِف**: كفرح أي: تطرف وبعدُ، **وطَرَف**: بفتح الطاء والراء: الجانب.
(٣) **الجُهدُ**: بضم الجيم الوسع والطاقة، **الجَهد**: بفتح الجيم: كلُّ نشاطٍ يبذلُه الكائن الحي الواعي جسمياً وعقلياً ويهدف لغاية.
(٤) يقال: **ذرع الطريق**: قطعه بسرعة كأنه يقيسه.
(٥) **صوب**: ناحية.
(٦) **زمزم**: أي صوت متتابع، كناية عن تفجّره بركضة جبريل عليه السلام. يقال: زمزمَ الحصانُ: طرّب في صوته.
(٧) **نزا نزواً**: وثب، فار فوراناً.
(٨) **نزّ**: نزّ الماء تحلّب من الأرض.
(٩) **حصحص**: بان وظهر.
(١٠) **صحصح**: الأرض المستوية الواسعة.
(١١) **لفقت**: ضمت الماء، يقال: لفق الثوبَ؛ ضمَّ إحدى شقيه إلى الأخرى وخاطهما.
(١٢) **المذق**: المزجُ والخلطُ، يقال: مذقَ اللبن بالماء: مزجه وخلطه. يشير إلى أنّه لا ينبغي أن تخلطَ ما وهبها الله من الماء بما يدفع عليه الحرص.
(١٣) **معيناً**: سهلاً سائلاً.
(١٤) **جُرهم**: قبيلة من قبائل العرب.
(١٥) **فجرّهم**: فأتى بهم ودفعهم.

سارةَ، ألا تنْزِل، فلم يَـنْزِل عن مكانِه، لئلا ينزلَ عن مكانة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، فقدَّمت زوجةُ إسماعيلَ إليه المقامَ فقام، فقَدَّت[1] فيه قدمُه، وغابت رِجلُ الرَّجُلِ، فحولته إلى يساره، فسرَتْ فيه اليُسرى[2]، فهتف دليلُ الإرشادِ بالقاصدين: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

فلمَّا أُمِرَ الخليلُ ببناءِ البيتِ، حارَ مَنْ لا يعلمُ مرادَ الآمر، فإذا سحابةٌ تسحبُ ذيلَ الدليلِ، قد قدّها المهندسُ القدريُّ على قدر البيت، فوقفتْ فنادتْ: يا إبراهيم: عَلِّمْ على ظِلِّي، فلما عَلَّمَ كما عُلِّم، هبّتْ، فذهبتْ، فسرَّ بما فسّر له من مُشكِلِ الشَّكْلِ، فذلك سِرُّ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٢٦]، فكان استراحة البنَّـاء المُعَنَّى ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فلمَّا فـرَغا، وفغـرا فمَ السـؤال، يرتشفان ضرعَ الضراعة: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

فلمَّا شرفتِ الكعبةُ بإضافةِ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦] قصدها فوجُ الفيلِ ففَيَّل[3] مرادَهم، لمّا باتوا على ما بيتوا، أقبلَ الطيرُ الذي رمَى كالغمام، فكانت قطراتُه للحَصَادِ لا للبَذْرِ، فأصبحَ لزرع الأجسادِ كالمِنْجَلِ الهاشِم، ليكونَ معجزةً لظهورِ ابنِ هاشمٍ، فأصبحَ في بيدر الدِّراس[4] ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

* * *

---

(١) قدّت: شقت وغاصت.

(٢) يفهم من العبارة: أنَّ الحَجَرَ الذي غاصت فيه قدمُ الخليل هو الذي قدمته له زوجة إسماعيل عليه السلام، والتحقيقُ أنّه الحجر الذي ارتفعَ عليه إبراهيم عليه السلام حين ضعفُ عن رفع الحجارة التي كـان إسـماعيل يناولـه إياها في بناء البيت، وغرقت قدمـاه فيه، وهـذا في البخاري، وقال أنس رضي الله عنه: رأيتُ في المقام أثرَ أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم (حكاه القشيري)، وقال السُّدّي: المقام الحجر الذي وضعته زوجةُ إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه، وهناك من قال: الحج كله مقام، ومن خصص كعطاء فقال: عرفة ومزدلفة والجمار، وقال مجاهد: الحرم كلُّه مقام إبراهيم. وقد قال القرطبي في (تفسيره): والصحيح في المقام القول الأول، حسب ما ثبت في (الصحيح). قاله بعدما ساق الأقوال كلها، انظر: ٢/ ١١٣.

(٣) يقال: فيّل رأيه: ضعّفه وخطّأه.

(٤) الدراس: الدياس؛ وطءُ الحصيدِ ليخرجَ منه الحَبُّ.

الفصل الثالث

في قصة نوح عليه السلام

لمّا عمَّ أهلَ الأرضِ العمى عمَّا خُلقوا له، بُعِثَ نوحٌ لجلاءِ أبصارِ البصائرِ، فمكثَ يداويهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، فكلُّهم أبصرَ، ولكنْ عن المحجَّةِ يتعامى، فلاحَ للاّحي[١] عدمُ فلاحهم، فولاهم الصّلا[٢] إياساً من صلاحهم، وبعثَ شكايةَ الأذى في مسطور ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]، فأذَّن مؤذِّنُ الطرْدِ، على باب دارِ إهدارِ دمائهم: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فقام نوحٌ في محراب ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦]، فأتته رسالة ﴿أَنِ ٱصْنَعِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ونادى بريدُ الإعلام بالغضب: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي﴾ [هود: ٣٧]، فلمّا انهار كثيبُ الإمهالِ، وانقطع سِلْكُ التأخير، غربتْ شمسُ الانتظار، فادلهمّتْ عُقابُ[٣] العِقابِ، فلمَّا انسدلت الظُّلمةُ، وفاتَ[٤] النور ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]، فقيل: يا نوح! قد حان حِيْنُ الحين[٥]، فاحمل ﴿فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فتخلَّف خَلْفٌ[٦] من ولدِه، فمدَّ يدَ الحُنُوِّ ليأخذه بيده: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، فأجاب عن ضمير خائض في المساوي: ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ [هود: ٤٣]، فرد عليه لسان الوعيد: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ [هود: ٤٣].

فلمّا انتقمَ من العصاةِ بما يكفي، كـفَّ كفُّ النجاةِ كفَّـة الأرضِ بقسْـر

---

(١) **اللاحي**: اللائم العاذل.

(٢) **الصلا**: وسط الظهر؛ أي: أعرض عنهم.

(٣) **عقاب**: الحرب (تاج العروس، مادة: عقب).

(٤) **فات**: ذهبَ.

(٥) **الحين**: الهلاك.

(٦) **خَلْفٌ**: بسكون اللام، الولد الذميم.

﴿ ٱبۡلَعِي ﴾ [هود: ٤٤]، وقلعَ جِذْع جَزَعِ[1] السَّما في وَكْفِ[2] دَمْعِهَا بِظُفْرِ ﴿ أَقۡلِعِي ﴾ [هود: ٤٤]، ونوديتْ نجوةُ الجودي جودي، بإنجاءِ غرقى السير، وزُوِّدَ الهالكون في سَفَر الطَّرد زادَ ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا ﴾ [هود: ٤٤].

* * *

(١) جذع: ساق النخلة. جَزَع: نقيض الصبر.
(٢) وكف دمعها: سيلانه.

الفصل الرابع

في قصة عاد[1]

لما تجبَّـرَ قومُ عادٍ في ظِلِ ظُلل ضلالهم حين أَملى[2] الأملُ وطولُ البقاء، وزُويَ ذِكرُ زوالهم، ومرُّوا في مشارع[3] عِذابِ الملاهي، ناسين مُرَّ عَذَابها، رافلينَ[4] في حُلَلِ الغفلةِ بالأمنية عن المَنيَّةِ، وإذا بها أقبلَ هودُ يهديهم، ويناديهم في ناديهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فبرزوا في عتوٍّ ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، فسحبَ سَحابُ العذاب ذيلَ الإدبار، بإقباله إلى قُبالتهم، فظنّوه لمّا اعترى عارِضَ مَطَرٍ، فتهادَوْا تباشيرَ البشارة بتهادي ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فصاحَ بُلبلُ البَلبال[5] فبلبل[6]: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فكان كلّما دنا وترامى، ترى ما كان كأن لم يكن، فحنظلت شجراتُ مشاجرتهم هوداً، فجنى مَنْ جَنى[7] مِنْ جَنْيٍ ما جنى[8] في مغنى ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، فراحتْ ريح الدَّبور، لكي تَسِمَ الأدْبار بكيِّ الإدبار، فعجّوا منها عجيجَ الأدبر[9]، فلم تزل تكوي تكوينَهم، بمَيْسم العُدمِ، وتلوي تلوينَهم إلى حياض دمِ الندم، وتكفأُ عليهم الرمالَ، فتكفي تكفينهم،

---

(١) لم تذكر قصة عاد في الكتب السماوية سوى في القرآن الكريم، والآيات الواردة في هذا الفصل من السور التالية: الأعراف وفصلت والأحقاف والحاقة والقمر.

(٢) **أملى**: انفسح.

(٣) **المشارع**: الفرض التي تشرع فيها الواردة، أي: مآخذ الماء.

(٤) **رافلين**: متبخترين.

(٥) **البلبال**: شِدّة الهم والوسواس.

(٦) **بلبل**: فرّق وبدّد.

(٧) **فجنى**: من جني الثمر.

(٨) **جنى**: من الجناية.

(٩) **الأدبر**: لقب حِجْر بن عدي، نُبز به، لأنّ السّلاحَ أدبر ظهره، أو لأنّه طُعِنَ مولياً.

وتبرزُهم إلى البَراز[1] عن صون حصونٍ كِنٍّ يقيناً يقيهم[2]، فإذا أصبحتْ أخذتْ تنزع في قوسِ ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [القمر: ٢٠]، وإذا أمستْ أوقعت عَرِيضهم[3] في عُرْض[4] ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، فما برحتْ بارِحُهم[5] عن بَرَاحهم[6]، حتى برّحت[7] بهم، ولا أقلعتْ حتى قلعتْ قُلوعَ[8] قلاعِهم، فدامتْ عليهم آفةً وداءً، لا تقبل فداءً ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٧]، فَحُسُوا[9] ما أذاقهم من سوء ما حاسوا[10]، ونُسفوا من قَفْرٍ ﴿ أَلَا بُعْدًا ﴾ [هود: ٦٠]، إلى يمّ ﴿ وَأُتْبِعُواْ ﴾ [هود: ٦٠].

فلو عبرتَ بمعبر الاعتبار، لِتَرى ما آل إليه مآلهم، لرأيت التَّوى[11] كيف التوى عليهم، وكفَّ النَّوى، كيف نوى الدّنوَ إليهم، فانظر إلى عواقب الخلاف، فإنه شافٍ كافٍ.

* * *

(١) البراز: الفضاء الواسع.
(٢) يقيهم: يمنعهم.
(٣) عريضهم: أقواهم جسماً وأغلظهم.
(٤) عُرْض: ناحية.
(٥) بارحهم: الريح الباردة.
(٦) براحهم: ساحتهم.
(٧) برّحت: أجهدتهم.
(٨) قُلوعَ: جمع قِلْع، وهو شراع السفينة.
(٩) حُسوا: جُرعوا، والحسوة: ملءُ الفم مما يُحسى.
(١٠) ما حاسوا: ما أفسدوا، يقال: حاست المرأة ذيلها: إذا سحبته ووطئته كأنّها تفسده بالابتذال، وكذلك يقولون: هم يحوسون ثيابهم، إذا كانوا يفسدونها بالابتذال.
(١١) التوى: الهلاك.

الفصل الخامس

في قصة ثمود[1]

لما أعرضتْ ثمودُ عن كـلِّ فعلٍ صالحٍ، بُعـث إليهم للإصـلاح صالح، فَتَعَـنَّـتَتْ عليه ناقةُ أهوائهم بطلب ناقةٍ، فخرجتْ من صخرةٍ صمّاء تُقَبْقِب[2]، ثم فَصَل عنها فصيلٌ يرغو، فارتعت[3] حول نَهْيِ نهيهِم عنها في حمى حماية ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا ﴾ [الشعراء: ١٥٦]، فاحتاجتْ إلى الماءِ، وهو قليلٌ عندهم، فقال حاكِمُ الوحي: ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وكانت يومَ وردِها، تقضي دينَ الماءِ بماءِ دَرِّها.

فاجتمعوا في حِلَّة[4] الحِيْلَةِ، على شاطئ غديرِ الغَدْرِ، فدارَ قُدار[5] حولَ عَطَن[6] ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ [القمر: ٢٩]، فصبَّ عليه صَيِّبَ صابٍ[7]، صاعُ صاعقةِ العذابِ الهُوْنِ، فحين دنا ودندنَ، دمغهم دمارُ ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾ [الشمس: ١٤]، فأصبحتِ المنازِلُ لهولِ ذلك النازل ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤].

* * *

---

(١) انظر: سورة الأعراف والشعراء وهود.

(٢) **تقبقب**: تصوّت.

(٣) **ارتعت**: من الراعي؛ أي: أخذت في الرعي.

(٤) **حلة**: الحلة: منزل القوم وجماعة البيوت.

(٥) **قدار**: اسم عاقر الناقة.

(٦) **عطن**: مناخ.

(٧) **صيب صابٍ**: مطر مرّ لا خير فيه.

الفصل السادس

في قصة الخليل عليه السلام

كان الكهنةُ قد حذَّرت نُمرُودَ وجودَ مُحارِب غالب، ففرَّقَ بين الرِّجالِ والنساءِ، فحُمِلَ به على رغم أنفِ اجتهاده، فلمَّا خاضَ المخاضُ في خِضَمٍّ أمِّ إبراهيم، وجَعَلت بين خَيْفِ[1] الخوفِ وحَيِّزِ التَّحَيُّرِ تَهيم، فوضعته في نهرٍ قد يَبِس، وسترته بالحَلْفَاءِ[2] ليَلْتَبِس، فكانت تختلِفُ[3] لرضاعه، وقد سبقها رَضاعُ ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فلمَّا بلغَ سبعَ سنين، رأى قومَه في هَزْلِ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فجادلهم[4] فجدَلهم[5] وأبرز نورَ الهدى في حجة ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقابله نمرود، بسُهى السهو في ظلام ﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فألقاه كاللَّقى[6]، على عجْزِ العجز، بآية ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم دخل دار الفراغ[7] ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الصافات: ٩٣]، فجرَّدوه مِنْ بُردِ[8] بَرْدِ[9] العذاب، إلى حَرِّ ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فبنوا بسفح[10] دمه بنياناً إلى

---

(١) **الخيْف**: ما انحدر من غِلَظِ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، وذلك كناية عن عدم الاستقرار.
(٢) **الحَلفاء**: نبت في الماء.
(٣) **تختلف**: تتردد.
(٤) **فجادلهم**: من المجادلة.
(٥) **فجدلهم**: غلبهم في الجدل.
(٦) **اللَّقى**: المُلْقى لهوانه.
(٧) **الفراغ**: المعبد الذي فيه الأصنام، وسمي بذلك لخروجِ قومهم إلى عيدهم.
(٨) **بُرد**: الثوب.
(٩) **بَرْد**: خلاف الحر.
(١٠) **سفح**: إراقة الدم.

سفح جبل، فاحتطبوا له على عَجَل العَجَل، فوضعوه في كفَّةِ المنجنيق، فاعترضَه جبريلُ في الطريق[1]، فناداه وهو يهوي في ذلك الفلا[2]: ألك حاجةٌ؟ قال: أما إليك فلا، فسبقَ بريدُ الوحْي إلى النارِ بلسان التَّفهيم: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

* * *

(١) في (ب) زيادة «في عرض».
(٢) **الفلا**: الفضاء.

الفصل السابع

في قصة الذبيح عليه السلام

لمّا ابتُلي الخليلُ بنمرودٍ فسَلِم[1]، وبالنار فَسُلِّم[2]، امتدَّ ساعدُ البلاء إلى الولدِ المساعدِ، فظهرتْ عندَ المشاورةِ نجابةُ ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢] وآبَ[3] يوصي الأبَ: اشدد رباطي ليمتنع ظاهري من التزلزل، كما سَكَن قلبي مسكن السكون، واكفف ثيابك عن دمي لا يصبغها عندمي[4]، فتحزنَ لرؤيته أمي، واقرأ السلامَ عليها منّي، فقال: نِعْمَ العونُ أنت يا بُنيَّ.

ثم أَمَرَّ السكين على مريء[5] المَرْءِ فما مرَّت، غيرَ أن حسراتِ الفراق للعيش أمَرَّت[6]، فطعنَ بها في الحلقِ مرَّاتٍ فـنَـبَتْ[7]، لكنّ حُبَّ حَبِّ الرضا في حبة القلب نبت.

يا إبراهيمُ! مِنْ عادةِ السكينِ أنْ تَقْطَعَ، ومن عادةِ الصبيِّ أن يَجْزعَ، فلمّا نسخَ الذبيحُ نُسخةَ الصَّبْرِ، ومحا سطورَ الجزعِ، قلبنـا عادةَ الحديدِ، فما مـرَّ ولا قطعَ، وليسَ المرادُ (من الابتلاء) أنْ نُعذِّب، ولكنّا نبتلي لنُهذِّب.

أين المعتبرون بقصتهما في غُصَّتهما؟ لقد حَصْحصَ[8] الأجرُ في حِصَّتهما، لمّا جعلا الطاعةَ إلى الرِّضا سُلَّماً[9]، فسُلَّ ما يؤذِي فَسُلِّمَا، وكلَّما كَلَما حاجبَ

---

(١) فسلمَ: من السلامة.
(٢) فَسُلِّمَ: من التسليم.
(٣) آب: رجع.
(٤) عندمي: العندم هو الدم.
(٥) مريء: مجرى الطعام.
(٦) أمرّت: أي جعلت العيش مُرّاً.
(٧) فنَبَت: كلّت ولم تقطع.
(٨) حصحص: بان وظهر.
(٩) سُلَّماً: مرقى.

كَلْمٍ[1]، كلَّ ما به يَذْبَحانِ، فَصُدَّ ما به صُدِما.

بَيْنا هُما على تلٍّ ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ [الصافات: ١٠٣]، جاء بشيرُ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥]، فارتدّ أعمى الحزن بصيراً بقميص ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٧].

ليس العجبُ أمرَ الخليل بذبحِ ولدِه، وإنّما العجَبُ مباشرةُ الذبحِ بيدِه، ولولا استغراقُ حُبِّ الآمرِ لما هانَ مثلُ هذا المأمور.

* * *

---

(١) كلْم: جرح.

الفصل الثامن

في قصة ذي القرنين

قطعَ [ذو][1] القرنين الأرضَ وأُقطعَها[2]، ومرَّ سالكاً مسلكاً ما فَتّ[3] سبسبُه[4] في ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]، فشمّرَ مُشمّراً. ما تَلَفّتَ، حتى لُفَّتْ شملةُ جمعِ شَمْلِه بالشمس في عينٍ حَمِئَة، فلمّا أفرغَ غَرْبَ الغَرْبِ على غاربِ[5] الغُربةِ مشى نحوَ المشارقِ.

فلم يزلْ يحوزُ الكنوزَ، ويجوزُ[6] إلى قتلِ مَنْ يجوزُ[7]، إلى أنْ طلعتْ طلائعُ الطُّلَعَة[8] على مَطلَعِ الشَّمْسِ، فأُبرزَ نيّرُ عدله المُشْرِقِ في المَشْرِقِ، ثم رأى باقي عَرْضِهِ في ذمَّةِ مقدارِ مَقْدرتِه كالدَّينِ، فسلكَ ما بين السّدينِ، فلمّا حشى حَشَا الجبلينِ بالزُّبَر، وَلَجَ المفسدون قَسْرَ[9] قبرِهم على مضضٍ ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ﴾ [الكهف: ٩٧].

عجباً لـه كم اقتنى مَن أصقُعٍ[10] وأقنف[11]، وكم أسعف[12] بأغشى[13]

---

(١) في (أ): (ذي القرنين) وهو تصحيف.

(٢) **أقطعها**: أي ملّكه الله إياها.

(٣) **فتّ**: قطع.

(٤) **سبسبه**: السبسب: المفازة.

(٥) **الغارب**: ما بين سنام الناقة إلى عنقها.

(٦) **يجوز**: يمضي.

(٧) **يجوز**: يحل.

(٨) **الطلعة**: كهمزة، المتطلعة كثيراً.

(٩) **قسر**: القهر على كره.

(١٠) **الأصقع**: الفرس ناصيتها بيضاء.

(١١) **الأقنف**: الأبيض القفا من الخيل.

(١٢) **أسعف**: ساعد.

(١٣) **الأغشى من الخيل**: الذي غشيت غرتُه وجهَه واتّسعت.

وأسْعَف[1]، وكم لطى له[2] من لطيم[3] وأخْيَف[4]، وكم سعى به من أكسع[5]، وقفز به من أقفز، ومشى به في مَحَجَّةِ المشرقِ مُحَجَّل، وطرقَ به طريقَ المَغْرب مُغرب، كم صحبَه من سايفٍ ونابلٍ وسالح[6]، كم تَبِعه من مدجّج ورام ورامح[7]، كم تقدَّمَ في مقدّمته من مُقَنَّعٍ مُقنِّعٍ[8]، كم تَبِعه مَنْ في السِّلاحِ كافر[9]، غيرُ شاكٍّ في الإصلاحِ ولا كافرٍ، فما ردَّ عنه الأذى المُودي به مودٍ[10]، ولا داري عن داره الدوائرَ دارعٌ، ولا ردَّ ذا عنه وَرْدٌ[11] ولا كُمَيْتٌ[12]، ولا قَرّبه من منيته سابقٌ ولا سُكَيْت[13]، فكأنّه إذا ماتَ ما تحرّكَ على حاركِ فرس، ولا شاكَ شاكَلتَه[14] شوكةُ عقب، بل مرّ كأنّهُ لم يكن، وذل للموتِ، وقبلها لم يَهُنْ.

فتلمّحْ آخرَ الدنيا إن كنتَ تدري، وانظر في أيِّ بحرٍ إلى الهلاك تجري، وأَصِخْ لخطابِ الخُطوب وافهم ما يجري، وكن على أُهبةٍ، فهذي الركابُ تسري.

(للشريف الرضي)[15]:

---

(١) **الأسعف من الخيل**: الأشيب الناصية.

(٢) **لطى له**: يقال: تلطى على العدو: كان له طَلَبةٌ فأخذ من مالهم شيئاً فسبق به.

(٣) **لطيم**: فرس لطيم: الأبيض موضع اللطمة من الخد.

(٤) **فرس أخيف**: إذا كان بيّن الخيف، وذلك إذا كانت إحدى عينيه سوداء كحلاء، والأخرى زرقاء.

(٥) **أكسع**: فرس يكون البياض من طرف الثُّنة في الرِّجْل.

(٦) **سايف**: ذو سيف. **نابل**: الذي يرمي بالنبل. **سالح**: صاحب سلاح.

(٧) **رامح**: ذو رمح.

(٨) **مُقنَّع**: مغطى بسلاح. **مُقنِّع**: ضارب بالسيف.

(٩) **كافر**: مغطى بالسلاح.

(١٠) **مودٍ**: دافع الدية.

(١١) **وَرْد**: يطلق على الأسد والفرس الذي بين الكُميْت والأشقر.

(١٢) **الكُميت**: من الخيل ما كان بين الأسود والأحمر.

(١٣) **السكيت**: المتأخر من الخيل.

(١٤) **شاكلته**: خاصرته.

(١٥) قاله يرثي المظفر أبا الحسن عبيد الله بن محمد عام (٣٨٧هـ)، وكان بينهما صداقة. انظر: ديوانه: ١/ ٤٩٤ـ٤٩٧.

أوَ مَـا رأيـتَ وقـائـعَ الـدهـرِ أفـلا تُسـيءُ الظـنَّ بـالعُمْـرِ
بَيْنـا الفتـى كـالطـودِ تكنفُـه هَضَبـاتُـه والعَضْـبُ ذي الأثـرِ
يـأبـى الـدّنيّـةَ فـي عشيـرتـهِ ويجـاذِبُ الأيـدي علـى الفَخْـرِ
وإذا أشـارَ إلـى قبـائلِـه حَشَـدَتْ إليـه بـأوْجـهٍ غُـرٍّ
زلّ الـزمـانُ بـوطء أخمصـه ومـواطـئُ الأزمـانِ للعَثْـرِ
نَـزعَ الإبـاءَ وكـان شملتَـهُ وأقـرّ إقـراراً علـى صُغـرِ
صـدْعُ الـرَّدى أعيـى تـلاحمَـه مَـنْ ألحـمَ الصَّـدَفيـن[1] بـالقطر
جَرّ الجيادَ على الوجى[2] ومضى أمَمـاً يَـدُقُّ السهـلَ بـالـوعـرِ
حتّـى التقـى بـالشمـسِ مغمـدُهُ فـي قعـرِ منقطـعٍ مـن البحـرِ
ثـم انثنـت كـفُّ المنـونِ بـهِ كـالضّغـث[3] بيـن النـابِ والظُّفـرِ
لـم تشتجـرْ عنـه الـرمـاحُ ولا ردَّ القضـاءَ بمـالِـه الـدَّثـرِ
جمـعَ الجنـودَ ورَاءَهُ فكـأنّمـا لاقتـه وهـو مُضيّـعُ الظّهـرِ
وبنـى الحصـونَ تمتُّعـاً فكـأنّما أمسـى بمضيعـةٍ ولا يـدري
وبـرى المَعـابِـل[4] للعدى فكـأنّما لِحمـامِـه كـانَ الـذي يَبْـري
أودَى[5] ومـا أودَتْ منـاقبُـه ومِـنَ الـرّجـالِ معَمَّـر الـذكـرِ
إنّ التّـوقـيَ فضـلُ معجـزةٍ فـدع القضـاءَ يَقُـدُّ أو يَفـري
نحمـي المطـاعـمَ للبقـاءِ وذي[6] الآجـالُ مـلءُ فـروجِهـا[7] تجـري

---

(١) **الصدف**: كل شيء مرتفع من جدار ونحوه، والصدفين هنا هما الجبلان المتلازمان بيننا وبين يأجوج ومأجوج.
(٢) **الوجى**: رقة الحافر من كثرة المشي.
(٣) **الضغث**: القبضة من الحشيش مختلطة الرطب واليابس.
(٤) **المعابل**: جمع معبلة، وهي النصل الطويل العريض.
(٥) **أودى**: هلك.
(٦) **ذي**: اسم إشارة، المشار إليه الآجال.
(٧) **ملءُ فروجها**: يريد أنها تنطلق بسرعة فائقة، يقال: ملأ فلان فروج فرسه، إذا حمله على أشد الحضْر، وقال أبو ذؤيب يصف الثور: «فانصاع من فزع وسد فروجه» ففروجه ما بين قوائمه، وسدها: أي ملأ قوائمه عذواً، كأن العَذْوَ سدَّ فروجه وملأها.

لـو كـان حِفْـظُ النفـسِ ينفَعُنـا كـانَ الطبيـبُ أحـقَّ بـالعُمْـرِ
المـوتُ داءٌ لا دواءَ لـه سيـانَ مـا يُـوبـي[1] ومـا يَمـري[2]

* * *

(١) ما يوبي: من الوباء.
(٢) يمري: ما يسوغ ويلذ.

الفصل التاسع

في قصة قوم لوطٍ عليه السلام

لمّا تهاوى قوم لوط في هوّة أهوائهم، وتنادَوْا في جهات جهلهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، بُعثتِ الأملاكُ لانتزاع أملاكِ الحياة من أيديهم، فنزلوا مِنْ منزل لوطٍ منزل النزيل، فهم في أفسح بيت [نبي][1] من الكرم، غيرَ أنّ حارسَ حِذْرِهِ ينادي: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧]، فخاف من قومه أذاهم، فإذا هُم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ [هود: ٧٨]، فأخذ يدافع مرّةً بمشورة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ [هود: ٧٨]، وتارةً بتقاةٍ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [هود: ٧٨]، وتارةً بسؤالٍ: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ [هود: ٧٨]، وتارةً بتوبيخٍ: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ [هود: ٧٨].

فلمّا كَلَّ كُلُّ سِلاحه، وأعيتهُ جهاتُ جهادِه، أنَّ[2] بِرَمْزِ ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، فحجبهم جبريلُ بحجاب ﴿فَطَمَسْنَآ﴾ [القمر: ٣٧]، ونتشه[3] من أسر الغمِّ بلفظ: ﴿فَأَسْرِ﴾ [هود: ٨١]، فلمّا علم أن الملأَ ملائكةٌ، تشوَّقَ إلى تعجيل التعذيب، فنادت عواطِفُ الحِلم: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فسار بأهله على أعجازِ نجائبِ النجاة، إلا عجوزَ العَجْز عن عِرفان المُعْجز، فإنّها لحقتْ بالعَجَزة، فلمّا لاحَ مِصْباحُ الصَّباح احتملَ جبريلُ قُرى[4] مَنْ جَنى[5] على قَرَا[6] جناحه، فلم ينكسِرْ في وقتِ رفعهم إناء، ولم يُـرَقْ في صُعود صَعودهم[7] ماء، فلمّا سمعَ أهلُ السماءِ نُباحَ كلابهم، أسرعت كفُّ القلى[8] بهم في انقلابهم.

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٢) أَنّ: من الأنين توجُّعاً.

(٣) نتشه: أخرجه.

(٤) قرى: جمع قرية.

(٥) جنى: من الجناية.

(٦) قرا: ظهر.

(٧) الصعود: العقبةُ الشاقة.

(٨) القلى: البغض والكراهية.

فَتَفَكَّرْ بالقلب، كيف جُوِّزُوا على قلبِ[1] الحكمةِ بالقَلْب، ثم بُعثَ إليهم سحابُ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [هود: ٨٢]، فاستعقل لهم سدٌّ سدَّ جِرْمُه الأفقَ على وفق جُرْمهم، فشصا[2] بالشصائص[3]، واحْزألّ[4] ثم ألّ[5] إليهم، واكفهرّت[6] بالغضب أرجاؤه، واحْمَوَمَّت[7] بالسُّخط أرجاؤه، وابذعرَّت[8] فعرَّت بوارِقه، وارتَتَقَتْ[9] في جوِّ الجَوى[10] جُوَبُه[11]، واستقلّتْ[12] على قُلل[13] قلاقلِ[14] الرَّدَى أردافُه[15]، وارتجزَ بأرجوزةِ الرَّجَزِ قبل أن يهمي فَهَمْهم، ثم دوَّى بالأدواءِ في دَوٍّ[16] دورانِه فأظْلَمَ، وركد كيدُه فلم يكد قُلوعُه تُقْلِع حتى قلعَهم حَيْنُه[17]، حين انجمَّ[18]، فما أركَّ[19]، ولا دَثَّ[20]، ولا بغَشَ[21]، بل قطقط[22]

---

(١) **قلب الحكمة**: إشارة إلى فاحشة اللواط.

(٢) **فشصا**: ارتفع.

(٣) **شصائص**: جمع شصوص: وهو الناقة القليلة اللبن، والسنة المجدبة.

(٤) **احزألّ**: علا وارتفع وتجمع.

(٥) **ألّ**: أسرع.

(٦) **اكفهرّت**: عبست.

(٧) **احمومت**: اشتدت وحميت.

(٨) **ابذعرّتْ**: تفرقت.

(٩) **ارتتقت**: التأمت.

(١٠) **الجوى**: الحرقة.

(١١) **الجُوَب**: جمع جوبة وهي الفُرجَةُ بين السحاب.

(١٢) **استقلّت**: ارتفعت.

(١٣) **قُلل**: جمع قلة، قمة الشيء وأعلاه.

(١٤) **قلاقل**: جمع قلقال، يقال: قلقله فتقلقل؛ أي: حركه فتحرك واضطرب.

(١٥) **أرداف**: جمع ردف وهو الكَفَل والعَجُز.

(١٦) **دوّ**: الدوّ: الفلاة الواسعة.

(١٧) **حينه**: من الحين وهو الهلاك.

(١٨) **انجمَّ**: يقال: أنجمت السماء: أسرع مطرها ودام.

(١٩) **أركّت السماء**: أمطرت مطراً خفيفاً.

(٢٠) **الدثّ**: المطر الضعيف.

(٢١) **البغش**: أضعف المطر.

(٢٢) **قطقط**: أي أمطر مطراً عظيماً فتتابع.

فـأفْرط، وعمَّ عميمُـه حين أغمطَ[1]، فتقاطـرَ علـى قُطرهم من قَطْـرِه قطرُ الحجارة، وبغتهم في غِرَّة غِرَّتهم بالغُرور بشنِّ الغارةِ، تالله لقد ضكضك[2] العذابُ، فَضَعْضَعَهم فتضعضعـوا، وانقضَّ بقضِّه وقضيضـه فقضقض عظامَ عظامِهم، وقطعها فتقطَّعـوا، وسـارَ بهم في طرْفسان[3] عِقـاب العِقاب، إلى عوطب[4] العطب فاهْرَمَّعوا[5]، وكانوا في كِنِّ صافي الصِّفات، فمرّوا إلى مُرِّ الرَّنَقِ[6] فافرنقعوا[7]، وهمس[8] هُمَيْسِعُهم[9]، وهلْ لمثلهم إلا الوَهَلُ والـوهـي[10]، ولاتَ حِيْـن منـاصٍ، وادْرنقعـوا[11]، وبَـرْقَـط[12] المُخْـرَنشَـم[13] بعـد أن بهنـس[14] وبلهـص[15] فبلطـح[16] وحـزن المُبْرَنْشِقُ[17] بعد أنْ زَهْزَقَ[18]، فبلسمَ[19] وكلَحَ[20]، فأُجيل[21] على الجيل

---

(١) **أغمط**: دام ولازم.

(٢) **ضكضك**: أسرع وضغط.

(٣) **الطِّرْفسان**: بكسر الطاء، السماءُ المظلمةُ بالسحاب.

(٤) **عوطب**: الداهية.

(٥) **اهْرَمَّعُوا**: بتشديد الميم: خفّوا عاجلين.

(٦) **الرنق**: الكدر.

(٧) **افرنقعوا**: تنحوا وانكشفوا.

(٨) **همس**: سار بالليل.

(٩) **هُمسيعهم**: القوي منهم.

(١٠) **الوهل**: الفزع. **والوهي**: التخرق والشق.

(١١) **ادرنقعوا**: أسرعوا وفروا.

(١٢) **برقط**: خطا متقارباً.

(١٣) **المخرنشم**: المتعاظم، المتكبر في نفسه.

(١٤) **بهنس**: تثاقل وضخم.

(١٥) **بلهص**: عدا من الفزع.

(١٦) **بلطح**: ضرب نفسه بالأرض.

(١٧) **المبرنشق**: الفَرِح المسرور.

(١٨) **زهزق**: ضحك.

(١٩) **بلسم**: سكت عن فزع.

(٢٠) **كلح**: أي عبس.

(٢١) **أجيل**: أدير.

سَجْلُ[1] السِّجِّيل[2]، فما برحَ حتى برَّح[3]، ودار هاتِفُ العبرةِ على دارسِ دارِهم ينادي: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥].

فليحذرِ العازمون على طروقِ طريقهم مِنْ وعيد ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، قبل غُصَصِ الجَرَض[4] وألم الحَرَض[5]، عندَ حلول المرض، حين يُعتقَلُ اللسان، ويتحيَّر الإنسان، وتسيلُ الأجفان، ويزول العرفان، وتُنشَرُ الأكفان، فيا عجباً! كيف ألفى لذة العيش الفاني الفاني[6]، وقد مرَّ [فأمرَّ كل ما كان][7]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

* * *

---

(١) **سجل**: الدلو الكبير.

(٢) **السِّجيل**: الطين المتحجر.

(٣) **برّح**: أتعب.

(٤) **الجَرض**: الريق.

(٥) **الحرض**: الفساد في البدن والعقل.

(٦) **الفاني الفاني**: الأولى: صفة للعيش، والثانية: صفة للإنسان، وهنا فاعل للفعل (ألفى).

(٧) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

الفصل العاشر

في قصة يوسف عليه السلام

لمَّا تمكَّنَ الحسدُ من قلوبِ إخوةِ يوسفَ، أُرِيَ المظلومُ مآلَ الظالم في مرآة ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]، فتلطّفوا بخداع ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١]، وشوّقوا يوسف إلى رياض «نَرْتَعْ ونَلْعَبْ»[١].

فلمّا أصحروا أظهروا المقتَ له، وراموْا [بسهم العدوان][٢] مقتلَه، فنسخَ نهارُ رِفْقهم به ليلَ انتهارهم له، فصاحَ يهودا في بقايا شَفَق الشَّفَقة، و[أغباشِ غيابةِ[٣] الجب][٤]: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، فلمّا ألقَوْه وقالوا: قد هَلك، جاء مِنْ عند مَنْ يمْلكُه ملكٌ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ [يوسف: ١٥]، فعادوا عمن عادَوْا كالأعشى ﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]، ولطّخوا قميصَه الصحيحَ ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، فلاحتْ [علامةُ][٥] سلامَةِ القميصِ كي يظهرَ كيدُهم، فقالَ حاكم الفِراسة: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ [يوسف: ١٨].

فلمّا ورَد واردُ السيّارةِ، باعوا الصدَفةَ، ولم يتلمّحوا الدُّرّة، واعجباً لقمرٍ قومرَ به، فلمّا وصلَ إلى مصرَ تفرّس فيه العزيزُ، فأجلسه على إعزاز ﴿أَكْرِمِي﴾ [يوسف: ٢١]، فشغف حبُّه قلبَ سيدته، وفَرَى ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ [يوسف: ٢٣]، فسارَ بأقدام الطَّبْع في فلاة غفلات[٦] ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ [يوسف: ٢٤]

---

(١) وهذا على قراءة أهل البصرة بالرفع، وغيرهم بالجزم (**يرتعْ ويلعبْ**).

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٣) **الغيابة**: قعر البئر.

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٥) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٦) الأنبياء معصومون عن الفواحش قبلَ النبوة وبعدها، وهذا الكلام لا يتناسب مع مقام العصمة، والآية دلت على وقوع الهمّ منها دونه، فيوسفُ عليه السلام لم يهم، لأنه رأى برهان ربه، والتقدير في الآيةك «لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها» أي: لولا وجودُ البرهان لوقه الهمُّ.

فانْقَدّ قوى الفرار وما استبقى ﴿ وَٱسْتَبَقَا ﴾ [يوسف: ٢٥] ، فانبسطتْ يدُ العدوانِ، وامتدت ﴿ وَقَدَّتْ ﴾ [يوسف ٢٥] ، فلمّا بانت حجتُه في إبّان ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ [يوسف: ٢٦] ، أخـذت تربي مُصَرّاة[١] الإصرار بيمين يميـن ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ ﴾ [يوسف: ٣٢] فاختارت دُرّة فهمِه صدَفَ الحبس لجهل الناقد ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف: ٣٣] ، فلما ضاق قفص الحصّ، على بُلبلِ الطبع، ترنّم بصوت ﴿ ٱذْكُرْنِي ﴾ [يوسف: ٤٢] ، فعوقِبَ بإيثاق باب ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف: ٤٢]، فلمّا آنَ أوانُ الفرج، خرجَ إلى الملك.

هذا ويعقوبُ مفترِشٌ فراشَ الأسى على حَزْن[٢] الحُزْنِ، لا يستلذّ نوماً ولا سِنةً، ثمانين سنةً[٣]، حتى نَحَل البدنُ، وذهبَ البصر[٤]:

لـم يبـقَ لـي بعـدكُـمْ رسـمٌ ولاطلـلُ ... إلاّ وللشّـوْقِ فـي أرجـائِـهِ عَمَـلُ
إذا شمَمْـتُ نسيْمـاً مِـنْ ديـاركُـمُ[٥] ... فقَدْتُ عَقْلِي كأنّي شَارِبٌ ثَمِلُ[٦]

فلمّا عمَّ عامُ القحطِ أرضَ كنعانَ، خرجَ إخوتُـهُ لطلبِ المِيْرَةِ[٧]، فدخلوا عليه في ظلام ظُلْمهم، فرآهم المظلومُ بعين ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم ﴾ [يوسف: ١٥] ، وخَفّى عليهم نَغْمةَ ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٩] ، فأقبلَ عليهم سـائِلاً، وأقبـلَ الدمـعُ سائلاً، وتقلقَلَ تقلقُلَ الواجدِ، ليسمعَ أخبارَ الوالدِ:

إيــهِ أحــاديــثَ نَعْمَــانٍ وســاكنِـهِ ... إنَّ الحـديـثَ عَـنْ الأحبـابِ أَسْمَـارُ

---

(١) **المصراة**: الشاة المحفلة أو الناقة أو البقرة يصرى اللبن في ضرعها: أي يجمع ويحبس، وقد فسّر الشافعيُّ رضي الله عنه المصراة بأنها التي تُصرُّ أخلافُها، ولاتحلبُ أياماً، حتى يجتمع اللبن في ضرعها، فإذا حلبها المشتري استغزرها.
(٢) **الحزْن**: خلاف السهل، وما غلظ من الأرض.
(٣) **ثمانين سنة**: هذا الرقم مبالغ فيه، ويحتاج لمراجعة، ولو كان مع مدة السجن بضع سنين والخروج منه ثمانيةً وعشرين سنة مثلاً لكان أقرب.
(٤) **ذهب البصر**: ابيضاضُ عيني يعقوب من الحزن على يوسف كان عارضاً، إذ ما لبث أن انقشع بقميص يوسف عليه السلام.
(٥) في (ب): بلادكم.
(٦) **الثَّمِلُ**: السكران، لأنه عبّ ما في الكأس حتى الثمالة؛ أي: بقية ما فيها.
(٧) **الميرة**: جلب الطعام، مار على عياله ميراً وامتار لهم: جلب لهم الطعام.

أُفتِّشُ الرِّيحَ عَنْكُمْ كلّما نَفَحَتْ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ نَكْبَاءُ مِعْطَارُ

فقالوا: جئنا من أرض كنعانَ، ولنا شيخٌ يقال له: يعقوبُ، وهو يقرأُ عليك السلامَ، فلمّا سمعَ رسالةَ أبيه، انتفض طائرُ الوجدِ لذكرِ الحبيبِ، فهيّجَ أحزانَ الفؤادِ وما يدري:

وداعٍ دعا إذْ نحنُ بالخَيْفِ مِنْ منًى فهيّجَ أحزانَ الفؤادِ وَمَا يَدْرِي[1]

فردّ السلامَ قلبُه قبلَ لسانِهِ، وشَغَلَهُ وَكْفُ[2] شانه[3] عن شأنه، وقال مِقْولُ إبدائِه بعبارةِ صُعَدائِه:

خُذي نَفْسِيَ يا رِيْحُ مِنْ جانِبِ الحِمَى فلاقي بها لَيْلاً نَسِيْمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاكَ الحيِّ حِبّاً عَهِدْتُهُ وبالرَّغْمِ مِنِّي أنْ يَطُوْلَ بِهِ عَهْدِي

ثم إنه طلب منهم أخاه، فاحتالوا بحيلة[4] ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ [يوسف: ٦٣]، فلمّا حَمَلوه حال بينهم وبينه بحيلة ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ ﴾ [يوسف: ٧٠]، فلمّا دخلَ وقتُ التُّهمة ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ [يوسف: ٧٠]، فعادوا إلى أبيهم بشَجًى[5] على شجَن، وقَرْحٍ على جرحٍ، وعَقْرٍ على عَقْرٍ[6]، فقام وقد تقوّس، وعسى على باب ﴿ عَسَى ﴾ ثم بعثه لطفُ ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾ [الزمر: ٥٣][7]، على أن بعثهم برسالة ﴿ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ [يوسف: ٨٧]، فلمّا رجعوا دخلوا من قفر الفقر، فاستلقَوْا في ساحة الضُّرِّ، ينادون عن غليل الذل ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف: ٨٨].

تاللهِ لقد جوزِيَت أيدٍ مدّها تغشرمُ[8] ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ [يوسف: ٢٠] أن مُدَّت في

---

(١) هذا البيت غير موجود في (أ).
(٢) الوكف: القطر.
(٣) شانه: مدمع العين.
(٤) في (ب): بحجة.
(٥) شجى: ما اعترض في الحلق ونشب فيه من عظم ونحوه، ويطلق على الحزن والهم.
(٦) عَقْر على عَقْر: جرح على جرح، أن: بنيامين بعد يوسف، وفي (ب): في عقر.
(٧) والذي في سورة يوسف ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ ﴾ [٨٧].
(٨) التغشرم: الجرأة.

طريق ذل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]، فلمّا عرفوه اعترفوا، فحمى ما اقترفوا بكَفِّ ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ [يوسف: ٩٢]، ورفع من موائدِ تلك الفوائد نصيبَ الوالد ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣]، فهبتْ نسيمُ الفرح، فتوغّلتْ في خياشيمِ مريضٍ كالفَرْخِ. من فُرَجِ[1] الفَرَجِ، فخرَّ رُكامُ الزُّكام عن مِنْخَرِ الضُّرِّ، فنادى مُدنفُ[2] الوجدِ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤]:

نَشَدْتُكَ اللهَ يا نَسِيمُ ... ما فَعَلَتْ بَعْدَنا الرُّسُوْمُ
هَل استهلَّتْ[3] بِهَا الغَوادِي[4] ... وَنَمَّقَتْ رَوْضَهَا الغُيُوْمُ
وهَلْ بِهَا مَنْ عَهِدتُ فِيْهَا ... بعدُ على حَالِهِ مُقِيْمُ
عَلِّلْ بروحِ الوِصَالِ صَبّاً ... أنفاسُه للجَوَى[5] سَمُومُ[6]
عُدْ فَسَلِّم على أُناسٍ ... ما أنا مِنْ بعدِهِمْ سَلِيمُ
واشْرَحْ لهُمْ حَالَ مُسْتَهَامٍ[7] ... أنتَ بأشواقِهِ عليمُ
وقُلْ غريبٌ ثوى بأرضٍ ... في غيرِهَا قلبُه مُقيمُ
يكابِدُ الشَّوقَ حينَ يُمسِي ... وتعتَري قلبَه الهُمُومُ
أحبابَنا تنقضِي اللّيالي ... وما انقَضَتْ تِلكُمُ الكُلومُ[8]
ذاكَ اللّديغُ الّذي عَهِدتم ... بَعْدُ على حَالِهِ سَقِيْمُ
أصبحَ مِنْ بعدِكُمْ وَحِيداً ... فلا خَلِيْلٌ وَلا حَمِيْمُ
لَمْ يَجْرِ ذِكْرُ الفِرَاقِ إلاّ ... حَنَّ كَمَا حَنَّتِ الرَّزُوْمُ[9]

---

(١) **فُرج**: جمع فرجة، وهي الشق بين الشيئين.
(٢) **المدنف**: من ثَقُل مرضُه، **والدنف**: المرض الملازم.
(٣) **استهلت**: انهلت وهطلت.
(٤) **الغوادي**: السحب تأتي غدْوة، والمفرد: غادية.
(٥) **الجوى**: الهوى الباطن، وشدة الوجد.
(٦) **سموم**: ريح حارة.
(٧) **مستهام**: شديد الحب، هيمان.
(٨) **الكلوم**: جمع كَلْم، وهو الجرح.
(٩) **الرزوم**: الناقة التي حنت لولدها.

فلمّا كشف يعقوبُ فِدام[1] الوجْد، بكفّ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤]؛ أحدقت به عواذلُ ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ [يوسف: ٨٥]، تالله لو وجدوا ما وجد ما أنكروا ما عرف.

(لمهيار)[2]:

هَـــلْ لَكُمَـــا عِلْـــمٌ ... بـــالطَّـــارِقِ المُلتَـــمّْ
سَـــرَى علـــى الـــدَّيــاجِـــي ... سُـــرَى أخيـــه النَّجْـــمِ
يَشُـــقُّ نَجْـــداً عَـــرْضـــاً ... مِـــنْ شخْصِـــهِ بسَهـــمِ
فَنَـــوَّرَ الليـــلَ وَلَيْسَـــتْ ... مِـــنَ ليـــالـــي التِّـــمّْ
خُـــذْ يـــا نسيْـــمُ عَنِّـــي ... تحيّتـــي وَلَثْمِـــي[3]
وهَنِّهِـــم بـــوُجْـــدِهِـــم ... مِـــنَ الكَـــرَى وعُـــدْمـــي
قـــالـــوا: هَجَـــرْتَ أرضَهـــم ... أهجُـــرُهَـــا بـــرُغْـــمِـــي
قَـــدْ وَصَلَـــتْ إلـــى الحَشَـــا ... رُسْلُكُـــمُ بـــالسُّقْـــمِ
فَلَـــمْ تَـــدَعْ واسِطَـــةً ... بَيْـــنَ دَمِـــي وَلَحْمِـــي
عُـــجْ[4] تَـــرَنَـــا رُسُـــوْمـــاً ... ثـــلاثـــةً[5] فـــي رَسْـــمِ
سَـــوَّى[6] النّحُـــولُ بيننـــا ... تَعْـــرِفُنـــا بـــالـــوَهْـــمِ
خـــطُّ هـــلالِ ليلـــةٍ ... وَدَارُهُـــمْ وجِسْمِـــي[7]

* * *

(١) الفِدام: غطاء القارورة ونحوها.

(٢) قاله يمدح سعد الملك أبا الحسين صاحب النعمان في المهرجان. انظر: ديوانه: ٢/٢٦٩.

(٣) قوله: (لثمي) في الديوان (ضمي).

(٤) عُجْ: فعل أمر، والماضي عاج على كذا أو بكذا: نزل وأقام، وعطف إليه، ومال، ومرَّ عليه.

(٥) رسوماً ثلاثة: يقصد بالثلاثة: خطُّ هلال أبكي، ودار الأحباب، وجسم الشاعر.

(٦) سوّى: جعلنا سواء.

(٧) في الديوان: (خيط هلالٍ أبكي ودارها وجسمي).

الفصل الحادي عشر

في قصة أيوب عليه السلام[1]

جُمِع لأيوبَ بينَ كثرةِ المالِ وحُسْنِ الأعمال، فَمَلأ مدحُه بالوفاق الآفاق، فأثارتْ تلكَ الآثارُ حسداً من إبليسَ قد تقادمَ منذ آدم، فقال: يا ربّ إنْ سلطتني عليه ألقيْتُه في الفتنة، فألفَيْتَه في الفئةِ المفتونين.

فقيل له: قد سلّطناكَ على ما لَهُ مِنْ مالٍ، فمالَ إلى جَمْعِ عفاريته، ففرّقهم في تمزيقِ ماله، وتولى هُوَ بنفسِه بنيه، ثم أتى في صورةِ معلمِهم يُعْلِمُه، فرأى ذلك لايُـؤلِمهُ، أنصتَ العدوُّ ليسمعَ عربدةَ السُّكرِ، فإذا أيوبُ يتلو آياتِ الشُّكْرِ، فصاح بلسانِ حَسدِهِ، فسُلِّطَ[2]، وقد سبقَهُ الصَّبرُ، فتقطّعَ الجسمُ وَدَادَ[3]، وما تقطَّعَ رسمُ الودادِ.

فأخرجَهُ أهلُ قريتِهِ، لقُروحِ قَرْحَةٍ إلى قرواح[4] كُناسةٍ[5]، فَرَمَوْهُ كَسِيْراً كالْكِسْرةِ، وكِساءُ كَسادِه عندهُمْ أغلى عندنا من أعلى كِسْوة كِسْرى، فلم يزل ما نزلَ به، حتى بدا حِجَابُ بطنِه، فكان يُـبْصِرُ عظامَه ويرى مِعَاه معاً[6].

(لمهيار):

مـا اخْتَـصَّ منِّـي السّقـامُ جَـارحـةً ... كـلُّ جِهَـاتـيَ أَغْـراضُ[7] مُنْتَبِـلِ[8]

---

(١) اقرأ قصته في [الأنبياء: ٨٣ـ٨٤]، [صَ: ٤١ـ٤٤].

(٢) في (ب): فسلطه.

(٣) **داد**: أي ظهر منه الدود، وهذا باطل مكذوب على سيدنا أيوب عليه السلام، وهو مما جاءت به الإسرائيليات لتشويه صورة الأنبياء عليهم السلام، كذلك رميه على الكُناسة وبدوُّ عظامه وأمعائه، فكلها من الأباطيل المردودة.

(٤) **قرواح**: الأرضُ لاماء بها ولاشجر.

(٥) **كُناسة**: بضم الكاف؛ القمامة.

(٦) هذا من الإسرائيليات الباطلة.

(٧) **أغراض**: جمع غرض: وهو الدريئة التي يصوّب عليها.

(٨) **منتبل**: رامي النبل.

إذَا لحــاظِــي لجِسْمِــيَ امتَعَضَــتْ   مِــنَ الضَّنــا قــالَ قلبــي احتمِــلِ

فدام هذا البلاءُ عليه سنين، وفدام[1] الصمتِ عن الشكوى على فيهِ يُبين[2]، ولـم يَـبْقَ غيرُ اللسانِ للذِّكرِ، والقلبِ للفكرِ، فلو أصغَى إلى نطقِ حالهِ سمعُ فهمٍ. أو سأله عن وجدِه ربُّ قلبٍ، لسمعَ من الذَّمَاءِ[3] ألذَّ ما يناجَى به الحق.

(للشريف الرضي)[4]:

مَحَـا بَعْـدَكُـم تلـكَ العُيُـونَ بُكـاؤهـا   وغـالَ بكُـم تلـكَ الأضـالـعَ غُـولُهـا
فمِــنْ نــاظـرٍ لــم يَـبْـقَ إلا دُمُــوعُــهُ   ومــنْ مُهجـةٍ لــم يَـبْـقَ إلا غَليلُهـا
دَعُــوا لــي قلبــاً بــالغــرامِ أُذيبُــهُ   عليكُــمْ، وعَيـنـاً فـي الطُّلـولِ أُجِيْلُهـا

فلمّا كعّ[5] إبليسُ، لقي زوجته في صورةِ متطبِّبٍ، فقال: عندي دواؤه، بشـرط أن يقول بشَفَتَيْه شَفَيْتَني، فجاءت تَدِبُّ، وقد أنساها طولُ البلاء تدبُّرَ المعنى، فأخبرتْ مَنْ قدْ خَبَـرَ عَدْوَ العدوِّ، فغضبَ المؤدِّبُ على تلميذٍ ما يقومُ بطول الصحبةِ، فحلفَ لئن شُفي ليجلدنَّها مئةً.

فبينـا المرءُ يكابدُ المُرَّ، مرَّ به صديقانِ له، فقالا: لو علمَ اللهُ مِنْ هذا خيراً ما بلغَ به الأمرُ، فما شَدَّ على سمعهِ أشدّ مِنْ ذلك، فخرَّ على عتبة ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ [الأعـراف: ١٥٠]، واستغـاثَ بلفـظ ﴿مَسَّنِيَ﴾ [صٓ: ٤١]، وصـاحَ بـإدلال «لـو أقسم»[6]، فجاء جبريل برسالة ﴿ارْكُضْ﴾ [صٓ: ٤٢].

وليس العجب لو ركضَ جبريل، إنّما العجبُ أن يركضَ العليل، فركضت

---

(١) الفدام: ما يوضع على فم الإبريق، ورَجُل فَدِمٌ: عيي في الكلام في ثقل.
(٢) يبين: يبعد.
(٣) الذماء: بقية النفس.
(٤) من قصيدة قالها لمّا وقف على منازله سنة (٤٠٤هـ). انظر: الديوان: ٢/ ١٨٣ـ١٨٦.
(٥) كعَّ: جبن وضعف.
(٦) «لو قسم»: جزء من حديث: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرَينِ تنبو عنه أعينُ النّاسِ، لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ» الحديث، في الجامع الصغير برقم (٤٤٠١) و(٢٨٥٢). قال الحاكم: صحيح الإسناد.

خيلُ النِّعَم عند ركضتِـهِ فَرُدَّت[١]، وما غارَ الماءُ ما أُغِيرَ عليه من نعمتِه، فنسيَ بنسيم العافية ما ألمَّ من ألمٍ، وردَّتْ يدُ المنّة كلَّ ما مرَّ منه وذهب، وكان نثارُ الرِّضَا على واديه بعد أن جرى وادي جُرادى[٢] من ذهب[٣] وأقبلت زوجتُه، وعليه يمينُ ضربِها، وما كان يَحسنُ في مقابلته صبرَها، فأقبلَ لسان الوحي يتلو فَتْوى الرحمةِ، ويراعي ما سبقَ مِنْ مراعاةِ رحمة[٤] ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ [صٓ: ٤٤].

تالله ما ضرَّهُ ما أكلَ من جسدِه الدود[٥] لما اختالَ في ثوبِ مودود، وأصبَحَ مُصْطَبِحاً شـرابَ السرورِ من جودِ الجودِ، فرنَّتْ قبـانُ الفرح إذ غنَّتْ ألسنةُ المدحِ لا بِعُود[٦]، وفاحَ عبيرُ الثَّناءِ فزادَ نشرُه على كلِّ عُوْدِه[٧] ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ ﴾ [صٓ: ٤٤].

* * *

---

(١) **فردت**: أي ردت نعمه.

(٢) **جرادى**: كفرادى: موضع.

(٣) **من ذهب**: كأنه يشير إلى وقوع الجراد من ذهب على سيدنا أيوبَ أثناء اغتساله. انظر: (صحيح البخاري) كتاب الغسل (من اغتسل وحده عُرْيانَ).

(٤) **رحمة**: زوجة أيوب عليه السلام.

(٥) هذا من الأباطيل التي لاتليق بنبوة أيوب عليه السلام.

(٦) **بعود**: آلة موسيقية ذات أوتار.

(٧) **عُود**: ضرب من الطِّيب يتبخر به.

الفصل الثاني عشر

في قصة شعيب عليه السلام

لمّا رأى شعيبٌ شُعَبَ شِعابِ قومه قد امتلأتْ بالجَوْر، صعِدَ منبرَ التذكيرِ بالإنعام، ولكن بَيْن الأنعامِ[1]، يخوّفُهم من قَحْم قَحْلِ[2] القَحْطِ إشارة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤]، فتلقّوه باستهزاءٍ ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧]، ومَدُّوا نحوه باعَ النخوة ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وتَعَلَّلوا بحجةٍ ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ [هود: ٩١]، وانتَهَوْا إلى عتوٍّ ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فلمّا اسمهرَّ[3] ظلامُ ظلمِهم، اسْحَنْكَكَ[4] ليلُ إدبارهم، واسلنطح[5] نهارُ هلاكهم، فحقحق[6] إليهم ما حُقَّ عليهم من محقهم، فأظلَّ على ظُلل ضلالهم ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، فارتجّت أرجاءُ بيوتهم بِرجِّ الرَّجفةِ، وشدّت عليهم شدةُ الحرِّ، فهربوا إلى البَرِّ لا البَرِّ[7]، فإذا سحابةٌ تَسْحبُ ذيلَ بُرْد البَرْدِ، فتنادَوْا هلمّوا إلى راحةِ الرَّوح، فلمّا تمَّ اجتماعهم في قَصْرِ الحَصْرِ، وظنُّوا أنّها من حَرِّ وَقْتهُمْ[8]، نزلتْ نارٌ من السماء فأحرقتهم، فساروا إلى جهنَّمَ في أسْرِ إدبارهم، وسارَ بَعْد بعدِهم في أدبارِهم نذيرُ التحذيرِ من تبذيرِهم، وعابهم في عقاب

---

(١) شبّه قومه بالأنعام والدواب.

(٢) قحم: اقتحام. قحل: يقال: يبس الجلدُ على العظمِ، فهو قَحِل.

(٣) اسمهرّ: تراكم واشتد.

(٤) اسحنكك: اشتد ظلاماً.

(٥) اسلنطح: وقع على وجهه.

(٦) حقحق: جد في السير.

(٧) إلى البَرّ لا البرّ: الأولى بمعنى: ما انبسط من سطح الأرض، ولم يُغَطِّه الماء، جمعه برور. والثانية: اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

(٨) في (ب): زيادة (وقتهم).

عقابهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥].

فليحذرِ العصاة مثل أفعى أفعالهم، وليتّقِ أعمى البصيرةِ شبيهَ أعمالهم، ولْيَخَفِ المطفّفون من أخذِ الطَّفيفِ[1] في مكيالهم، ولْيَسْمعوا نذيرَ العبرةِ، فقد أوحى إليهم بشرحِ أعمالِهم.

* * *

(١) **الطفيف**: القليل.

الفصل الثالث عشر

في ذكر بداية موسى عليه السلام

كانت الكهنةُ قد أخبرت فرعونَ بوجودِ موسى، فأطلق الموسى[1] في ذبح الأطفال، فلمّا اتُّهِمتْ أمُّ موسى بالوَضْعِ، أوْضَع[2] الحرسُ إلى بيتها بالطَّلَبِ، فأدركها عند العِلْمِ الدَّهَشُ، فألقته في التنور إلقاءَ الحَطب، فلمّا عادت فرأته قد سَلِم شاهدت في ضِمْنِ ما صنعت أثر ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ [طه: ٤١]، فكانت سلامتهُ من النار نقداً [لأجل][3] احْتُمل لأَجْلِهِ وعداً لنجاة يوم اليَمِّ.

فلمّا سعتْ بتابوته إلى البحر ارتعشت يدُ التسليم فأمسكها، فصاحَ شُجاعُ بملءِ فيه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ [طه: ٣٩]، [فيه][4] فصدرتْ بعد إلقائه بصَدْرٍ قد لوى به لواعجُ الاشتياق، لا يعلم قدر ما به إلا مَنْ قد رُمي به، فتلقاها بالبِشر بشيرُ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾ [القصص: ٧]، فلم تزل أمواج اليَمِّ تُيَمّمُ به مسالك القَدَرِ، إلى أن خَبّتْ[5] به خيل النيل فشعرت في تناوله مَشْرعةُ[6] دار فرعون، فألقته في برية ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ [القصص: ٨]، فلمَّا فتحوا التابوتَ أسفر عن مسافرٍ نجيب[7] النجابة، قد جُعِلَ زادُه في مِزْود ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ [طه: ٣٩]، وَوُشح قلادةَ الحُبِّ قد رصِّعَتْ بدُرِّ ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ [طه: ٣٩]، فقامَ فرعون على أقدامِ الإقدامِ على قتله، فخرجت آسيةُ من كمين أتباعه تنطِقُ عن لسان ﴿سَبَقَتْ لَهُم﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وتنادي في مَخدع خديعة الحرب ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]، وتجمَعُ في كلامها ما هو فردٌ في لغةِ القَدَرِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [القصص: ٩]، فلم يزل فرعون في أغباشِ[8] غرورِ

---

(١) **الموسى**: السكين الحادة.

(٢) **أوضع**: أسرع.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٥) **خبّت**: يقال: خبت الفرس: نقل أيامنه وأياسره جميعاً في العدو.

(٦) **مَشرعةُ**: موردُ الشاربة.

(٧) **النجيب من الإبل**: عتاقها التي يُسابَقُ عليها. **والنجابة**: الكرم.

(٨) **الأغباش**: جمع الغَبَش، وهو بقية الليل أو ظلمة آخره.

يذبحُ إلى أنْ طلعَ [غرر][1] صبحِ ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ [القصص: ٥].

فلمّا قصّ شوْقُ أُمِّهِ جناحَ صبرها، قالت لأخته ﴿ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ [القصص: ١١]، في حريم ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا ﴾ [القصص: ١٢]، فدنت فدندنت[2] حلة الحِيْلَةِ بحول ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ [القصص: ١٢]، فلمّا حفظت باب المَكْرِ بحارسِ ﴿ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ [القصص: ١٢]، دخل طفيليُّ الوُجدِ من باب ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٢]، فجاءت بأُمها يؤمُّهُا دليلُ الطرب، فكادَتْ إذْ حضرتْ تحضرُ في ميدان ﴿ لَتُبْدِي بِهِۦ ﴾ [القصص: ١٠]، فكبحَها لجامُ ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا ﴾ [القصص: ١٠]، فخافتَ[3] لسانُ جهرِها لما خافتْ، فَسُلَّ من أيديهم إلى سُلَّمِ تسليمِها، فقرَّ في حِجْر ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ [القصص: ١٣]، وترنَّمت بلابلُ الوِصَال، فأخرست بلابلَ الفراق.

فَرُبِّي موسى في رُبى[4] فرعون، ونَمى بين نمارِقه، إلى أن آن أوان مهاجرَته، فجرى القَدَرُ بقتل القِبطيِّ ليكونَ سبباً في سِرِّ سَيْرٍ ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ ﴾ [القصص: ٢٢]، فسعى على أرجاء رجاءِ ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [القصص: ٢٢]، فتزوّد مِن مزوَد ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ ﴾ [القصص: ٢٣]، فتجمع الصِّهْرُ بواسطة ﴿ إِنَّ أَبِي ﴾ [القصص: ٢٥]، فبقي ضمان الوفاء إلى أمانة ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ [القصص: ٢٩]، فتلمّح معنى ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ [القصص: ٢٩]، فيبدو في بادية الحيرة أنيسُ ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ ﴾ [القصص: ٢٩]، فترامى كفُّ الطَّمَع إلى مرامي ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم ﴾ [القصص: ٢٩]، فأطل على طُلل الطلب أقدامُ ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ [القصص: ٣٠]، فتلقّطَ ثمارَ التكليم من غَيْر كُلْفة ﴿ وَهُزِّيٓ ﴾ [مريم: ٢٥]، تسّاقط من جَنى جناتِ [التجلّي][5] ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [القصص: ٣٠].

* * *

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).
(٢) دندنت: تكلّمت بصوت ضعيف.
(٣) خافَتَ: خفضت صوتها.
(٤) رُبى: جمع ربوة، وهي المكان المرتفع.
(٥) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

الفصل الرابع عشر

في تكليم (الله عزّ وجلّ) موسى عليه السلام

لمّا خرجَ موسى بأهله مِنْ مدينةِ مَدْيَن، انطلقَ طَلْقُ الطلقِ بزوجتِه، فما زال يكادِحُ المقادحَ[1] فلمْ تُورِ[2]، لأنَّ عروسَ نارِ الطورِ لمّا هَمَّتْ بالتجلّي، نوديت النيرانُ بلسانِ الغَيْرَةِ من المشاركة: غُضّي، فقام على أقدام التحيُّر، فهتفَ به أنيسُ ﴿ءَانَسَ﴾ [القصص: ٢٩]، فأنس:

يا حارِ[3] إنَّ الرَّكبَ قد حَارُوْا ... فاذهبْ تَحَسَّسْ لِمَنِ النارُ
تَبْدُو وتَخْبُو، إنْ خَبَتْ وَقَفُوا ... وإنْ أضاءَتْ لهم سَارُوْا

فشمّر موسى عن ساقِ القَصْدِ وساق، فلمّا أتى النادي ﴿نُودِيَ﴾ [طه: ١١]، فحين ذاق لذةَ التكليم، جرح قلبَه نصلُ الشوقِ، فلم يداوِه إلا طبيبُ ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا﴾ [الأعراف: ١٤٢].

لَيَالِيْنَا بِذِي الأَثْلاتِ[4] عُوْدِي[5] ... لِيُوْرِقَ في رُبى الأثلاتِ عُوْدِي
فإنَّ نَسِيْمَ ذاكَ الشِّيحِ أَزكى ... لَدَيَّ مِن انتِشَاقِي نَشْرَ[6] عُودِ
وإنَّ حَدِيْثَكُمْ في القَلْبِ أَحْلَى ... وأطْيَبُ نَغْمَةً مِنْ صَوْتِ عُوْدِ

---

(١) المقادح: جمع المقدح: الحجارة التي يقدح بها لإشعال النار.

(٢) فلم تُوْرِ: فلم تُشْعِل.

(٣) يا حار: ترخيم حارث: وهذا في النداء، وهو للرباعي فما فوقه خاصة.

(٤) الأثلات: جمع أثلة: شجرة.

(٥) عودي الأولى من العَوْد بمعنى: الرجوع، والثانية من العود بمعنى: الغصن، ويكنى به عن ذاته وقلبه.

(٦) نشر عود: النَّشْر: الرائحة الطيبة، والعود: نوع من الخشب طيب الرائحة يتبخر به.

فبُعِثَ في حربِ فرعون، فلم يزل مشغولاً بالجهادِ إلى أن قُبر القتيلُ في لَحْدِ اليمِّ، فطلبَ قومُه كتاباً يضبطُ شاردهم، ويرُدُّ نادَّهم[١]، فأمره الله أن يصومَ ثلاثين ليلةً نهارَه وليلَه، فأمسكَ على مَسْكِ[٢] الإمساكِ بكفِّ الكفِّ في الوصالِ، فَدَامَ[٣] فِدامُ[٤] فِيْهِ[٥] عن مَطْعَمِ المَطْعَمِ، فقيدَ فقيدُ قوتِ الوقتِ فصار في فيءِ ذكر الوعد.

فما انقضتِ الليالي حتى أنقَضَت[٦] ظَهْرَ الصبر، فقام لترائي هلالِ الوفاءِ بالأمرِ، فَلَاحَ في مطلعِ فلاحِ القصدِ، فبادر يسعى على أَقدامِ الحُبِّ إلى زيارة رَبْع الحِبِّ[٧]، فكاد يقتُلُهُ قلقُ[٨] الوجدِ، فوجدَ الهواءَ متغيِّرَ الريح في عَرْضة[٩] الفم، فصاحَ به فصيحُ لسانِ الحَزْمِ من وراءِ رأيِ العزمِ: يا موسى غيِّرْ أثراً لأَزْمٍ[١٠]، فتناولَ مضغةً من النبات فمضغَها.

فقيل له: أيُّها الصائِمُ عن أمرِنا، لم أفطرتَ برأيك؟.

فقال: وجدتُ لفمي خلُوفاً، وما أردتُ بفعلي خلافاً.

فقيل: أما علمتَ أنّ فَوْرَ فورةِ الخلوف من قدْر الإمساك أطيبُ عندنا من فارةِ فأرةِ المسك[١١]، إنّا لننظرُ إلى قصد الفاعلِ لا إلى صورةِ الفعل، الدّمُ نجسٌ

---

(١) النّاد: النافر الذاهب على وجهه شارداً.

(٢) مسك: جلد.

(٣) فَدام: من الدوام والاستمرار.

(٤) فِدام: بكسر الفاء ما يوضع على الفم غطاء له.

(٥) فيه: فمه.

(٦) أنقض: أثقل.

(٧) الحِبّ: المحبوب والحبيب.

(٨) في (ب): (يكاد يقلقه قلقه).

(٩) عرْضة: رائحة الفم.

(١٠) الأزم: تغير ريح الفم بالصوم أو طول السكوت.

(١١) فأرة المسك: النافجة، قال الجاحظ: سألتُ عطاراً عن فأرة المسك، فقال: ليس بالفأرة وهو بالخِشْف أشبه (والخشف: ولد الغزال)، وفأرة المسك يعصب الصياد=

مجتَنَبٌ، لكنّه في حقِّ الشهيدِ شهيٌّ «**زَمِّلُوهم بكُلومهم ودمائهم**»[1].

فرجعَ موسى عاكفاً على معتكَفِ كَفْكَفِه[2] ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وأُحْضِر حتى حضرَ حظيرةَ القدسِ، فنسيَ الإنسَ بما آنسَ من الأُنس:

فكــلُّ شــيءٍ رآه ظنَّــهُ قَــدَحــاً وكــلُّ شَخْـصٍ رآه ظَنَّــهُ السّــاقِــي

فلمّا دارتْ في دائرةِ دارِالحِبِّ كؤوسُ القُرْبِ، وسَمع النداءَ وسْط النادي بلا واسطةٍ، وسِيْطَ[3] له من وَسِيْطِ أقداحِ المُنى في المناجاة بلا وسيطٍ، طابَ له شرابُ الوصالِ من أوطاب[4] الخطابِ، في أواني سَمَاعِ الكلامِ، فناداه تَوَقُ[5] شوقِـهِ:

(للشريف الرضي):

أوانٍ[6] أنــتَ فــي هــذا الأوانِ عنِ الرَّاحِ[7] المُرَوَّق[8] في الأوَاني؟

رأى عن الغَوْر وميضاً فاشتاق، ما أَجْلَبَ البرقَ لدمعِ الآماق، فصاح لسانُ الوجدِ: ﴿أَرِنِىٓ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فرُدَّ شاردُ شحَذَانِ[9] الشوق على الطَّوى[10]

= سرتها بعد صيدها بعصاب شديد، وسرتها مدلاة، فيجتمع فيها دمها ثم تذبح، فإذا سكنت قوّر السرة ثم دفنها في الشعير، حتى يستحيلَ الدم الجامد مسكاً نقيّاً بعدما كان دماً لا يرام نتناً.

(١) قاله ﷺ في شهداء أحد، رواه النسائي في كتاب الجنائز والجهاد؛ والإمام أحمد في (المسند).

(٢) **كفكفه**: الكفكف: الصرف، وهذا إشارة إلى منع نفسه عن الطعام والشراب.

(٣) **سيط**: مزج.

(٤) **أوطاب**: جمع وطب، وهو السقاء.

(٥) **التَّوَق**: الشوق إلى الشيء والنزوع إليه.

(٦) **أوانٍ**: وانٍ: اسم فاعل من ونى، أي: ضعف وفتر وكَلَّ، والهمزة للاستفهام.

(٧) **الراح**: الخمرة.

(٨) **المُرَوَّق**: الصافي.

(٩) **شحذان**: بالتحريك: الجائع.

(١٠) **الطوى**: الجوع.

بطوق ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، إلا أنّ جَزَع الفِطام سكَّن شُعَلَهُ[1] بتَعِلَّةِ[2] ﴿وَلَٰكِنِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلمّا تجلى جلَّ جلاله للجبل مَرَّ[3]، فخرَّ موسى في بحر الصَّعْق فرقاً، فَرَقى فَرَقُه[4] ذروةَ ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وما انبسط موسى بقول: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلا ببسط: «**سلني ولو مِلْحَ عجينك**»[5] لو تركه مع رعيه الغنم في شِعْب شُعيب[6] ما جال في ظنِّه سؤال الرؤية[7]، ولكنَّه استدعاه بالنداء، وآنسه بالتقريب، وباسطه بالتكليم.

فلمّا عاينَ الحِيرةَ ... حادِي جملي حارا[8]

كان موسى يطوفُ في بني إسرائيل، ويقولُ: من يحمّلني رسالةً إلى ربي؟ ما كان مرادُه إلا أن يطوِّلَ الحديثَ مع الحبيب:

فقلتُ له قُصَّ[9] الحديثَ الذي انقضى ... وذكراكَ مِنْ ذاكَ الحديثِ أُرِيْدُ

يُجَدِّدُ تِذكارُ الحديثِ مَوَدَّتي ... فذِكْرُكَ عِندي والحَديثُ جَدِيْدُ

أُناشِدُه إلاَّ أعادَ حَدِيثَهُ ... كأنِّي بَطِيءُ الفَهْمِ حينَ يُعِيدُ

---

(١) **شعله**: شُعَل جمع شعلة.

(٢) **تعلة**: من التعلل، وهي الشربة الثانية بعد النهل.

(٣) **مرّ**: أي ذهب وانطمس في الأرض، وكأنه يشير إلى (الدك) من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(٤) **فَرَقُهُ**: خوفه.

(٥) رواه الديلمي في (مسند الفردوس) وقال عنه ابن عراق في (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة: ٢/ ٣٣٧): رواه الديلمي عن صحابي مبهم، وفيه راوٍ لا أعرفه.

(٦) المؤلف من أصحاب الرأي المشهور القائل بأن الشيخ الكبير المذكور في سورة القصص آية (٢٣) هو شعيب عليه السلام، وهذا أمر مشكوك فيه، فشعيب كان قبل موسى عليه السلام بزمن بعيد، وقد قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، ولوط كان في زمن إبراهيم عليه السلام، ومن المعروف أنَّ بين إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ زمناً طويلاً يزيد على أربعمئة عام، كما قاله غيرُ واحدٍ. فلينظر.

(٧) في (ب): (ذلك الطمع).

(٨) **حار**: بمعنى وقع في الحيْرة والتردد والارتباك، والألف للإطلاق.

(٩) **قُصَّ**: فعل أمر من يقص؛ أي: تتبع وتبيَّن.

مات موسى قتيلَ شوقِ ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلمّا جاز عليه نبينا ﷺ ليلة المعراج، ردّده في الصلوات، ليسعد برؤيةِ مَنْ قد رأى:

وإنّي لآتي أرضَكُمْ لالحاجةٍ ... لعلّي أراكُم أو أرَى مَنْ يراكُمُ

* * *

إنْ تَشْقَ عَيْني بِهِمْ فَقَد سَعِدَتْ ... عَيْنُ رَسُولي وفازَ بالنَّظرِ

وكلَّما جاءني الرَّسولُ لهمْ ... رَدَّدْتُ شَوقاً في طَرْفِه نَظَري

تَظهَرُ في طَرْفِهِ[1] مَحَاسِنُهُمْ ... قَدْ أَثَّرتْ فيه أَحَسَنَ الأثرِ

خُذْ في مُقْلَتي[2] يا رَسُوْلي عاريةً[3] ... فَانْظُر بِهَا واحْتَكِمْ على بَصَري

* * *

---

(١) طرفه: عينه.

(٢) مقلتي: عيني.

(٣) عارية: قرضاً، ومنسوبه إلى العارة، وهو اسم من الإعارة، والعارية كأنها منسوبة إلى العار، لأن طلبها عار.

الفصل الخامس عشر

في قصة الخضر عليه السلام[1]

لما علا شرفُ الكليم بالتكليم على كلِّ شرفٍ، قال له قومُه: أيُّ الناسِ أعلم؟ فقال: أنا، ولم يقل فيما أعلمُ، فابتليَ فيما أخبر به وأعلم، فقام بين يدي الخضر، كما يقوم بين يدي السليمِ الأعلمُ[2]، فابتدأ بسؤال ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: ٦٦]، فتلقّاه بردّ ﴿لَن﴾ [الكهف: ٦٧]، وكم أنَّ[3] موسى من ﴿لَن﴾؛ أمر قومه بالإيمان فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقعوا في التِّيه فقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ [البقرة: ٦١]، نُدبوا إلى الجهاد، فصاحوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، طرق باب ﴿أَرِنِيٓ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فردّه حاجب ﴿لَن﴾، دنا إلى الخضر للتعلم فلفظه بلفظ ﴿لَن﴾، ثم زاده من زاد الردّ بكف ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ [الكهف: ٦٨]، فلمَّا سامحه على نوبةِ السفينة، وواجهه بالعتاب في كَرَّةِ الغُلامِ، أراق ماء الصُّحْبَةِ في جدالِ الجدارِ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

ثم فسَّر له سِرَّ المُشْكِلِ، فجعل يشرحُ القَصَصَ فصلاً فصلاً، بمِقْوَلِ[4] قائلٍ يقول فصلاً، وكلَّما ذكَّره أصلاً أصلى[5]، لم يبق لموسى عينٌ تراه أصلاً، وكلّما سَلَّ من حَرٍّ للعتاب نَصْلاً، صاحَ لسانُ حالِ موسى: كم نُصْلَى؟ فألقى تفسيرَ الأمورِ على الكليم وأَمْلَى، والقَدَرُ يقول: أهو أعلم أم لا؟.

فعلمَ موسى ويوشَعُ أيَّ عبدٍ أمّا[6]، منذ ابتدأ بالشَّرحِ بأَمّا، ثم أخذ لسانُ

---

(١) انظر: سورة الكهف، الآيات: ٦٠ ـ ٨٢.

(٢) **السليم**: أي سليم النطق. **والأعلم**: من كان مشقوق الشفة العليا.

(٣) **أنّ**: من الأنين، وهو صوت المتوجع.

(٤) **المقول**: اللسان.

(٥) **أصلى**: أحرق.

(٦) **أمّا**: قصدا.

العتاب يُذَكِّرُ مَنْسيَّ موسى، أتُنْكِرُ خرقَ سفينة لظاهر إفسادٍ تَضَمَّنَ ضِمْنَه صلاحُ ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؟! أوَتُنْكِرُ إتلاف شخصٍ دنيءٍ لإبقاء دينِ شَخْصَيْن؟! أوَكَرِهتَ إقامة الجدار لشُحِّ أهلِ القريةِ بالقِرى[1]، أفأردت مِنَ الأصفياءِ معاملةَ البخلاءِ بالبخل؟! أما تلمَّحتَ سر «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ»[2]؟!.

لقد أنكرتَ ما جرى لك مثلُه، حذِرتَ يومَ السفينة من الغرق فصحتَ بإنكار ﴿ أَخَرَقْتَهَا ﴾ [الكهف: ٧١]، أنسيت يوم ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧]؟! أنكرتَ قَتلَ نَفْسٍ بغيرِ نَفْس، أنسيتَ يوم ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ [القصص: ١٥]؟! نهيتَ عن عمل بلا أجر، أنسيت يومَ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ [القصص: ٢٤]؟! فلمَّا بانَ البيانُ، خرج الخَضِرُ من [باب][3] دارِ الدعوى، وأخرجَ يده من مِلْكِ التصرُّفِ، وأحالَ الحالَ على الغيرِ: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف: ٨٢].

وهذه القِصَّةُ قد حرَّضَتْ على جمع رحلِ الرَّحِيل في طلب العلم، وعلَّمَتْ كيفيَّةَ الأدب في كفِّ كفِّ الاعتراض على العلم، وصاح فصيحُ نصيحها بذي اللبّ: دع دعواك، فعلى دعوى الكليم لِيْم[4]، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

* * *

---

(١) **القِرى**: ما يقدم للضيف.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ٤/١٤٨.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٤) **ليم**: من اللوم.

الفصل السادس عشر

في قصة بَلْعام وموسى

أيُّها المتعبِّدُ! خَفْ من الفتن ولا تَأْمَنْ، فكم قد أُخِذَ آمِنٌ مِنْ مَأْمَنٍ، إنَّه لم ينجُ من غَطَامِطِ[1] بَحْرِ الفِتَنِ الأعظم حافظُ الاسمِ الأعظمِ، بل عام[2] بَلْعَامُ، رفَلَ في حُلل النِّعم كالنَّعَم، غافلاً يتعامى عن النِّعَم، وكانت بنيةُ نيّةِ تَعَبِ تعبُّدِهِ على رمل الرِّيَا[3]، فجرت تحتها أنهارُ التجربة، فانهارَ بُنيانُها فتَخرَّبَ.

كان على دينارِ دينِه ورقةُ رِقَّةٍ، فأَعْجَبَ نَضْرُه[4] نواظرَ الناظرين، فلمَّا حَكَّه المُنْتَقِدُ على حَجَر الحِجْر افتُضِحَ بين أهل الحِجَى[5]، وكان ظاهِرُه لَـثَقاً[6] بالتُّقَى، وباطِنُه باطيَّة[7] لِخَمْرِ الهوى، فلقد خبّأَ الخبائِثَ في طيِّ الطيباتِ[8]، فلمَّا أرادَ المقدِّرُ تنبيـهَ جارِه على جَـوْرِه، تقدَّمَ إلى القَدَر بِهَتْـكِ سَـترِه، فأتـاهُ وهو في عُقر[9] عَقارِ[10] الهَوَى، يعاقرُ عُقارَ[11] الريا، وقَدْ رَفَعَتْ له عقيرته[12]

---

(١) بحر غطامط: عظيم الأمواج.

(٢) عام: سبح.

(٣) الريا: مقصور الرياء.

(٤) النَّضر: الحُسْنُ.

(٥) الحِجى: العقول.

(٦) لثقاً: من اللثق: وهو الندى.

(٧) باطية: وعاء الخمر.

(٨) في (ب): الطويات.

(٩) عُقْر: وسط المكان.

(١٠) العَقار: الضيعة والنخل والأرض ونحو ذلك.

(١١) عُقار: خمر.

(١٢) عقيرته: صوته.

عَاقِرُ الفهمِ[1] إلى أن عُقِرَ[2] بعَقْرِ[3] قلبه فعاد عقيراً، فدعَّه القدرُ إلى صفٍّ صَفْصَفِ الدعوى، وأرسل عليه لإصراره صَرْصرَ العُجب، فمزَّقت جلبابَ التعبُّد، فصيَّره عصفُها عصفاً[4]، فانكشفت عُوارُ[5] عورتِه فَغَوى، فإذا به كَلْبٌ عقورٌ.

وقِصَّةُ إقْصائِه أنَّ القدَرَ ساقَ الكَلِيْمَ إلى محاربةِ فُسَّاقِ بَلْدَتِه، فقالوا له: اشحذ موسى[6] الدعاء على موسى، فَمَجَّ فوه مجمجةَ[7] التمنُّع، فخوَّفُوه بنحت خشبة، فخشَّته[8] خشيةُ الخَلْقِ، فخرجَ حتى أتى على أتانٍ[9]، فلمَّا قفا وقفَتْ ليقفَ سيرُ عزمِهِ، فضرى[10] بضربها حتى أضرَّ بها، فقامت في المحجَّةِ تتكلَّمُ بالحُجَّةِ عليه: لِمَ تَضْرِبُني؟ وهذه نارٌ تمنعُ الماشيةَ المشيَ، فرجع إلى مَلِكِهِم فأخبره خَبَرَه، وما نقل العتبَ المقصودَ ولا خَبَرَهُ، فألجأ الملكُ صُلبَ عَزْمِه إلى أمرٍ صُلْبٍ: إمَّا الدعاءُ عليهم، وإمَّا الصَّلْبُ، فخرجَ، فأتبعه الشيطان، فما كان إلا أن بلغ المكان ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

تالله ما عدا عليه العدوُّ، إلا بعد أن تولَّى عنه المولى، فلا تَظُنَنَّ أن الشيطانَ غَلَبَ، وإنما العاصِمُ أعرَض، وإن شككتَ فاسمع هاتفَ القَدَرِ، مخبراً عن عزة القادر ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

* * *

---

(١) **عاقر الفهم**: يقال: عَقَر الرجل عقراً: بقي مكانه، لم يتقدم ولم يتأخر لفزعٍ أصابه، كأنه مقطوعَ الرجل، والعاقر من الرمل: ما لا يُنْبِتُ.

(٢) **عقر**: أهلك، يقال: ليعقرنّه الله: أي ليهلكنَّه.

(٣) **عقر**: بفتح العين وضمها: أصلُ كلِّ شيء.

(٤) **عصفاً**: زرعاً أُكِلَ حبه، وبقي تبنه.

(٥) **عوار**: بفتح العين وضمها: خرق في الثوب، أو مطلق العيب فيه. وقال ابن الأثير: بفتح العين العيب، وقد يُضم.

(٦) **اشحذ موسى**: سُنَّ السكين.

(٧) **مجمجة**: مجمج فلان في خبره: لم يبينه، والمجماج: المسترخي الرهل.

(٨) **خشته**: أي خشت فيه: دخلت فيه ونفذت.

(٩) **الأتان**: أنثى الحمار.

(١٠) **ضرى**: أغرى ولازم.

الفصل السابع عشر

في قصة قارون

كان قارونُ غايةً في فقهه وفهمه، وكان في النَّسَبِ إلى موسى ابن عَمِّه، فلمّا فاضت الدنيا عليه، فاضت[1] نفسُ علمِه، وكانت مقاليدُ خزائن خزاياه وَقْرَ ستين بغلاً، غير أنَّ الذي فاته بما ناله أعلى وأغلى، سحب ذيل ﴿ فَبَغَىٰ ﴾ [القصص: ٧٦]، فقام قومه بزجر ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ [القصص: ٧٦]، وألْقَوْا إليه نصائح ﴿ وَٱبْتَغِ ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿ وَلَا تَنسَ ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿ وَأَحْسِن ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿ وَلَا تَبْغِ ﴾ [القصص: ٧٧].

فركبَ يوماً في وقتِ اقتداره في أربعة آلاف مقاتلٍ، وسُمُّ الهوى يعمَلُ في المقاتِل، وركبَ معه في معمعتِه[2] ثلاثمئة جارية، وقد أنساه سفَهُ الأملِ أنَّ سفينةَ الأجلِ جاريةٌ، فلمّا غلا وعلا، حُطَّ إلى حطيط ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ ﴾ [القصص: ٨١]، فقالَ الجاهلون: إنما بادرَ[3] موسى بادرته[4]، لأخذ بَدْرَةِ[5] بيدارِه[6].

فقال حاكمُ الغيبِ لإزالة الرّيْب: ﴿ وَبِدَارِهِ ﴾ [القصص: ٨١]، فقال موسى: يا أرضُ خُذيه، فاسْتَخْذَتْ[7] لأمرِهِ، فَسرَتْ بسَريرِه، فناشده قارونُ بالرَّحمِ فما رُحِمَ، فأخذته لِتَقَدُّمِهِ حتى غَيَّبَتْ قدميه، فما زالَ يردِّدُ القولَ حتى غاب الغَبيُّ

(١) فاضت نفسُ علمِه: كناية عن نفاد العلم، إذ فَيضُ النفس يعني الموت.
(٢) معمعته: الجلبة والتحزب.
(٣) بادر: سارع.
(٤) بادرته: البادرة: الحِدَّة.
(٥) بدرة: مقدار من المال.
(٦) بيداره: مكان الكنوز.
(٧) فاستخذت: استرخت.

الغَنيُّ، وإنه ليخسف بهِ كلَّ يومٍ قَدْرَ قامَةٍ، فلا تظنَّن الجزاءَ قدرَ قامَةٍ.

إنَّ الدُّنيا إذا طَلَعَتْ على الطَّغام[1] تُطغي، وإذا بُغي نكاحُها على العفافِ تبغي[2]، ثم إنّها تقصدُ هُلك مُحِبِّها وتبغي[3]، وكم عُذِلَتْ في فتكها بالفتى الفَتِيِّ وَتَلْغي[4]، ما درَّ درُّها فغرَّت؟[5] فلمَّا فَرَغَتْ[6] فَغَرَتْ[7] فاهاً فَرَغَتْ[8] للظَّعْنِ.

أما سَحَبَتْ قُرونَ قارون مع أقرانه؟ إلى القرار في قَرْنٍ[9]؟.

أما كفكفتْ بِكَفِّها كفَّ مكفوفِ مُحِبِّها فأرَتْكَ فَنَّ ما يكونُ فيكَ في كفَنٍ؟.

تاللهِ لقد لَقِيَ الغَبِيُّ الغنيُّ غِبَّ[10] غَبَواتِهِ[11]، فلمَّا انجلى غَيْهَبُ[12] عينيه رأى الغَبْنَ والغَبَن[13]، نعوذُ بالله من الخذلان.

* * *

---

(١) **الطغام**: أوغاد الناس.
(٢) **تبغي**: من البغاء، أي: الزنى.
(٣) **تبغي**: أي تريد.
(٤) **تَلْغي**: من لغى يلغى بالأمر: أولع به، ولزمه فلم يفارقه.
(٥) **فغرّت**: من غرّه: أي خدعه وأطمعه بالباطل: فهي غَرورٌ، وهو مغرورٌ.
(٦) **فرَغت**: يقال: فرغَ من الشيء: أتمّه.
(٧) **فَغَرَتْ**: فتحت.
(٨) **فرغَت**: من الرغاء، أي: صاحت للرحيل.
(٩) **القَرن**: الحبل.
(١٠) **غب**: عاقبة.
(١١) **غبواته**: جمع غباء.
(١٢) **غيهب**: ظلام.
(١٣) **الغَبْن**: بفتح الغَيْن وتسكين الباء: يكون في البيع، بمعنى الوكس والخديعة، وبفتح الغين والباء معاً يكون في الرأي بمعنى النقص والضعف.

الفصل الثامن عشر

في قصة داود عليه السلام

لما حُلِّيَ داودُ حِليةَ النُّبوَّة، ولُقِّنَ فصلَ الخطابِ، أطربَ شَدْوُ[1] شكرِه سمعَ القُبولِ، فمنحَهُ إقطاعَ ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠]، فأعجبته سلامةُ العصمة، فتجهَّزَ للإجهازِ على جَرْحَى الزَّلَل، فرماهم بسهم «لا تغفر للخطائين» والقدرُ قد أَتْرَع له مما سيعضُّ عليه الأنامل ملءَ الإناء، فابْتُلِيَ بالذَّنْبِ حتى نكَّسَ رأسَ الرئاسةِ على عتبة الذُّلِّ [ودبَّ إلى داود داءُ المعاصي دبيبَ الدَّبَا[2] من حيث ما دبر][3]، رماهُ سَهْمُ ليالي القضاءِ في درع ليالي الفِتَنِ، فقضى عليه، فما قدر الدارعُ على ردِّه بدرع ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١١]:

وإذا رَامِــي المقــاديــرِ رَمَــى ... فــدُرُوْعُ المَــرْءِ أعْــوَانُ النِّصَــالِ

ظنَّ لقوَّةِ عِصمتِه لقاءَ قِرْنِ الهوى، فلاحَتْ له في حِمَى دعواهُ حَمَامةٌ من ذَهَبٍ، فذهَبَ يَصِيْدُها، فوقع في شَرَكِ عينه[4].

(لمهيار)[5]:

ظَـنَّ غَـداةَ الخِيْـفِ أنْ قَـدْ سَلِمَـا ... لمَّـا رَمَـى سَهْمـاً وَمَـا أَجْـرَى دَمَـا

فَعَــادَ يَسْتَقْــرِي حَشَــاهُ فَــإذا ... فــؤادُه مِــنْ بينهمــا قــد عُــدِمَــا

---

(١) الشدو: الغناء.

(٢) الدبا: كل شيء يدب على الأرض.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٤) ما يذكر من رؤية سيدنا داود لزوجة قائده، وما تبعها من أحداث، هي من الإسرائيليات الباطلة، التي تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٥) مطلع قصيدة كتبها إلى ابن عبد الرحيم في المهرجان. انظر: ديوان شعره: ٣/ ٢٥٣.

لَـمْ يَـدْرِ مِـنْ أيـنَ أُصيـبَ قلبُـه   وإنَّمـا الـرَّامـي دَرَى كَيْـفَ رَمَـى

طافَ على بابِه طبيبُ الألطافِ، فأرادَ استِخْرَاجَ النَّصْلِ مِنْ باطنِ الشَّغَافِ[1]، فجَثَا على عَتَبةِ عِتَابِه بأعتوبة ﴿خَصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢]، فقضى على نفسِه في صريحِ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ [ص: ٢٤]، فبينـا هو يلاحِـظُ لفظَ القَضيَّـة ألمعا[2] معاً معانيَ المعاصي، ففَطِنَ ففُتَّ في الفاتنِ فتنُ فُتْيَاه ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ [ص: ٢٤]، فنزَل عن مركبِ العِزِّ إلى متن مسجدِ الذُّلِّ، وافترشَ فراشَ مَنْ قَدْ أساءَ في دارِ الأسَى، وخلعَ خِلَعَ الفَرَحِ لجلبابِ الحُزْنِ، وزَرَّ رزمانَقَةَ[3] الخوف على شِعَارِ القَلقِ، فأمسكتِ الحَمائمُ بنَوْحِه، وشغلَها عن صَدْحِها بصوتِه، فبالغَ حريقُ النّدمِ في سويداء قلبه، وأقلقَ الأفئدة بشجى[4] شجنِه[5]، ومات خلق كثير من الخلق بترنُّم شجوه[6] [وصوته][7] وشرب عِرْقُ العشب من ماء عين عينه، وحشى سبعة فُرُشٍ رماداً، ثم رمى داء الحَشَا، بعد أن فرَشَها فرَشَّها، وكان يقول في مناجاته:

«إلـٰهي! خرجْتُ أسألُ أطباءَ عبادِك أن يداووا لي جُرحَ خطيئتي، فكلُّهم عليك يدلني.

إلـٰهي! امدُدْ عيني بالدموع، وضعفي بالقوة، حتى أبلغَ رضاكَ عني».

(. . .):

يـا مَـنْ تجنُّـبُ صبـري فـي تجنُّبـه   هبْ لي من الدمع ما أبكي عليكَ به
حتَّـى متـى زَفَـراتـي فـي تصاعُـدِهـا   إلى الممـاتِ، ودمعي في تصوُّبِـه
ولـــي فـــؤادٌ إذا لـــجَّ الغـــرامُ بِـــهِ   هـامَ اشتيـاقـاً إلـى لقيـا معـذِّبِـه

---

(١) شَغاف: غلاف القلب، أو سويداؤه وحَبَّته.
(٢) ألمعَ: لمح، وألمعَ إلى: أشار.
(٣) رُزمانقة: بضم الراء: جبة من صوف.
(٤) شجى: الشجى ما اعترض في الحلق، من عظم ونحوه.
(٥) شجن: همّ وحَزَن.
(٦) شجوه: حزنه.
(٧) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

ما زالَ يغسل العين من عين[1] العَيْنِ، ولسانُ العِتَاب يقولُ: يا بُعدَ اللقا، وكلَّما رفعَ قِصَّة غُصّتِه، جاء الجوابُ بزيادةِ الجَوَى، وهو يستغيثُ ويناديِ، حتى أقلق الحاضر والبادي:

إنَّ شَفيعــــي إليـــكَ مِنِّــــي ... دُمُـــوعُ عَيْنِـــي وَحُسْـــنُ ظَنِّـــي
فبـــالَّـــذِي قَـــادَنِـــي ذَلِيْـــلاً ... إلَيْـــكَ إلاَّ عَفَـــوْتَ عنِّـــي

* * *

(١) عين العين: العين الباصرة، وعينها ما وقع على بؤبؤها من صُوَر.

الفصل التاسع عشر

في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس[(١)]

ركبَ سليمانُ يوماً مَرْكَبَ الرِّيح، فراحَتْ بواديه على وادي النَّمْلِ، فندّتْ نملةٌ، فنادت أخواتِها بنداء ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨] ثم قامت، فأقامتْ لعدلِه عُذْر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فحملتْهُ أريحيَّةُ[(٢)] الشكرِ على طَرَبِ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]؛ لأنها تلفَّظت: ﴿يا﴾ نادت، ﴿أيُّها﴾ نبَّهت، ﴿ٱلنَّمْلُ﴾ عيَّنت، ﴿ٱدْخُلُواْ﴾ أمرت، ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾ نصَّت، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حذَّرت، ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾ خصَّت، ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ عمَّتْ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ عذرت.

فلمَّا فصلَ طالوتُ مُلكه بالجنودِ عن وادي النمل، وقعَ في مفازةٍ، لا يرى فيها على ماءٍ عَلَماً، فجاشَ[(٣)] جَأْشُ[(٤)] الجيشِ لفقرِهم في القَفْرِ إلى الماءِ ألماً، وكان الهُدْهُدُ يدلُّهم على الماء فغابَ، فتوعَّده بلفظِ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٢١]، فجاءَ ببهتٍ[(٥)] ذكيٍّ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، فحمَّلَهُ كتاباً، فألقاهُ مِنْ قارة[(٦)] بمنقاره، فرأت اليقظى[(٧)] بيقظانِ فَهْمِهَا، كتاباً مختوماً، وأمراً

---

(١) انظر هذه القصة في: سورة النمل، الآيات: ٢٠ـ٤٤.

(٢) **الأريحية**: الكرم والجود، وأخذته الأريحية: ارتاح للندى، وهزته: دفعته إلى السخاء.

(٣) **جاش**: جاش البحرُ: اضطرب وهاج، والعين: فاضت.

(٤) **الجأش**: القلب والصدر.

(٥) **ببهت**: من بهت الخصم: إذا استولت عليه الحُجَّةُ، ودُهش بها.

(٦) **قارة**: أكمة.

(٧) **اليقظى**: الملكة بلقيس.

محتوماً، وكلاماً عجيباً، وحاملاً غريباً، فصادّها[1] العقل والفهم فصادَاها[2]، فاستشارتْ قومَها، فأومَوْا[3] إلى الحَرْبِ بلفظ ﴿ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ [النمل: ٣٣]، فعلمتْ أنَّ مَنْ جندُه الطيرُ لا يُحارَبُ، وبَعَثَتْ ما يُفرِّقُ بين الدعوة والدعوى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل: ٣٥].

واعجباً! الذهبُ إذا ذهبَ سهمُه لا يخطئ، والرشا[4] إذا رشّت مزالقَ أقدام العقول لا تبطئ.

(...)

لا يغـــــرنَّـــــكَ مِـــــنَ المَـ	ـرْءِ رِداءٌ رَقعَـــــــــــــــهْ
وَقَمِيْـــــصٌ فـــــوقَ كَعْـــــبِ	السَّـــــاقِ مِنْـــــهُ رَفَعَـــــهْ
وَجَبِيْـــــــــنٌ لاحَ فيـــــــهِ	أثَـــــرٌ بسُجُـــــودٍ خَلَعَـــــهْ
أَرِهِ الـــــدِّرْهَـــــمَ تعـــــرِفْ	غَيَّـــــــهُ أو وَرَعَـــــــهْ

فلمّا بَدَتْ هوادي هديَّتها، صاحَ سليمانُ بعزٍّ ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ [النمل: ٣٦]، فلمَّا صحَّ عندها ما يدعو إليه وثَبَت، وَثَبتْ على أقدامِ الطَّلَبِ، وهيَّأتْ مراكبَ القَصْدِ، ورَحَلَتْ في هَجيرِ شَمسِ الهُدَى على نجائبِ الهِجْرَةِ، فلمَّا سمعَ سليمانُ برحيلِها، أرادَ تقوية دليلِها، فنادى في نادي عفاريتِه، مستعرِضاً جندَ بطشِها: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل: ٣٨]، فلمَّا جِيءَ به[5] سَتَرَهُ بقِرام[6] ﴿ نَكِّرُواْ ﴾ [النمل: ٤١]، ثم ابتلاها ليرى ذكاها: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل: ٤٢]، ثم صرَّحَ بلفظ ﴿ ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ﴾ [النمل: ٤٤] فشُبِّهَ لها لضعفِها عن لطافةِ [كأسِ ساقيتها][7]،

---

(١) **فصادَّها**: من الصدّ: أي الاعتراض.
(٢) **فصاداها**: من الصيد.
(٣) **فأومَوْا**: من الإيماء، أي: أشاروا.
(٤) **الرشا**: جمع رشوة.
(٥) إن الذي جاء بالعرش رجل كان عنده علم من الكتاب، كان في مجلس سليمان عليه السلام.
(٦) **القرام**: بكسر القاف، الستر الرقيق.
(٧) في(ب): كأس ساقيها.

فكشفت عن ساقيها، فلمَّا وصلت وسلَّمت، أسلمتْ فسَلِمتْ، وحلَّت قبل أنْ حلَّتْ نطاقَ النُّطْقِ، فنثَرَتْ خرزاتِ نظامِه، على نظمِ العُذْرِ: ﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

* * *

الفَصْلُ العِشْرُونَ

في قصة مريم وعيسى عليهما السلام[1]

كانت أمُّ مريمَ حنَّةُ قد حَنَّتْ إلى ولدٍ، فكبُر عَليها امتناعُه، واستولى الكِبَرُ، فرأتْ يَوماً طائراً يَغْذُو فَرْخاً فرِحاً، فَرَجَى أملُها اليؤوسُ فَرَجاً فرجا[2]، فسألتْ عندَ هذهِ القضيَّةِ وَلَديْها[3] ولداً، فلمَّا عَلمتْ بالحملِ أكسَبَها السرورُ وَلَهاً، فوهبتْهُ بلسانِ النَّذْر لمن وهبَه لها، فقالَ القَدَرُ: يا مَلكَ التصويرِ صَوِّر الحَمْلَ أُنثى، لِنُبَيِّنَ أَثَرَ الكرَمِ في قبولِ الناقصِ[4].

فلمَّا وضَعَتها وضَعتها[5] بأناملِ الانكسارِ عن سريرِ السرورِ، فإنَّ لسانَ التلهُّفِ لمَّا أَلقى على الفائتِ[6] ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فجبرَ كسرَها جابرُ ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، وساقَ عِنانَ اللُّطفِ إلى ساقِ زَرْعِهَا، فربا في رُبى ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فانطلقتْ بها الأمُّ تأمُّ بيتَ المقدسِ، فلبسَ القومُ لأْمَهُم[7] في حَرْبِ ﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فثبتَ قلمُ زكريا إذ وثبتِ الأقلامُ، فَكَفَتَها[8] وكفلَها، فأراها المُسبِّب غناها عن السببِ بآية ﴿وَجَدَ

---

(١) انظر: سورة آل عمران، وسورة مريم، وأواخر سورة المائدة.

(٢) الأولى من الفرج، والثانية من الرجاء.

(٣) **ولديها**: من لدى، أي عند رؤية الطائر الذي يغذو فرخه.

(٤) **الناقص**: كناية عن الأنثى المولودة، ولا يقصد بنقصها تنقيصاً، إذ المقصود نقص الموهوب التي هي السيدة مريم عن القيام بمهام النذر المتمثلة بخدمة المعبد.

(٥) **وضعتها الأولى**: ولدتها، **ووضعتها** الثانية: حَطَّت من قدرها ومنزلتها.

(٦) **الفائت**: أي ما فاتها من رجاء أن يكون المولود ذكراً.

(٧) **لأمهم**: جمع لأمة: وهي الدرع.

(٨) **فكفتها**: ضمها.

﴿عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فربَّها مَن ربَّها[١]، فنشأت لا ترى إلا ربها.

فانتبذت يوماً من أهلها، فأقبلَ نحو ذلك البَرِّيِّ البَرِيّ[٢] بريدُ ﴿فَأَرْسَلْنَآ﴾ [مريم: ١٧]، فتحصَّنَتِ الحَصان[٣] بحِصْن ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾ [مريم: ١٨]، فانزوى إلى زاوية ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وأخبرَها بالتُّحفَةِ في لفظ ﴿لِأَهَبَ﴾ [مريم: ١٩][٤]، فأقيمتْ في مَهَبِّ ريح الرُّوح، فتنفَّسَتِ الكلمةُ مِنْ كَمينِ الأمرِ، فنفخَ جبريلُ في جَنْبِ جيب الدّرْعِ[٥]، فمرَّت المرأةُ حاملاً في الوقتِ، فلمَّا علمتْ ألمَّتْ بما حملَ عليها الحملُ، فأخرجَها الحَياءُ الحيُّ[٦] عن الحيِّ.

فلمَّا فاجأها وقتُ الوضع، فأجاءها[٧] المخاضُ إلى الجذع، تحيَّرت من وجودِ ولد، وما فَجَرَتْ[٨]، فَجرَتْ عَينُ الدَّمعِ، فصاحَ لسانُ الخفَر[٩] بلفظ النَّدب: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣]، فأجابَها المَلَكُ عَن أمْرِ مَنْ مَلَكَ: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ [مريم: ٢٤]، وأُجري لها في أواني الأوانِ سَـريّ[١٠]، كما وهبَ لها مـن الغِلمـان سَرِي[١١]، فَسرّى[١٢] عَـن سِرِّها وجـودُ الطَّـهـور، وأُنـسُ الطـاهـر[١٣]، فسُـرّا[١٤]، وأُرِيَتْ آيـةً تـدلُّ على قَـدْرِ القُدْرَةِ في مقام

---

(١) ربها من ربها: الأولى: وليها وتعهدها بما يغذيها وينميها، والثانية: حفظها.

(٢) البرِّي البَرِيّ: نسبة إلى البَرِّ، والبريّ: نسبة إلى البراءة.

(٣) الحَصان: المرأة العفيفة، جمعها: حُصُن.

(٤) في الأصل: ليهب.

(٥) جَيْب الدرع: فتحةُ الثوب من جانب العُنُق، ويدخل فيه الرأس.

(٦) الحي: مِنَ الحياةِ ضدَّ الموت، أي: حياء نابض بالحياة، والحيِّ: المحلة التي يقطن بها الإنسان.

(٧) أجاءها: ألجأها.

(٨) ما فجَرَت: ما زَنَتْ وما بغت.

(٩) الخَفَر: الحياء.

(١٠) سَري: نهر.

(١١) سري: ذو مروءة ووجاهة.

(١٢) سرّى: بالتشديد، كشف ما بها من همّ.

(١٣) الطهور: أي الماء الذي أجراه الله لها. الطاهر: أي عيسى عليه السلام.

(١٤) سُرّا: من السرور، أي: ابتهجا، يعني: مريم وابنها.

﴿ وَهُزِّىٓ ﴾ [مريم: ٢٥]، فهزَّت جِذْمَجذع مائلٍ مثلَ الحطبِ، فتساقطَ عليها في الحالِ رَطْبَ الرُّطَب، فأخذها الجَوَى[1] في إعدادِ الجوابِ، فقيل لها: ﴿ كُلِى ﴾ [النحل: ٦٩] كِلِي[2] الكُلَّ إلى من له الكُلُّ، كنتِ بمعزلٍ من وجودِ الولد، فكوني بمعزلٍ من إقامةِ العُذْر، فالذي تولَّى إيجادَهُ يقيمُ عُذرَ العَذْرَا، لا تَعجبي مِنْ وجودِ حملٍ سَافرَ عن أرضِ القُدْرَة، فلم يصلحْ أنْ ينزلَ إلا بمنزلٍ، أركانُه على عَمَدِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فلمَّا سكتتْ وسكنتْ، بعدَ أن قعدتْ وقامتْ، أقامتْ أيامَ النفاسِ، فانقضتْ وفاتتْ ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ [مريم: ٢٧]، فنادَوْا من أنديةِ التوبيخِ، إذ ما شاهدوا قطُّ أختَها[3]: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ [مريم: ٢٨] فَأَضْجَروا مَريضاً قد ضنى[4] من أنين ﴿ أَنَّىٰ ﴾ [مريم: ٢٠] على فراش ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ ﴾ [مريم: ٢٣]، فلمَّا شارَتْ[5] أرْيَ[6] الرأي، أشارتْ إليهِ، فأخذتْهُ ألسنةُ تَعَجُّبِهم تعُجُّ بهم ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ ﴾ [مريم: ٢٩]، [فكأنَّها قالت لهم: أنـا طريقٌ، وهذا مـرَّ بي، والمسـافر يُسـألُ عن الطريق، لا الطريقُ عن المسـافر][7]، فقام عيسـى يمخَضُ أوطابَ[8] الخِطابِ على مِنْبرِ الخطابة، فأبرزَ بالمخضِ[9] مَحض[10] إبريزِ[11] الإقرارِ: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٣٠]، وأومأ إلى وجودِه من غيرِ أبٍ في إشارةِ ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى ﴾ [مريم: ٣٢]، وكانت واسطةُ عقده ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) **الجوى**: ضيق الصدر.
(٢) **كلي**: فعل أمر من يكل، ومعناه: أسندي وردّي.
(٣) **أختها**: أي مثلها.
(٤) **ضنى**: تعب.
(٥) **شارت**: اجتنت.
(٦) **أري**: عسل.
(٧) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).
(٨) **أوطاب**: جمع وطب، وهو سقاء اللبن، وهو جلد الجذع فما فوقه.
(٩) **بالمخض**: المخض: تقليب الرأي، وتدبّر عواقبه، حتى يظهر للمقلّب وجهه.
(١٠) **المحض**: الخالص: الذي لا يخالطه غيره.
(١١) **إبريز**: الذهب الخالص.

فلمَّا تمَّ لـهُ سِـنُّ الشّـبابِ، جلسَ على بابِ المُعجزَة، يُعطي العافيـةَ العافيةَ[1]، ويبرئُ الأكمهَ والأبرصَ، فربَّما ألفى ببابِهِ خمسينَ ألفاً يؤمُّونَه في كلِّ يومٍ، ولقد تركَ الدنيا فطلَّقها أيَّ تطليق، وأبغضَها ولا كبُغْضِ الرَّافضي الصدِّيق، فغزاها بجندِ الزهدِ بين مُسرَجٍ ومُلجَم[2]، وفتكَ بها كما فتكَ بالتقيِّ[3] ابنُ مُلجمٍ، ما التفتْ إليها قطُّ وجهُ عزمه، ولا صافحَها يوماً كفُّ قلبه، ولا غَازلَها ساعةً لسانُ فكرِه، فلم يعرفْ حقيقةَ ما حَوَى سوى الحَواريين، فشمَّروا عَن [ساق][4] العَزائم، في سَوْقِ بُدْنِ الأبدانِ إلى مِنى المُنى تحنُّ بلفظ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وكَتبُوا في عقد العقائدِ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٣]، فعدَلُوا بها إلى عَدْل ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

ثم إنَّ اليهودَ اجتمعُوا في بيتِ ﴿وَمَكَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فزلزلَ عليهم بيدِ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فدخلَ عيسى خُوخَةً[5]، فدَخلَ خلفَه ذو دَخَلٍ[6] فـأُلقيَ عليه شِـبْهُهُ، فحاقَ بالمـرءِ مـرُّ مُرادِه، وصاحَ فيـهِ حاكمُ القَدَرِ: جَوِّدْ مراقيها[7].

* * *

---

(١) **العافية الأولى**: الصحة، **والعافية الثانية**: اسم فاعل من الفعل (عفا) جمعه عفاة، وهو طالب المعروف.

(٢) **المُسْرَج**: الخيل التي وضع عليها السرج. **الملجَم**: الخيل التي ألجمت.

(٣) **التقي**: يعني به سيدنا علياً رضي الله عنه.

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٥) **خوخة**: كوة.

(٦) **دَخَل**: غدر.

(٧) **جوّد مراقيها**: جوّد: حسّن، والمراقي من الدرج: عتباته، أو من السماء: أسبابها، وكل مرقاةٍ من الدرج عتبة، ويشير إما إلى رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، أو صلب اليهود لمن ألقيَ عليه شبهُه..

الفصل الحادي والعشرون

في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام[1]

لمّا قام زكريا عليه السلام بإقامةِ الإقامةِ لمريم، رأى وكيلَ الغَيْبِ يسبقُه بالإنفاذِ على يدِ القدرِ في كِنّ[2] كُنْ، وكان إذا خرجَ، ثم جاءَ، فاجأه ثمر الثمار قد نمتْ، فكم قد ألفى الفاكهةَ الفائقةَ لا في حينها، فتلمَّحَ بعينِ زرقاءِ[3] الفَهْمِ، فرأى نفقةَ الجاريةِ جاريةً، وكيسُ الأسباب على خَتمِه، فصاحَ لسانُ الدَّهَشِ: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فأحالتِ الحالَ على المسبِّبِ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فنبَّهَتْ هذه الآيةُ راقدَ طمعِه[4]، بعدَ أن طالَ وَسَنُه[5] سبعينَ سنةً، فسَنَّ على سُنَّةِ[6] وجهه ماء رجاءٍ[7] ماء آسنٍ[8]، مما لم يتَسنَّه[9]، وقام الدِّرْدَح[10] بعدَ أن تقعوَسَ[11] وتَسَعْسَعَ[12]، وعسا على باب عسى في محراب ﴿دَعَا زَكَرِيَّا

---

(١) انظر قصته في: سورة آل عمران، ومريم، والأنبياء.

(٢) **كِن**: الكِن: ما يتخذ سترة ليقي من الحر والبرد.

(٣) إشارة إلى **زرقاء اليمامة**، وهي امرأة اشتُهرت بحدة البصر، فكانت ترى على مدى مسيرة ثلاثة أيام.

(٤) **طمعه**: كنايةٌ عن طمعه في الولد.

(٥) **الوسن**: النعاس والغفلة.

(٦) **سنَّ على سُنة**: صبَّ على حُرِّ وجهه، أي: الجزء الظاهر من الوجه.

(٧) **الرجاء**: ضد اليأس.

(٨) يشير إلى رغبته في الولد، ورجائه في أن يُرزقه من أمدٍ بعيد، لكنه لم يفسد. **والآسن**: إشارة إلى عمق الرجاء، ومكثه الطويل.

(٩) **لم يتسنّه**: لم يتغير.

(١٠) **الدردح**: الشيخ الهرم.

(١١) **تقعوس**: كبر.

(١٢) **تسعسع**: هرم وفني.

رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، فَسَرى بسرِّه سراً، لئلا يدبَّ على فن من أفِنٍ[١] ، فكَتَبَ قِصَّةَ ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩] ، وشكا ما شِيْكَ[٢] به مما حَلَّ[٣] من حَلِّ[٤] التركيبِ وشيكاً[٥] ، في كلماتٍ هُنَّ ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] ، فلمّا أوردَ في قصتـه ما يريدُ، حَمَّلها بريدَ الرَّجاءِ، إلى مَنْ عَوَّدَ العُوْد[٦] العَوْد[٧]، فكُشف الجوى في الجواب[٨] .

لله دَرُّهُ! خَدَم حتّى شابَ، ثم طلبَ نائِباً على البابِ، فأصبحَ ميتُ أملِه بوجودِ يحيى يحيا[٩] ، فمَشَى لمشاهدةِ وَجْهِ القَدَرِ، وقد حال بينهما سفرُ العادات، إلى أن آنَ تلفَظُ ﴿أَنَّىٰ﴾ [مريم: ٢٠] ، وهتفَ به هاتفُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] ، فسألَ عَلَماً على ما يُعلَمُ به وجودُ الحمل، ليحمِلَ نفسَه على الشكرِ، فوُعِدَ بِسَجْنِ اللسانِ، مع سلامةِ الإنسانِ، إلا عن ذكر الرحمن، ليكونَ حَجُّ نطقِه مُفْرِداً.

فلمَّا وُلد له يحيى، لم يبلُغ مبلغَ يافعٍ، إلا وهو ولد نافعٌ، كان صَبا الصِّبا تميلُ بالصبيان ولا تهزُّه، فإذا قالوا له: هلمَّ بنا فلنلعبْ، قال: إنَّما خُلقنا لِلَّغَبِ[١٠] لا للعب، فقَطَّ[١١] له القَدَرُ قِطّاً[١٢] من عِصامِ العصمةِ ما قَطَّهُ قَطُّ لأحدٍ، فما خَطا إلى خطأٍ ولا همَّ، ولقد رمى الدنيا على يدِ التمسُّكِ، وعلا عن

---

(١) **أفِن**: دخل في الأفن، وهو الخرف.
(٢) **ما شيك به**: ما آلمه.
(٣) **حلّ**: وقع.
(٤) **حلّ التركيب**: انحلال الجسم وضعفه.
(٥) **وشيكاً**: سريعاً.
(٦) **العُود**: بضم العين، العود اليابس.
(٧) **العَوْد**: بفتح العين، رجوع الخضرة إلى العود.
(٨) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [مريم: ٧] . **والجوى**: حبه للولد.
(٩) **يحيى**: بألف مقصورة، اسم ولده الموهوب. **يحيا**: بألف ممدودة، من الحياة ضد الموت.
(١٠) في (ب): (للتعب)، **واللغب والتعب**: بمعنًى واحد.
(١١) **قَطَّ**: قطع.
(١٢) **قِطّاً**: نصيباً.

فضـولها عن قُللِ[١] التقلُّلِ، فكانَ عيشُ عَيْشِـهِ[٢] العُشـبَ، واقتنع بمُسُـوك[٣] الحيـوان عن السِّبِّ[٤]، والشِّف[٥]، والمُشَبْرَق[٦]، وشغله عن رَقْشِ[٧] نَقْـش القَشِيْبِ[٨] والدِّمَقْسِ[٩] ما لفَّ مما لَفَقَ[١٠].

ولقد دوَى[١١] في دوٍّ[١٢] فؤادِه غيمُ الغَمِّ، فغدا الغَدَقُ[١٣] يَدِقُ[١٤]، إلى أن فاضَ قليبُ قلبِه، فانقلبتْ عيناه بقُلُبِ[١٥] كالعيون حتَّى فَرَتْ[١٦]، فحفرتْ في أخدودِ الخدودِ مجرًى، ولم يزل مِعْوَلُ دمعِهِ يحفُرُ رَكِيَّةَ[١٧] خدِّه، حتى بدتْ فيه أضراسُ فيهِ، يا عجباً من بكاءِ مَنْ ما عَصَى ولا هَمَّ، وضَحِكِ مَنْ كتابُه بالذُّنوبِ قد ادلهمَّ[١٨]، فلمّا قاربَ الوفاةَ، وفاتَ العدوَّ سَلِمَ من آفاتِ النقل في المواطن المخصوصة بوحش الوحشة، فتخلَّصَ فيها من أَسَدِ البلاء، كما حُمِيَ من ذِئْبِ الذَّنْبِ ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

* * *

---

(١) **القُلل**: جمع قُلة: وهي أعلى الجبل، أي: أعلى درجات الزهد.

(٢) **عيشه**: حياته.

(٣) **مسوك**: جمع مسك، وهو الجلد.

(٤) **السبّ**: العمامة (د).

(٥) **الشفّ**: الثوب الرقيق.

(٦) **المشبرق**: الثوب الكتان.

(٧) **رقش**: نقش.

(٨) **القشيب**: الثوب الجديد.

(٩) **الدمقس**: كهزبر، هو الإبريسم والقز والكتان.

(١٠) **لفَق**: يقال: لفق الشيء: أصابه وأخذه.

(١١) **دَوَى**: لازم فلم يبرح.

(١٢) **دو**: الدو: الفلاة الواسعة.

(١٣) **الغدق**: الكثير المنهمر.

(١٤) **يَدقُ**: يعطي.

(١٥) **قُلُب**: جمع قليب، وهو البئر قبل أن تطوى، أي: تبنى بالحجارة ونحوها.

(١٦) **فرت**: شقت وقطعت.

(١٧) **ركية**: البئر التي لم تُطوَ.

(١٨) **ادلهمّ**: اشتد ظلامه.

الفصل الثاني والعشرون

في قصة أهل الكهف[1]

كان رَقْمُ ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] واغِلاً[2] كهف قلوبِ أهلِ الكهفِ، فلمَّا نصبَ مَلِكُهم شَرَكَ الشِّرْك، بانَ لهم خَيْطُ الفَخِّ ففرُّوا، وخَرَجُوا من ضِيْقِ حَصْرِ الحَبْسِ إلى الفضاءِ فضَاءَ [لهم][3]، فما راعهم في الطريقِ إلا راعٍ وافقهم، فرافقهم كلبُه، فأخذوا في ضربِه، لكونهم ليسوا مِنْ ضَربِهِ[4]، فصاحَ لسانُ حالِـهِ: لا تطردوني لمباينتي جنسَكُم، فإنَّ معبودَكم ليس من جنسِكُم، أنا في قبضةِ إشارتِكُم أسيرٌ[5]، أسيرُ إن سِرْتُم، وأحرسُ إن نمتم.

فلمَّا دخلوا دارَ ضيافةِ العُزلةِ، اضطجعوا في راحةِ[6] الراحةِ من أربابِ الكُفْرِ، فغلبَ النومُ القومَ ﴿ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥]، وكانت الشمسُ تحولُ عن حِلَّتِهم[7] لحراسة حُلَّتهم[8] من بلاءِ بلى[9]، وأعينُهم مفتوحةٌ لئلا تذوبَ بأطواقِ الإطباقِ، ويدُ الألطافِ تقلِّبُ أجسادَهم لتسلمَ من أَفَنِ[10] عَفَنٍ، وجرت الحالُ في كلبِهِمْ على ما جَرَتْ بهم، فكأنَّه في شرَكِ نَومِهِمْ

---

(١) انظر القصة في: سورة الكهف.

(٢) في (ب): علا على.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

(٤) **ضربه**: من جنسه.

(٥) **أسير**: مأسور.

(٦) **راحة**: كف.

(٧) **حِلَّتهم**: بكسر الحاء، منزلهم ومحلتهم التي حلّوا بها، وهي الكهف.

(٨) **حُلتهم**: بضم الحاء، جسومهم وثيابهم.

(٩) **بلى**: فناء.

(١٠) **أفن**: فساد ونتن.

قد صِيْدَ ﴿ بِٱلْوَصِيدِ[1] ﴾ [الكهف: ١٨] .

فخرجَ الملكُ بجمٍّ جمعِه في طِلابهم، فإذا بهم، فسَدَّ البابَ، فما وعى على وِعاء مِسْكٍ، فمَا ضاعَ حتى هلكَ المَلِكُ في بِيْدِ الهُلْكِ، فانسابَ راعٍ إلى سَبْسَبِهِم[2] ففتحَ بابَ الكهفِ ليحوزَ الغَنَمَ، فهبَّ الهواءُ فهبَّ الراقدُ، فترنَّمَ أحدُهم بلفظ: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩] ؟ فأجابَه الآخر: ﴿ يَوْمًا ﴾ [الكهف: ١٩] ، ثم رأى بقيةَ الشَّمسِ نقيةً فاتقى بالورعِ وَرَطاتِ الكذب، فعادَ يتّبعُ ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف: ١٩] .

فلمَّا قفلوا من سفرِ النومِ إلى ديارِ العادةِ، زادَ تقاضي الطبع بالزادِ، فخرَجَ رئيسُهم في ثوبِ متنكِّرٍ، فضلَّتْ معرفتُه بالمعاهدِ، فأقبلَ يتَّهم اليقظةَ، فَمَدَّ إلى بائعِ الطعامِ باعَه فما باعَه، وظَنَّ أنَّه قَدْ وَجَدَ كنزاً، ولقد وَجَدَ كنزَ ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣] ، فحملَهُ القومُ إلى الوالي، فقال: إنه لَمالي، [فما لكم وما لي]؟[3] كنَّا فتيةٌ أُكْرِهْنا على فتنةٍ، فخرجنا عشيةَ أمس، فنمنا في باطن كهفٍ، فلما انتبهنا خرجتُ أبتاعُ للأتباعِ قوتَ الوقتِ.

فسارَ القومُ معه في عسكرِ التعجُّبِ، فسمعَ إخوانُه جَلَبَةَ الخيلِ، في حَلْبَةِ الطَّلبِ، فتجاوبوا بأصواتِ التوديع، وقاموا إلى صلاة مُوَدِّعٍ، فدخلَ تمليخا[4]، فقصَّ عليهم نبأهم، فعادوا إلى مواضع المضاجع فوافتهم الوفاةُ، وفاتَ لقاؤهم، وَسَدَلَت عليهم حجابَ الرعبِ كفُّ ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف: ١٨] .

إخواني! ليس العجبُ من نائمٍ لم يعرفْ قدرَ ما مرَّ من يومِه، وإنَّما العجبُ من نائمٍ في يقظة عمره.

(. . .):

أَمَـــا واللهِ لَـــوْ عَلِـــمَ الأنـــامُ ‏ ‏ ‏ لِمَـا خُلقـوا لَمـا غَفَلـوا ونـامُـوا

---

(١) الوصيد: عتبة الباب.
(٢) سبسبهم: السبسب الأرض الواسعة.
(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).
(٤) تمليخا: اسم الذي خرج من أهل الكهف.

لقـد خُلِقـوا لِمَـا لـو أَبْصَـرَتْـه عيـونُ قلـوبِهـم سـاحُـوْا وهـامـوا
ممـاتٌ ثُـمَّ قبـرٌ ثـم حَشْـرٌ وتـوبيـخٌ وأهـوالٌ عِظـامُ
ليـومِ الحشـرِ قـد عَمِلـتْ رِجـالٌ فَصَلّـوا مِـنْ مَخـافَتِـهِ وَصَـامـوا
ونحـنُ إذَا أُمِـرْنـا أو نُهِينَـا كَـأهـلِ الكَهْـفِ أيْقَـاظٌ نِيـامُ

* * *

الفصل الثالث والعشرون

في بداية أمر نبينا ﷺ ورضاعه

خُلِقَ نبيُّنا ﷺ مِنْ أرضى الأرضِ أرضاً، وأصفى الأوصافِ وصفاً، وصِيْنَ آباؤه مِنْ زَلَلِ الزِّنَى، إلى أنْ صُدِّفَتْ بتلك الدُّرة صدَفةُ آمنة، فوثبتْ لرضاعـهِ ثُويبَةُ، ثم قَضَتْ باقي الدَّينِ حليمةُ، فقامَ نباتُه [مستعلجاً][1] على سوقِه[2]، مستعجِلاً قيامَ سوقه[3]، فنشأ في حِجْرِ الكمالِ كما يشاءُ، فشأى[4] مَنْ شأي منشأ[5].

أقبلتْ حليمةُ والجَدْبُ عامٌ في العامِ، فعُرِضَ على المرضعاتِ، فَأبينَ[6] لِلْيُتْمِ، فراحتْ به حليمةُ إلى حِلَّتها، فثابَ لبنُها ولبنُ راحلتِها، فباتوا لبركةِ رُوائه[7] رِوَاءً[8]، وهبَّ على مَبارِكهم نسيمُ نَسْمَةٍ مُباركة، فلمَّا ظعنتِ الظعائنُ، أتت أتانُها تؤمُّ أمام الركب، فلمّا حَلُّوا حِللهم، كانت الرعاءُ تسرحُ فَيَعْقِرُها سَرْحانُ[9] الجَدْبِ، وراعي حليمةَ يعيدُ الغَنَمَ بالغُنْمِ.

---

(١) **مستعلجاً**: غليظاً، وهي زيادة من (ب).

(٢) **سوقه**: أعواده.

(٣) **السوق**: ما يباع فيها ويشترى فيها، وهو كناية عن قيامه بوظيفة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

(٤) **فشأى**: كمل وبلغ الغاية.

(٥) **شأي منشأ**: كمال المنشأ ورفعته.

(٦) **فأُبين**: أُبعِد.

(٧) **رُواء**: بضم الراء: الجمال والحسن.

(٨) **رِواء**: بكسر الراء: مرتوين.

(٩) **سرحان**: الذئب.

فبينا الصبيُّ مع الصبيانِ، هبَّتْ صَبا الجبرِ[1] بجبريلَ، فجاءَه فجأةً، فشقَّ عن القلبِ، ثم شقَّه وما شقَّ عليه[2]، فعَلِقَ بيدِه من باطيّةِ[3] باطنِه علقة[4]، فقال: هذا حظُّ الشيطانِ، وقد قطعنا عُلقة[5]، ثم أعادَ قَلْبَهُ بعد أنْ قَلَبَهُ، وما بِـهِ قَلَبة[6]، فبقيَ أثرُ المَخيطِ في صدرِه باقيَ عمرِه، لإظهارِ سورةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾.

فلمَّا بلغ سِتَّ سنين، ألوى الموتُ بالوالدة، فجدَّ في كفالتِه الجَدُّ، ثم طلبَ الموتُ عبدَ المطلب، فما أبى الطالب، ولا اشتغلَ بأوصابه[7]، حتى أوصى به أبا طالب، فخرجَ به، وقد زانه كالتَّاجِ تاجراً، فتيمَّمَ باليتيمِ منزلَ تيماء، فرآه بحيرا[8] ببحرتِه[9] فقرأَ سِماتِ النُّبوَّةِ مِنْ شَمائلِ ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فشَامَ[10] برقَ فضلِه، فلاحَ من شيمة شامتِه، فقال لعمِّه: احفظ هذه الشامةَ مِنْ شامتٍ.

وما زال نشرُهُ يضوعُ[11] ولا يضيعُ، إلى أن تمخَّضتْ حاملُ النبوَّةِ في إبَّانِ التَّمام، وآثرَ الطلقُ طلاقَ الخلقِ، فتحرَّى غارَ حِراء[12] للفراغِ، فراغَ[13] إليه المَلَكُ، فأغارَ[14] حبلَ الوصالِ في ذلك الغار، فأفاضَ عليهِ حُلة

---

(١) **الجبر**: الإغناء من فقر.

(٢) **ما شقّ**: ما صعب.

(٣) **الباطية**: إناء الخمر.

(٤) **علقة**: كشجرة، القطعة من الدم الجامد.

(٥) **عُلْقَة**: كقدرة، العلاقة التي يتعلق بها.

(٦) **قَلَبَة**: كشجرة، داء، يقال: ما به قَلَبة.

(٧) **الأوصاب**: المرض والتعب.

(٨) **بحيرا**: اسم الراهب الذي لقي النبي ﷺ مرة واحدة حين كان مع عمه أبي طالب في سفرة إلى الشام.

(٩) **البحرة**: البلد.

(١٠) **فشام**: نظر.

(١١) **يضوع**: يفوحُ.

(١٢) **حِراء**: غار بمكة كان النبي ﷺ يتعبد به قبل البعثة.

(١٣) **فراغ**: مال إليه سرّاً.

(١٤) **أغار**: أحكم الفتل.

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ [العلق: ١]، فأفاض إلى حُلَّة «زملوني» فسكَّنت خديجة غُلَّتَهُ، بعلَّة «إنك لتصلُ الرَّحِمَ»[١].

ثم انطلقتْ به إلى وَرَقة[٢]، فقرأ من ورقةِ سيماء نَقْشَ فضلِه، فتيقَّظَ لفهم أمرِه إذا ناموا، فقال: «هذا الناموسُ الذي نزل على موسى»[٣].

ولقد عرفهُ الأحبار في الكنائس، والرهبان في الصوامع، وأنذَرَ به الرَّئِيُّ[٤]، وأخبَرَ به التابعُ[٥].

فكانت تسلِّمُ عليه قبلَ النبوَّةِ الأحجارُ[٦]، وتبشّره بما أولاه مولاه الأشجارُ، وكان خاتمُ النبوّةِ بين كتفيه، وسرايا الرُّعْبِ تترك كسرى كالكِسرة بين يديه[٧]، أُلْبِسَ إهابَ الهَيْبَةِ، وتُوِّجَ تاجَ السيادة، وضُمِّخَ بأذكى خَلوقٍ أزكى الأخلاق، وأُحلَّ دارَ المُدارةِ[٨]، وأُجْلِسَ على صفحة الصَّفْحِ، ولُقِّمَ لُقَمَ لقمانَ الحكيمِ، وَوُضِعَتْ له أكوابُ التواضعِ، وأُديرتْ عليهِ كؤوسُ الكَيَسِ متضمنةً حلاوةَ [الحِلْمِ][٩]، ختامها مسكُ النُّسكِ.

وأُعطيَ لقطعِ مفـازةِ الدنيـا جوادَ الجَـوْدِ، ونُووِل قلمَ العِـزِّ، فوقَّع على

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، رقم (٣)، ومناقب الأنصار (٤٥)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، برقم (٢٥٢) باب بدء الوحي.

(٢) **ورقة بن نوفل**: من أهل مكة، نبذ عبادة الأصنام، وتنصَّر، وقرأ بعضاً من كتب أهل الكتاب.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، رقم (٣)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، برقم (٢٥٢)؛ والإمام أحمد: ٦/ ٣٢٣.

(٤) **الرئي**: الجني الذي يرى ويعرض للإنسان.

(٥) **التابع**: الجني الذي يتبع الإنسان.

(٦) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي بلفظ: **«إني لأعرفُ حجراً كان يسلِّمُ عليَّ قبل أن أبعث»**.

(٧) **«نصرت بالرعب»** رواه البخاري في التيمم (١)، والصلاة (٥٦)؛ ومسلم في المسجد (٣)؛ والترمذي سير (٥)؛ والنسائي (٢٦)؛ والإمام أحمد: ١/ ٣٠١، ٢/ ٢٢٢.

(٨) **المدارة**: أي المداراة: التألف والإيناس.

(٩) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب).

صحائفَ الكَدِّ، «**كلّ عملٍ ليسَ عليهِ أمرُنا فهو رَدٌّ**»[1].

كان يعودُ المريضَ، ويجيبُ دعوةَ المملـوكِ، ويجلـسُ على الأرضِ، ويلبسُ الخشنَ، ويأكلُ البشعَ[2]، ويبيتُ الليالي طاوياً، يتقلَّبُ في قعرِ الفقرِ، ولسانُ الحالِ يناديه: يا محمدُ! نحنُ نَضَنُّ بك عنِ الدنيا لا بِهَا عنك.

ولقد شاركَ الأنبياءَ في فضائلهم وزادَ، أينَ سطوةُ ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] من حلم «**اهد قومي**»؟! أين انشقاقُ البحرِ من انشقاق القمر؟! أين انفجارُ الحجرِ، من نبعِ الماء من بين الأصابع؟ أينَ التكليمُ عند الطورِ من قابَ قوسين؟! أين تَسبيحُ الجبالِ في أماكنها من تقديسِ الحَصى في الكَفِّ؟! أين علوُّ سليمان بالريح من ليلة المعراج؟! أينَ إحياءُ عيسى الأمواتَ من تكليمِ الذِّراع؟!.

كلُّ الأنبياءِ ذهبتْ مُعجزاتهم بموتِهم، ومعجزةُ نبيِّنا الأكبر قائمة على منار ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، تنادي: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولقد أعربَ عن تقدّمه مَنْ تقدَّمَهُ، «**آدم ومن دونه تحت لوائي**»[3]، «**لو كان موسى وعيسى حيَّين ما وسعهما إلا اتِّباعي**»[4]، فإذا نزلَ عيسى صلَّى مأموماً[5]،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام، برقم (٢٠)؛ ومسلم في الاعتصام، برقم (٨)؛ وابن ماجه في المقدمة؛ والإمام أحمد في المسند.

(٢) **البشع**: الطعام الجَشِب، وهو ما غلظ بلا أُدْم.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٤) النص يتعارض مع الاعتقاد بحياة المسيح عليه السلام، ونزوله ليحكم بالقرآن والسُّنَّة تابعاً لهذا النبي العظيم علامة من علامات الساعة الكبرى، وفي مسند الإمام أحمد وابن ماجه وأبي يعلى، واللفظ في المسند: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبيُّ (أي: قُرِئَ له) فغضب فقال: «**أمُتَهوِّكون فيها يا بن الخطاب؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**».

(٥) رواه البخاري: ٦/٣٥٨؛ ومسلم: ٢/١٩٣؛ وأحمد: ٢/٣٣٦؛ انظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ص٩٧ .

لئلا يدنِّس بغبارِ الشبهةِ وَجْهَ «**لا نبيَّ بعدي**»[١].

فهو أولُ الناسِ خروجاً إذا بُعثوا، وخطيبُ الخلائقِ إذا وفدوا، ومبَشِّـرُ القومِ إذا يئسوا، الأنبياءُ قد سكتوا لنطقِه، والأملاكُ قد اعترفوا بحقِّه، والجنـةُ والنارُ تحت أمرِه، والخُزَّان داخلونَ في دائرةِ حكمِه، وكلامُ غيرِه قبلَ قولِه لا ينفع، وجوابُ الحبيب له: «**قل يُسمع**»[٢]، فسبحانَ من فَضَّ له مِنَ الفضلِ ما فضَّلَـه، وكساهُ من حُللِ الفخرِ الجمِّ ما جمَّله، جمعَ اللهُ بيننا وبينه في جنّته، وأحيانا على كتابه وسنَّتِه.

* * *

---

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات، برقم: ٩/ ١٤٩؛ ومسلم في كتاب الإيمان، برقم (٣١٩)؛ والترمذي وابن ماجه وأحمد والبيهقي، ويكشف الحديث عن الشفاعة العظمى للرسول ﷺ حين يسأل الله سبحانه وتعالى بدء الحساب.

الفصل الرابع والعشرون

قِصّةُ الغار والصدّيق رضي الله عنه

لمّا أغارت قريشٌ خيلَ الحِيَلِ على الرَّسول ﷺ، خرجَ إلى غارٍ لو دخلَه غيرُه كان غَرَراً[1].

فغَرِيَتْ قريشٌ بالطَّلبِ، فنبتَتْ شجرةٌ لم تكنْ قبلُ قِبَلَ البابِ، فأظلَّتِ المطلوبَ، وأضلَّت الطالبَ، وجاءتْ عنكبوتٌ فجلَّلتْ وَجْـهَ المكانِ وحاكت ثَوْبَ نَسْـجِهَا، فحاكَتْ[2] سِتراً، ثمّ حَمى اللّطف الحِمَى بحَمَامَتَيْن، فما كانَ إلاّ أنْ سكنتا من الغار فماً، فما بانَ المسْتَتِرُ، فاتخذتا عُشّاً، فغشّى ما غشّى من غشاءِ العَشا على أبصارِ المقتَفِين، فصارُوا كالأعشى، فراغَ الأعداءُ نحو تلك الناحيةِ، فرأَوْا دليلَ فراغِ الغارِ الغارّ[3]، فعادوا عن مَنْ عادَوْا عَوْداً بحتاً بلا بختٍ[4].

فقال الصدّيقُ عن حَرِّ الوجدِ: «لو أنَّ أحدَهُم نظرَ إلى قَدَمَيْه لأبصرَنا».

فقال ﷺ: **«ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما»**[5].

فلمّا رَحَلا لحقهما سُراقةُ، فَسَرَقَتِ الأرضُ قوائمَ فرسِه، فلمَّا رأى أَرْضاً صَلْداً قد فرَسَتِ الفَرَسَ، فَرَسَتْ[6] إلى بطنِها ببطنِها، أُشربت نفسُه علمَ اليقين بظنِّها، فأخذَ يعرِضُ المالَ على مَنْ قَدْ ردَّ مفاتيحَ الكنوزِ، ويقدِّمُ الزادَ إلى شبعانَ

---

(١) **الغَرَرُ**: التعرض للهلاك.

(٢) **حاكت الأولى**: نسجت، والثانية: شابهت.

(٣) **الغار الأولى**: الموضع، **الغار** الثانية: الخادع.

(٤) **البخت**: الحظ.

(٥) البخاري (٣٦٥٣)؛ ومسلم (٢٣٨١)؛ والترمذي (٣٠٩٥).

(٦) **فرست الأولى**: افترست، والثانية: رسبت ونزلت من الرسوّ.

«**أبيتُ عند ربي**»[1]، فجازَ على خيمةِ أُمِّ مَعْبدٍ، فَأَصَحَّتْ[2] شاتُها، وأصبحتْ تشهَدُ، فوصلا إلى يثربَ على نجائب السّلامةِ، وفاتَ الخيرُ مكةَ، وفاءتِ المدينةُ بالكرامةِ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم باب الوصال؛ ومسلم، برقم (١١٠٣) في الصيام، باب النهي عن الوصال.

(٢) **أصحّت**: يقال: أصحّ الرجل، أي: زال ما كان به أو بما يتصل به من عاهةٍ أو عيبٍ، والمقصود: احتلابُ الشاة العجفاء الهزيلة، وكأنها صحيحة البدن.

الفصل الخامس والعشرون

في قصة أهل بدر

لمّا بادرَ بدرُ الشريعةِ بالخروجِ إلى بدر، رأى في الصّحابة قُلّةً فارتقى قِلّةَ[1] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقامَ المقدادُ[2] عن قومه قومةً، لحقّ متابعة المبايعة، فقال: «لو سرتَ إلى بَرْكِ الغِماد لتابعناك»[3]، فما لبثَ الرَّسولُ ﷺ أن صارَ يطلُبُ بالخطابِ الأنصارَ، ففطِنَ لسعادتِـهِ سعدُ بن معاذ، فقال: «لو خُضْتَ البحرَ لَخُضْنَا».

فرأى المصطفى ﷺ في الأعداء العَدَدَ والعُدَد، والتفتَ إلى المسلمينَ فوجدَ إذْ ما وجدَ، فاستقبلَ قبلةَ الطَّلَب، واقتضى[4] كريماً ما ماطلَ[5]، فانتدبَ مددَ العَوْن بلا عونٍ، فأقبلتْ سحابةٌ تسحبُ ذيلَ النَّصرِ، فسمعَ المشركونَ منها حَمْحَمةَ[6] الخيلِ فحُمّوا[7]، وانقلبتْ قلوبُهم مِنْ يَحْمُومِها حُمَماً[8]، فنزلتِ الملائكةُ مع الإلْفَيْنِ[9]، جبريلُ في ألفين، وميكائيلُ في ألفين، وأسرى إسرافيلُ في ألفٍ مُرْدٍ مُردفين، فعدلوا كالغمائم، قد سدلوا العمائم، وأرسلَتْ قريشٌ رائداً، فعادَ بتأثير ﴿سَأُلْقِى﴾ [الأنفال: ١٢]، فحذَّرَ القومَ العُزْلَ سهامَ العزائمِ، فأثَّر عُتْبةُ في عَتْبَهِ، وكادَ يشيبُ خوفاً شيبةُ، وأحكمَ حزامَ الحزمِ حكيمُ بن حزامٍ،

---

(١) **قلة**: قلةُ كل شيء: أعلاه.

(٢) **المقداد بن الأسود**.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٤) **اقتضى**: الأصل في الاقتضاء: طلب ما بذمته من دينٍ، ويشير هنا إلى سؤاله ربه أن ينجز له ما وعده.

(٥) **ما ماطل**: المطل: تأخيرُ سدادِ ما في الذمة من الدين.

(٦) **الحمحمة**: صوت الخيل.

(٧) **حُمّوا**: أصابتهم الحمّى.

(٨) **حمماً**: كصُرَد، فحماً.

(٩) **الإلفين**: مثنى الإلف، ويشير إلى الألفة المستحكمة بين الملكين جبريل وميكائيل.

وأبى للجهلِ أبو جهلٍ:

فلــزَّهــمُ الطِّــرادُ إلــى قتــالٍ   أَحَــدُّ ســلاحِهــم فيــه الفِــرَارُ
مَضَــوْا متســابقــي الأعضــاءِ فِيْــهِ   لأَرْجُلِهِــمْ بــأَرْؤسِهــم عِثــارُ

فلمّا قُلبوا إلى القليب، قامَ الرسولُ ﷺ على رأسِ الرَّس[1] ينادي الرؤساء حين رُسّوا[2] بلسان ﴿ فَٱنتَقَمْنَا ﴾ [الأعراف: ١٣٦]: عن جواب ﴿ إن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ [الأنفال: ١٩]، لتصديق ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح: ٣]، في مضمون ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ ﴾ [المطففين: ٣٦]: يا فلانُ! ويا فلان! **«هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟»**[3].

● ذكر من شهد بدراً على الحروف[4]:

حرف الألف

أبي بن كعب، أبي بن ثابت، أوس بن ثابت، أوس بن خولي، أوس بن الصامت، أسعد بن زيد، أنس بن معاذ، الأرقم بن أبي الأرقم، أربد، أسير بن عمرو، أنسة الحبشي مولى رسول الله ﷺ، إياس بن البكير.

حرف الباء

بشر بن البراء، بشير بن سعد، بلال، بُجَيْر، بُحاث بن ثعلبة، بَسْبَس بن عمرو.

حرف التاء

تميم بن يُعار، تميم مولى خِراش، تميم مولى بني غَنْم.

حرف الثاء

ثابت بن أقرم، ثابت بن ثعلبة، ثابت بن خالد، ثابت بن عمرو، ثابت بن

---

(١) **الرّس**: القليب.

(٢) **رسوه** ودسوه ودفنوه واحد.

(٣) حديث: **«هل وجدتم»** أخرجه الإمام مسلم والنسائي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير: ٢/ ٤٩٠؛ والسيرة الشامية: ٤/ ١٣٧.

هَزّال، ثَعْلبة بن حاطب، ثعلبة بن عمرو، ثعلبة بن عَنَمة، ثَقِف[١].

حرف الجيم

جابر بن خالد، جابر بن عبد الله بن رئاب، جبّار بن صخر، جُبَيْر بن إياس، جبر بن عتيك.

حرف الحاء

الحارث بن أنس، الحارث بن أوس، الحارث بن خَزَمة، الحارث بن ظالم، الحارث بن قيس، الحارث بن النعمان، حارثة بن الحِمْير، حارثة بن سراقة، حارثة بن النعمان بن رافع، حارثة بن النعمان بن نفيع[٢]، حاطب بن أبي بَلْتَعة، حاطب بن عمرو، الحباب[٣]، حبيب[٤]، حرام[٥]، حُرَيْثُ بن زيد[٦]، الحُصَيْن بن الحارث، حمزة بن عبد المطلب.

حرف الخاء

خالد بن البَكَيْر، خالد بن زيد[٧]، خالد بن قيس، خلّاد بن رافع، خلّاد ابن سويد، خلّاد بن عمرو، خُلَيد بن قيس[٨]، خَبّاب بن الأرت، خباب مولى عُتبة، خُبَيْب بن إساف، خارجة بن الحِمْيَر، خليفة بن عدي، خُنَيس بن حُذافة، خَوْليّ[٩].

---

(١) قال الواقدي: **ثِقاف**: ثمامة بن عدي القرشي، ذكر الطبري أنه شهد بدراً.

(٢) بخط الأمين في الاستيعاب: «. . بن نَفْع» وكتب تجاهه بالفاء قيَّده طاهر بن عبد العزيز.

(٣) **الحباب**: هو ابن المنذر بن الجموح.

(٤) حبيب: هو ابن أسلم الأنصاري، قال ابن أبي حاتم: بدوي.

(٥) حرام: هو ابن ملحان، واسمه مالك بن خالد الأنصاري.

(٦) هو أخو عبد الله بن زيد الذي رأى في منامه مَن علّمه الأذان، فقصها على الرسول ﷺ.

(٧) هو أبو أيوب الأنصاري من أكرمه الرسول ﷺ بالنزول في بيته لما قدم المدينة المنورة مهاجراً، ودفن تحت أسوار القسطنطينية.

(٨) **خُلَيد** أو خُلَيدة بن قيس بن النعمان الأنصاري الخزرجي.

(٩) **خَوْليّ** بن خوليّ بن عمرو بن زهير الجُعفي.

حرف الدال

ليس فيه أحد.

حرف الذال

ذَكْوان بن عبد قيس، ذو الشِّمالين بن عبد بن عمرو[1].

حرف الراء

رافع بن الحارث، رافع بن عُنْجُدة[2]، رافع بن المُعَلَّى، رفاعة بن رافع، رفاعة بن عبد المنذر، رفاعة بن عمرو، الربيع بن إياس، ربيعةُ بن أكثم، رِبْعي[3] بن رافع، رُجَيْلة[4].

حرف الزاي

زيد بن أسلم، زيد بن حارثة، زيد بن الخطاب، زيد بن سهل، زيد بن وديعة، زياد بن كعب، زياد بن لَبِيد، الزبير بن العوّام.

حرف السين

سعد بن خَوْلة، سعد بن الربيع، سعد بن سهل[5]، سعد بن عثمان، سعد ابن مالك[6]، سعد بن معاذ، سعد القاري[7]، سعيد بن قيس، سهل بن حُنَيْف،

---

(١) هل ذو الشمالين هو ذو اليدين؟ فيه القولان، هو هو، والآخر: ذو اليدين عمير بن عبد عمرو.

(٢) **عُنْجُدة**: أم رافع، واسم أبيه الحارث.

(٣) **ربعي** بن أبي ربعي بن رافع.

(٤) قال ابن هشام: هو (رُحَيلة) بالحاء، قال ابن إسحاق: بالجيم، والصواب بالحاء، وقيّده الدارقطني وغيره بالخاء.

(٥) هو سعد بن زيد بن مالك الأنصاري كما في (البداية والنهاية: ٣/ ٣١٩)؛ وعند الواقدي: سعد بن زيد بن الفاكه، وقيل: سعيد بن سهل.

(٦) هذا سعد بن سعد بن مالك، تجهز لبدر فمات، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

(٧) هو سعد بن عُبيد، ويقال: عمير بن النعمان، أبو زيد القاري، وفي (الواقدي: ١/ ١٥٩): (سعد بن عبيد بن النعمان).

سُهَيْل بن رافع، سهيل بن عَتِيك، سهل بن عدي، سهل بن قيس، سُهَيل بن البيضاء[١]، سُلَيم بن الحارث، سليم بن عمرو، سليم بن قيس، سليم بن مِلْحان، سليم أبو كَبْشَة[٢]، سَلَمَة بن أسلم، سلمة بن ثابت، سلمة بن سلامة، سالم بن عُمير، سالم مولى أبي حُذيفة، سُراقة بن عمرو، سراقة بن كعب، سِماكُ بن خَرَشَة، سَماك بن سعد، سِنان بن صَيْفي، سنان بن أبي سنان، سُوَيْبِط ابن سعد، سَواد بن رزين، سواد بن غَزية، السائب بن عثمان، سُبَيع بن قيس، سُفيان بن بشر، سَليط أبو سليمان[٣].

حرف الشين

شُجاع بن وهب، شَمّاس بن عُثمان.

حرف الصاد

صالح بن سنان، صفوان بن وهيب[٤].

حرف الضاد

ضَمْرة بن عمرو، الضحّاك بن حارثة.

حرف الطاء

الطُّفَيْل بن الحارث، الطفيل بن مالك، الطفيل بن النعمان.

حرف الظاء

ليس فيه أحد[٥].

---

(١) **البيضاء**: أم سهيل، واسمها دعد، واسم أبيه: وهب بن ربيعة.

(٢) **أبو كبشة**: مولى رسول الله ﷺ.

(٣) **سَليط** بن قيس بن عمرو بن عبد الله الأنصاري.

(٤) **صفوان بن وهيب**: ويقال: أُهَيْب، ويقال: سهل بن ربيعة، وهو ابن بيضاء، أخو سهل وسهيل، استشهد ببدر كما في (السيرة الشامية: ٤/ ١٦٠)؛ وفي (سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٢): (وهب) بدل (وهيب).

(٥) وجد في الإصابة الصحابي (ظُهَيْر بن رافع) ممن شهد بدراً، وذكره البخاري، وانظر: السيرة الشامية: ٤/ ١٦٣.

حرف العين

عبد الله أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، عبد الله ابن مسعود، عبد الله أبو سَلَمة، عبد الله بن أُنيس، عبد الله بن ثعلبة، عبد الله بن جُبَير، عبد الله بن جحش، عبد الله بن الجد، عبد الله بن الربيع، عبد الله بن رواحة، عبد الله بن زيد، عبد الله بن سُراقة، عبد الله بن سلمة، عبد الله بن سهل، عبد الله بن سهيل، عبد الله بن طارق، عبد الله بن عبيد الله بن أبي عبد الله بن عبد مناف، عبد الله بن عبس، عبد الله بن عرفطة، عبد الله بن عمرو، عبد الله بن عمير، عبد الله بن قيس بن خلدة، عبد الله بن قيس بن صخر، عبد الله بن مَخْرمة، عبد الله بن مظعون، عبد الله بن النعمان، عبد الرحمن بن جبر، عبد الرحمن بن عبد الله، عبد الرحمن بن عوف، عبيد بن أوس، عبيد بن زيد، عبيد بن أبي عبيد، عبيدة بن الحارث، عبّاد بن بشر، عبّاد بن قيس، عباد بن الخشخاش، عبد ربه [بن حِق][1]، عتبة بن أبي ربيعة، عتبة بن زيد، عتبة بن غزوان، عتبة بن عبد الله، عقبة بن عامر، عقبة بن وهب بن ربيعة، عقبة بن وهب بن كَلَدة، عمر بن إياس، عمرو بن ثعلبة، عمرو بن سراقة، عمرو بن طَلْق، عمر بن معاذ، عمر بن أبي سرح، عمير بن الحارث، عُمَيْر بن الحمام، عُمَير بن عامر، عمير بن عوف، عمير بن مالك، عمير بن مَعْبد، عمار بن ياسر، عُمارة بن حَزْم، عامر بن أمية، عامر بن البُكَيْر، عامر بن الجراح، عامر بن ربيعة، عامر بن سلمة، عامر بن فُهَيْرة، عامر بن مخلَّد، عاصم بن ثابت، عاصم ابن العُكَيْر، عامر بن قيس، عُصيْمة الأشجعي، عُصَيْمة الأنصاري، عوف بن أثاثة، عوف بن عفراء، عاقل بن البكير، عائذ بن ماعص، عبس[2]، عَدي بن أبي الزغباء، عنترة[3] مولى بني سُليم، عُوَيم[4]، عياض[5]، عثمان بن مظعون.

---

(١) زيادة من ابن هشام: ١/ ٦٩٦؛ وفي (السيرة الشامية: ٤/ ١٦٦): عبد الرحمن بن حق، وليس عبد ربه.

(٢) عبس بن عامر بن عَدي الأنصاري الخزرجي.

(٣) عنترة بن عمرو.

(٤) عويم بن ساعدة بن عايش.

(٥) عياض بن زهير القرشي الفِهْري.

حرف الغين

غنّام بن أوس.

حرف الفاء

الفاكه بن بِشر، فَرْوة بن عمرو.

حرف القاف

قيس بن أبي صعصعة، قيس بن عمرو، قيس بن مِحْصَن، قيس بن مخلَّد، قتادة بن النعمان، قُدامة بن مظعون، قُطْبة بن عامر.

حرف الكاف

كعب بن جَماز، كعب بن زيد، كعب بن عمرو، كَنّاز بن حُصَيْن.

حرف اللام

ليس فيه أحد[1].

حرف الميم

مالك بن التَّيِّهان، مالك بن ثابت، مالك بن الدُّخْشُم، مالك بن ربيعة، مالك بن عمرو، مالك بن عمرو أخو ثَقْف بن عمرو، مالك بن عمرو بن خُثَيْمة، مالك بن قدامة، مالك بن مسعود، مسعود بن خَلْدة، مسعود بن الربيع، مسعود بن سعد الحارثي، مسعود بن سعد الزُّرَقي، معاذ بن جبل، مُعاذ بن عفراء، معاذ بن ماعص، المنذر بن عمرو، المنذر بن قدامة، المنذر بن محمد، مُعَتِّب بن حمراء، معتب بن عبدة، معتب بن قشير، معبد بن عبادة، معبد بن قيس، محرز بن عامر، محرز بن نضلة، مُعوّذ بن عفراء، معوّذ بن عمرو، مبشر، المجذر بن زياد، محمد بن مسلمة، مِدْلاج بن عمرو، مَرْثَد بن أبي مرثد، مصعب بن عمير، معقل بن منذر، معمر بن الحارث، معن بن عدي، المقداد بن الأسود، مُلَيْل بن وبرة، مِهجَع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) في (السيرة الشامية: ٤/ ١٧٧): لَبْدة بن قيس، ذكره ابن الكلبي، والواقدي: ١/ ١٧٠.

حرف النون

النعمان بن ثابت، النعمان بن سنان، النعمان بن عمرو، النعمان بن عبد عمرو، النعمان بن عصر، النعمان بن مالك، النعمان بن أبي خزمة[1]، نصر بن الحارث، نوفل بن عبيد الله[2].

حرف الواو

وهب بن سعد، وهب بن مِحْصَن، واقد بن عبيد الله، وَدِيعة بن عمرو، ورقة[3] بن إياس.

حرف الهاء

هانئ بن نِيَار، هشام بن عتبة بن ربيعة، هلال بن أمية.

حرف الياء

يزيد بن الحارث، يزيد بن رُقَيْش، يزيد بن عامر، يزيد بن أخنس، يزيد بن المنذر.

وممن يُعرف بكُنيته ولا يعرف باسمه[4]:

أبو الحمراء مولى الحارث بن رفاعة، أبو خزيمة بن أوس بن أصْرم، أبو سَبْرة مولى أبي رغم، أبو مليل بن الأزعر، أبو حبة بن عمرو بن ثابت.

وامتنع من شهود بدر ثمانيةٌ لأعذار، فضرب لهم رسولُ الله ﷺ سهامهم وأجورَهم، فكانوا كمن شهدها؛ وهم: عثمانُ، وطلحةُ، وسعيد، والحارث بن حاطب، والحارث بن الصِّمَّة، وخوّات، وعاصم بن عدي، وأبو لبابة.

فهؤلاء البدريون بجملتهم، حشرنا الله في زمرتهم.

* * *

---

(١) في (السيرة الشامية: ٤/ ١٨٢): النعمان بن أبي خزيمة الأنصاري.

(٢) في (السيرة الشامية: ٤/ ١٨٥): نوفل بن عبد الله بن نضلة.

(٣) **ورقة**: اختلف في ضبطه؛ فقيل: بالفاء (وَرفة)، وقيل: بالقاف، والأكثر أنه بالدال المهملة (ودفة).

(٤) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير: ٢/ ٥٠٧.

الفَصْلُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ

في تزويج علي بفاطمة رضي الله عنهما

كانَ للنبيِّ ﷺ بناتٌ فَضَلَتْهُنَّ فاطمةُ رضيَ الله عنها، وزوجاتٌ سَبَقَتْهُنَّ عائشةُ رضي الله عنها، وذلك أن اختيارَ القَدَرِ لا يحابي في التساوي، تُسقى بماءٍ واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

لمَّا نهض عليٌّ لخِطبتها، طرقَ بأناملِ رجائهِ أرجاءَ بابِ الخِطبةِ، فمشى إليه الآذنُ بالإذنِ على عَجَل العَجَل، فنَقَدَ صِدْق الرغبةِ قبل نَقْدِ الصَّداق، فعُقدَ العقدُ على درعٍ لينبّه على جهادِ الهوى، وجُهِّزَتْ بالإجهازِ على عدوِّ الزُّهْد، ولم يرضَ لها جِهازَ الدُّنيا، لموافقةِ البَضْعة[1] التي هي منه، فحلّاها الرسولُ ﷺ بحِلْيـة **«فاطمةُ بَضْعـةٌ مني»**[2]، وعَقَدَ لها عِقداً خَرَزاتُ نظامِه **«إنَّ الله يَغْضَبُ لِغَضَبك، ويرضى لرضاك»**[3]، وبعثَ بين يديها وصائف **«غُضُّوا أبصاركم»**[4]،

---

(١) **البَضْعة**: بالفتح، القطعة من اللحم.

(٢) الحديث متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة، في البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة الرسول ﷺ ومنقبة فاطمة رضي الله عنها (٣٥١٠)؛ وفي مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٤٩)؛ وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد في (المسند) والبيهقي.

(٣) رواه الطبراني والحاكم وابن النجار، وقال عنه الحافظ الهيثمي: «إسنادُه حسن». انظر: مجمع الزوائد (١٤٥٢٣). وذكره ابن الأثير في ترجمة السيدة فاطمة بإسناده، انظر: أُسد الغابة في معرفة الصحابة: ٧/ ٢٢٤.

(٤) ولفظه: **«إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجاب: يا أهل الجمع! غُضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد حتى تمر»** رواه الحاكم في (المستدرك) وصحّحه على شرط مسلم، وقال الذهبي: **لا والله بل موضوع**، والعباس بن الوليد راويه قال الدارقطني عنه: كذاب، وحكم ابنُ الجوزي بوضعه، إلا أن السيوطي ذكر له شاهداً من=

ونصب لها سُدَّةَ «ألا تَرْضَيْنَ أنْ تكوني سيدةَ نساءِ هذه الأمّة»[1]، وأدخلها على الزوجِ في حُلَلِ الحاليةِ، عليها قناعُ القَناعةِ، تسعى في فضاءِ الفضائل إلى خَلوة الخُلّةِ، حتى أُجْلِسَت على مِنَصَّة النَّصِّ[2]، فأمر الله تعالى[3] ليلةَ عُرسِها شجرَ الجِنَان، فَحَمَلَتْ حُلَلاً وحلياً فنَثرته على الملائكةِ، وليسَ المراد بذلك المُلك، ولكن ليُعلم رضا المَلِك.

يا عجباً! نثرت الحُلل لأجل مَنْ فراشُه جِلْدُ كَبْشٍ، هلا حَلَّت له منها حُلَّة.

كلا! مركبُ المَلِكِ أحلى مِنْ أن يُحلَّى، فدخل عليها الرسول ﷺ، فاستدعى بإناء من ماءٍ، فدعا فيه بالبركةِ[4]، ثم رشَّ على حبيبينِ بلا غِشٍّ، فلمَّا طابَ لعلي ذلك الوقتُ، سأل الرسولَ ﷺ سؤال سَكْرَان من شَرَابِ الوِصال: يا رسول الله! أنا أحبُّ إليكَ أم هي؟.

فَفَصَلَ الحاكِمُ بين خصومِ الحُبِّ، فقال: هي أحبُّ إليَّ منك، وأنت أعزُّ عَليَّ منها[5].

فلمَّا جازَتْ بما حازَتْ قناطرَ الفَضْلِ، صِيْنَ وجهُ الجمالِ بخالِ الخَللِ في العيش، فأقوى[6] على الأقوى قَفْرُ الفقرِ، فَصِيحَ بفصيحِ خِطابِ الشَّرْع: يا عليُّ! قُمْ لِكَسْبِ قُوتِ الوَقْتِ، فخرَجَ يسعى على أرضِ الرِّضا، بينَ أعلامِ الصبرِ، فباتَ يسقي نخلاً إلى الفجرِ، بشيءٍ من الشعيرِ على وجهِ الأجرِ، فلمَّا جاءَ به، وأُصلحَ للأكلِ، قامَ سائلٌ على بابِ البذلِ، فنادى: يا أهل نادي الندى والفَضْلِ! أطعِمُونا

= رواية أبي بكر في الغيلانيات. انظر: الجامع الصغير: ١/ ٤٢٩؛ وذكره ابن الأثير في أسد الغابة: ٧/ ٢٢٥.

(١) رواه مسلم. انظر: شرح مسلم، للنووي: ١٦/ ٢.

(٢) **النص**: أصل معناه: أقصى الشيء وغايته.

(٣) إثبات هذا النص يحتاج للتوثيق، وهذا مما لم نجده، وأغلب الظن أنه من صنع الشيعة، والسيدة فاطمة لا تحتاج منزلتها لمثل هذا.

(٤) رواه النسائي.

(٥) ذكره ابن الأثير في أُسد الغابة: ٧/ ٢٢٤.

(٦) **أقوى على الأقوى**: صار ذا قوة وتحمّل للجوع ونفاد الزاد.

أطعمَكم اللهُ منَ الفضلِ، فثارَتْ رياحُ الارتياح للإيثارِ، فأثارتْ سَحاباً يقطرُ من قطرتِه قطرُ جودِ الجواد، فسالَ سَيْلُه بقَدْرِ وادي الوُدِّ، فلمَّا تروَّتْ بالماءِ أشجارُ الأنس، صدحتْ على ورَقها وُرْقُ القُدْس، وأغنى عن غرائبِ صَدْحِ المدحِ ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨]، ثمَّ أخبر الحقُّ عن مضمونِ القصدِ: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩]، فلو رأيتَ القومَ يومَ القيامةِ في ظِلِّ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ١١][١]، وقد اكتستْ أجسادٌ وكُسيتْ بكُسا الضّنك[٢] غضارةُ[٣] العيشِ على حُلَل[٤] الخَفْض[٥]، واستراحتْ أيدٍ تفرّق أيدُها[٦] من طحنِ الرّحا، ونزع الدلو براحةِ ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ [الإنسان: ٣١]، هذا من حصادِ بذرِ النذر.

ولقد عَجِبَ العلماءُ من شرح هذا الأجر، واستظرفوا عدم ذكر الحُور في هذا الذكر[٧]، فبَقَوا متحيّرين في حِيَرِ الفكر[٨]، فنُودوا من بُطْنَانِ[٩] وادي الفهم، بأنَّ ذلكَ لِفَضْلِ فَضْل زهراءِ الإنس، غَيْرَةً عليها من ذكر الغِيَر[١٠]، وإنما آثرا[١١]

---

(١) أخرج القصة ابن مردويه عن ابن عباس: أنه قال في قوله سبحانه: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ﴾ [الإنسان: ٨] نزلت في علي كرم الله وجهه ـ وفاطمة رضي الله عنها ـ والخبر مشهور بين الناس، وذكره الواحدي في كتاب (البسيط) وتُعُقِّبَ بأنه **خبر موضوع مفتعل**، كما ذكره **الترمذي وابن الجوزي**، وآثار الوضع ظاهرةٌ عليه لفظاً ومعنى. انظر: تفسير الآلوسي: ١٩/ ١٥٧؛ و(المحرر) لابن عطية؛ و(جامع الأحكام) للقرطبي عند تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾: ١٩/ ١٣٤.

(٢) **الضنك**: الضيق.

(٣) **غضارة**: طراوة.

(٤) **حلل**: جمع حلة.

(٥) **الخفض**: الدّعة.

(٦) **أيدها**: قوتها.

(٧) أي: الآيات المذكورة في سورة الإنسان؛ لم تتناول فيما عرضت من نعيم الجنة الحور العين.

(٨) المقصود (**بِحِيَرِ الفكر**): البحث عن سر عدم ذكر الحور في هذه السورة المباركة.

(٩) **بُطنان**: وسط، وبطنان كل شيء: وسطه.

(١٠) أي: الضرة.

(١١) **آثرا**: أي آثر سيدنا علي وفاطمة الفقيرَ بالطعام على الحسن والحسين.

على الطفلين[1]، لأنَّهما غُصنان من شجرة «**أبيتُ يُطعمني ربي**»[2]، وبعضٌ من جملة «**هي بَضْعةٌ مني**»[3]، وفرخُ البَطِّ سابح، و«**ذكاةُ الجنين ذكاةُ أمه**»[4].

* * *

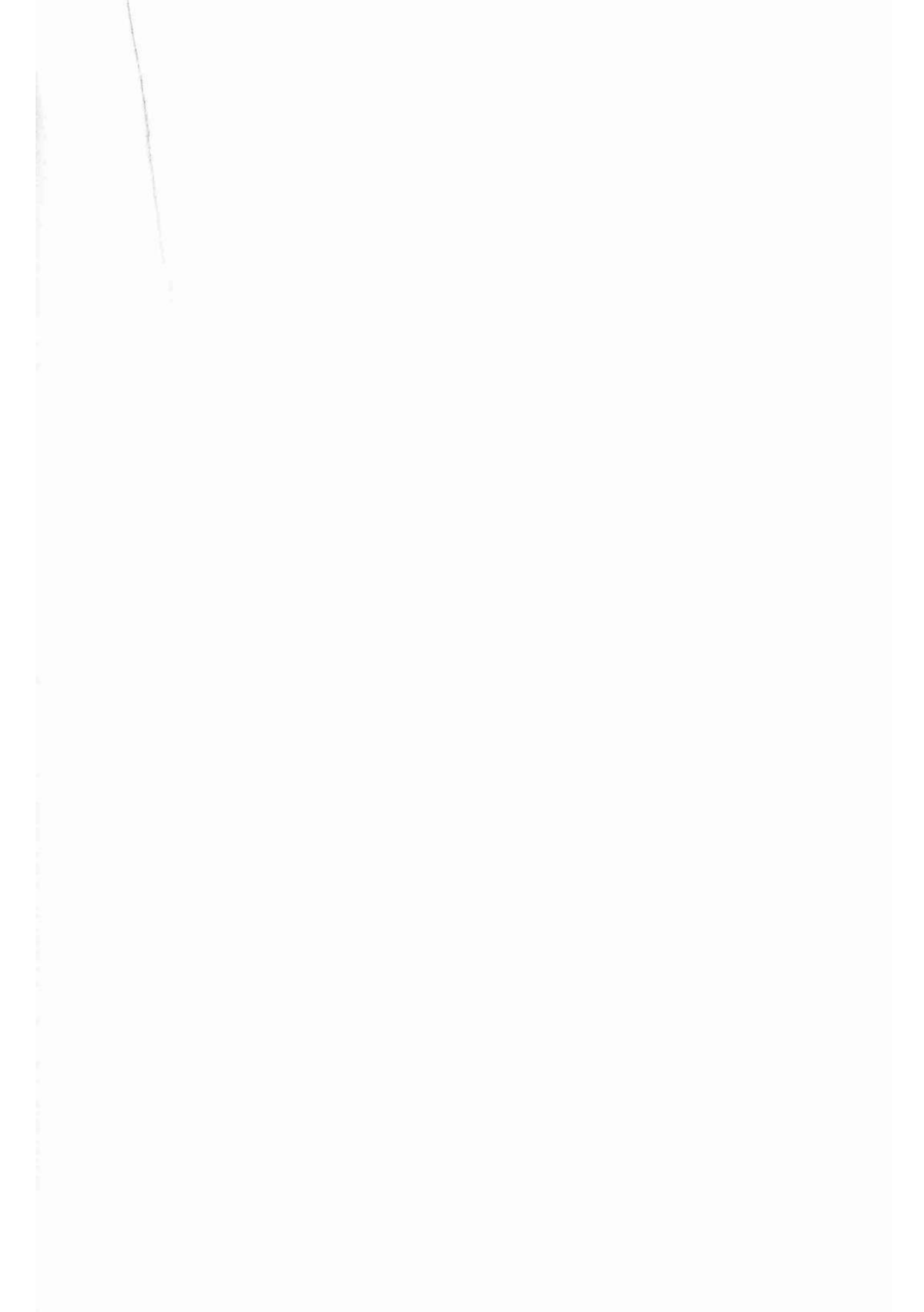
---

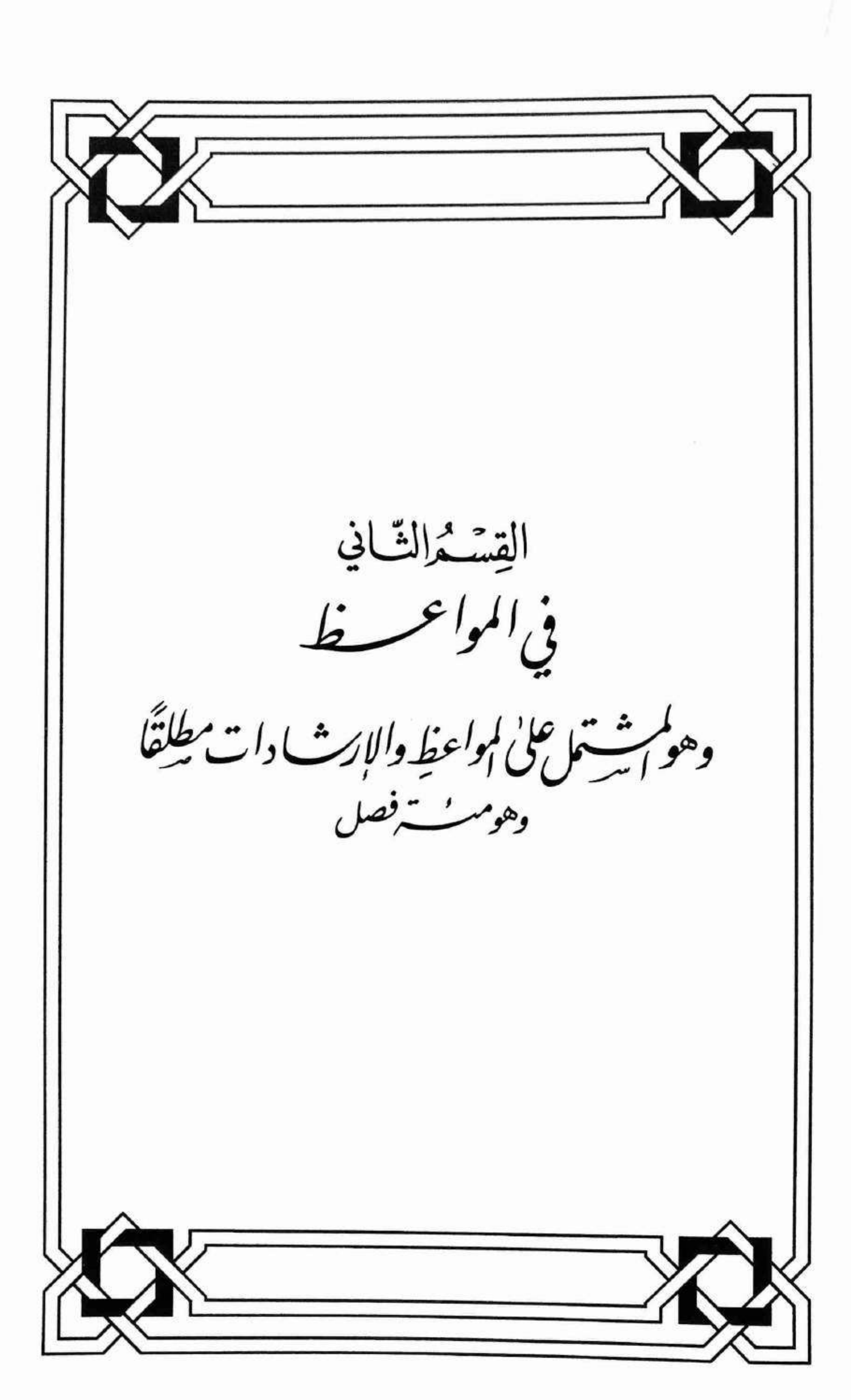
(١) أي: الطفلين الحسن والحسين.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، وكتاب النكاح؛ ومسلم في فضائل الصحابة؛ وأبو داود في النكاح؛ والترمذي في كتاب المناقب؛ وابن ماجه في كتاب النكاح؛ والإمام أحمد: ٤/ ٢٢٦.

(٤) رواه أبو داود وأحمد والترمذي. انظر: كنز العمال، ص٢٦٢.





القسم الثاني

في المواعظ

وهو المشتمل على المواعظ والإرشادات مطلقًا

وهو مئة فصل

الفصل الأول

في قوله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]

نذكر فيه التوحيد

أوَّلٌ ليسَ لهُ مبدأٌ، آخِرٌ جَلَّ عن منتهًى، ظاهرٌ بالدَّليلِ، باطنٌ بالحِجَابِ، يُثْبِتُهُ العقلُ، ولا يُدركُه الحِسُّ، كلُّ مخلوقٍ محصورٌ بِحَدٍّ، مأسورٌ في سُوْرِ قطرٍ، والخالقُ بائنٌ مُبايِنٌ[(١)]، يُعرَفُ بعدمِ مألوفِ التعريفِ، ارتفعَتْ لعدمِ الشَّبَهِ الشُّبَهُ.

إنَّما يقع الإشكالُ في وَصْفِ مَنْ له أشْكالٌ، وإنَّما تُضْرَبُ الأمثالُ لمن له أمثالٌ، فأمَّا مَنْ لَم يَزَلْ ولا يزالُ فما للحسِّ معه مجالٌ، عظَمتُه عَظُمَتْ عن نيلِ كَفِّ الخيالِ، كيف يقال له: كيف؟ والكَيْفُ في حَقِّه مُحالٌ.

أنَّى تتخايلُه الأوهامُ وهي صُنْعُه؟!.

كيف تحدُّه العقول وهي فعلُه؟!.

كيف تحويه الأماكنُ وهي وضعه؟!.

انقطع سير الفِكْرِ، وقف سلوكُ الذهنِ، بطَلَتْ إشارةُ الوَهْمِ، عَجَزَ لطفُ الوَصْفِ، عَشِيَتْ عينُ العقلِ، خَرِسَ لسانُ الحِسِّ، لا طَوْرَ للقَدَمِ[(٢)] في طُورِ القِدَمِ، عزَّ المرقى فيئس المرتقي، بحرٌ لا يَتَمكَّنُ منه غائِصٌ، ليلٌ لا يَبِيْنُ للعينِ فيه كوكبٌ:

مَــرَامٌ شَــطَّ مَــرْمَــى العَقْــلِ فِيْــهِ ... فَــدُوْنَ مَــدَاهُ بِيْــدٌ لا تَبِيْــدُ

(١) البائنُ: المتفرِّدُ بذاتِه وصفاتِه، فلا شيءَ من مخلوقاتِه يُشْبِهُه، ولا هو يُشْبِهُ شيئاً من مخلوقاتِه، لا في الذَّاتِ ولا في الصِّفاتِ. كما لا يحلُّ في شيءٍ من مخلوقاته، لا يحل فيه شيءٌ من مخلوقاتِه، فهو المتفرِّدُ ذاتاً وصفاتٍ وأسماءً.

(٢) لا مجال لتوغُّلِ العقلِ في الإحاطة بمعاني ذات الله وصفاته.

جادةُ التسليمِ سليمةٌ، وادي النقل بلا نقع[1]، انزلْ عِنْ عتوِّ غُلوِّ التشبيه، ولا تَعْلُ قِلَلَ[2] أباطيلِ التعطيلِ، فالوادي بينَ جبلينِ، المشبِّهُ متلوثٌ بفَرْثِ التجسيمِ، والمعطِّلُ نَجِسٌ بدمِ الجحودِ، ونصيبُ المُحِقِّ لبنٌ خالصٌ هو التنزيهُ.

تخمَّرَ في نفوس [الكفارِ][3] حُبُّ الأصنامِ، فجاءَ محمَّدٌ ﷺ فمحا ذلك بالتوحيدِ، وتخمّر في قلوبِ المُشبِّهَةِ حُبُّ صورةٍ وشكلٍ، فجئتَ فمحوتَها بالتنزيه «**والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ**»[4]، ما عَرَفَهُ مَنْ كيَّفه، ولا وحَّدَه مَنْ مثَّله، ولا عبَدَه من شَبَّهه، المشبِّهُ أعْشى، والمعطِّلُ أعمى.

مما ننزِّهُ عنهُ (مِمَّ)؟ وفيما يجبُ نفيه (بِثَمَّ)، جلَّ وجوبُ وجودِه عن رَجْم (لعلَّ)، سبقَ الزَّمانَ فلا يقال (كانَ إذْ)، تَمَجَّدَ في وحدانيتِه عن زِحامِ (مع)، تَفرَّدَ بالإنشاء، فلا يستفهَمُ عن الصانعِ (بِمَنْ)؟ أبرزَ عرائِسَ الموجوداتِ[5] مِنْ كِنِّ (كُنْ)، بثَّ الحِكمةَ فلم يعارَضْ (بِلِمَ)؟ تعالى عن بعضيَّةِ (مِنْ)، وتقدَّسَ عن ظرفيَّةِ (في)، وتنزَّهَ عن شَبَهِ (كأنَّ)، وتَعَظَّم عن نقصِ (لو أنَّ)، وعزَّ عن عَيْبِ (إلا أنَّ)، وسَما كمالُه عن تدارك (لكنَّ).

إنْ وقفَ ذِهْنٌ بِوَصْفِه صاحَ العِزُّ: جُزْ، إنْ سارَ فكرٌ نحوَهُ قالت الهَيْبَةُ: عُدْ، إنْ قَعَدَ القلبُ عن ذكره قال القدار[6]: قُمْ، إن تجبَّرَ متكبرٌ قال القهرُ: شِمْ[7]، إن سألَ محتاجٌ قال الإنعام: رِشْ[8]، إن تعرَّض فقيرٌ قال الوفرُ: فِرْ[9]، إن سكتَ

---

(١) أي: الإيمان بما جاء من نصوص الكتاب والسُّنَّة من صفاتِ الله، والتسليم بها مع التنزيه على مراد الله سبحانه وتعالى.

(٢) قلل: قمم.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) رواه أبو داود والدارمي وابن ماجه والإمام أحمد.

(٥) في (ب): المخلوقات.

(٦) في ب: (إن قعد اللسان عن ذكره قال القلب).

(٧) شِمْ: من شام يشيم، أي: تقهقر وتوارى وتراجع.

(٨) رش: فعل أمر من راش يريش، اغتنى واستغنى يغتني ويستغني، وراش فلاناً: أصلح حاله. والرياش: المال والخصب والمعاش.

(٩) فر: من الوفرة والكثرة.

مُذْنِبٌ حَيَاءً قال الحلم : قُل ، إن بَعُدَ ذو خطأ نادى اللطف : أُبْ ، نثر عجائِبَ النِّعَمِ وقال للكل : خُذْ .

من بيانِ عظمتِه ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ [غافر : ١٥] ، من أثرِ قَسْرِهِ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، توقيعُ أمرِه ﴿ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، واقعُ زجرِه ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، يُنادَى على باب عِزَّتِهِ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، يُصاحُ على مَحَجَّةِ حُجَّتِـهِ ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ [المؤمنون : ٨٤] ، يُـنْذِرُ جاسـوسُ[١] علمِه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المجادلة : ٧] ، يقول جِهْبِذُ طَوْلِه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، يترنَّمُ مُنْشِدُ فضلِه : ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

سبحانَ من أقامَ مِنْ كلِّ موجودٍ دليلاً على عِزَّتِه ، ونَصَبَ عَلَمَ الهُدَى على بابِ محجَّتِه ، الأكوانُ كلُّها تنطقُ بالدليل على وحدانيتِه ، وكلُّ مخالِفٍ وموافِقٍ يمشي تحتَ مشيئتِه .

إنْ رَفَعْتَ بصرَ التفكُّرِ ترى دائرةَ الفَلك في قبضتِه ، وتُبْصِرُ شمسَ النهار وبدرَ الدُّجَى يجريانِ في بحرِ قدرتِه ، والكواكبُ قَدِ اصطُفَّت كالمواكبِ على مناكبِ تسخيرِ سَطْوتِه ، فمنها رُجومٌ للشياطينِ ترميهم فترميهم[٢] عن حمى حمايتِه ، ومنها سطورٌ في المهامِهِ[٣] يقرؤها المسافِرُ في سِفْرِ سَفْرتِه .

وإن خفضتَ البصرَ رأيتَ الأرضَ مُمْسِكَةً بحَكَمةِ[٤] حكمتِه ، كلُّ قِطْرٍ منها مخْروسٌ بأطوادِه[٥] عن حركتِه ، وإذا ضَجَّتْ عطاشُها ثار السَّحابُ من بِرْكَةِ[٦] بركَتِه ، ونفخَ في صُورِ الرَّعْدِ لإحياءِ صُوَرِ النَّـبَاتِ من حفرتِه[٧] ، فيبدو نورُ النَّوْرِ

---

(١) **جاسوس علمه** : أي : شاهد علمه .

(٢) **ترميهم الأولى** : ترجمهم . **ترميهم الثانية** : تقصيهم وتبعدهم .

(٣) **المهامه** : جمع مهمهة ، أي : الفلاة والصحراء .

(٤) **حَكَمة** : حديدة توضع في فم الفرس متصلة باللجام ، والمعنى : في قبضة حكمته .

(٥) أي : كلُّ مكانٍ من الأرض مستقر بالجبال التي أرساها في الأرض حتى لا تميد وتضطرب .

(٦) **بِركة** : البحر .

(٧) **حفرته** : أرضه .

يهتزُّ طرباً بِخُزامى[1] رحمتِه، فإذا استوى على سُوْقِه، زادت في سَوْقه نَعامَى نعمتِه، وتُفَتِّقُ يدُ الإيجادِ بأناملِ القدرةِ أكمامَ النَّباتِ عن صنعةِ صِبْغته، فيرفُلُ في حُلى حُللِ الحالِ الحاليةِ إلى معبر عبرته، وتصدَحُ الوُرْقُ[2] على الوَرَقِ كلٌّ بتبليغ لغتِه، والأشجارُ معتنِقَةٌ ومفترِقَةٌ على مقدارِ إرادته، [﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤] هذا بعض صنعتِه][3]، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

نَظَرَ بعينِ الاختيارِ إلى آدمَ فحظيَ بسجودِ ملائكته، وإلى ابنِه **شيثَ** فأقامَه في منزلتِه، وإلى **إدريسَ** فاحتالَ بإلهامِه على جنَّته، وإلى **نوحٍ** فنجا من الغرقِ بسفينته، وإلى **هودٍ** فعادَ[4] على عادٍ شؤمُ مخالفته، وإلى **صالحٍ** فتمخَّضَتْ صخرةٌ بناقتِه، وإلى **إبراهيمَ** فتبختَرَ في حُلَّةِ خُلته، وإلى **إسماعيلَ** فأعانَ الخليلَ في بناءِ كعبته، وإلى **إسحاق** فافْتكه[5] بالفداء من ضجعته، وإلى **لوط** فنجَّاه وأهله من عشيرته، وإلى **شعيب** فأعطاه الفصاحةَ في خُطبته، وإلى **يعقوب** فردَّ حبيبه مع حبيبته[6]، وإلى **يوسف** فأراه البرهانَ في هَمَّتِه[7]، وإلى **موسى** فَخَطَر في ثوبِ مكالمتِه، وإلى **إلياسَ** فاليأسُ للنَّاسِ من حالته، وإلى **داودَ** فألانَ الحديدَ له على حِدَّتِه، وإلى **سليمانَ** فراحَتْ الريحُ في مملكته، وإلى **أيوبَ** فيا طوبى لِرَكْضَتِـهِ[8]، وإلى **يونسَ** فَسَمِعَ نِداءَه في ظُلْمتِه، وإلى **زكريا** فقَرَنَ سؤالَه بِـبِشارَتِه، وإلى **يحيى** فتلمَّحَ حصر الحَصُورِ على سُدة سيادته، وإلى **عيسى** فكم أقام ميتاً من حُفرته، وإلى **محمَّدٍ** ﷺ فخصَّه ليلةَ المعراج برؤيته.

---

(١) **خُزامى**: نبات طيب الرائحة.

(٢) **الوُرْق**: جمع ورقاء: وهي الحمام التي في لونها بياض إلى سواد.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) **عاد** الأولى: رجع. و**عاد** الثانية: اسم قبيلة، وهم قوم هود عليه السلام.

(٥) القول بأن إسحاق عليه السلام هو الذبيح رأي ضعيف، والمعتمد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لقوله ﷺ: «**أنا ابن الذبيحين**» رواه الحاكم في المستدرك وصححه، وأيَّده الذهبي، ورواه ابن جرير وابن مردويه والثعلبي في تفاسيرهم.

(٦) **حبيبه مع حبيبته**: حبيبه ولده يوسف عليه السلام، وحبيبته عينه التي ابيضَّت حزناً.

(٧) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤].

(٨) **لركضته**: إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [صٓ: ٤٢].

وأعْرَضَ عن **إبليسَ** فخَزِيَ ببعده ولعنته، وعن **قابيل** فقلب قلبه إلى معصيته، وعن **نمرودَ** فقال: أنا أحيي الموتى ببلاهته، وعن **فرعونَ** فادَّعى الربوبيةَ على جرأته، وعن **هامانَ** فأينَ رأيه يوم اليمِّ في وِزارته؟! وعن **قارونَ** فخرجَ على قومِه في زينته، وعن **بلعامَ**[1] فَهَلَكَ بلْ عَامَ في بحر شِقوته، وعن **برصيصا**[2] فلم تنفعْهُ سابقُ عبادتِه، وعن **أبي جهلٍ** فشَقِي مَعَ سعادةِ أُمِّهِ وابنِه وابنته، هكذا جرى تقديرُه من يوم «**لا أبالي**»[3] في قسمته، ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

* * *

---

(١) **بلعام**: هو بلعام بن باعوراء أحد علماء بني إسرائيل. انظر: ص٢٠٣ من هذا الكتاب.

(٢) **برصيصا**: أحد عباد بني إسرائيل. انظر: ص٧٥ من هذا الكتاب.

(٣) يشير إلى قوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «**هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**» رواه الإمام أحمد في: المسند: ٥/ ٢٣٩.

الفَصْلُ الثَّانِي

في قوله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الصف: ٩]

نذكر فيه فضل نبينا محمد ﷺ

لم يزل ذكرُ نبينا ﷺ مشهوراً[١] وهو في طَيِّ العدم، توسَّلَ به آدم[٢]، وأُخِذَ له ميثاقُ الأنبياءِ على تصديقِهِ، في بعضِ دَرْسِهِ عِلْمُ إدريس، في ضِمْنِ وُجْدِهِ حزنُ يعقوبَ، في سرِّ جِدِّهِ صبر أيوب، في طيِّ خوفِهِ بكاءُ داودَ، بعض غنى نفسِهِ يزيدُ على ملك سليمان، عَبَر بعدَ خُلِّ خِلال الخلَّة للخَليل، ونال تكليم موسى، واسترجحَ له النظر عندَ قابَ قوسين، فهو جُملَةُ الجمالِ، وكلُّ الكمال، وواسطةُ العِقْد، وزينةُ الدهر، يزيدُ على الأنبياء زيادةَ الشمسِ على البدر، والبحرِ على القَطْرِ، فهو صدرُهم وبدرُهم، وعليه مدارُ[٣] أمرهم، قُطْبُ فَلَكِهم، وعينُ كتيبتِهم، وواسطة قلادتهم، نَقْشُ فَصِّهِم، بيتُ قصيدتِهم، حاتِمُهم، خاتِمُهم:

شَمْسُ ضُحَاهَا هِلالُ لَيْلَتِهَا ... دُرُّ مَقَاصِيْرِهَا زَبَرْجَدُهَا

لَمَّا رأى تخليطَ قريشٍ في دعوى الشرك فَرَّ في بادية الهرب، فتحرَّى غارَ حِراء في الفِرار للفراغ، فراغٍ إليه فجاءَ مُزاحِمُ (**اقرأ**): يا راهبَ الصَّمْتِ تكلَّمْ،

---

(١) في (ب): منشوراً.

(٢) حديث توسل آدم بالنبي ﷺ أخرجه الحاكم في المستدرك، وصححه: ٢/ ٦٥١؛ والسيوطي في الخصائص، وصححه؛ والبيهقي في دلائل النبوة، وصححه؛ والقسطلاني والزرقاني في شرح المواهب اللدنية: ٢/ ٦٢؛ والسبكي في شفاء الأسقام؛ ورواه الطبراني في الأوسط، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٥٣؛ وذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٢/ ١٥٠.

(٣) في (ب): يدور.

قال لسانُ العجزِ البشريِّ: «لستُ بقارئ»[1]، فحُمَّ لما حُمَّ[2] فزمزَمَ بلفظ «زمِّلوني» فصاح الملك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ [المزمل: ١].

يا أطيبَ ثمار (كُن)! يا محمولاً عليه ثقلَ ﴿ قُمِ ﴾ [المزمل: ٢].

لما بَعَثَ المَلِكُ المَلَكَ إلى نبيِّنا برسالة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق: ١] فترَ الوحيُ بعدَها مدَّةً، مَدَّ قوسُ الشوق، فَرَمَتِ الكَبْداءُ[3] الكَبِدَ بكَبَدٍ[4] أعجزَ المكابدَة، فكانَ يَهُمُّ لِمَا يَلقى بإلقاءِ نفسِه من ذروةِ الجبلِ[5]، فإذا بدا له جبريلُ بَدَا له[6].

ثم رُميت الشياطينُ عند مبعثِه بأسهمِ الشُّهُبِ عن قوس ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصافات: ٨]، فمروا إلى المغاربِ، ومَشَوْا إلى المشارق، ليقطعوا سببَ السببِ، فجرتِ ريحُ التوفيقِ، بمراكبِ بعضهم إلى تهامة، فصادفوه في الصلاة، فصادَ فُوه[7] قلوبَ القوم، فصاحت ألسنة الوُجْد: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١].

تحـرَّكَـتْ لتعظيمِـه السـواكـنُ[8]، فحـنَّ إليـه الجـذعُ[9]، وسبَّـحَ

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي، وتفسير سورة العلق (١)، في باب الإيمان، ص٢٥٢؛ والإمام أحمد: ٦/ ٢٢٣ بلفظ «ما أنا بقارئ».

(٢) **فحُمَّ لمَّا حُمَّ**: فحم: أصابته الحمى، حُمَّ: أي لما قُدر نزول جبريل عليه السلام.

(٣) **الكبداء**: القوس يملأ الكفَّ مَقْبِضُها، وقيل: قوس شديدة.

(٤) **كبَد**: المشقة والمعاناة.

(٥) رواه البخاري في كتاب التعبير، باب أول ما بدئ بـه الرسول ﷺ من الوحي الرؤية الصالحة، وهو من بلاغات الزهري، وليس موصولاً، انظر كتاب: محمد رسول الله، لمحمد صادق العرجون: ١/ ٤٤٦ ـ ٤٨٥، ففيه تفصيل وافٍ حول هذه الحادثة.

(٦) **بدا** الأولى: ظهر، **بدا** الثانية: من البداء أي عنّ له أمر آخر.

(٧) **فوه**: فمه، أي: ما كان يتلوه من القرآن.

(٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فدنا منه أعرابيٌّ، فقال له: «**يا أعرابي! أين تريد؟**» قال: إلى أهلي، قال: «**هل لك إلى أهلٍ خيرٍ من أهلِك؟**» قال: وما هو؟ قال: «**تشهد أنْ لا إلـٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه**» قال: من يشهد على ما تقول؟ قال: «**هذه الشجرة السَّمُرَة**» أو «**هذه السَّلَمة**» وهي بشاطئ الوادي، فأقبلتْ تخدُّ الأرضَ حتى قامتْ بين يديه.

(٩) في الصحيحين: عن جماعة من الصحابة قالوا: «كان المسجدُ مسقوفاً على جذوع من=

الحصى[1]، وتزلزلَ الجبلُ[2]، وتكلَّم الذِّئبُ[3]، «كلٌّ كَنَّى عن شوقه بلغته»
فَمَرِضَتْ قريشٌ بداءِ الحَسَدِ، فقالوا: مجنونٌ.

يا محمدُ! هذا نَقْشُ يَرَقانِهم[4] لا لونُ وجهِك، لما أَخَذَ في سفرِ

= نخل، وكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم على جذعٍ منها، فلمَّا صُنِعَ المنبر، وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ـ من الإبل ـ حتى جاء النبيُّ ﷺ فوضع يده فسكنَ، وفي رواية أنس: «حتى ارتجَّ المسجدُ لشدَّة خُواره» وفي رواية سهل بن سعد: «وكثر بكاءُ الناس» وفي رواية المطَّلب بن أبي وداعة: «حتى انشقَّ الجذعُ». فقال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ هذا بكى لِمَا فَقَدَ من ذِكْرِ الله تعالى»** ثم أمر به النبي ﷺ فدفنَ تحت المنبر، والخبر في صحيح البخاري: ٤/ ٢٣٧، (٦١) كتاب المناقب، (٢٥) علامات النبوة؛ وفي سنن الترمذي: ٥/ ٢٥٤، أبواب المناقب (٢٨)، الحديث (٣٧٠٦)؛ ودلائل النبوة، للأصبهاني، ص١٤٢ ـ ١٤٣؛ والخصائص، للسيوطي: ٢/ ٧٥ ـ ٧٦.

(١) عن الحسن: أنَّ أنس قال: «تناول النبيُّ من الأرض سبعَ حصياتٍ، فسبحنَ في يده، ثم ناولهنَّ أبا بكر فسبحنَ كما سبحنَ في يد النبيِّ ﷺ، ثم ناولهنَّ عمرَ فسبحنَ في يده كما سبحنَ في يد أبي بكر، ثم ناولهنَّ عثمانَ فسبحنَ في يده كما سبحنَ في يد أبي بكر وعمرَ». أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٩٨ باب تسبيح الحصى، وقال بعد أن أورد أحاديث: رواه البزَّار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات.

(٢) عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ صعد أُحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجفَ بهم، فقال رسول الله ﷺ: **«اثبتْ أُحُدُ، فإنَّما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان»** رواه البخاري (٣٦٩٩)؛ ورواه الترمذي في المناقب: ٥/ ٣٧١٠ وقال: حسن صحيح.

(٣) الحديث في: دلائل النبوة، للأصبهاني: ١/ ١٣٢؛ والشفا: ١/ ٢٠٤؛ وشمائل الرسول، لابن كثير، ص٢٧٣؛ وفي الخصائص: ٢/ ٦١، وقد جاء بروايات؛ منها: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما راع يرعى غنماً له، إذ عرض الذئبُ لشاةٍ منها، فأخذها، فأدركه الراعي، فاستردَّها منه، فأقعى الذئبُ، وقال للراعي: ألا تتقي الله تعالى، حُلْتَ بيني وبين رزقي! قال الراعي: عجبٌ لذئبٍ يتكلَّم (بكلام إنسان)! فقال الذئبُ: أنتَ أعجبُ مني واقفاً على غنمك، وتركتَ نبيّاً لم يبعثِ الله نبيّاً قط أعظمَ منه قَدْراً عنده، قد فُتِحَتْ له أبوابُ الجنَّة، وأشرفت الحورُ العينُ على أصحابه ينظرون قتالهم، وما بينك وبينهم إلا هذا الشِّعْبُ، فتصير من جنود الله تعالى (وكان ذلك يوم أحد) قال الراعي: فمن لي بغنمي؟ قال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع. فمضى الرجل ووجد النبيَّ ﷺ يقاتل، فأسلمَ، وأخبره الخبرَ، فقال النبيُّ ﷺ: **«قم فحدِّثهم»** ثم قال له: **«عُدْ إلى غنمك تَجِدْها بوفرها»** فرجع فوجدها كذلك، فذبح للذئب شاةً منها».

(٤) هذا مثل يُضرب للذي يرمي غيره بمرض نفسه، فكأنه يقول: إن وجوههم الصُّفْرَ مِنْ =

﴿أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] فانتقل إلى المسجد الأقصى، بَرَزَ إليه عبّادُ الأنبياء من صوامعهم، فاقتدَوْا بصلاةِ راهبِ الوجودِ، ثم خَرَجَ فعَرَجَ، فعُرِضَتْ عليه الجنةُ والنارُ، حتى عَرَفَ الطبيبُ عقاقيرَ الأدويةِ، قبلَ تركيبِ الأدويةِ، يا لها من ليلةٍ، فَلَّ عُرْفَ[1] حَدِّ سيفِ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، ظنَّتِ الملائكةُ أنَّ الآياتِ تخصُّ السماءَ[2]، فإذا آيةُ الأرضِ قد عَلت.

أقبلتْ رؤساءُ الأملاك، تحيّي الرئيسَ الأكبرَ، فرأى في القومِ مَلكاً، نصفُه من ثلجٍ، ونصفُه من نارٍ[3]؛ فَعَجِبَ لاجتماع الضدَّينِ، قيل: لا تعجبْ، فعندك أعجبُ منه، لَوْ وُزِنَ خَوْفُ المؤمنِ ورجاؤُه لاعتدلا.

كان جبريلُ دليل البادية، فلمَّا وصلَ إلى مفازةٍ ليس فيها عَلَمٌ يعرفُه[4]،

= مرضِ اليرقان انطبعت بمرآة وجهك الصافي. فاتهموا وجهك بالصفرة، وإنما تلك صفرةُ وجوههم، يعني هم المجانين لا أنت.

(١) **عُرف**: ما علا وارتفع.

(٢) في (ب): تختص بالسماء.

(٣) روى الديلمي عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى ملكاً نصفُ جسده الأعلى ثلجٌ، ونصفُه الأسفلُ نارٌ، ينادي بصوت رفيع له: سبحان الله الذي كفَّ حرَّ النارِ، فلا تذيبُ هذا الثلجَ، وكفَّ هذا الثلجَ فما يطفِئُ حرَّ هذه النار، اللهم يا مؤلِّفَ بين الثلج والنار ألِّف بين قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك**». انظر: كنز العمال (١٥١٧٤).

(٤) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**فتر الوحي عَنِّي فترةً، فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري قِبَلَ السماء، فإذا أنا بالملك الذي أتاني في غارِ حِراء على سرير بين السماء والأرض، فجبنتُ منه فرقاً، حتى هويتُ إلى الأرض، فأتيتُ خديجة فقلت: دثِّروني دثِّروني، فدُثِّرتُ، فجاء جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر]**».
وروى البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي ما يتعلّق بمجيء جبريل عليه السلام، وقول السيدة خديجة للرسول ﷺ حين خاف على نفسه، وذهابه إلى وَرَقة بصحبة خديجة، ثم ختمه بقوله: «**ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحيُ**».
وجاء في كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم آمين.. برقم (٣٠٦٦): عن جابر بن عبد الله: أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «**ثم فتر عني الوحيُ فترةً، فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء، قاعدٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني**» فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وجئثت: رُعبت. =

عَلِمَ ابنُ أجودَ[1] أنَّ الصِّدْقَ أجودُ، فقال: ها أنت وربك. فإذا قامتِ القيامةُ؛ فموسى صاحبُه، وعيسى حاجبُه، والخليلُ في عَسْكرِه، وآدمُ ينادي بلسان حاله: يا ولدَ صورتي، ويا والدَ معناي، ما صَعِدَ من بحورِ الأكوانِ أشرفُ مِن دُرَّةِ نبيِّنا ﷺ، طُرَّةُ[2] غرتِه أحسنُ من جمال يوسفَ، لعابُ فِيهِ[3] أشفى من البَرْءِ، شمسُ شرعِه لا يدركُها كسوفٌ ناسخٌ، قمرُ دينِه لا يدخُل في مَحاقٍ.

كلُّ الأنبياءِ تقولُ في يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو يقول: أمتي أمتي، فإذا سَجَدَ، قيل: «**ارفعْ رأسَك، وقلْ تُسْمَعْ**»[4].

كم بَيْن ذلِّ محبٍّ وإدْلال محبوبٍ، الحيواناتُ تَذِلُّ في طلَبِ القوتِ، والفيلُ يُتملَّقُ حتى يأكلَ.

يا مَنْ هو في جملةِ جنودِ هذا الشجاعِ[5]، أَيَحْسُنُ بِكَ كلَّ يوم هزيمة؟! لولا

= ورواه مسلم في الإيمان، بدء الوحي، برقم (١٦٠)؛ والإمام أحمد في: المسند، واللفظ المثبت أعلاه ورد في: زيادة الجامع الصغير، للسيوطي، برقم (٢٢٢٨)؛ والطيالسي.

(١) **ابن أجود**: الدليل: وأراد بابن أجودَ هنا جبريل.

(٢) **طرة**: جانب.

(٣) **فيه**: فمه.

(٤) ورد من حديث أنس رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة، ماجَ الناسُ في بعضٍ، فيأتون آدمَ فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيمَ، فإنه خليلُ الرحمن، فيأتون إبراهيم عليه السلام...**» وذكر تنقل الناس بين الأنبياء حتى أتوا رسول الله ﷺ فيقول: «**أنا لها، فأستأذنُ على ربي، فيؤذَنُ لي، ويلهمني محامد أحمده بها بمحامد لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ له ساجداً، فيقول: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يُسمعْ لك، وسل تعطَ، واشْفَعْ تُشفَّع، فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي، فيقال: انطلق، فأُخرجُ منها مَنْ كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان**» الحديث بطوله بروايات أنس، أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، وباب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ: ٧٥]، وباب قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وفي تفسير سورة البقرة، باب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وفي الرقاق، باب صفة الجنة والنار؛ وأخرجه مسلم في الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤)؛ وانظره مع شرحه في: فتح الباري: ١١/ ٤١٧ـ٤١٨و١٣/ ٤٢٢.

(٥) يخاطب المؤمن الذي هو جندٌ من جنود هذا النبي الكريم الشجاع، فلا يليقُ به أن ينهزمَ=

جدُّ أصحابِه في جهادِهم، وشجاعتُهم في صفوفِ قتالِهم، لافْتُضحَ المتأخرون، فالحمدُ لله على البُزَّلِ[1]، كانوا بالليل رهباناً، وبالنهارِ فرساناً، قطعَ الرسولُ ﷺ طَمَعَ مَنْ طَمِعَ في لَحاقهم بحُسام «**ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ**»[2]، وكيف تُنالُ مرتبةُ الصدِّيقِ لشيءٍ وقرَ في صدره؟! أو منقبة المهيبِ[3] والعدوُّ يَفْرَقُ مِنْ ظله؟! أو مقام الوقور[4] فالملائكة تَسْتَحْيي منه؟ أو فضيلة مزاحمِ[5] الروح[6] **في منزلةِ كهارون من موسى**[7].

يئسَ واللهِ الكُهولُ من مقارنةِ سَيِّدَيْ[8] كُهولِ أهل الجنةِ، كما لم تطمعِ الشبابُ في مُزاحمة سيّدَي[9] شباب أهلِ الجنَّةِ، متى التهبَتْ في صحابةِ الأنبياءِ عزيمةٌ كحُمْرَةِ جمرَةِ حمزة؟! أو علا على العُلا كعُلى علي؟! لقد فازَ بلقبِ الصدقِ طلحةُ الجود، كما سَعِدَ بالفَضْلِ «**حَواريّ**» الزبيرُ، وسما بصلاة النبيِّ ﷺ خلفَه ابنُ عوف، كما قرَّت بلفظِ «**فداكَ أبي وأمي**»[10] عينُ سعدٍ، ونجا بالشهادةِ له بالجنَّة سعيدٌ، كما عزَّ ابنُ الجرَّاحِ بلقبِ الأمين، ولم يُذكر في القرآن باسمه غيرُ زيدٍ، وأينَ في الموالي مثل سالم مولى أبي حذيفة وسلمان؟! ومَنْ في الزُّهَّادُ كمصعبٍ وابن مظعون؟! وإنه لَمَسْعودٌ عبدُ الله بنُ مسعود، وطوبى ثم طوبى لخَبَّاب وصُهَيْبٍ، ويا شرفَ المؤذنين بصوت بلالٍ، ويكفي فخراً «**كوني برداً**

= أمامَ شهوتِه وعدوِّه.

(١) **البزّل**: مفرده بازل: الرجل الذي كملت تجربته. ويقصد الصحابة.

(٢) متفق عليه.

(٣) **المهيب**: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، **والعدو** ههنا هو الشيطان.

(٤) **الوقور**: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٥) مزاحم **الروح**: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) في (ب): النفس.

(٧) يشير إلى الحديث الذي قاله النبي ﷺ يوم خرج إلى تبوك وخلَّفَ علياً على المدينة: «**أنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنَّه لا نبيَّ بعدي**» وهو في الصحيحين.

(٨) أراد حمزة والعباس.

(٩) أراد الحسن والحسين.

(١٠) قالها لسعد بن أبي وقاص في حديث رواه الترمذي، كما قالها للزبير بن العوام كما في: البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير (١٢)؛ وفي مسلم، برقم (٢٤١٦).

لعمار»[١] ، وأيُّ بيتٍ يشبِهُ بيتَ أبي أيوب، ومَنْ زَيْنُ القراء إلا أُبيُّ بن كَعْب؟! ومَنْ في النقباءِ كابن زُرارةَ وابن الرَّبيع؟! وأنَّى للفقهاء مثلُ معاذٍ؟! ومَنْ له زُهْدٌ كزُهْدِ أبي ذَرٍّ؟! والفخر لبني هاشم بالعباس، وكَفَى للبُصَراءِ قائداً ابنُ أم مكتوم، وإنَّه لقدوةُ المُؤْثرين أبو الدحداحِ، ومَنْ في قُوَّام الليل مثل تميم؟! ومن صَبَرَ على القتلِ صَبْرَ خُبيب؟! كلُّهم أخيار، وجميعهم أبرار، ولا مثل صاحبِ الغارِ[٢]، وأينَ نظيرُ فُتَّاح الأمصار[٣]؟! ومن يُشْبِهُ قَتِيْلَ الدارِ[٤]؟! ولقد افْتقروا إلى المجاهدِ بذي الفقار[٥]، بحب هؤلاء تُرجى الجنَّةُ، وتُتَّقى النارُ.

إنَّ الله تعالى لما حلَّى محمداً ﷺ حِليَةَ التنزُّه، خلعَ عليه خِلْعَةً هي الإسلام، وأعطاه منشوراً هو القرآن، ولواءً هو النصرُ، فأبو بكر صَدَّق النبوة، وعمر أظهر الرسالة، وعثمان جمعَ المنشور، وعليٌّ حمل السيف.

لما جلَّى الرسول ﷺ عروسَ الإسلام، ولم يكن بدٌّ من نثَار، نثر عُمَرُ نصفَ ماله، فرمى أبو بكر الكُلَّ، فقام عثمانُ يُجهِّزُ جيشَ العُسْرةِ بوليمة العُرْس، فعلمَ عليٌّ حال الغَيْرة، فبتَّ طلاق الضُرَّةِ، ثم رأى بعضَ جَهازِ الدنيا المطلَّقة عنده. وهو الخاتم. فسلَّم[٦] وما سلَّم:

خَطُّـوا وأقـلامُهـم خَطِّيَـةٌ سُلُـبُ ... فهـمُ علـى الخَيْـلِ أُمِّيُّـونَ كُتَّـابُ
إنْ أَحْسَنـوا كَلِمـاً واخلَـوْلَقُـوا ذِمَـماً ... واخْشَـوْشَنُـوْا شِيَمـاً فـالقـومُ أَعْـرَابُ

* * *

---

(١) رواه ابن عساكر وتكملته: «**كما كنت على إبراهيم، تقتلك الفئة الباغية**». انظر: كنز العمال (٣٣٥٦١).

(٢) أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٥) علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) يعني سلم الخاتم للسائل في ركوعه، ولم يسلّم في صلاته. وهي القصة التي نزلت بها: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وهي قصة مكذوبة. انظر: روح المعاني، للآلوسي، عند تفسير هذه الآية.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]

لمَّا تكاملَ بناءُ البيتِ أرسلَ الله تعالى إلى خليله: أدِّ[١] رسالةَ ﴿وَأَذِّن﴾ [الحج: ٢٧]، فَعَلا على أبي قُبَيْس[٢]، ونادى في جميع الوجوهِ[٣]: إنَّ ربَّكم قد بنى لكم بيتاً فحُجُّوه، فأجابَ مَنْ جرى القدرُ بِحَجِّه: «لبيك اللهم لبيك» فكانَ ذلك اليومُ أخاً ليومِ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]:

لمَّـا رأيـتُ مُنـادِيْهِـم ألـمَّ بِنَـا ... شَـدَدْتُ مِئْـزَرَ إِحْـرَامِـي وَلَبَّيْـتُ
وَقُلْتُ للنَّفْسِ: جُدِّي الآنَ واجْتَهِدِي ... وسـاعِـدِيني فهـذا مـا تَمَنَّيْـتُ
لو جِئْتُكُم قاصِداً[٤] أسعَى على بَصَرِي ... لَـمْ أَقْضِ حَقّاً، وأيَّ الحقِّ أَدَّيْتُ؟

قَطَعَ القومُ بِيدَ السفر ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]، فوافقتهم الركابُ ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]:

دَعِ المَطَـايـا تَنْسُـمُ الجَنـوبـا ... إنَّ لهـا لـنَبَـأً عَجِيْبـا
حَنِيْنُهـا وَمَـا اشتكَـتْ لُغُـوبـا ... يشْهَـدُ أنْ قـدْ فـارَقـت حَبِيْبـا
مـا حَمَلَـتْ إلا فَتًـى كئيبـا ... يسِـرُّ مِمَّـا أعلنَـتْ نَصِيْبـا
لـو غـادرَ الشَّـوْقُ لنـا قلُـوبـا ... إذنْ لآثـرنـا بهـنَّ النِّيبـا[٥]
إنَّ الغـريـبَ يُسْعِـدُ[٦] الغَـرِيبـا

---

(١) في (أ): أذن.

(٢) **أبو قبيس**: جبل بمكة.

(٣) في (ب): الوجود.

(٤) في (ب): زائراً.

(٥) **النيبا**: النوق المسنة.

(٦) **يُسعد**: الإسعاد في المناحات، هو أن تقومَ المرأةُ فتقومَ معها أخرى من جاراتها، =

واعجباً مِنْ حنينِ النُّوقِ، كأنَّها قَدْ علمَتْ وَجْدَ الرُّكَّابِ، تارةً تَجُدُّ في السَّيرِ، [وتارَةً تتوقَّفُ][1]، وتارةً تَذِل وتُطأْطِئُ الأعناقَ، وتارةً تَمْرَحُ، كأنَّها قد استعارَتْ أحوالَ العارفين:

ذَكَّراهـا فـي سُـراهـا مـا عَـرَاهَـا ... فَغَـدَتْ تَنْفُـخُ شَـوْقـاً فـي بُـراهـا[2]
تقطـعُ البـرَّ وتَنْسَـى مـا جَنَـى ... سَيْـرُهـا والسَّيْـرُ أمْـرٌ قَـدْ بَـراهـا
كلَّمـا قـالـتْ[3] مِنِّـى قَـدْ قَـرُبَـتْ ... وَتَـدَانَـتْ دارُهـا طـارَ كَـرَاهـا[4]
أَسْعِـدَاهـا يـا خَليلـيَّ عَلَـى ... مـا دَعَـاهـا فـي الهَـوى أو دَعـاهـا
كَـرْبُهـا مـا زَالَ مِـنْ عَهْـدِ الصِّبَـا ... خَلِّيَـاهَـا والصَّبـا[5] فهُـوَ رضـاهـا
غَنِّهـا يـا أيُّهـا الحـادِي لَهَـا ... بالحِمَى أو بالنَّقا وانْظرْ سُرَاهَا[6]
نَـحِّ عنهـا السَّـوْطَ يَكْفِـي شَـوْقُهـا ... قَـدْ رأتْ فـي نَفْسِهـا مـا قَـدْ كَفَـاهـا
بـاعَهَـا الـوجْـدُ بِكُثبـانِ النَّقَـا ... عَجَبـاً إذ بـاعَهَـا كيـف اشْتَـرَاهَـا
أَتُـراهـا عَلِمَـتْ مَـنْ حَمَلَـتْ ... لَيْتَهـا قَـدْ عَـرفـتْ مَـنْ فـي ذُراهـا
أنـتَ إنْ لاحَـتْ لـك الأعـلامُ قِـفْ ... فهِـيَ المطلـوب[7] لا شَـيْءٌ سِـواهـا
يـا رفيقـيَّ أهـذي[8] دارهـم ... ودِّعـانـي ودَعـانـي وَثَـراهـا
أنـا مقْتـولٌ بِسَهْـمِ غَـرِبٍ ... قَـوْسُـه خَيْـفُ مِنَـى أو مَـأْزِمـاهـا[9]
حُـرِّمَ الصَّيْـدُ علـى مَـنْ حَجَّـه ... فانظرا في مُهجتي مَنْ قَدْ رَمَاهَا
اُكْـتُبَـا فـي لَـوْحِ قَبْـرِي عِشتُمـا ... مُهْجَـةٌ مـاتَـتْ ومـا نـالـتْ مُنـاهـا

= فتساعدها على النياحة، وعموماً هو الإعانة والإنجاد والمؤازرة.

(١) زيادة من (ب).

(٢) **البرى**: جمع بُرَة: حلقة توضع في أنف البعير يقاد منها، فإذا جهده السير نفح فيها. القاموس (برو).

(٣) في (ب): ظنت.

(٤) **كراها**: نومها.

(٥) **الصّبا الأولى**: الحداثة، والثانية: الشوق.

(٦) **سراها**: سيرها ليلاً.

(٧) في (ب): المقصود.

(٨) في (ب): اهدياني.

(٩) **مأزِماها**: مثنى: مأزم، وهو موضع بين المشعر الحرام في مزدلفة وعرفات.

أُمِرَ المُحْرِمون بالتعرِّي، ليدخلوا بِـزِيِّ الفقراء، فيبين أثر ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]:

مَـنْ أعلـمَ السـائِـقَ العنيـفَ بِـهِـمْ ... بـأنَّ رُوْحِـي تُسَـاقُ مَـعَ إبِلِـهْ
وَأَنَّ دَمْعِـي يَـرْوِي رَكـائِبَهـم ... لـولا دَمٌ فـي انسكـابِ مُنهَمِلِـه

تَالله لقد جمعوا الخيرَ ليلةَ جَمْعٍ[1]، ونالُوا المُنَى إذا دخلوا مِنًى:

للهِ دَرُّ مِنًـى ومـا جَمَعَـتْ ... وَبُكـا الأحبَّـةِ لَيْلَـةَ النَّفْـرِ
ثـم اغتَـدَوْا فِـرَقـاً هنـا وهنـا ... يتـلاحَظُـوْنَ بـأعيـنٍ ذُكْـرِ
مـا للمضـاجِـعِ لا تُـلائِمُنـي ... كـأنَّ قلبـي ليـسَ فـي صَـدْرِي

حجَّ جعفرُ الصادقُ، فأرادَ أن يلَبِّيَ فتغيَّرَ وجهُهُ، فقيل له: ما لكَ يا بنَ رسول الله؟ فقال: أريدُ أن ألبِّي فأخافُ أنْ أسْمعَ غيرَ الجواب[2].

وقف مِطرف[3] وبكرٌ[4] بالموقف، فقال مطرف: اللهمَّ لا تَرُدَّهم مِنْ أجلي.

وقال بَكرٌ: ما أشْرَفَه مِنْ مقامٍ لولا أنِّي فيهم.

وقام الفضيلُ بن عياض بعرفة، فشغلَه البكاءُ عن الدعاء، فلمَّا كادَتِ الشمسُ تغرُبُ قال: واسَوْأتاه مِنْكَ وإنْ عَفوتَ.

وقفَ بعضُ الخائفين على قَدَمِ الإطراق والحياءِ، فقيلَ له: لم لا تدعو؟ فقال: ثَمَّ[5] وحشةٌ.

قيل: هذا يوم العفو عن الذنوب.

فبسطَ يدَه فوقعَ ميتاً.

---

(١) **ليلة جَمع**: ليلة مزدلفة.
(٢) يشير إلى من يقال له: لا لبيك ولا سعديك.
(٣) **مطرف** بن عبد الله.
(٤) **بكر** المزني.
(٥) **ثمّ**: هناك.

وانـــزلِ الـــوادي[1] بـــأيمنِـــهِ إنَّـــه بـــالـــدَّمـــعِ مَـــلآنُ
وارمِ بـــالطـــرفِ العقيـــقَ[2] فلـــي ثَـــمَّ أوطـــارٌ وأوطـــانُ
وانشُـــدِ القلـــبَ المَشُـــوْقَ عسَـــى يُـــرْجِـــعُ المفقـــودَ نُشـــدانُ
وابْـــكِ عنِّـــي مـــا استطعـــتَ إذا مـــا بَـــدَا للطَّـــرْفِ نَعْمـــانُ[3]
واقْـــره عنـــي الســـلامَ فسكـــا نُ قلبـــي فيـــهِ سكـــانُ
لا تـــزدنـــي يـــا عـــذولُ جَـــوًى أنـــا بـــالأشـــواقِ سكـــرانُ

حَجَّ الشبْليُّ، فلمَّا رأى مكَّةَ قال:

أبطحـــاءَ مكَّـــةَ هـــذا الَّـــذي أراهُ عِيـــانـــاً وهـــذا أنـــا

ثم غُشيَ عليه، فلما أفاقَ قال:

هـــذهِ دارُهُـــمْ وأنـــتَ مُحِـــبٌّ مـــا بقـــاءُ الـــدُّمـــوعِ فـــي الآمـــاقِ

حجَّ قومٌ من العُبَّادِ فيهم عابدةٌ، فجعلتْ تقولُ: أينَ بَيْتُ ربِّي؟ أينَ بَيْتُ ربي؟ فيقولون: الآن تريْنَه:

إذا دَنَـــتِ المنـــازِلُ زادَ شَـــوْقِـــي ولا سيمـــا إذا دَنَـــتِ الخِيـــامُ

فلمَّا لاحَ البيتُ، قالوا لها: هذا بَيتُ ربِّكِ، فخرجتْ تشتدُّ وتقول: بيتُ ربي، بيتُ ربي، حتى وضعت جبهتها[4] على البيت، فما رُفِعَتْ إلا ميتةً.

هـــاتيـــكَ دارُهُـــمُ وهـــذا مـــاؤهُـــمْ فاشْرَبْ وزِدْ[5] وَشَرِقْتَ[6] إن لم تَسْقِني

---

(١) **الوادي**: وادي مكة.
(٢) **العقيق**: وادي بالقرب من المدينة مشهور بمائه.
(٣) **نَعمان**: جبل في عرفة.
(٤) **في (أ)**: جبينها. **والجبهة**: ما بين الجبينين.
(٥) **في (ب)**: فاحبس ورد.
(٦) **وشرقت**: الجملة دعاء عليه أن يشرق، والشَّرَق: الغصة بالريق أو الماء، فلا يقدر على إساغته وابتلاعه.

أودعتُ إقرارَك يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الحجرَ الأسودَ، وأمرْتُك بالحج لتستحيي بالتذكر[1] من نقضِ العهدِ.

الحجَرُ صُندوقُ أسرارِ المواثيقِ، مُشْتَمِل لما أملى المُعاهِدُ، مُشْتَمِلٌ على حِفْظِ العهدِ، فاستلِمْ المُسْتَلَمَ المشتمل ليُعْلَم أنَّ إقرارَك لا عَنْ إكراهٍ، لا تَنْسَ عهدي فإنِّي لا أنساكَ:

فـلا تحْسبُـوا أنِّـي نسيـتُ وِدَادَكُـم ... فإنِّي وإنْ طالَ المَدَى لستُ أنساكُمْ
حَفِظْنَـا وَضَيَّعْتُـم وِداداً وحُـرْمَـةً ... فلا كانَ مَنْ في الهَجْرِ[2] ذا اليومَ أَغْرَاكُم

كم شخصٍ أشْخَصَه[3] الوجْدُ إلى الحجِّ، فكادَت نَشابةُ المواثيقِ قَبْلَ تقبيلِه تقتلُه فلما قضى الناسِكُ المناسِكَ، ورجع؛ بقي سهمُ الشوق إلبه في قلب مِنى [المُنى][4]:

يكـادُ يُمْسِكُـه عِـرفـانَ راحتِـه ... ركـنُ الحطيـمِ إذا مـا جـاءَ يَسْتَلِـمُ

إخواني: ذِكْرُ تلكَ الأماكنِ يعمَلُ في القلبِ قبلَ السَّمْعِ، لأنَّها قد خُلِقَتْ من طينِ الطَّبْعِ. لِسَلَعٍ[5] سَلْعٍ لسعٌ ليس لعَسَلِ لُعْسٍ[6].

(لمهيار)[7]:

هـل مجـابٌ يـدعـو مبـدِّدَ أوطـا ... ري بِجَمْـعٍ يَـرُدُّ أيـامَ جَمْـعِ[8]
أو أميـنُ القُـوى أحمِّلُـه همّـاً ... ثقيـلاً يحطُّـه دُوْنَ سَلْـعِ

---

(١) في (ب): بالتذكير.
(٢) في (ب): في هجرنا.
(٣) **أشخصه**: أجاءه وسيَّره في ارتفاع وأزعجه.
(٤) زيادة من (ب).
(٥) **سلع الأولى بتحريك اللام**: شجر مرٌّ له شوك، والثانية بسكونها: جبل في المدينة.
(٦) **لُعس**: جمع لعساء، واللعَسُ: سوادٌ يعلو شفة المرأة البيضاء.
(٧) من قصيدة كتب بها إلى أبي منصور بن المزرع. انظر: ديوان شعره: ٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٧.
(٨) **أيام جمع**: أيام منًى.

فافرُجا لي عن نَفْحَةٍ مِنْ صبَاهُ ... طالَ مدًى لها الصليفُ[1] وَرَفْعِ
إنَّ ذاكَ النسيمَ يجري على أرضٍ ... ثراها في الرِّيحِ رُقْيةُ لَسْعِ
كَمْ زفيرٍ عَلِمَتْ منه حمامُ ... الدَّوْحُ ما كانَ مِنْ حنينٍ وسَجْعِ

وا حلل[2] المتخلِّفِ، وا أسفِ المسوِّف، أينَ حسراتُ التعبّدِ؟![3] أينَ لذعاتُ الوَجْدِ؟!.

(للخفاجي):

أتظنُّ الوُرْقَ[4] في الأَيْكِ[5] تُغنِّي ... إنَّها تَضمِرُ حُزْناً مِثْلَ حُزْنِي
لا أراكَ اللهُ نَجْداً بعدَها ... أيُّها الحادي بنا إنْ لمْ تُجِبْنِي
هل تُباريني إلى بَثِّ الجَوى ... في ديارِ الحيِّ نَشْوَى ذاتُ غُصْنِ
هَبْ لها السبقَ، ولكنْ زادُنا ... أنَّنا نبكي عليها وتُغنِّي
يا زمانَ الخَيْفِ هل مِنْ عودةٍ ... يسمحُ الدَّهْرُ بها مِنْ بعدِ ضَنِّ
أرضينا بَثَنيَّاتِ اللِّوى ... عن زَرُودٍ يا لها صفقةَ غَبْنِ
سَلْ أراكَ[6] الجِزْعِ هل مرَّتْ بِهِ ... مُزْنةٌ[7] رَوَّتْ ثراهُ غيرَ جَفْنِي
وأحاديثُ الغَضا هل علمتْ ... أنَّها تملِكُ قَلْبِي قبلَ أُذْنِي

وا عجباً لمن يقطع المفاوز ليرى البيتَ، فيشاهدَ آثارَ الأنبياءِ، كيفَ لا يقطعُ نَفْسَهُ عن هواها؟ ليصلَ إلى قلبِه فيرى آثار[8] «ويسعني»[9].

---

(١) **الصليف**: صفحة العنق.
(٢) في (ب): وا خجل.
(٣) في (ب): البعد.
(٤) **الورق**: جمع ورقاء: الحمام، مفردها: حمامة.
(٥) **الأيك**: الشجر الملتفّ الكثير.
(٦) **الأراك**: شجر الحمضِ يستاك به، فيه طول وخضرةٌ ونعومةٌ وكثرةُ أوراقٍ وأغصانٍ، خوَّار العود، يتخذ منه المساويك، واحدةُ الأراكِ: أراكةٌ.
(٧) **مزنة**: سحابة.
(٨) في (ب): آثاره يَسْتَغْنِي.
(٩) يشير إلى الأثر الإلـهي: «**ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلبُ عبديَ** =

(لمحمد بن أحمد الشيرازي) :

إليـكَ قَصْـدِيَ لا لِلْبَيْـتِ والأَثَـرِ ... ولا طـوافـيَ بـأركـانٍ ولا حَجَـرِ

صفاءُ دَمْعِي الصَّفا ليْ حينَ أَعْبُرُه ... وزَمْـزمـي دَمْعَـةٌ تجـري مِـنَ البَصَـرِ

عِـرْفـانُكُـمْ عَـرَفـاتِـي إذ مِنًـى مِنَـنٌ ... وموقفي وِقفةٌ في الخوفِ والحَذَرِ

وفيـكَ سَعْيـي وتعْميـري ومُـزْدَلَفـي ... والهَديُ جِسْمِيَ الذي يُغني عن الجُزُرِ

ومَسْجِدُ الخَيْفِ خَوفي مِنْ تباعُدِكُمْ ... ومَشْعَـري ومَقـامـي دونكـم خَطَـري

زادي رجائي لكم والشوقُ راحِلَتِي ... والماءُ مـن عَبَـراتي والهَوَى سَـفَرِي

* * *

= المؤمن» في كشق الخفاء: ٢/ ٢٧٣ ، قال العراقي في تخريج الإحياء: لم أرَ له أصلاً ، وقال ابن تيمية: مذكورٌ في الإسرائيليات ، وليس له سند معروف عن النبي ﷺ ، وانظر ما يوضح معناه في كتاب: الفوائد ، لابن القيم ، ص ٤٠ .

الفصل الرابع

إخواني، قد نمَّ إليكم أمرُ مَنْ قد نَمَى، وسامى[1] الوصالَ لوسامٍ[2] وسما[3]، وافتخرَ بالنَّسبِ النسيبُ[4] وانتمى، كيف بارزَه من أبرزَه[5] عن الحِمى، فباتَ بعد الريِّ يشكو الظما، وقد رأيتم ما جرى، فانظروا مثل ما.

(لابن المعتز):

يـــا نفـــسُ ويحـــكِ طـــالمـــا	أبصـــرْتِ مـــوعظـــةً، ومـــا
نفعتْـــكِ فـــاخْشَـــيْ وانتهـــي	وعليـــك بـــالتقـــوى، كمـــا
فعـــلَ الأنـــامُ[6] الصـــالحـــون	وبـــادري، فلـــربَّمـــا
سَلِـــمُ المبـــادِرُ، واحـــذري	يـــا نفـــسُ مِـــنْ سَـــوءٍ، فمـــا
خُـــدعَ الشقـــيُّ بمثلهـــا	إيـــاكِ منهـــا، كلَّمـــا
نـــاجَـــتْ مكـــايـــدُهـــا ضميـــرَ	كِ إنَّمـــا هـــي، إنَّمـــا
خَطَـــرتْ وكـــم قتلـــتْ	وأهلكـــتِ النفـــوسَ، وقلَّمـــا
تُغنـــي أمـــانيهـــا إذا	حَضَـــرَ الـــرَّدى، فكـــأنَّمـــا
لـــمْ يَجْـــنِ[7] مَـــنْ لاقَـــى منيـ	ـتَـــه فيـــا عجبـــاً أَمـــا
فـــي ذاك معْتَبَـــرٌ ولا	شـــافٍ يُبَصِّـــرُ مِـــن عَمَـــى
يـــا ذا المُنـــى يـــا ذا المُنـــى	عِـــشْ مـــا بـــدا لـــك ثـــم مـــا

---

(١) سامى: عالى وبارى.

(٢) في (ب): وصال الوسام.

(٣) سما: علا وارتفع وتطاول.

(٤) النسيب: الرجل الشريف المعروف نسبه وأصله.

(٥) يشير إلى وسوسة إبليس في إخراج آدم عليه السلام من الجنة.

(٦) في (ب): الإناس.

(٧) في (ب): يحي.

يا سكرانَ الهوى أما آن الصَّحْوُ؟! يا ساطراً[1] قبحَ الخلاف أما حان المحو؟!.

أين الراحلون؟! كانوا بالأمس، صحّت حُجّةُ الموتِ فبطلَتْ حركةُ[2] النفس، واعتقلهم حاكمُ البلى على دَيْنِ الرَّمس، [وكفَّ أكُفَّ الحِسِّ بعدَ تصرُّف آلة الخمس][3]، واستوعر عليهم الحصرُ، واستطالَ الحبسُ، وأصبحَتْ منازلُهم ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

يا قليل اللُّبث خَلِّ العَبثَ، كم حدَّث جَدثٌ في حَدَثٍ[4]؟! يا مُوْقِناً بالرحيل وما اكترث، اقبلْ نُصحي ولُمَّ الشَّعَث.

إذا نلتَ من دنياكَ خيراً فَفُزْ بِهِ ... فإنَّ لجمعِ الدَّهْرِ من صَرفه شتا
فكمْ مِنْ مُشَتٍّ لم يُصيِّفْ بأهله ... وآخرَ لم يدركهُ صَيْفٌ إذا شَتى

انتهبْ نِثَارَ الخيرِ في مكان الإمكان، قبل أن تدخلَ في خبر كان، قبل معاينة الهولِ المَخُوْفِ الفظيعِ، وتَلَهُّفِ المجدبِ على زمان الربيع.

إنَّما أهلُ هذه الدارِ سَفْرٌ، لا يحلُّون عُقَدَ الرِّكابِ إلا في غيرها، فاعجبوا لدارٍ[5] قد أدبرت، والنفوس عليها والهةٌ، والأخرى قد أقبلتْ، والقلوبُ عنها غافلةٌ.

والله لو كانتِ الدُّنيا بأجمَعِها ... تبقى علينا، ويأتي رزقُها رَغَدَا
ما كان مِنْ حَقِّ حُرٍّ أن يَذِلَّ لها ... فكيفَ وَهْي متاعٌ يَضْمَحِلُّ غَدَا

يا مُكرَّماً بحلْيَة الإيمان بعد حليةِ[6] الإيجاد، وهو يُخْلِقُها[7] في مخالفة

---

(١) **يا ساطراً**: أي يا كاتباً.

(٢) في (ب): حجة.

(٣) الأصابع الخمس، وما بين قوسين زيادة من (ب).

(٤) **حدّث جدث في حدث**: أي حدَّث القبر بلسان الحال عن أحداث من قُبر فيه.

(٥) **لدار**: أي لدار الدنيا.

(٦) في (ب): حلة.

(٧) **يخلقها**: يبليها.

الخالق، كم من نَعْمةِ نِعْمة[1] في تَرَفِ تَرِفٍ[2]، وما يخفُّ عليكَ ذِكْرُ شكرٍ.

يا عبدَ السُّوءِ! ما تُساوي قدر قُوتِك، لا كانتْ دابةٌ لا تَعْملُ بَعَلَفِها، إلى متى يَخْدَعُكَ المُنى؟! ويغرّكَ الأملُ؟!.

ويْحَكَ! افْتحْ عينَكَ، متى رأيتَ العقلَ يؤثِرُ الفاني على الباقي، فاعلم أنَّه قد مُسِخَ.

ما زالتِ الدُّنيا مُرَّةً في في[3] الغير، ولكن قد مرضَ ذوقُك.

لسانُ قلبك في عُقلةٍ[4] غفلةٍ، وسَمْعُ فَهْمِكَ مسدودٌ عنِ الفِطْنَةِ بِقُطْنَةٍ، وبَصَرُ بصيرَتكَ محجوبٌ بعَماء[5] عَمًى، ومزاجُ تقواك منحرِفٌ عن الصحةِ، وأما نبضُ الهوى فشديدُ الخفقان.

سارت أخلاطُ الأملِ في أعضاءِ الكسل فَتَثَبطتْ عن البِدارِ، وقد صارت المفاصلُ في منافذِ الفهوم سُدَداً، وما يسهلُ عليك شُربُ مُسهِلٍ.

ويحك اجتنب حلواء الشَّرَهِ فإنَّها سبب الحُمَّى الروح[6]، خَلِّ خَلَّ البُخلِ، فإنَّه يؤذي عصبَ المروءة.

إنْ عوجِلَتْ أمراضُك فعولجتْ، وإلا مَلَكتْ فأهلكتْ، لو احتميتَ عن الخطى[7] لم تحتج إلى طبيب.

من ركبَ ظهرَ التفريط نزل به دارَ الندامة، ألم تسمع أنَّ داودَ كان قد أُعطِيَ نِعْمةً نَعْمة [كان يقف لها الماء والطيرُ][8]، فامتدَّت يدُ الغفلةِ، فقدَّت قميصَ

---

(١) نَعمة نِعْمة: بكسر النون: ما أنعم به من رزقٍ ومالٍ، وبفتحها: الرفاهة وطيب العيش.
(٢) تَرَف ترِف: ترَف: مصدر ترِف أي تنعَّم، ترِف: كحذر صيغة مبالغة من ترِف.
(٣) في (الأولى): حرف جر، وفي (الثانية): الفم.
(٤) عُقلة: ما يُعْقَل به كالقيد.
(٥) في (ب): بعشا.
(٦) في (ب): حمى الروح.
(٧) في (ب): أخلاط الخطايا.
(٨) في هامش (ب): كان يقف لها الماء فلا يسير، والطير وقوف الأسير.

العصمةِ، فأثَّرَ زلَلُهُ حتى في التلاوةِ.

أعرضَ المعمارُ عن المراعاةِ، فتشعَّبَ منزلُ الصَّفا، وانقطعت جامكية[1] العسكر، فتفرَّقتْ جنود ﴿أَوِّبِي﴾ [سبأ: ١٠]، كان يؤتى بالإناء ناقصاً، فيتمُّه بالدموع[2].

(لمهيار)[3]:

مـا لـي شَـرِقْـتُ بمـاءِ ذي الأثَـلِ	هـل كـدَّرهُ الـوُرَّادُ مِـنْ قَبلـي؟
أمْ بـانَ سكَّـانٌ فـأملـحَ لـي	مـا كنـتُ قبـلَ البيـنِ أَسْتَحْلِـي؟
مـا ابيضَّ لـي فـي الـدَّارِ بَعْـدَهُـمُ	يـومٌ وَهَـلْ دارٌ بـلا أَهْـلِ؟
رحلـوا بـأيـامـي الـرقـاقِ علـى	آثـارِهـم وبعيشـيَ السَّهـلِ

كان عيشُ عيشه خَضِراً، فأحالتِ الحالَ سَنةُ الهجرِ، فكأنَّ أيامَ الوصلِ[4] كانت سِنَةً، فكاد يقطع باليأس، لولا التقاءُ الخَضِرِ بإلياس.

أَرَقـي قـد رَقَّ لـي مِـن أَرَقـي	وَرَثَـى لـي قلقـي مـن قلقـي
وبكـائـي مِـن بكـائـي قـد بكـا	وتَشكَّـت حُـرَقـي مـن حُـرقـي

كان داودُ إذا أراد النياحةَ، نادى مناديه في أنديةِ المحزونينَ، فيجتمعونَ في مآتم النَّدْبِ، فتزدادُ الحُرَقُ بالتعاونِ.

(للعباس بن الأحنف)[5]:

يـا بعيـدَ الـدَّارِ عـن وَطَنِـه	مُفـرَداً يبكـي علـى شَجَنِـه
كلَّمـا جَـدَّ النحيـبُ بـه	زادتِ[6] الأسقـامُ فـي بـدنـه

---

(١) جامكية: مرتب خدام الدولة من العسكر والموظفين.

(٢) المتَّفق عليه عصمة الأنبياء، وما جاء مما يخدش العصمة فهو مردود من الإسرائيليات الباطلة.

(٣) مطلعُ قصيدةٍ يهنِّئُ بها الوزير ابن ماكولا بالنيروز. انظر: ديوان شعره: ٣/ ٢٠٦.

(٤) في (ب): الوصال.

(٥) انظر: ديوان شعره، ص٢٧٨.

(٦) في الديوان: (دبت).

ولقــد زادَ الفــؤادَ جــوًى[1] هــاتِـفٌ يبكـي علـى فَنَنِـه[2]
شـاقَـهُ مـا شـاقنـي[3] فبكـى كلُّنـا يبكـي علـى سكَنـه

يا مذنبين! مصيبتُنا واحدةٌ:

وكـل غـريـبٍ للغـريـب نسـيبُ

يا مترافقين في سفر الطرد! انزلوا للنياحة في ساحة، اندبوا طيب أوطان الوصل، واستغيثوا من هجيرِ الهَجْرِ، لعلَّ الغمَّ ينقلبُ غمامةً تُظِلُّ مِنْ لفحِ الكَرْبِ.

(لمنصف):

أيـنَ فـؤادي أذابَـهُ البُعْـدُ وأيـنَ قلبـي أمـا صَحَـا بَعْـدُ؟
حَـدَا[4] بـذكـرِ العقيـقِ سـائِقُـهُ فطـارَ شـوقـاً بلُبِّـهِ الـوجـدُ
جسـمٌ ببغـدادَ ليـس يصحبُـه روحٌ، ورَوحٌ يضمُّهـا نجـدُ
يـا لفـؤادٍ مـا يستـريـحُ مـنَ الكـر بِ لـه كـلَّ لحظـةٍ وَقْـدُ[5]
آهِ لعيـشٍ قـد كنـتُ أصحبُـه لـو كـانَ يـومـاً لفـائـتٍ رَدُّ
أروحُ فـي حبِّكـم فَـوَا قلقـي وهكـذا أشتكـي إذا أغـدو
كلُّ زماني جَزْرٌ عن الوصل أشكو هُ فهـلاَّ تنـاوبَ المَـدُّ
يـا سعـدُ زدنـي جـوًى بـذكـرهـمُ يـا سعـدُ قـل لـي فُـديـتَ يـا سعـدُ
بلِّغهـمُ مـا أُجِـنُّ[6] مـن حُـرَقٍ[7] قـلْ وحـدِّثْ ببعـضِ مـا يبـدو
وقـلْ رأيـتُ الأسيـرَ فـي قلـقٍ وقـال: لـي حـرمـةٌ، ولـي عهـدُ
ثمَّـةَ فسلِّـمْ والأمـرُ أمـرُهـمُ يقـولُ مـولًـى، ويفعـلُ[8] العبـدُ

* * *

---

(١) في (ب): شجًى.

(٢) فننه: الفنن: الغصن.

(٣) في الديوان: (شقه ما شَقَّني).

(٤) حدا الإبل: زجرها وساقها وغنَّى لها لتسير.

(٥) وَقْدٌ: اشتعال.

(٦) أُجن: أخفي وأحبس.

(٧) حرق: جمع حرقة: وهي ما يجد الإنسان من لذعة الحب أو الحزن.

(٨) في (ب): يصمت.

الفَصْلُ الخَامِسُ

أيَّـتها النفسُ! تدبَّري أمرَكِ وتأمَّلي، ومَثِّلي بين ما يبقى وما يفنى ولا تَعْجَلي، لقد ضللتِ طريـقَ الهُدَى، فَقِفِي واسألي، وآثرتِ وَهْناً يؤرث وهناً[١] لا تفعلي، يا غمرةً من الشقا ما أراها تنجلي! أتَّبعُ الهوى؛ والهوى عليّ ليس لي، أريدُ حياةَ نفسي، ونفسي تريدُ مقتلي، يا جسداً قد بَلِي، بما قد بُلِي:

نَخْطُو ومَا خَطْوُنـا إلاّ إلـى الأجـلِ ... ونـنقضـي وكَـأنَّ العمـرَ لـم يَطُـلِ

والعيـشُ يـؤذِنُنَـا بـالمـوتِ أوَّلُـه ... ونحـنُ نـرغـبُ فـي الأيـامِ والـدُّوَلِ

يـأتـي الحِمـامُ فيُنْسِـي المـرءَ مُنْيَتَـهُ ... وأعضـلُ الـداءِ مـا يلهـي عـن الأمـلِ

لا تحسـبِ العيـشَ ذا طُـولٍ فتتبَعُـه ... يا قُرْبَ ما بين عُنْقِ المرءِ والكَفَلِ[٢]

ترخِي النوائبُ عن أعمارِنا طرفاً ... فتستقـرُّ وقـد أمسكـنَ بـالطِّـوَلِ[٣]

سَلـى عـن العيـش أنَّـا لا نـدومُ لـه ... وهَـوَّنَ المـوتَ مـا نلقَـى مـن العلَـلِ

لنـا بمـا ينقضـي مـن عمْـرِنـا شُغُـلٌ ... وكلُّنـا عَلِـقُ الأحشـاءِ بـالغَـزَلِ

ونَسْتلِـذُّ الأمـانـي وهـي مُـرْدِيـةٌ ... كشاربِ السُّمِّ ممزوجاً مع العَسَلِ

إخواني! أوقدوا أَذْهان[٤] الأذهان في ليل الفكر تُبْصِروا، وصابروا سِنِيَّ الجدب لعامِ الخِصْـبِ تَعْصِروا[٥]، فَمَنْ أدلجَ[٦] في غياهبِ ليـلِ العُلى على نجائِبِ الصَّبْرِ، صبَّحَ منزلَ السرورِ في السِّرِّ[٧]، ومن نام على فراشِ الكسل، سال

---

(١) وهناً الأولى: الضعف في العمل والرأي والبدن. وهناً الثانية: الألم.

(٢) **الكفل**: العَجُز من الإنسان.

(٣) **الطِّوَل**: الحبل يُمدُّ للدابة لترعى، وطرفه مثبت.

(٤) **أدهان**: جمع دهن، زيت يوقد به المصباح.

(٥) **تعصروا**: يقال: عصرَ يعصِر، أي: استخرج ما في المعصور من دهن أو ماء ونحوه.

(٦) **أدلج**: سار أول الليل.

(٧) **السر**: الأرض الطيبة الكريمة.

به سيلُ التمادي إلى وادي الأسف.

الرجوليةُ قوةٌ معجونةٌ في طينِ الطَّبْعِ، والأنوثيَّةُ رَخاوة.

ولدُ السبُع عزيزُ الهمَّة، وابنُ الذئبِ غَدَّارٌ، وكلٌّ إلى طبعِهِ عائدٌ.

الجدُّ كلُّه حركة، والكسَلُ كلُّه سكون.

إذا أردتَ أن تعرفَ الديكَ من الدجاجةِ حين يَخْرجُ من البيضة، فعلِّقه بِمِنْقارِه، فإن تحرَّك فَدِيكٌ، وإلا فَدَجاجة.

فُتُورُكَ عن السعي في طلب الفضائل دليلٌ على تأنيث العَزْم.

يا منْ قد بلغ أربعين سنة، وكلُّ عُمرِه نومٌ وسِنَة، يا مُتعِباً في جمعِ المال بَدَنَه، ثم لا يدري لمن قد خَزَنَه، أعلِمْ هذه النفسَ الممتحنَةَ، أنَّها بكسبِها مرتهنةٌ، ألا يعتبِرُ المغرورُ بِمَنْ قد دفنه؟! كم رأى جباراً فارقَ مسكنَه، ثم سكنَ مسكَنَ مسكنة[1].

يا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة، أين مَنْ أخذَ صفوَ ما أنتم في كدره؟! أما وعظكم في سَيْرِه بسِيَرِه[2]؟! بلى قد حملَ بريدُ الإنذارِ أخبارَهم، وأراكم تصفُّحُ الآثارِ آثارَهم.

وحدَّثَتْكَ الليالي أنَّ شيمتَها ... تفريقُ ما جَمَعَتْهُ فاسمعِ الخَبَرا
فكنْ على حَذرٍ منها فَقَدْ نَصَحَتْ ... وانظر إليها ترَ الآياتِ والعِبَرا
فهل رأيتَ جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً ... وهل سمعتَ بصفوٍ لم يَصِرْ كَدَرا

حبّ[3] الدنيا خيالٌ، تَغرُّ الغِرَّ، المتمسك بها يلعب بلُعابِ الشمس.

الدُّنيا كامرأةٍ فاجرةٍ[4] لا تثبت مع زوج، فلذلك عِيْبَ طُلابُها...

---

(١) المسكنة: المذلَّة.
(٢) أي: ألا تتعظون بسيره إلى قبره بحاله التي كان عليها في الدنيا.
(٣) في (ب): حبال.
(٤) في (ب): كالمرأة الفاجرة.

مَيَّـزتُ بَيْـنَ جمـالِهـا وفِعـالِهـا ... فـإذَا المـلاحَـةُ بـالخيـانـةِ لا تَفـي
حَلَفـتْ لنـا أنْ لا تخـونَ عهـودَهـا ... فكـأنَّمـا حَلَفـتْ لنـا أنْ لا تَفِـي

محبَّةُ الدنيا محنةٌ، عيونُها بابليَّةٌ[1]، كم تفتح بابَ بليَّة، ولا حيلةَ كحيلةٍ مِنْ عَيْنٍ كَحيلة[2].

كم أفْرَدتْ[3] مَنْ أرفَدت[4]، كم أخْمَدَتْ من أخدَمتْ، كم قلَّلت[5] مَنْ ألَّفت، كم أفقرتْ من أرفقتْ، كم فارقتْ من رافقتْ، كم قطعت من أقطعَتْ[6].

فعلها في التكدير كلُّه كذا، فإن آثَرْتَ الصفا فما في الزهد أذى، وإن أردتَ القذى، فألْقِ ذا.

(لمهيار)[7]:

تَعْجَبُ مِـنْ صبـري علـى ألـوانِهـا ... فـي وَصْلِهـا طَـوْراً وفـي هِجْـرانِهـا
وَرْهـاءُ[8] مـن كلَّفهـا وثيقـة ... كلَّفهـا مـا ليـس مـن أديـانهـا
تُسلِّـطُ البلـوى علـى عُشَّـاقِهـا ... تَسلُّـطَ الحِنـثِ علـى أَيْمـانهـا
الـودُّ فـي القلـبِ ودعـوى وُدِّهـا ... لا يتعـدَّى طَـرَفـيْ لسـانهـا
فكلَّمـا أعطتْـكَ مِـنْ محبَّـةٍ ... زيـادةً فـاقطـعْ علـى نقصـانِهـا
وقفـتُ أستـرجِـعُ يـومَ بَيْنِهـا ... قلبـاً شعـاعـاً طـاحَ فـي أظعـانهـا
ولـم تكـن منِّـيَ إلا ضَلَّـةٌ ... نِشـدانُ شـيءٍ وهـو فـي ضمـانهـا

---

(١) **بابلية**: نسبة إلى بابل، موضع بالعراق، ينسب إليه السحر والخمر.
(٢) **كحيلة**: يقال: في عينيه كَحَل: أي سوادٌ في أجفانِ العين خلقةً، والرجلُ أكحلُ وكحيل.
(٣) **أفردت**: نحَّتْ وعزلت.
(٤) **أرفدت**: أعطت وأمدَّت.
(٥) **قلّلت**: فرَّقت. **ألّفت**: جمعت.
(٦) **أقطعت**: أعطت.
(٧) مطلعُ قصيدةٍ يعاتب فيها العميد أبا الحسن بن المزرّع. انظر: ديوانه: ٤/ ١٦٥ـ١٦٨.
(٨) **ورهاء**: خرقاء: المرأة الحمقاء.

يا من إذا أصبحَ طلبَ بالمعاشِ الشهواتِ، وإذا أمسى انقلبَ إلى فراشِ الغفلاتِ، أين أنتَ من أقوامٍ نَصَبوا الآخرة بين أعينهم فَنَصَبوا[1]، فوفَّرَ النَّصَبُ نصيبهم ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦].

قال بعضُ السلفِ: لَقيتُ رجلاً في بَرِّيَّةٍ، فقلتُ: مِنْ أين؟ فقال: مِنْ عندِ قومٍ ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧]، قلت: وإلى أين؟ قال: إلى قومٍ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦].

بنفسي مَنْ غداةَ نأيْتُ عنهم ... تركتُ القلبَ عِنْدَهُمُ رَهيْنا
أما لكَ أيُّها القلبُ اعتبارٌ ... بما فَعَلَ الهَوَى بالعاشِقِيْنَا

ملؤوا مراكبَ القلوبِ متاعاً لا يَنْفُقُ[2] إلا على الملك، فلمَّا هبَّتْ رياحُ الدُّجى دَفَعَتِ المراكبَ.

(لأبي إسحاق الغزي):

إذا الصَّبَا سحبَت أذيالَها سَحَراً ... على العَقِيْقِ وَقَرَّتْ في رُبَى إِضَمِ[3]
وحرَّشَتْ بين بانِ الجَزْعِ ظالمةً ... و شِيحِه[4] وَجَرَتْ في الضَّالِ[5] والسَّلَمِ[6]
تنفَّسَ الوجْدُ وارتاحَ المشوقُ لها ... وعاشَ بالرُّوحِ بعدَ الأخذِ بالكَظَمِ

يا سوقَ الأكل أين أربابُ الصيامِ؟ يا فُرشَ النَّوْمِ أينَ حرَّاسُ الظلام؟ درَسَتْ والله المعالِمُ، ووقعتِ الخيامُ، قفْ بنا على الأطلالِ، نخصُّها بالسلام.

(لمهيار)[7]:

---

(١) **نصبوا**: جدّوا واجتهدوا.
(٢) **ينفق**: يروَّج.
(٣) **إضم**: اسم جبل في الحجاز.
(٤) **شيحه**: الشيح: نبت له رائحة طيبة، وطعم مر.
(٥) **الضال**: الواحدة ضالة، شجر من فصيلة النبقيات.
(٦) **السلم**: الواحدة سَلِمة، جنس شجر شائك من فصيلة القطانيات، ينبتُ في البلدان الحارة ثمره أصفر.
(٧) من قصيدة قالها يمدحُ الوزير زعيم الدين في النيروز. انظر: ديوانه: ٣/ ٣٢٧.

أيـنَ سكَّـانُـكِ؟ لا أيـنَ هُـمُ　　أحِجـازاً سَلَكُـوْا[1] أمْ شـآمـا
قَـدْ وقفنـا بعـدَهُـمْ فـي رَبْعِهِـم　　فَنَهبْنـاه استـلامـاً والتـزامـا

أتُرى أيَّ طريقٍ سلكوا؟ أتُرى أيَّ شِعْبٍ أخذوا؟.

حمـامـةَ الـواديـيـن مـا الخبرُ　　عـرَّجـوا بـالفـراتِ أم عَبَـرُوا

ما وصلَ القومُ إلى المنزلِ إلا بعدَ طُولِ السُّرى، ما نالوا لذَّةَ الراحةِ إلا بعدَ مرارةِ التعبِ.

(لصُرَّدُرّ)[2]:

لـو قَـرُبَ الـدُّرُّ علـى جُـلاَّبِـه　　مـا لجَّجَ الغـائـصُ فـي طِـلابـهِ
ولـو أقـامَ لازمـاً أصـدافَـه　　لـم تكـنِ التِّيجَـانُ فـي حِسَـابِـهِ
مـا لـؤلـؤُ البَحْـرِ ولا مَـرجَـانُـه　　إلا وراءَ الهَـوْلِ فـي عُبـابِـه
مَـنْ يَعْشَـقِ العليـاءَ يلـقَ عِنْـدَهـا　　مـا لَقِـيَ المحبـوبُ[3] مِـنْ أحبابِـهِ

ما حَظِيَ الدينارُ بنقْشِ اسمِ الملِكِ، حتى صبَرتْ سبيكتُه على التردد إلى النار، فنفتْ عنه كلَّ كدَر، ثم صبَرتْ على تقطيعها دنانيرَ، ثم صبرت على ضربها على السكَّة، فحينئذٍ ظهرَ عليها رقمُ النقْشِ ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

كـم أحمـلُ فـي هـواكَ ذُلاً وعَنَـا　　كـم أصبرُ فيكَ تحت سقـمٍ وضَنـا
لا تَطْـرُدَنِّـي فليـس لـي عنـكَ غِنـا　　خـذ روحـيَ إذا أنـتَ أردتَ الثَّمنـا

مَنْ طلبَ الأنفسَ هجرَ الألذَّ، من اهتمَّ بالجوهرِ نسيَ العَرَض، «يا صفراءُ

---

(١) في الديوان: (اقبلوها).
(٢) صُرّدُرّ: هو علي بن الحسين، بغدادي، شاعر مجيد، له ديوان شعر مطبوع في دار الكتب المصرية (١٩٣٤م)، توفي (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) والأبيات من قصيدةٍ يمدحُ فيها الوزير ابن جهير بعد عودته إلى الوزارة. انظر: الديوان، ص٦٣ ـ ٦٦.
(٣) في (ب): المحبّ.

يا بيضاءُ غُرِّي غيري»[1].

مِـنْ أجْـلِ هـواكـمْ هـويـتُ العِشْقـا ... قلبـي كَلِـفٌ ودمعتـي لا تَـرْقـا[2]
فـي حُبِّكـم يهـونُ مـا قَـدْ ألقـى ... مـا يَسْعَـدُ بـالنَّعيـمِ مَـنْ لا يشْقَـى

يا معاشرَ التائبينَ ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، مكابدةُ الباديةِ تهونُ عند ذكر منًى، المُضحي في بوادي الجوعِ والمُعْشِي في بَوادي[3] السهر إلى أن تلوحَ بِوادي[4] القبول، إن ونَتْ في السيرِ ركائبُكم. فأقيموا حداةَ العزْمِ تُدْلِجُ[5].

البَيْـنَ يـا أهـلَ المطـايـا البينـا ... لا يشتكـي سـوطُـك البُطينـا
يـا حـادِيَيْهـا مِـنْ نُميـرِ عـامـرٍ[6] ... خُـذا بهـا عَـنْ حـاجـرٍ[7] يَمينـا
حُلاّ على وادي الغضا[8] نُسوعَها[9] ... وأرخيـا بِـرَامَـةَ[10] الـوضينـا[11]
رِدا[12] بهـا مـاءَ العُـذَيـبِ[13] عَلَّهـا ... تُشفـى وتُطفِـي داءَهـا الـدَّفِيْنَـا
واستخبرا بالجَزْعِ[14] أنفاسَ الصَّبا ... أيـنَ استقـلَّ[15] الجيـرةُ الغـادونـا

---

(١) **الصفراء**: الذهب. **البيضاء**: الفضة. وهذا من قول سيدنا علي رضي الله عنه حين وزَّع ما في بيت المال على المسلمين، ولم يُبْقِ فيه شيئاً. رواه أحمد، وانظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي: ١/ ٣١٥.
(٢) **لا ترقأ**: لا تنقطع دموعها.
(٣) **بَوادي**: جمع بادية، من بَدا يبدو إذا ظهر، وهي الظاهرة.
(٤) **بِوادي**: أي في وادي.
(٥) **تدلج**: تسير أول الليل.
(٦) **نُمير وعامر**: اسما قبيلتين من مضر.
(٧) **حاجر**: منزل للحجاج بالبادية.
(٨) **وادي الغضا**: وادٍ بنجد.
(٩) **النسع**: سيرٌ ينسج عريضاً على هيئة أعنَّة النعال تشدُّ به الرحال.
(١٠) **رامة**: موضع بالبادية.
(١١) **الوضين**: بطانٌ عريضٌ منسوجٌ من سيور أو شَعَر.
(١٢) **رِدا**: فعل أمر من الفعل يرد، وورد الماء: أشرف عليه، دخله أم لم يدخله.
(١٣) **العذيب**: وادٍ شمال المدينة.
(١٤) قرية عن يمين الطائف، وأخرى عن شمالها.
(١٥) **استقل**: ركب، امتطى، سافر.

يا مطروداً عن صحبة الصالحين، امشِ في أعراضِ الركب، وناشدْ حادي القوم، لعلَّه يتوقَّف لك.

يـا حـاديَ العيـسِ أصِـخْ لمُـذْنَـفٍ	مُتيَّـــمٍ لَـــجَّ بـــه الغَـــرَامُ
إذا وقفـتَ فـي ثَنيَّـاتِ اللِّـوى[1]	ولاحـــتِ الـــدِّيـــارُ والخيـــامُ
وافتـرَّتِ الـريـاضُ عـن أزهـارهـا	عُقَيْـبَ مـا قـد رحَـلَ الغَمَـامُ
وهَبَّـتِ الـريـحُ فهـبَّ شيحُهـا	وانتبـهَ الحَـوْذانُ[2] والثّمـامُ[3]
فقـفْ قليـلاً نَتَـزَوَّدْ نظـرةً	تَحْيَـى بهـا الأرواحُ والأجسـامُ

* * *

(١) اسم مكان.
(٢) **الحَوذان**: نبات عشبي من ذوات الفَلْقتين.
(٣) **الثمام**: نبت ضعيف، له خوص.

الفَصْلُ السَّادِسُ

إخواني! انتبهوا من رَقَداتِ الأغمارِ[١]، وانتهبوا لحظات الأعمارِ، وقاطعوا الكسل، فقد قَطَّعَ الأعذارَ الإعذارُ[٢]، واسمعوا زواجرَ الزَّمنِ، فما داجَى[٣] الدُّجى ولقد بَهَرَ[٤] النهار، وخذوا بالحَزم فقد شقيَ وتَلِفَ مَنْ رضيَ بشفا جُرفٍ هارٍ.

(للشريف الرضي)[٥]:

تفـوزُ بنـا المَنـونُ وتَسْتَبـدُّ	ويـأخـذُنـا الـزَّمـانُ ولا نُـرَدُّ
وأنظُرُ مـاضيـاً فـي إثـرِ[٦] مـاضٍ	لقـد أيقنـتُ أنَّ الأمـرَ جِـدُّ
رويـداً بـالفِـرارِ مِـنَ المنـايـا	فليـسَ يفـوتُهـا السـارِي المُجِـدُّ
فـأيـنَ ملـوكُنـا المـاضـونَ قِـدْمـاً	أعَـدُّوا للنـوائِـبِ واستعـدُّوا
أعـارَهُـمُ الـزمـانُ نعيـمَ عَيْـشٍ	فيـا سُـرْعـانَ مـا نُـزِعُـوا[٧] ورُدُّوا
هُـمُ فَـرَطٌ لنـا فـي كـلِّ يـومٍ	نمـدُّهُـمُ وإنْ لـم يَسْتَمِـدُّوا

العمرُ يسير وهو يسير[٨]، فأقصِروا عن التقصير في القصير، دَرَاكِ دَراكِ[٩]

---

(١) **الأغمار**: جمع غُمر - بالضم -، وهو الجاهل الغِرّ الذي لم يجرّب الأمور.

(٢) **الأعذار**: بفتح الهمزة، جمع عذر: الحجة التي يُعتذرُ به، و**الإعذار**: بكسر الهمزة، عدمُ إبقاءِ موضع للاعتذار.

(٣) **داجى**: من المداجاة: المداراة والمجاملة.

(٤) **بهر**: أضاء.

(٥) قاله يرثي أبا طاهر بن ناصر الدولة وكان صديقاً له. انظر: ديوانه: ١/ ٣٦٦.

(٦) في الديوان: عقب.

(٧) في المطبوع: استلوا.

(٨) **يسير** الأولى: قليل، والثانية: يمشي.

(٩) **دراك**: اسم فعل أمر بمعنى أدرك.

قبل امتناعِ الفَكاكِ، حَذارِ حَذارِ[1] قبل عدم الفرار.

أما يحرّك سوقُ الرَّهَب سوقَ الهَربِ؟ أما يحثُّ التعليمُ على الدَّأْبِ مع الأدبِ؟ أليسَ الزمانُ يُعيرُ ثم يُغيْرُ؟ وهبْ أنَّه وَهَبَ[2]، أما ضرب[3] الدَّهرُ؟ فاستحالَ الضَّربُ[4]، مرَّ العُمرُ والغُمْرُ[5] مشغولٌ عمَّا ذهبَ بالذَّهبِ، كم فارقَ مَنْ رافقَ، فسَلا مَنْ سَلا بالسَّلَب[6]، أينَ الفَهِمُ؟ فَقَدَ المُعنَّى[7] المعنى، وعجَّ[8] العجبُ، أين الثمرةُ أيتها الشجرة؟ خابَ الرَّغِب في الغَرَب[9].

حالَتْ غمائمُ الهوى بينكم وبين شمس الهدى، وغدا ما في يومكم يُنسيكم غداً، حتى كأنَّ الرحيلَ حديثُ خُرافة[10]، أو كأنَّ الزادَ يفضلُ عن المسافة.

أيها الشيوخ: آنَ الحصادُ، أيها الكهول: قَرُبَ الجَذاذ[11]، أيها الشباب: كم جرَّد الزرعَ جرادٌ.

يـا بـنَ آدم لا تغـرُرْكَ عـافيـةٌ   عليـكَ شـاملـةٌ فـالعُمْـرُ معـدودُ

---

(١) **حذار**: اسم فعل أمر بمعنى: احذر.

(٢) **وهب الأولى**: بمعنى افترض. **وهب الثانية**: أعطى دون مقابل.

(٣) **ضرب الدهر**: أهلك وأمات.

(٤) **استحال الضربُ**: امتنعَ السيرُ في الأرض ابتغاء الرزق.

(٥) **الغُمْرُ**: بضم الغين: غير المجرب، من لا خير فيه، ولا غناء عنده في عقل ولا رأي ولا عمل.

(٦) **سلا الأولى**: نسي وطابت نفسه بعد الفراق. **سلا الثانية**: التسلِّي والانشغال. **السلب**: ما يسلب من متاع الدنيا.

(٧) **المعنَّى**: المتعب.

(٨) **عجَّ**: ضجَّ.

(٩) **الرغب**: شديد الرغبة. **الغَـرَب**: الدلو العظيمة المملوءة.

(١٠) روت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**أتدرون ما خرافة؟ إنَّ خرافة كان رجلًا من عُذْرة، أسرته الجِنُّ في الجاهلية، ومكث فيهم دهراً، ثم ردُّوه إلى الإنس، فكان يحدِّث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس: حديث خرافة**» رواه الترمذي وأبو يعلى وأحمد. انظر: كشف الخفا: ١/ ٤٥٢، رقم (١٢٠٧). وقال ابن الأثير في النهاية: أجروه ـ أي العوام ـ على كلِّ ما يكذِّبونه من الأحاديث، وعلى كلِّ ما يُستملَحُ ويتعجَّبُ منه.

(١١) **الجَذاذ**: بفتح الجيم، القطاف.

مـا أنـتَ إلا كـزرعٍ عنـدَ خُضْـرَتِـهِ   بكـلِّ شـيءٍ مـن الآفـاتِ مقصـودُ
فـإنْ سلِمـتَ مـن الآفـاتِ أجمعِهـا   فـأنـتَ عنـد كمـالِ الأمـرِ محصـودُ

واعجباً! يتأمَّلُ الحيوانُ البهيمُ العواقبَ، وأنتَ لا ترى إلا الحاضرَ، ما تكادُ تهتمُّ بمُؤْنَةِ الشتاء حتى يقوى البردُ، ولا بمؤنةِ الصيفِ حتى يشتدَّ الحرُّ، ومَنْ هذه صفتُه في أمورِ الدنيا ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

هذا الطائرُ إذا عَلِم أنَّ الأنثى قد حَمَلَتْ، أخذَ ينقلُ العيدانَ لبناءِ العُشِّ قبلَ الوضع، أفتُراك ما علمت قربَ رحيلك إلى القبر؟ فهلاَّ بعثتَ لك فراشَ تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

هذا اليربُوع لا يتَّخِذُ بيتاً إلا في موضعٍ صُلبٍ مرتفع، ليَسْلَمَ من سيلٍ أو حافرٍ[(١)]، ثم لا يجعلُه إلا عندَ أكمَةٍ أو صخرةٍ، لئلا يضلَّ عنهُ إذا عادَ إليه، ثم يجعلُ له أبواباً، ويرقِّقُ بعضها، فإذا أُتيَ من بابٍ دفعَ برأسهِ ما أَرقَّ وخَرجَ.

اسمع يا مَنْ قد ضَيَّقَ على نفسه الخناق في فعل المعاصي، فما أبقى لعُذرٍ موضعاً، يا مقهوراً بغَلَبَة النَّفْسِ صُلْ[(٢)] عليها بسَوْطِ العزمِ، فإنَّها إن عرفَتْ جِدَّكَ استأسرتْ لكَ، امنعها ملذوذَ مُباحِهَا ليقعَ الصلحُ على تركِ الحرام، فإذا احتجَّتْ لطلبِ المباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشيطان خارجيان[(٣)] خارجان عليك، خارجان عنك، والنفس عدوٌّ مباطِن، ومن آداب الجهاد ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣].

ليس من بارزَ بالمحاربةِ كمَنْ كَمَنَ[(٤)]، ما دامت النفس حيَّةً تسعى، فهي

---

(١) **الحافر**: واحد حوافر الدابة، ويراد به هنا الدابة، وسمي حافراً لأنه يحفر الأرض بشدَّة دوسه.

(٢) **صُل**: فعل أمر من يصول، وصال على قِرْنه صولاً: سطا واستطال فهو صؤول.

(٣) **خارجيان**: مثنى: خارجيّ، والخوارج: فرقة كانت مع سيدنا علي رضي الله عنه، ثم خرجت عنه بحجة أنه قَبِل التحكيم، وقاتلهم في معركة النهروان، ولهم آراء خالفوا فيها أهل السنة والجماعة، وقد انقسموا فرقاً فيما بينهم.

(٤) **كَمَنَ**: تستر، ويقصد بها النفس، والمبارِز: الشيطان.

حيةٌ تسعى[1]، أقلُّ فعلٍ لها تمزيقُ العمرِ بكفِّ التبذيرِ، كالخَرْقاءِ[2] وجدتْ صوفاً.

اخلُ بها في بيتِ الفكرِ ساعةً، وانظر: هل هي معك أو عليك؟.

نادِها بلسانِ التذكرةِ: يا نفسُ ذَهَبَ عرشُ بلقيس، وبَلِيَ جمال شيرين، وتمزَّقَ فَرْشُ بوران، وبقي نسكُ رابعة.

يا نفسُ! صابري عطشَ الهجير يحصُلِ الصوم، وتحزَّمي تحزُّمَ الأجيرِ، فإنَّما هو يوم:

جُدَّ[3] في الجِدِّ قد تولَّى العمْرُ كم ذا التفريطُ قد تدانى الأمْرُ
أقبِلْ فعسى يُقبَلُ مِنْكَ العُذْرُ كم تبني كم تنقضُ كم ذا الغَدْرُ

يا هذا! ذرَّاتُ الوجودِ تستدعيكَ إلى الموجِدِ، ورسائلُ العِتابِ على انقطاعِكَ متصلةٌ، فما هذا التوقُّفُ؟.

كم كم ذا الهجرُ وافتراقُ الأحباب؟ هل بعدَ البُعْدِ للذي غابَ إياب؟
كم قد خطَّتْ إليكُمُ الكفُّ كتاب؟ خلوا ذا العتبَ ثم ما جاء جواب

يا هذا! دبِّرْ دينَك كما تدبِّر[4] دُنياك، لو علِقَ بثوبكَ مسمارٌ رجعتَ إلى وراءَ لتخلّصه، هذا مسمارُ الإصرارِ قد نشب[5] بقلبِكَ، فلو عُدْتَ إلى الندمِ خطوتين تخلَّصتَ.

هيهات صبيُّ الغفلةِ كلَّما حُرِّكَ نام.

يا مجنونَ الهوى إمَّا مارستانُ العُزْلةِ، وقَيْدُ الحِمْيَة، ومعالجةُ سلاسِلِ

---

(1) حية الأولى: من الحياة، حية الثانية: أفعى.
(2) كالخرقاء: يشير إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: 92].
(3) في (ب): خذي.
(4) في (ب): دبرت.
(5) في (ب): تشبث.

التقوى، ومرافقةُ بِشْرٍ ومعروفٍ[1]، وإلا فمارستانُ جهنَّمَ، في أنكالِ العقوبةِ، وصُحبةُ إبليسَ.

لا بدَّ من جزمٍ وعَزْمٍ يؤخَذُ فيه بالحزمِ، لينتصرَ مِنْ عائثِ الشَّرَهِ[2] سلطانُ الأزم[3].

من رقَّ لبكاءِ الطفلِ لم يقدِرْ على فِطامِه.

كلُّ يومٍ تحضُرُ المجلسَ يقف لك الشيطانُ على الباب، فإذا خرجْتَ كما دخلْتَ قال: فَدَيْتُ مَنْ لا يُفْلحُ.

وا أسفي كم تطلبُ الخَضِرَ وما ترى إلا الياس، ويحكَ اعرفْ قَدْرَ ما ضاعَ منك، وابكِ بكاءَ من يدري قيمةَ الفائتِ، وصِحْ في وقتِ السحر:

إنْ كانَ عهودُ وَصْلِكُمْ قد دَرَستْ[4] فـالـروحُ إلـى سـواكـم مـا أَنِسَـتْ
أغصـانُ هـواكـمُ بقلبـي غُـرِسَـتْ مُنُّـوا بلقـائكـم وإلا يَبِسَـتْ

لو استنشقتَ ريحَ الأسحارِ لأفاقَ قلبُكَ المخمورُ، لو تخايلْتَ قربَ الأحبابِ أقمتَ المآتمَ على بُعدِكَ.

مـا أشْـوقنـي إلـى نسيـمِ الـرَّنْـدِ[5] يشفـي كمـدي إذا أتـى مِـنْ نَجْـدِ
والشِّيْـحِ[6] فـإنَّـه مُثِيْـرُ الـوَجْـدِ شـوقـي لـه، ووجـدي وجـدي

كان بعضُ السلفِ يقول في مناجاته: إلٰهي! إنَّما أبكي لأنَّكَ لمَّا قسمتَ الأقسامَ، جعلتَ التفريطَ حظِّي، فأنا أبكي على بَخْتِي[7].

---

(١) أراد بشر الحافي ومعروف الكرخي الزاهدين المعروفين.
(٢) **عائث الشره**: فساد غلبة الحرص.
(٣) **الأزم**: الحمية.
(٤) **درست**: انمحت وزالت.
(٥) **الرند**: شجر طيب الرائحة.
(٦) **الشيح**: نبت صحراوي طيب الرائحة.
(٧) **بختي**: حظي.

قــدْ كنــتُ مِــنْ قَبْــلِ النَّــوى ممَّـــا أُلاقـــي جَـــزِعـــا
تـــركتمـــونـــي بعـــدَكُـــم أَشْـــرَبُ دَمْعِـــي جَـــرَعـــا[1]

إخواني! تعالَوْا نُرِقْ دمعَ تَأسُّفِنَا على قُبْحِ تَخلُّفِنا، ونبعثْ مع قاصدي الحبيب رسالة مُحْصَرٍ[2]، لعلَّنا نفوزُ بأجرِ المُصاب.

إنْ لم يرجعِ المفقودُ، يا أربابَ القلوبِ الضائعةِ ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

هـــذي معـــالِمُهُـــمْ وَمَـــا لـــي منـــذ بـــان[3] القـــومُ عَهْـــدُ
واهـــاً لعيشـــي بـــالحِمَـــى لـــو كـــانَ لـــي يـــومـــاً يُـــرَدُّ
ويلـــي أحظِّـــي كلُّـــهُ مِـــنْ حُبِّكُـــمْ هَجْـــرٌ وَصَـــدُّ؟

* * *

(١) جرع: جرع الماء: بلعه، والتجرُّع: شرب في عجل.
(٢) مُحْصَر: ممنوع من السفر.
(٣) بان: انقطع وغاب.

الفصل السابع

إخواني! ذهبت الأيامُ، وكُتِبَتْ الآثامُ، وإنَّما ينفعُ الملامُ متيقِّظاً والسلام.

وعَظَتْنـا بِمَـرِّهـا الأيـامُ ... وَأَرَتْنَـا مَصِيْـرَنـا الأَرْجَـامُ[1]

وَدَعَتْنا[2] المَنـوْنُ فـي سِنَـةِ الغفلـةِ ... هُبُّـوا فـاستيقظـوا يـا نيـامُ

ليتَ شعري ما يَتَّقي المرءُ، والرامي ... لـه المـوتُ، والخطـوبُ سِهَـامُ

منهـلٌ واحـدٌ شـرائِعـه شتَّـى ... عليـه للـوارديـنَ ازدحـامُ

نتحـامـاه مـا استطعنـا، وتحـدو ... نـا إليـه الشهـورُ والأعـوامُ

وإذا راعنـا فقيـدٌ نَسيْنـاهُ ... تنـاسَـى مـا راعهـنَّ السُّـوامُ

أوقـوفـاً علـى غـرورٍ، وقـد زَلَّـتْ ... بِمَـنْ قبلَنـا الأقـدامُ؟

ووراءَ المصيـرِ فـي هـذه الأجـدا ... ثِ دارٌ، يكـونُ فيهـا المُقـامُ

يا مَنْ صحيفتُه بالذنوبِ قد حُفَّتْ، وموازينُه لكثرةِ العيوبِ قد خَفَّتْ، يا مستوطناً والمزعجاتُ قد ذفَّت[3]، لا تَغترَّ بأغصانِ المُنَى، وإن أورقتْ وَرَقَّتْ، فكأنَّك بها قد صوَّحَتْ[4] وجفَّتْ، أما رأيتَ أَكُفّاً عن مطالبها كُفَّتْ[5]؟ أما شاهدتَ عرائسَ أجسادٍ[6] إلى الألحاد[7] زُفَّتْ؟ أما عاينتَ سطورَ الأجسامِ في كتابِ الأرجامِ قد أُدرِجَتْ ولُفَّتْ؟ أما أبصرتَ بُنودَ العُمُرِ[8] في رقاعِ بقاعِ القاعِ قد

---

(١) **الأرجام**: جمع رجم، وهو القبر.

(٢) **دعتنا**: أي نادتنا وطلبتنا.

(٣) **ذفت**: أسرعت وأجهزت.

(٤) **صوّحت**: يبست.

(٥) **أكفّاً**: جمع كف. **وكُفّت**: مُنعَتْ.

(٦) في (ب): الأجساد.

(٧) **الألحاد**: جمع لحد، وهو الشق في القبر.

(٨) في (ب): قبور القوم.

صُفَّتْ؟ مَنْ عرفَ تصرُّفَ الأيامِ لم يُغفِلِ الاستعدادَ، إنَّ قربَ المنيَّةِ لَيُضحِكُ من بُعْدِ الأُمنية، ما جرى عبدٌ في عِنانِ أملِه إلا عثرَ في الطريقِ بأجله.

إخواني! خلقنا نتقلَّبُ في ستة أسفار، إلى أن يستقرَّ بنا المنزل:

السَّفَرُ الأول: سفرُ السُّلالةِ من الطين.

والثاني: سفرُ النُّطْفَةِ من الصُّلْبِ.

والثالث: من البطونِ إلى الدنيا.

والرابع: من الدُّنيا إلى القبور.

والخامس: من القبورِ إلى العَرْضِ.

والسادس: إلى منزلِ الإقامة.

وقد قطعنا نصفَ الطريقِ، وما بعدُ أصعب.

إخواني! السنونُ مراحل، والشهور فراسخُ، والأيامُ أميالٌ، والأنفاسُ خطواتٌ، والطاعاتُ رؤوسُ أموالٍ، والمعاصي قطّاعُ الطريقِ، والربحُ الجنةُ، والخسرانُ النار، لهذا الخطبِ شمَّرَ المتَّقونَ عن سُوق[1] الجِدِّ في سُوقِ المعاملةِ، كلَّما رأَوْا مراكبَ الحياةِ تَخْطَفُ[2] في بحر العمرِ، شغلَهم هولُ ما هم فيهِ عن التنزُّه في عجائبِ البحر، فما كان إلا القليل حتى قَدِمُوا من السَّفرِ، فاعتنقتهم الراحةُ في طريق التلقِّي، فدخلوا بلدَ الوصل وقد حازوا ريح الآخرة[3].

(لمهيار)[4]:

زمُّوا المطايا فدمعٌ مطلقٌ أَمِنَ ... العدوى ودمعٌ وراءَ الخَوفِ مأسورُ
فلم تهبهب بأولي الزجرِ سائِقهم ... حتى تشابه مهتوكٌ ومستورُ

---

(١) **سوق**: جمع ساق يشير إلى مضمار المسابقة بالأعمال الصالحة في الدنيا.

(٢) **خطِف**: استلب. **والخطف**: الأخذ في سرعة.

(٣) في (ب): الدهر.

(٤) من قصيدة كتبها إلى الأمير شهاب الدولة منصور بن الحسين بن دبيس. انظر: ديوانه: ١٠٣/٢.

فغلَّسـوا مـن زُرودٍ[1] وجـهَ يـومِهِـمُ   وحَطَّهُـم لظِــلالِ البــانِ تهجيــرُ
وضمنـوا الليـلَ سَلعـاً إذ رأوه وقـد   غنَّـت علـى فَنَنَـيْ سَلـعِ العصـافيـرُ

أملُهم أقصر من فِتْرٍ، منازلهم أفقرُ من قبرٍ، نومهم أعزُّ من الوفاء، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر، أخبارُهم أرقُّ من نسيم السحر، آماقهم بالدموع الدائمة ذائبة[2]، والهموم على الجوانح جوانح[3]، لأنفاسهم[4] أنفاسٌ مِنْ مِثْلها يهيجُ البهيج، روضُ رياضِهم[5] مطلولُ الخمائِل، يُحَدِّثُ ريّاً ريُّهم عنهم، فالرائحةُ رائحةٌ[6] بالخبرِ.

(لمهيار)[7]:

يـا سـائـقَ الأظعـانِ إنَّ مَـعَ الصَّبـا   خبـراً لـو أنَّـكَ للصَّبـا تتـوقَّـفُ
هبَّت بعارفةٍ تسوقُ مِنَ الحِمَى[8]   أَرَجــاً بِــريَّــا أهلُــه يَتَعــرَّفُ

خُذْ حديثَ القومِ جملةً واقنعْ بالعنوان، كواكبُ هممهم في بروجِ عزائِمهم سيارة، ليس فيها زُحَل، ناموا في الدجى على مهادِ القلق، فلما جُنَّ الليل جُنَّ الحَذِرُ، فاستيقظتْ عينٌ ما تهنَّأتْ بطعمِ الرُّقادِ.

كفى سـائقاً بالشَّـوقِ بين الأضـالعِ   [لهيبُ اشتياقٍ ثُمَّ فيضُ مدامعِ][9]

ركبوا عيسَ[10] القَصْد، وركبوا الجادَّة، فلمَّا غَنَّتِ الحُداةُ، رنَّت الفلاةُ،

---

(١) **زرود**: موضع في الحجاز يتغزَّل به المحبُّون، **والبان**: شجر.
(٢) في (ب): دائمة.
(٣) **الجوانح**: الأضلاع، جمع جانحة.
(٤) في (ب): لأنفسهم.
(٥) في (ب): رياضتهم.
(٦) **رائحة**: ذاهبة وماضية، وتأتي بمعنى: راجعة، كقوله ﷺ: **«تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**.
(٧) من قصيدة كتبها إلى الكافي أبي عبد الله القاني في المهرجان. انظر: ديوانه: ٢/ ٢٦٨.
(٨) في الديوان: الصبا.
(٩) زيادة من (ب).
(١٠) **العيس**: الإبل.

فأعربت أبياتُ الشِّعْرِ، عن أبيات الشَّعْرِ، فعَصَفت رياحُ الزفراتِ من قلبِ المشوقِ فانقطعَ[1] سِكرُ الدَّمع، فلو رأيتَ وَكْفَ شؤونهم[2] قلتَ: قد انقطعَ شِريان الغمامِ، هذا يعاتِبُ نفسَه على التقصير، وهذا يتفكَّرُ في هول المصير، وهذا يخافُ من ناقد بصير، منازلُ تعبُّدِهم متناوحةٌ[3]، في كلِّ بيتٍ منهم نائحة، تائبُهم أبكى مِنْ متمّم[4]، ومحبُّهم أيْتَمُ من مرقّش[5]، ومشتاقهم أقلقُ من قيسٍ[6]، وكلُّهم قد باتَ بليلِ النابغةِ[7]، التائبُ يقول: أنا المقرُّ على نفسي بالجناية، أنا الشاهدُ عليها بالخيانةِ.

أُعـفُ عنّـي وأقِلْنـي عثـرتـي	يـا غِيـاثـي لمُلمَّـاتِ الـزَّمـنْ
لا تُعـاقبْنـي فقـد عـاقَبَنـي	نـدمٌ أقلـقَ روحـي فـي البَـدَنْ
لا تُطَيِّـرْ وَسَنـاً عـن مقلتـي	أنتَ أهديتَ لها طِيْبَ[8] الـوَسَنْ
يـا حبيبـي بلسـانِ العـربـي	ولسانِ الفارسي (يا دُوْست مَنْ)[9]

---

(١) في (ب): فانقلع.

(٢) **شؤونهم**: مجاري الدمع من العين، مفردها: شأن.

(٣) **متناوحة**: متقابلة.

(٤) **متمم**: هو متمم بن نويرة، رثى أخاه مالكاً، وبكى عليه حتى دمعت عينُه العوراء. انظر: أسد الغابة: ٥/ ٥٨.

(٥) **مرقش**: هو عوف بن سعد، شاعر جاهلي من المتيمين الشجعان، عشق أسماء ابنة عمّه، فتزوجت غيره، فمرض، ثم قصدها، فمات في حيها. انظر: الأعلام: ٥/ ٩٥.

(٦) يشير إلى قول قيس بن المُلوَّح الشاعر الغزلي المتيَّم بليلى، والملقب بالمجنون لهيامه بحبها:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيل يُغْدَى	بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فباتتْ	تُجاذِبُهُ وقد طلعَ الصَّباحُ

الأعلام: ٥/ ٢٠٨.

(٧) **ليل النابغة**: يشير إلى قول النابغة:

فبتُّ كأنَّ العائداتِ فَرَشْنَ لي	**هراساً به يُعلى فراشي ويقشَبُ**

قيل: ليلة نابغية؛ أي: لا يُنام فيها.

(٨) في (ب): حلو. **والوسن**: النعاس.

(٩) **(دوست من)**: حبيبي بالفارسية.

والمتعبِّدُ يبكي على القبورِ بكاءَ ثكلى بين القبور، ويندُبُ على زمانِ الوصالِ، ويتأسَّفُ على تغيُّرِ الحال.

قد كانَ لي مَشْرَبٌ يصفو برؤيتكم ... فكدَّرتْهُ يدُ الأيامِ حينَ صَفا

والخائفُ ينادي: ليتَ شعري ما الذي أسقطني من عينك؟ أَقُلْتَ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

لأيَّةِ عِلَّةٍ ولأيِّ حالِ ... صَرَمْتَ حبالَ وصلكَ عَنْ حبالي
وعوَّضتَ البِعَادَ من التداني ... ومُرَّ الهَجْرِ مِنْ حُلوِ الوصالِ
فإنْ أكُ قد جنيتُ عليكَ ذنباً ... ولم أشعرْ بقولٍ أو فعالِ
فعاقبْني عليه بأيِّ شيءٍ ... أردتَ سوى الصدودِ فما أبالي

وصريعُ المحبَّةِ يستغيثُ وينادي، حتى أقلقَ الحاضرَ [والبادي][1].

تحمَّلَ أصحابي ولم يجدوا وَجْدي ... وللناسِ أشجانٌ ولي شَجَنٌ وحدي
أُحِبُّكُمُ ما دُمْتُ حيّاً وإنْ أَمُتْ ... فواكبدي فمَنْ يُحبُّكُمْ بعدي

وقتيلُ الشوقِ يَتعلَّلُ بما يرى، ويتشبَّثُ بما يَسْمعُ، يرتاحُ إلى السحر، ومقصودُه غيرُه، وإلى الشجرِ ومُغنيته طيره.

(لمهيار)[2]:

أيا بانةَ الغَوْرِ عَطْفاً سُقيتِ ... وإن كنتُ أعني وأَكني سواكِ
أُحِبُّكِ من أجلِ مَنْ تعلمينَ ... لو انّي أراهُ كما قَدْ أراكِ
ذكَرتُ ويا لهفي هل نَسِيْتِ ... ليالٍ أسهرُها في ذَراكِ[3]
كفى الوَجْدُ أني إذا ما استرحتُ ... إلى اسمكِ عمّيتُه بالأراكِ
إذا الصدُّ أرضاكِ فهو الوصالُ ... فأنّى فعلتِ فأهلاً بذاكِ

* * *

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) انظر: ديوانه: ٢/ ٣٦٦ـ٣٦٧.
(٣) **الذرا**: الكنف.

الفصل الثامن

الشهواتُ تغرُّ وتَعُرُّ[1]، وتُمِرُّ عيشَ العواقب وتَمُرُّ[2]، وتُبكي عينَ الندمِ أضعافَ ما تُسِرُّ، ألا يقظٌ؟ ألا حَذرٌ؟ ألا حرٌّ؟.

هل الدهرُ إلا ما عَرَفْنا وأدركنا ... فجائِعُهُ[3] تبقى، ولذاتُه تفنى

إذا أمكنتْ فيه مسرَّةُ ساعة ... تولَّتْ كمرِّ الطرفِ واستخلَفتْ حُزنا

إلى تبعاتٍ في المعادِ ومَوْقِفٍ ... نودُّ لديه أننا لم نكنْ كُنَّا

حصلنا على همٍّ وإثمٍ وحسرةٍ ... وفاتَ الذي كُنَّا نَلَذُّ به عَنَّا

كأنَّ الذي كُنَّا نُسَرُّ ببعضه[4] ... إذا حققته النفسُ لفظٌ بلا معنى

إنَّ المواعظَ قد أفصحتْ وأعربتْ، غير أنَّ الزخارفَ للواحظ قد أدهشتْ وأعجبتْ، وإنَّما تُقْطعُ مراحِلُ الجِدِّ بالعزْمِ والصبْرِ، ونظرُ اللبيبِ المُجدِّ إلى آخر الأمرِ، أو ليسَ الصحيحُ يَعرِضُ له عارضُ الأسقامِ والأوصاب؟ أومَا المسرورُ بالعَرْضِ[5] كالغَرَضِ[6] لسهامِ المُصاب؟ أَوَما يكفي من الزواجرِ كفُّ كفِّ الأحداثِ[7] مبسوطةَ الأمل؟ أما يشفي من البيانِ عِيانُ الأعيانِ[8] في الأجداثِ خالين بالعمل؟ أينَ مَنْ فاقَ قِمَمَ الشرفِ فَعَزَل وولَّى؟ أما ذاقَ ألمَ المنصرَفِ فنزلَ

---

(١) تَغرّ: بالغين المعجمة من الغرور. **وتَعُرُّ**: بالمهملة من العرّ، وهو الإصابة بمكروه يلطخ بالعار.

(٢) **تمر الأولى**: من المرارة. والثانية: من المرور.

(٣) **فجائعه**: جمع فجيعة، وهي المصيبة.

(٤) في (ب): بكونه.

(٥) **العَرْض**: العَـرَض: المتاع.

(٦) **كالغَرَض**: الغرض: الهدف والدريئة.

(٧) **كف الأحداث**: راحة النوازل والمصائب.

(٨) **عِيان الأعيانِ**: رؤية أشراف الناس.

وولّى[1]؟ أين من نشأ في عُلا ونُهى وندى[2]؟ سُلب ولم يشأ حُلَى[3] ولُهَى[4] وجدى[5]، أين المسرورُ بشهواتِ أمسِه؟ حَزِنَ، أين المغرور بلذاتِ نفسِه؟ غُبِنَ:

فيــا آمــلاً أن يخلِّــدَ الــدَّهــرَ كلَّــه	سَلِ الدَّهرَ عن عادٍ وعن أُخْتِها إرَمْ
إذا مــا رأيــتَ الشــيءَ يُبْليـه عمـرُهُ	ويُفنيــه أنْ يبقَــى ففــي دائــه عقــمْ
يروحُ ويغدو وهو من مَوْتِ غِبطةٍ[6]	ومَوْتِ فناءٍ بين فكين من جَلَمْ[7]
تُحـدُّ لنـا أيـدي الـزمـانِ شِفـارَه[8]	ونَرْتعُ في أكلائِه[9] رَتْعَةَ النَّعَمْ[10]
نُراعُ إذا ما الموتُ صاحَ فنرعوي[11]	وإنْ لم يَصِحْ يوماً براتعنا خَضَمْ[12]
ألا إنَّ بـالأبصـارِ عـن عِبـرةٍ عَمًـى	ألا إنَّ بـالأسمـاعِ عـن عِظَـةٍ صَمَـمْ
سيُكشَـفُ عـن قَلْـبِ الغبـيِّ غِطـاؤه	إذا حتفُـه يـومـاً علـى صـدرِه جَثَـمْ

يا معتقداً دار القُلعَة قَلْعة[13]، أما تراها تميد بسكانها، والشاهد ما يشاهد

(١) ولّى الأولى: من التولية والتنصيب، الثانية: من الانصراف والذهاب.
(٢) **عُلا ونُهى وندى**: سمو وعقل وكرم.
(٣) **حلى**: الحَلْي: اسم لكل ما يتزين به من مصاغ الذهب والفضة، والجمع: حُلِي، وجمع الحلية: حِلى كلحية ولحى. وتضم الحاء حُلى، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨].
(٤) **لهى**: جمع لهوة وهي العطية، وقيل: أفضل العطاء وأجزل (النهاية في غريب الحديث).
(٥) **الجدا والجدوى**: العطية. **والجدى**: الأعطيات.
(٦) **موت غبطة**: يكنى به عن المصائب والآلام التي تميت السرور في الإنسان، فالإنسان بين موت السرور وموت الحياة.
(٧) **الجلَم**: المقص وما يُجزُّ به، وهما جَلَمان.
(٨) **شفاره**: جمع شفرة: وهي السكين العظيم، وما عُرّض من الحديد وحدِّد، وجانب النصل، وحدّ السيف.
(٩) **أكلاء**: جمع كلأ، وهو العشب، ويشير به إلى النَّعَم.
(١٠) **النَّعم**: الأنعام من الإبل والبقر والغنم.
(١١) **نرعوي**: نزدجر.
(١٢) **خَضَم**: أكل بجميع فمه.
(١٣) **القُلْعة**: بضم القاف، التي يقلع عنها. **وقَلعة**: بفتحها، الحصن.

عواصفَ الحوادث تنسف جبال المقتني، ومعاولَ الزمان تهدمُ مَشيدَ المبتني، وكلَّما ارتفعَ كثيبُ أملٍ وهالَ[1] انهال[2]، يا مهلكاً نفسه التي لا قيمة لها لأجل دنيا لا وقع[3] لها، إلى كم هذا الحرصُ وما تنالُ غيرَ المقدور؟ أما رأيتَ مرزوقاً لا يَـتْعَبُ ومتعَباً لم يُرزقْ؟ هذا موسى في تقلقل ﴿ أَرِنِيٓ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وما أُري، ومحمد ﷺ يُـزْعَجُ عن منامه[4] وما طَلَبَ، «وقضاها لغيري وابتلاني بحبها»[5] وا عجباً يَطلب موسى التجلِّي، [فيُمْنع][6] ويُرزقُ الجبل!.

أراكَ[7] الحِمَى قُلْ لي بأيِّ وسيلةٍ ... تـوسلـتَ حتـى قَبَّلَتْـكَ[8] ثغـورُهـا

لقد أنضى[9] الحِرْصُ مطيَّةَ عُمْرِك، وما وصلتَ بلد الأمل، لو قنعتِ الذبابةُ بطَرَفِ ظَرْفِ العسل ما تَلِفَت، لو عرفَتْ قيمةَ نفسها رخَصت أوْ غَلَتْ ما أَوْغَلَتْ[10]، شقائقُ اللذَّةِ تُروِّقُ بصر الحسّ، وسِنُّ العواقب تَضحَكُ من المغرور.

يا دنيءَ الهمَّةِ أعجبتكَ خُضْرةٌ على مزبلة، فكيف لو رأيتَ فردوس المَلكِ؟ قَنِعْتَ بخسائس[11] الحشائش والرياضُ معشبةٌ بين يديك، تَقَدَّمْ بالرياضة خطواً وقد وصلت.

إنْ صـدَق الـرائـدُ فـي هـذا الخبـر ... الغــورَ يــا ركــابنــا الغــورَ إذن

فبــالغضــا مــاءٌ وروضــاتٌ أُخَــر ... وإن حننــتَ للحمــى وروضِــه

---

(١) هال: صار هائلاً جسيماً معجباً، يقال: هالت المرأة الناظر بحسنها: أعجبته.

(٢) انهال: مطاوع أهاله جرى وانصب، وهال الرمل: دفعه وأرسله دون أن يرفع عنه يده.

(٣) في المطبوع: دفع.

(٤) يزعج عن منامه: يشير إلى مجيء جبريل إليه في ليلة الإسراء والمعراج، حيث كان في الحجر بين النائم واليقظان.

(٥) هذا صدر بيت لمجنون ليلى، عجزه: فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا.

(٦) زيادة من (ب).

(٧) أراك: جمع أراكة، شجرة تستعمل عيدانها مساويك ينظف بها الفم كالفرشاة.

(٨) في (أ): (صافحتك) وليس بشيء.

(٩) أنضى: أهزل وأبلى.

(١٠) أوغلت: من الإيغال: وهو التمادي والسير السريع والإمعان فيه.

(١١) خسائس: جمع خسيسة مؤنث خسيس وهو الدنيء الحقير، وهنا بمعنى: أخسّ الحشائش. وفي (أ): بخشاش.

الهممُ تتفاوتُ في جميع الحيوانات :

العنكبوتُ من حين يولد ينسجُ لنفسِه بيتاً، ولا يقبلُ مِنَّةَ الأم، و**الحيّةُ** تطلبُ ما حفره غيرُها، إذ طبعُها الظلم.

الغُرابُ يَـتَّبعُ الجيف، و**الأسدُ** لا يأكل إلا في الغاب[1].

الكلبُ يُـنَضْنِضُ[2] لتُرمى له لقمةٌ، و**الفيلُ** يُـتَمَلَّقُ حتى يأكل.

للصيد كلابٌ، وللمَدْبغة كلابٌ.

أين الأنفة؟ **النحلُ** يغضَبُ فيُترَضَّى من لجاج، و**الخنفساءُ** تطرد فتعود.

الاختبارُ يُظهِرُ جواهرَ الرجالِ، بعثت **بلقيس** إلى **سليمان** هديةً لَتَسْبُرَ بها قدر هِمَّتِه، فإن رأتها قاصرة، علمتْ أنَّه لا يصلح للمعاشرة، وإن رأتها عاليةً تطلبُ ما هو أعلى، تيقَّنتْ أنه يصلُح.

يا هذا! الدنيا هديةُ بلقيس، فهل تقبلُها أو تطلبُ ما هو أنفس؟.

ويحك! أحسنُ ما في الدنيا قبيحٌ، لأنه يشغَلُ عمَّا هو أحسن منه.

أتُرى لو ابتليناك بتركِ عظيمٍ كيف كنت تفعل؟ إنَّما رددناك عن دنَس، ومنعناك من كَدَر، ثم ما علمتَ أنَّ الثواب على قَدْرِ المشقَّةِ.

ويحك! إنَّ الأرباحَ الكثيرةَ في الأسفارِ البعيدة.

الصبر والهوى ضرتان، فاختر أحسنَ الضَّرَّتين، فما يمكن الجمع.

مَنْ دامَ به الخُمار[3] في ديار الهوى، لم يفتح عينَه إلا في منازلِ البِلى.

مَنْ غَرِقَ بنهر المعلى قفا تحت البلد، وا عجباً! أَعُدِمَ نظرُ العقلِ بِمَرَّة؟ أو بعينه رمد؟.

---

(١) في (ب): البائت.

(٢) **نضنض**: حرَّك لسانه.

(٣) **الخُمار**: بقية السكر.

لو قيل لك: ارمِ ثوبكَ على هدفِ مرمى لم تفعل إشفاقاً عليه، وهذا دينُك في غَرَضِ عَرَضِكَ قد تمزَّقَ من نَبل الهوى.

لو قيل: زِدْ في النفقة خِفْتَ على المال، وقد حِفْتَ[1] في إنفاقِ العُمْرِ على معشوقِ البطالة.

رمَيْتَ يوسفَ قلبك في جُبِّ الهوى، وجئْتَ على قميصِ الأمانةِ بِدَمٍ كَذِبٍ.

ويحك! كلَّما أوغَلْتَ في الهوى زادَ التعرقلُ.

ويحك! ما يساوي النصابُ المسروقُ قطعَ اليد؟.

مجلسُنا بَحرٌ، والفكرُ غوَّاصٌ يستخرجُ الدُّرَّ، ومراكبُ القلوبِ تسيرُ إلى بلدِ الوَصْلِ، وأنتَ تقفُ على الساحلِ ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤].

إنَّ قعرَ جهنَّمَ لبعيد، ولكنَّ هِمَّتَكَ أسفلُ منه، خَنَقَنا دخانُ التخويف، افتحوا للرواح:

إلى كَمْ عِتابٌ يسدُّ الفَضَا ... سلامٌ عليكم مَضَى ما مَضَى

* * *

(١) حفت: من الحيف، وهو الجور والظلم، وفي (أ): زدت.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الزمانُ أنصحُ المؤدِّبينَ، وأفصحُ المؤذِّنين، فانتبهوا بإيقاظِهِ، واعتبروا بإنقاضه[1].

فكَــمْ هــذا التصــامُــمُ والتعــامــي ... وكَــمْ هــذا التــواكـل[2] والتَّـوانـي
لَــو أنَّــا[3] فهمنــا عــن خــرابِ ... الــديــارِ مقــالَهــا لــم يَبِّــنِ بــانِ
ويجنــي العيــشُ كــلَّ أذى ويُهــوى ... فيــا للعيــشِ يُعشــقُ وهــو جــانِ
فللــهِ الأُلــى دَرَجــوا جميعــاً ... وزادُهُــمُ النجــاءُ مِــنَ الهَــوانِ
ومــا علقــوا مــن الــدنيــا بشــيءٍ ... ســوى بُلْــغٍ بــأطــرافِ البنــانِ
ولمَّــا أنْ رَضُــوا شُعْــثَ النَّــواصِــي ... تقًــى، وَهَبُــوا التصنُّــعَ للغــوانــي

لله دَرُّ العارفينَ بزمانهم! إذ باعوا ما شانَهُمْ[4] بإصلاحِ شأنِهِمْ، ما أقلَّ ما تعبوا! وما أيسرَ ما نصبوا! وما زالوا حتى نالوا ما طلبوه، شمَّروا عن سُوْقِ الجِدِّ في سُوْقِ العزائم، ورأوا مطلوبهم دونَ غيره ضربةَ لازم، وجادوا مخلصين، وربحوا إذ خسر حاتم[5]، وصبَّحوا منزلَ النجاةِ وأنتَ في اللهوِ نائم، متى تسلكُ طريقَهم يا ذا المآثم؟ متى تَنْدُبُ الذنوبَ ندبَ المآتم؟ يا رجالاً! ما بانَتْ رجوليَّتُهم إلا بالعمائم! يا إخوانَ الأملِ قد بقي القليلُ، وتَفْنَى المواسم، أين أنتم من القوم؟ ما قاعدٌ كقائم.

(لمهيار)[6]:

---

(١) **والإنقاض**: نقض البناء وتفكيكه، وفي (ب): بإنقاصه.

(٢) **في (ب)**: التغافل.

(٣) **في (ب)**: أنْ قد.

(٤) **شانهم**: عابهم.

(٥) **حاتم**: يشير إلى حاتم الطائي حيث اشتهر بالكرم، وخسارته من حيث إنه لم يَجُدْ لله.

(٦) من قصيدة قالها في صديق يتألَّم لفقد جماعةٍ من إخوانه. انظر: ديوانه: ١/٤٠٦ ـ ٤١١.

صَحِبَ اللهُ راكبينَ إلى العزِّ ... طريقاً مِنَ المخافةِ وَعْرا
شربوا الموتَ في الكريهةِ حُلواً ... خوفَ أنْ يشربوا مِنَ الضَّيْمِ مُرَّا

أنفَ القومُ من مزاحمة الخلق في سوق الهوى، وقَويَ كربُ شوقِهم فلم يحتملوا حصرَ الدنيا، فخرجوا إلى فضاء العزِّ في صحراء التقوى، وضربوا مخيَّمَ الجدِّ في ساحةِ الهدى، وتخيَّروا شواطئَ أنهارِ الصِّدْقِ فشَرَعُوا فيها مشارعَ البكا، وانفردوا بقَلقِهم فساعدهم ريم الفلا، وترنَّمتْ بلابلُ بَلْبالِهم[1] في ظلام الدُّجى، فلو رأيتَ حزينهم يطلب[2] الرضا على جَمْرِ الغَضا[3]، فيا محبوساً عنهم في سِجْنِ الحِرْصِ والمُنى، إن خرجتَ يوماً من سجنكَ لترويح شَجَنك من غمِّ البلوى فعرِّجْ بذلكَ الوادي.

للشريف الرضي[4]:

عارِضَا بي ركبَ الحجازِ أسائلُهُ ... متى عهدُهُ بسكانِ سَلعِ
واستمِلاَّ حديثَ مَنْ سكَنَ الخَيْفَ ... ولا تكتباهُ إلا بِدَمْعِي
فاتني أنْ أرى الديارَ بطرْفي ... فلعلِّي أرى الديارَ بِسَمْعي
كلَّما سُلَّ مِنْ فؤاديَ سهمٌ ... عادَ سهمٌ لكم مضيضُ[5] الوَقعِ
مَنْ معيدٌ أيامَ جَمْعٍ على ما ... كانَ منها، وأينَ أيامُ جَمْعِ؟
طالبٌ بالعراقِ ينشدُ هيهات ... زماناً أضلَّهُ بالجِزْعِ

يا مُعوَّقاً بكثرة القواطعِ، خَلِّصِ الماء من ضيق الأنابيب، وانظر كيف يسرح؟ إلى متى تألفُ عُشَّ الصِّبا، سافرْ مع الرجال؟ لو عبرتَ بطنَ النَّجَفِ لاستنشقْتَ ريحَ الحجازِ، حدِّثْ نفسَكَ بأرضِ نجدٍ يَهُنْ عليها عبور العقبة، ذَكِّرْها قُرْبَ مِنًى وقد درَجْتَ المدرج.

---

(١) **بلبالهم**: البلبال: الهم ووسواس الصدر، يشير إلى همّ الآخرة، والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.
(٢) في (ب): لطلب.
(٣) **الغضا**: شجرٌ وقوده من أجود الوقود عند العرب.
(٤) من قصيدة قالها عام (٣٩٥هـ). انظر: ديوانه: ٢/٦٥٧.
(٥) **مضيض**: مؤلم.

(لمهيار)[1]:

مَــنْ بمنًــى وأيــنَ أيــامُ مِنًــى[2] كـانـت ثـلاثـاً لا تكـون أربعـا
سَلَبْتمــونــي كَبِــداً صحيحــةً أمــسِ فــرذُوهــا علــيَّ قِطَعــا
عَـدمْـتُ صبري فجزِعْـتُ بَعـدَكُـمْ ثُـمَّ ذُهِلْـتُ فَعَـدِمْـتُ الجَـزعـا
ارتجِعــوا لــي ليلــةً بحــاجــرٍ إنْ تـمَّ فـي الفـائـتِ أن يُـرتَجَعـا
وغفلــةٍ ســرقتُهــا مــن زمنــي بِلَعْلَــعٍ سقــى الغَمــامُ لَعْلَعـا

يا صبيانَ التوبة، هلالُكم خَفِي، فدُوموا على المعاملةِ يَصِرْ بدراً، لا بدَّ مِنْ ضِيْقٍ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الطبعُ يَحِنُّ إلى المألوفِ، والولدُ يطلب ما يشتهي، والزوجةُ تروم سَعَةَ النفقة، والورعُ يختم كيس التصرُّفِ ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

أيدي صبيان التوبة في أفواههم بعدَ طَعْمِ الرضاع، بينا ليل زللهم قد عسعس، إذا صُبْحُ توبتِهم قد تَنفَّسَ، فكلَّما احترقت قلوبُهم بالخوف، تعرضوا بنَسَماتِ الرجاء للعفو.

لا عــدا الــروح مــن تِهــامــة أنفــا ســاً إذا استــروحــتْ تَمنَّيْـتُ نجـدا

يا صبيانَ التوبةِ طبيبُكُم متلطِّفٌ، تارةً بالتشويقِ، وتارةً بالتخويف.

هذه الطيرُ إذا انشقَّ بيضُها عن الفِراخ، علمَ الأبُ والأمُّ أنَّ حوصلةَ الفرخِ لا تحتملُ الغِذاءَ، فينفخانَ الريحَ في حلقِه لتَتَّسِعَ الحوصلةُ، ثمَّ يَعْلمانِ أنَّ الحوصلةَ تفتقِرُ إلى دبغ وتقويةٍ، فيأكلان من صاروج الحيطان[3] ثمَّ يزقَّانِه إيَّاه، فإذا اشتدت الحَوْصَلةُ زقَّيَاه الحَبَّ، فإذا علما أنَّه قد أطاقَ اللَّقْطَ منعاه بعضَ المنعِ، فإذا جاعَ لَقَطَ، فإذا رأياه قد استقلَّ باللقطِ ضرباه بالأجنحةِ إذا سألهما الزَّقَّ.

---

(١) من قصيدة كتبها إلى العميد أبي الحسين محمد بن علي المزرع. انظر: ديوانه: ٢/ ٢١٢.

(٢) **أيام منى**: أيام التشريق الثلاثة.

(٣) **الصاروج**: هو شيء فيه ملوحة كالسبخ.

فتأمَّلوا تدبيري لكم في المواعظِ، الطفْلُ لا يصبرُ عن الرضاعِ ساعةً، فإذا صارَ رجلاً صَبَرَ عن الطعام يومين، إنَّما تقعُ الكُلْفَةُ بقدر الطاقة، لمَّا كان الطائرُ يحتاجُ أن يزقَّ فرخَه، لم يُحملْ عليه إلا تدبير بيضتين، ولما كانت الدجاجةُ تحضنُ ولا تَزُقّ كان بيضُها أكثر! ولما كانت الضَّبَّةُ[1] لا تحضن ولا تزقّ صارتْ تبيضُ ستين بيضة، وتسدُّ الباب عليهنَّ، وتعدُّ الأيام فيخرجن[2].

كلَّما قويَ الحامل زِيْدَ في الحمل، في أول مقامٍ يقول: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي أوسطه: «بعيني ما يتحمَّلُ المتحمِّلون»[3]، وفي المقام الأعلى: «كذبَ من ادعى محبَّتي، وإذا جَنَّهُ الليلُ نامَ عنِّي»[4].

كان (**أبو سليمان الداراني**) يَبكي حتى يَنْفَدَ الدمعُ من عينيه، وكان (**عطاءُ السلمي**) يبكي حتى لا يَقْدِرَ أنْ يبكي.

يا مُنْفِداً ماءَ الجفونِ   وكنتُ أُنفِقُه عليهِ
إنْ لم تكنْ عيني فأنتَ   أعزُّ مَنْ نظرتْ إليهِ

كانوا إذا ضيَّقَ الخوفُ عليهم الخناقَ نفَّسوه بالرجاءِ، فكان (**أبو سليمان**) يقول: إلٰهي إنْ طالبتني بذنبي[5] طالبتكَ بكَرَمِك، وإن أسكنتني النار بين أعدائِكَ، لأخبرنَّهم أني كنتُ أحِبُّك.

وكان (**يحيى بن معاذ**) يقول: إن قال لي يومَ القيامةِ: عبدي ما غرَّك بي؟ قلت: إلٰهي برُّك بي.

---

(١) **الضبة**: أنثى الضب.
(٢) في (ب): وتحفر لهن وتترك الباب عليهن وبعد أيام تنبشهنّ.
(٣) قال العزُّ بن عبد السلام في كتابه (قواعد الأحكام، ص٣٢): جاء في بعض الكتب الإلٰهية: «بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي».
ذكره في حلية الأولياء: ٤/ ٦٠؛ وصفة الصفوة: ٤/ ٣٦٦، ونسبه لوهب بن منبه عن بعض الكتب الإلٰهية.
(٤) نقله الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٤٢٤، ونسبه إلى الفضيل بن عياض، قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: كذب من ادَّعى محبتي فإذا جنَّه الليل نام عني».
(٥) في (ب): بذنوبي.

تجاسَرْتُ فكاشفْتُكَ لما غُلِبَ الصبرُ
وإنْ عنَّفني الناسُ ففي وجهِكَ لي عُذْرُ
[لأنَّ البدرَ محتاجٌ إلى وجهِكَ يا بدرُ][1]

* * *

(١) زيادة من (ب).

الفصل العاشر

إخواني! الدنيا غرَّارةٌ غدَّارةٌ، [خدَّاعةٌ][1] مكَّارةٌ، تُظَنُّ مقيمةً وهي سيَّارة، ومصالِحةً وقد شنَّت الغارة.

نــحِّ عــن نفسِــكَ القبيــحَ وصُنهــا	وتَــوَقَّ الــدُّنيــا ولا تــأمَنَنْهــا
لا تثِقْ بـالـدنـيء فمـا أبقتِ الـدنيا	لحــيٍّ وديعــةً لــم تخُنْهــا
إنَّمــا جئتَهــا لتستقبــلَ المــوتَ	وأُسْكِنْتَهــا لتخــرجَ عنهــا
سَتُخلّــي الــدنيــا ومــا لــك إلا	مــا تَبَلَّغْــتَ أو تــزوَّدتَ منهــا
وسيبقــى الحــديــثُ بعــدك فــانظــر	خيــرَ أُحــدوثــةٍ تكــونُ فَكُنهــا

كأنَّكَ بالموتِ وقد خَطَفَ، ثم عادَ إلى الباقي وعطف، تنبَّهْ لنفسِكَ يا بنَ النُّطَفِ، فقد حاذى الرامي الهدفَ، إلى كم تسيرُ في سَرَفٍ؟ ليتَ هذا العزمَ وقف، تؤخِّرُ الصلاةَ ثم تُنْشِئها كالبرقِ إذا خَطَفَ! أتجمعُ سوءَ كيلةٍ مع حَشَفٍ[2]؟ الجسدُ أتى والقلبُ انصرفَ، يامَنْ باعَ الدُّرَّ واشترى الخزف، أُبسُط بساطَ الحُزْنِ على رمادِ الأسف.

عليك حافِظٌ وضابطٌ، ليسَ بناسٍ ولا غالِطٌ، [يكتبُ الألفاظَ السواقط، وأنتَ في ليلِ الظلامِ خابط! يا مَنْ شابَ إلى كم تغالِط؟][3] ابْكِ ما مضى ويكفي الفارط.

ما للعيونِ قد أخلقت أنوارُها؟ وكَثُرَ نظرُها إلى الحرامِ فقلَّ بكاؤها، ما للقلوبِ المريضةِ قد عزَّ شفاؤها؟ سأكتبُ ضمانَ الآمالِ وأين وفاؤها؟

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) **سوء كيلة**: الوزن الخاسر، الحشف: أردأ التمر، يشير إلى المثل المشهور: «أَحَشَفاً وسوء كيلة» يضرب فيمن جمع بين أمرين سيئين.

(٣) زيادة من (ب).

آهٍ لأمراضِ نفوسٍ قد يَئِسَ طبيبُها، ولأصواتِ مواعظَ قد خَرِسَ مُجيبها.

هبَّتْ والله دَبورُ[1] الذنوبِ، فتركتِ الأجسامَ بلا قلوب!.

أينَ الفهمُ والتأمل؟ [إنْ لم يكن جميلٌ فليكن تجمُّلٌ][2].

إخواني! قد دنا الرحيل[3] لابدَّ وشيكاً من التحوُّل، رقيبُكم ـ يا غافلين ـ لا يغفل، أتذكرونَ الذنوبَ بلا تململ؟! يا مَنْ يَعِدُ بالتوبةِ كم تَمْطُل؟ يا ملازماً للهوى كم تَعْدِل[4]؟ المعاصي سُمٌّ واليسير[5] منه يقتلُ!.

يا هذا! الدنيا وراءَكَ، والأخرى أمامَك، والطلب لما وراءَك هزيمة، إنَّما يعجب الدنيا[6] مَنْ لا فهمَ له، كما أنَّ أضغاثَ الأحلامِ بشرى[7] النائم.

لُعَبُ الخيالِ يحسبُها الطفلُ حقيقةً، وأمَّا العاقِلُ فيعلمُ ما وراءَ الستر.

[رأيتُ خيالَ الظِّلِّ أكبرَ عِبرةً ... لِمَنْ هو في عِلْمِ الحقيقةِ راقِ
شُخوصٌ وأشْباحٌ تمرُّ وتنقضي ... جميعاً وتَفْنَى والمحرِّكُ باقِ][8]

كم أتلفتِ الدنيا بِيَدِ حِبها في بيداء طلبها؟! كم ساعٍ سعى إليها سعي الرُّخ[9] ردته معكوساً رَدَّ الفرازين[10]، الدنيا نهرُ طالوت، والفضائِلُ تنادي ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فإذا قامتِ الفاقةُ مقامَ ابن أم مكتوم[11]

---

(١) دبور: ريح تقابل الصبا.
(٢) زيادة من (ب).
(٣) في (ب): الترحُّل.
(٤) تعدل: تجور وتميل.
(٥) في (ب): القليل، وهما بمعنى واحد.
(٦) في (ب): يعجب بالدنيا.
(٧) في (ب): تسرّ.
(٨) البيتان من المطبوع.
(٩) الرُّخ: حجر من أحجار الشطرنج، يسمّى القلعة، ومكانه أركان الرقعة.
(١٠) الفرازين: جمع فرزان، وهو الشطرنج معرب فرزين، وهو بمنزلة الوزير للسلطان. انظر: تاج العروس: ٢ / ٣٠٠.
(١١) يعني مقام الأعمى؛ أي: ألجأته الضرورة.

أبيحت لها رُخصة ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ فأمَّا أهل الغفلةِ فارتوَوْا، فلمَّا قامت حرب الهوى، ثبَّطتهم البِطْنة، فنادَوْا بألسنة العجز ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وأقبلَ مُضمَّرُ الجدِّ فحازَ قَصَبَ السَّبْقِ.

كلُّ الشرِّ في الشَّرَه، واللَّذةُ خِناق مِنْ عَسَل، ومَنْ تبصَّر تصبر.

الحزْمُ مَطيَّةُ النُّجح، الطمعُ مَرْكَبُ التَّلَفِ، التواني أبو الفقر، البطالةُ أمُّ الخسران، التفريطُ أخو الندم، الكسلُ ابنُ عمِّ الحسرة، وما يحصلُ بردُ العيش إلا بِحرِّ التعب، ما العزُّ إلا تحت ثوبِ الكدِّ، على قَدْرِ الاجتهادِ تعلو الرُّتب.

لمَّا صابرَ النِّضو[١] مشقَّةَ السيرِ مُعْرِضاً عن أعراض المطاعم، زُيِّنَ بالجلال يومَ العيد، ولمَّا تكاسلتِ البَخاتي[٢] مَيْلاً إلى كثرة العلفِ وقعَ ببختها[٣] الذبحُ.

سابقُ الطير مكرَّمٌ، والديكُ الحاذِقُ بالصياحِ ناطق[٤].

إذا صُبَّ في القنديلِ زيتٌ، ثمَّ صُبَّ عليه ماءٌ، صعِدَ الزيتُ فوقَ الماء، فيقولُ الماء: أنا ربَّيْتُ شجرتَكَ فأينَ الأدب؟! لِمَ تَرْتفع عليَّ؟!.

فيقول الزيتُ: أنتَ في رَضْراضِ[٥] الأنهارِ تجري على طريق السلامة، وأنا صبرتُ على طَحْنِ الرحا والعصر، وبالصبرِ يرتفعُ القَدْرُ.

فيقول الماء: إلا أني أنا الأصلُ.

فيقول الزيتُ: أُستر عيبَك، فإنكَ لو وليت[٦] المصباحَ انطفأ.

يا بعيداً عن المجاهدةِ! قد اقتسمَ الرعيلُ الأوَّلُ النَّفل[٧]، أما ترى أسلابَ الهوى كيف يبيعُها أربابها في سوقِ الافتخار بالنضِّ[٨] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

---

(١) النضو: البعير المهزول، ويشير إلى الصائم المجاهد نفسه.

(٢) البخاتي: جمع بُختيّ: الإبل الخراسانية ذات السنامين.

(٣) بَختها: حظها.

(٤) في (ب): مطلق.

(٥) رضراض: ما دق من الحصى.

(٦) في (ب): قاربت.

(٧) النفل: الغنيمة.

(٨) النض: القليل.

يا من قد انحرفَ عن جادَّتِهم، كم أُحركك بِسَوْطِ الشوقِ في شَوْطِ السوق، سَهْم عَزْمِك بلا ريش، إنَّما يقع [وقتَ][1] الرمي بين يديك.

يا مُخنَّث العزيمة! أقل[2] ما في الرقعة البيدقُ، فلمَّا نهضَ تفرزنَ[3].

رأى بعضُ الحكماءِ برذوناً يُسْتقى عليه، فقال: لو هَمْلجَ[4] هذا لرُكِبَ.

متى همَّت أقدامُ العزمِ بالسلوكِ اندفعَ مِنْ بين يديها ما يَسدُّ القواطعَ، ومتى هابَ الغائصُ موجَ البحر لم يُطْمَعْ له في نيلِ الدُّرِّ، يا مَنْ عَقَدَ عزمه بأنشوطة[5] والهوى يُمدُّها للحلّ، إنْ عرفْتَ من عزيمتكَ الثبوت في صفِّ المجاهدة، وإلا فاحذرْ هتكةَ الهزيمة.

كان (**ذو البجادين**)[6] يتيماً، فلمَّا عمَّه الفقرُ كفله عمُّه، فنازعته النفسُ إلى الإسلام، فهمَّ بالنهوض، فإذا بقيَّةُ المرضِ مانعةٌ، فقَعَدَ على انتظارِ العمِّ، فانتهى المرضُ، فصارتِ الهمَّةُ عزيمةً، فنفدَ الصبرُ، فناداه صدقُ الوجدِ.

(لمهيار)[7]:

إلى كَمْ حبسُها تشكو المضيقا	أَثِرْها رُبَّما وجدتْ طريقا
أَجِلْها تطلبُ القُصوى ودَعْها	سُدًى يرمي الغُروبُ بها الشُّروقا
أتعقِلُها وتقنعُ بالهُوينا	تكونُ إذن بِذِلّتها خليقا
ولم يُشفِقْ على حَسَبٍ غلامٌ	يكون على ركائبه شفيقا

فقال: يا عمِّ كيف أنتظرُ سلامتك بإسلامِك، وما أرى زمِنَ[8] زمنِكَ ينشط؟!.

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) في (ب): زيادة (ما بقي).

(٣) يعني: إذا انفرد البيدق في رقعة الشطرنج وارتقى يكون فرزاناً.

(٤) **هملجت الدابة**: سارت سيراً حسناً في سرعة.

(٥) **أنشوطة**: عقدةٌ يسهل انحلالها.

(٦) **ذو البجادين**: هو عبد الله المزني الصحابي.

(٧) مطلع قصيدة كتبها إلى كمال الملك أبي المعالي في النيروز. انظر: ديوانه: ٢/ ٣٥٣.

(٨) **زَمِن**: مريض.

فقال: والله لئنْ أسلمتَ لأنتزعنَّ كلَّ ما أعطيتُك.

فصاح لسانُ الشوق: نظرةً من محمد ﷺ أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها، هذا مذهب المحبِّين، إجماعاً من غير خلاف.

ولو قيلَ للمجنونِ: ليلى وَوَصْلَها تـريـدُ أم الـدُّنيا وما في خبايـاها
لقـال: تـرابٌ مـن غبـارِ نعـالهـا ألـذُّ إلـى نفسـي وأشفَـى لبلـواهـا

فلمَّا تجرَّدَ لطلب الثواب، جرَّده العمُّ من الثياب، فناولته الأمُّ بجاداً[1]، فقطَّعه لِسَفَرِ الوصل، فائتزَرَ وارتدى، وغدا في هيئة «**ربَّ أشْعَثَ أغبرَ**»[2].

سنـــةُ الأحبـــابِ واحـــدةٌ فـــإذا أحببـــتَ فـــاستَنِـــنِ

فنادى صائحُ الجهادِ في جَيْشِ العُسْرةِ، فتبع ساقةَ الأحبابِ على ساقٍ، والمحبُّ لا يَرى طولَ الطريق، إنَّما يتلمَّحُ المقصِدَ.

ألا بَلَّـغَ اللهُ الحِمَـى مَـنْ يـريـدُه وبَلَّـغ أكنـافَ الحِمَـى مَـنْ يـريـدُهـا

فحمل جلدةً فوقَ الجلدِ، إلى أنْ نَـزَلَ منزلَ التَّلَفِ، فنزلَ الرسولُ ﷺ في حُفرتِه، يُمهِّدُ له اللَّحْدَ لِمَأمورِ «إذا رأيت لي طالباً فكنْ له خادماً» وجعلَ يقول: «**اللهمَّ إني أمسيتُ راضياً عنه فارْضَ عنه**».

فصاح ابنُ مسعود: ليتني كنتُ صاحبَ الحُفْرة[3].

كـذلـك الفخـرُ يـا همـمَ الـرِّجـالِ تعـالَـيْ فـانظـرِي كيـفَ الفعـالِ[4]

* * *

---

(١) **بجاد**: الكساء الغليظ الجافي.

(٢) رواه مسلم، وتمامه: «**لو أقسم على الله لأبرَّه**».

(٣) انظر قصته في: سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٢٧-٥٢٨.

(٤) في (ب): التعالي.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَرَ

أيتها النفس أقلعي عن الجُناح[1] وتوبي، وارجعي إلى الصَّلاحِ وأُوْبي[2]، أيتها النَّفْسُ! قد شان شأني[3] عيوبي، أيتها الجاهلةُ تكفيني ذنوبي.

يا ويحَ نفسي مِنْ تتابعِ حُوَبي[4]	لو قدْ دعاني للحسابِ حَسِيبي
فاستيقظي يا نفسُ ويحَكِ واحذري	حذراً يُهيجُ عَبْرتي ونحيبي
واستدركي ما فاتَ مِنْكِ وسابقي	سَطَواتِ موتٍ للنفوسِ طَلوبِ
وابكي بكاءَ المستغيثِ وأَعْولي	إعوالَ عانٍ[5] في الوَثاقِ غريبِ
هذا الشبابُ قد اعتللتُ بِلَهْوِهِ	أفليسَ ذا يا نفسُ حينَ مشيبي؟
هذا الزمانُ يَكِرُّ ويْحَك دائباً	يجري بِصَرْفِ حوادثٍ وخطوبِ
هذا رقيبٌ ليسَ عني غافلاً	يُحصي ـ عليَّ ولو غَفَلْتُ ـ ذنوبي
أفليسَ مِنْ جهلٍ بأني نائمٌ	نومَ السفيهِ وما ينامُ رقيبي

آهٍ لنفسٍ تركتْ يقينَها، وتبعَتْ آمالها! ما لها جهلتْ ما عليها وما لها؟ أما ضُرِبَتِ العِبَرُ بأخذِ أمثالِها أمثالَها؟ مَنْ لها إذا نازلَها الموتُ فغالها؟ وأخذَ منها ما أنالها وقد أنى[6] لها، ليتها تفقَّدتْ أمورَها، أو شاهدت حالها، تحضر المجلس بنيَّة فإذا قامت بدا[7] لها، ويحها لو ترى جزاءً مِنْ ما لَها لهالها[8].

(لابن المعتز):

---

(١) **الجناح**: الإثم والمعصية.
(٢) **الأوب**: الرجوع. **والأوّاب**: كثير الرجوع إلى الله عزّ وجلّ.
(٣) **شان**: عاب. **شأني**: أي حالي.
(٤) **حوبي**: جمع حوبة: الإثم.
(٥) **عان**: أسير. **والإعوال**: رفع الصوت بالبكاء.
(٦) **أنى**: كَرَمى، بمعنى حان وأدرك، يشير إلى قرب الأجل.
(٧) **بدا لها**: ظهر لها خلاف ما عزمت عليه.
(٨) أي: لو رأتْ بعض ما أعد لها من العذاب لأرعبها.

وكــم دَهَــى المــرءَ مــن نفسِــه ... فــلا يــؤكَلــنْ بِــأنيــابهــا
وإنْ أمكنَــتْ فــرصــةٌ فــي العــدوِّ ... فــلا تُبــدِ فِعلــك إلا بهــا

قال (**أبو يزيد**): رأيتُ الحقَّ جلَّ جلاله في المنام، فقلتُ: يا ربِّ! كيف أجدُكَ؟ قال: فارِقْ نَفْسَكَ وتعالَ.

جاء رجلٌ إلى (**أبي عليٍّ الدقاق**)، فقال: قد قطعْتُ إليكَ مسافةً، فقال: ليس هذا الأمر بقطعِ المسافاتِ، فارقْ نفسَك بخَطْوة وقد حصلَ مقصودُك، لو عَرَفتْ نفسُك التحقيقَ لسارتْ معك في أصعبِ مَضيق، لكنَّها أَلِفَت التفَاتَك، فلمَّا طلبت قهرها فاتَكَ[1].

هلاَّ شددت الحيازم[2]، وقمتَ قيامَ حازمٍ [وفعلتَ فعلَ عازمٍ، وقطعْتَ على أمرٍ جازمٍ][3] تقصِدُ الخيرَ، ولكن ما تلازم.

ويَعْــرِفُ أخــلاقَ الجَبــانِ جــوادُه ... فيُجْهِــدُهُ كَــرّاً وَيُــرْهِقُــهُ ذُعْــرا
ومَنْ يَحْلُ تِطلابُ المعالي بصدرِه ... يجد حُلوَ ما يُعطاهُ من غيرِها مُرَّا

حريمُ العزمِ الصادق حرامٌ على المتردِّد، متى تحزَّم العزمُ هَزَم، لو رأيتَ صاحبَ العزم وقد سرى حين رقدت السراحين[4]، بهمَّة تحلُّ فوق الفرقد[5]، فلنفسِه نفاسَةٌ، ولأنفِه أنفَةٌ، سهم الشهم مُفَوَّق[6] فوق عُرْضَةِ الغرض[7].

كان (**الفضيلُ**) ميتاً بالذنوب، و(**ابنُ أدهمَ**) مقتولاً بالكبر، و(**السَّبتيُّ**) هالكاً بالملك، و(**الجنيدُ**) مِن جَيّد الجند، فَنُفِخَ في صُورِ المواعظِ، فدبَّتْ أرواحُ الهدى في موتى الهوى، فانشقَّتْ عنهم قبورُ الغفلةِ، وصاحَ إسرافيلُ الاعتبارِ:

---

(١) **فاتك**: تجاوزك ومضى عنك ؛ أي: المقصود.
(٢) **الحيازم**: جمع حيزوم: الصدر وما يُضم عليه الحزام.
(٣) زيادة من (ب).
(٤) **السراحين**: جمع سرحان ، وهو الذئب.
(٥) **الفرقد**: نجم قريب من القطب وهما فرقدان.
(٦) **فاق السهم**: وضع فُوقَهُ في الوتر ليرمي به.
(٧) **الغرض**: الهدف والدريئة.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣].

إنَّما سمعَ (**الفضيلُ**) آيةً، فذلَّتْ نفسُه لها واستكانتْ، وهي كانت.

إنَّما زُجِرَ (**ابنُ أدهمَ**) بكلمةٍ كَلَمت[1] قلبَه، فانقلبَ هاتفٌ عاتَبه ولام، أخرجه من بَلْخ إلى الشام.

كانت عقدةُ قلوبهم بأنشوطة، ومَسَدُ[2] قلبِك كلُّه عُقَد.

لاحت للقومِ جادَّة السلوك فـ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت ٣٠].

هيهات منك غبارُ ذاك الموكبِ، ركبوا سُفُنَ العَزْمِ، فهبَّتْ لهم رياحُ العَوْنِ، فقطعوا بالعلم لُجَجَ الجهلِ، فوصَلُوا إلى إقليمِ أرضِ الفهْمِ، فأرْسَوْا على ساحلِ بلد الوصل.

إذا استصلحَ القَدرُ أرضَ قلبِ قَلَبها بمحراثِ الخوف، وبَذَرَ فيها حَبَّ المحبَّةِ، وأدار لها دُولابَ العين، وأقامَ ناطورَ المراقبةِ، فتربى زرعُ التقى على سوقه.

أصفهم لِمَنْ؟ أذكرهم عِنْدَ مَنْ؟ أنثرُ الدُّرَّ على دمن[3]؟!.

بَلِّغْ سلامي بالغُويْرِ[4] جِيْرةً ... قلبي - وإن حَالُوا - إليهم تائِقُ
فارقتُهم كُرهاً وليتَ أنَّني ... للرُّوحِ مِنْ بعدهمُ مفارِقُ
ولستُ أنساهُمْ وإنْ تَقَطَّعتْ ... بالبُعدِ فيما بيننا علائِقُ

يا نفسُ، عندَ ذِكْرِ الصالحينَ تبكينَ، وعندَ شرحِ جِدّهم تئنِّينَ[5]، وإذا تصوَّرتِ طيبَ عيشهم تحنِّينَ، فإذا عَرفْتِ قيامَهم بالخدمةِ تنكبين[6].

---

(١) **كلمت**: جرحت.
(٢) **مسد**: حبل من ليف.
(٣) **دمن**: جمع دمنة، وهي المزبلة.
(٤) **الغوير**: كزبير؛ ماء لبني كلب.
(٥) **تئنين**: من الأنين، وهو صوت بتوجع.
(٦) **تنكبين**: تعدلين وتنصرفين.

(لمهيار)[1]:

أَمِـنْ خفـوقِ البَـرْقِ تَـرْزُمِيْنـا[2] حِنّـي فمـا يَنْفَعُـكِ الحَنِيْنَـا
سِيـري يمينـاً وسُـراكِ شـأمـةً فَضِلُّـةٌ مـا تتلفَّتينـا
نعـم تُشـاقيـنَ وأشتـاقُ لـه ونُعْلِـنُ الـوَجْـدَ وتكتُمينـا
فـأيـنَ منـا اليـومَ أو منـكِ الهـوى وأيـنَ نجـدٌ والمغـوِّرينـا[3]

لما اشتغلَ القومُ بإصلاحِ قلوبهم أعرضوا عن إصلاح أبدانهم، عَريَ (أويسٌ)[4] حتى جلس في قوصرة[5]، وقدم (بشرٌ)[6] من عبّادان[7] وهو مُتَّشِحٌ[8] بحَصير.

(للسموءل):

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤمِ عِرْضُه فكـلُّ رداءٍ يـرتـديـه جميـلُ
وإنْ هو لم يَحْمِلْ على النفسِ ضيمَها فليـسَ إلـى حُسْـنِ الثنـاءِ سبيـلُ

كان (أويسٌ) يلتقط النوى فيبيعُه بما يفطِرُ عليه، فإذا أصابَ حَشَفةً ادَّخرها لإفطارِهِ، ويجمعُ الخِرَقَ من المزابل، فيغسلها في الفراتِ، ويُرقِّعها ليستُرَ عورته، ويفرُّ من الناس فلا يجالسهم، فقالوا: مجنون.

لا تصحُّ المحبَّةُ حتى يُمحى الاسم المعروف باسمٍ متجدِّد، فإنَّ اسم قيس نُسِيَ وعرف بالمجنون.

---

(١) من قصيدة كتب بها إلى الرئيس أبي طالب في المهرجان. انظر: ديوانه: ٤/ ١٣٧.
(٢) **ترزمين**: تحنين.
(٣) **المغور**: الذاهب في الغور، ومنه غور تهامة. **والغور**: ما انخفض من الأرض، بخلاف النجد.
(٤) **أويس**: القرني.
(٥) **قوصرة**: وعاء التمر.
(٦) بشر بن الحارث الحافي.
(٧) مدينة على شط العرب من الجهة الشرقية تقع في بلاد فارس.
(٨) من **الوشاح**: ثوب يوضع على العاتق ويخالف بين طرفيه.

لــــولا جنـــونـــي فيـــكِ مـــا قعـــدَ العـــواذِلُ لـــي وقـــامـــوا
أوَلـــي يلـــومُ العـــاذلـــونَ وليـــسَ لـــي قلـــبٌ يـــلامُ

بنى أهلُ **أويسٍ** له بيتاً على باب دارهم، فكانت تأتي عليه السنون لا يَـرَوْنَ له وجهاً، وكان إذا خرجَ يمشي تَضْرِبُ الصبيانُ عَقِبيه بالحجارة حتى تَدْمى، وهو ساكتٌ، ولسانُ حاله يقول:

ولقِيـتُ فـي حُبِّـكَ مـا لـم يلقَـه فـي حُـبِّ ليلـى قيسُهـا المجنـونُ
لكننـي لـم أتَّبِـعْ وحـشَ الفـلا كفِعـالِ قيـسٍ والجنـونُ فنـونُ

لقي بعضُ الجند (**إبراهيم بن أدهم**) في البرية، فقالَ له: أين العمران؟ فأومأ بيده إلى المقابر، فضربَه فشجَّ رأسَه، فقيل له: هذا ابنُ أدهم، فرجعَ يعتذِرُ إليه، فقال له إبراهيم: الرأسُ الذي يحتاجُ إلى اعتذاركَ تركته ببَلْخ.

يا قومُ رضيتُ بالهوى سفكَ دمي عِـزِّيَ ذُلِّـي وصحتـي فـي سقمـي
مَنْ باتَ على مواعيدِ اللِّقا لم ينَمِ عُـذَّالـيَ كُفُّـوا فـي مَـلامـي ألمـي

مرَّ رجلٌ **بابن أدهم** وهو ينظر كَرْماً[1]، فقال: ناولني من هذا العنب، فقال: ما أذن لي صاحبُه، فقلبَ السَّوْط وضرب رأسه، فجعل يطأطئ رأسَه، ويقول: اضرب رأساً طالما عصى الله.

مِنْ أجلكَ قد جعلتُ خَدِّيَ أرضا للشـامـتِ والحسـودِ حتـى تـرضـى
مـولاي إلـى متـى بهـذا أحظـى عمـريَ يفنـى وحـاجتـي مـا تُقضـى
لـو قطَّعنـي الغـرامُ إرْبـاً إرْبـا مـا ازْددْتُ علـى المُـلامِ إلا حُبَّـا
مـازلْـتُ بكـم أسيـرَ وَجْـدٍ صبّـا حتـى أقضـي علـى هـواكُـم نَحبـا

كان **ابن أدهم** يستغيثُ من كرْب وجدِه، ويبولُ الدمَ من شدَّة[2] خوفه، فطلبَ يوماً سكوناً مِنْ قَلَقِه! فقال: يا ربِّ! إن كنتَ وهبْتَ لأحدٍ من المحبِّين لك

(١) أي: يحرس أشجار عنب. يقال: ينطر وينظر.
(٢) في (ب): كثرة.

ما يستريحُ به، فهبْ لي، فقيل له في نومه: وهل يَسْكُنُ محبٌّ بغيرِ حبيبِه؟.

الجســـمُ يُــذيبُــه الأسَــى والسُّهْــدُ   والقلــبُ ينــوبُــه الجــوى والكَمَــدُ
قــد وُجــدوا وهكــذا مــا وَجــدوا   مــا جُــنَّ بهــم مثــلَ جنــونــي أحــدُ
شــوقٌ وجــوًى ونــارُ وجــدٍ تَقِــدُ   مــا لــيَ جَلَــدٌ ضَعُفْــتُ مــا لــيَ جَلَــدُ

* * *

الفصل الثاني عشر

عجباً لذاكرِ الموتِ كيف يلهو، ولخائف الفوت كيف[1] يسهو، ولمتيقنِ حلولِ البِلَى ويزهو، وإذا ذُكِرَتْ له الآخرةُ مَرَّ يلغو!.

(لأبي العتاهية)[2]:

إنّـي أَرِقْـتُ وذكـرُ المـوتِ أَرّقنـي	فقلتُ للدمعِ: أَسْعِدْني[3] فأسَعدَني
إنْ لـم أبـك لنفسـي مُشْعِـراً حَـزَنـاً	قبـلَ الممـاتِ ولـم آسـفْ لهـا فَمَـنِ
يـا مَـنْ يمـوتُ فلـم تُحْـزِنْـهُ مِيْتَتُـهُ	ومَـنْ يمـوتُ فَمَـا أولاهُ بـالحَـزَنِ
لمـن أثَمِّـرُ أمـوالـي وأَجْمَعُهـا	لِمَن أروحُ؟ لِمَنْ أَغْدُو؟ لِمَنْ لِمَنِ؟
لمـن سَيَعْمُـرُ لـي لَحْـدِي ويتـرُكنـي	في حُفْرَتـي تَـرِبَ الخَدَّيْنِ والـذَّقَنِ

يا غافلاً عن الموت وقد لَدَغَه، أخذَ قرينَه فقتلَه ودمغَه، تأمّلْ صنعَ الدّهرِ بالرأسِ إذْ صبغَه، بأيِّ حديثٍ ترعوي أو بأي لغة؟.

كم رأيتَ مغروراً قبلك؟ كم شاهدتَ منقولاً مثلك؟.

مَنْ أباد أقرانك؟ ومن أهلَكَ أهلك؟.

لقد نادى الموتُ وقال: ما أنا بالذي إذا سُئِلَ أقالَ[4]، أنا الذي إذا مالَ على القويِّ أمالَ، أخذتم أماني[5]! يا أهل الأماني[6] والآمال.

---

(١) في (ب): وهو.

(٢) وجدت بعض هذه الأبيات في ديوانه، بتحقيق د. شكري فيصل رحمه الله، ص٣٩٧.

(٣) **أسعدني**: عاوني في البكاء.

(٤) **أقال**: فسخ البيع، أي: إذا سئل الرجعة لم يستجب.

(٥) **أماني**: حمايتي، من الأمان.

(٦) **الأماني**: جمع أمنية: وهي ما تريده وترغب فيه وتودّه في المستقبل مما ليس بيدك حاضراً.

أينَ من كان في رَوْحٍ وسَعَة؟ نقلتُه إلى مكانٍ ما وَسِعَه! أينَ مَنْ كان يُخافُ لِبَاسِه؟![1] انظروا ماذا عَوَّضْتُه من لِباسِه!.

أين مَنْ كان على نسائه شديدَ الغَيْرَة؟ أما رحل عنهنّ فاخترنَ غَيْرَه؟!.

أين مَنْ كان يسري آمناً في سِرْبِه[2]؟ أما قيل للتلف: خُذْه، وسِرْ بِه؟!.

أمَا عاقبـةُ الأُلفةِ فُرقـةٌ؟ أما آخِرُ جرعةِ اللَّذةِ شَرْقةٌ[3]؟ أما خِتامُ الفرحِ قلقٌ وحُرقةٌ؟ أما زادُ ذي المالِ إلى القبرِ خِرْقَةٌ؟!.

أعِرْ سـمعك الأصوات، فهل تسـمعُ إلا فلانـاً مات؟ أجِلْ[4] بصرَكَ في الفلوات فهل ترى إلا القبورَ الدارسات؟!.

قَـوَّضَ المـوتُ طَـوْدَ عِـزهِـمُ الشا ... مِـخَ قَسْـراً والـدَّهـرُ ذو حـدَثـانِ
واسْتَــــردَّ الــــذي أعــــارَ وللـ ... أيَّــامِ ظهْــرَ خُشــونــةٍ وليــانِ
وإذا صــاحَ صــائـحُ المـوتِ بقـو ... مٍ غَـدوْا كـلَّ واحـدٍ فـي مكـانِ

يا ساكناً مسكنَ مَنْ قد أُزْعِج! يا شارباً فضلة من شَرِق، تصحو في المجلسِ ساعةً من خُمارِ الهوى، ثم تَسليكَ حُميا الكأس[5].

هيهات ليس في البرق اللامع مُستَمتَعٌ لِمنْ يخوضُ الظلمةَ، كم أعطِفُ عِطْفَك[6] بلجامِ العِظةِ إلى عَطْفةِ اليَقَظةِ، فإذا انقضى المجلس عاد الطبع ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ [الحج: ٩]. «وتأبى الطباعُ على الناقِلِ»[7].

---

(١) لباسه: أي لبأسه: شدته في الحرب.
(٢) سِرْبه: السَّرب هو الطريق، أي: في منقلبه ومنصرفه.
(٣) شرقة: غصة.
(٤) أجِلْ: انظر وتأمل.
(٥) حُميا الكأس: أوّل سورتها وشدتها.
(٦) أعطف: أُميل. عطفك: العطف الجانب من لدن الرأس إلى الوِرْك، عطفة: اسمُ مرّةٍ من عَطَف: أي مال.
(٧) عجز بيت صدره: يرادُ من القلبِ نسيانكم وهو للمتنبي من قصيدة مطلعها:
إلامَ طـــواعيــــة العــــاذل ... ولا أرى فـــي الحـــب للعــاقــل

يا من قد لَجَّ في لُجّةِ بحر الهوى! قارِب الساحلَ في قارِبٍ[١]، دنا رحيلُ الفُرقةِ، وما اشتريتَ للمسيرِ قوتَ ليلةٍ!.

كلَّما جدَّ اللعِبُ فتَرَ النشاطُ في الجدِّ.

صَحِّحْ نَقْدَةَ[٢] عملِكَ فقدِ انقرضَتْ أيامُ الأسبوعِ.

جوّد غَزْلَكَ[٣]، فلربَّما لم تُسامَحْ وقتَ الوزنِ.

صابر غَبَشَ العيشِ فقد دنا فجرُ الأجرِ.

انتبه لاغتنامِ عُمُرك، فكم يعيشُ الحيوان؟!.

مَدَّ بحرُ القدرة، فجرى بمراكبِ الصورِ، فَرَسَتْ على ساحلِ إقليمِ الدنيا، فعاملَتْ في موسمِ الحياة مُدَّةَ الجَزْرِ، ثم عادَ المدُّ، فرَدَّ إلى برزخِ التربِ، فقذفَ محاسنَ الأبنيةِ إلى حُفَرِ اللُّحودِ، وسيأتي طوفانُ البعثِ عن قربٍ، فاحذر أن تُدفَعَ دونَك سفينةُ النجاةِ، فَتَسْتَغيثَ وقتَ الفوتِ ولا عاصمَ، كأنّك بكَ في قبرِكَ، على فراشِ النّدَمِ، وإنّه [والله][٤] لأخشنُ مِنَ الجندلِ[٥].

فازْرعْ في ربيعِ حياتِكَ قبلَ جُدوبِ أرضِ شَخْصِكَ، وادّخِرْ من وقتِ قُدْرَتِكَ لزمانِ عَجْزِك، واعتبرْ رَحْلَكَ قبلَ رحيلكَ، مَخافةَ الفقرِ في القَفْرِ إلى لازِمِ الأخذِ[٦] ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: ٥٦].

يا هذا! مثّل لنفسِكَ صرعةَ الموتِ، وما قد عزمْتَ أن تفعلَ حينئذٍ وقتَ الأسرِ؛ فافعله وقتَ الإطلاق.

(لقيس بن ذريح):

أتبكي على لُبْنَى وأنتَ تركتَها ... فكنتَ كآتٍ حتفَهُ وهو طائعُ

فيا قلبُ خَبِّرْني إذا شَطّتِ النوى ... بِلُبْنَى، وبانَتْ عنكَ، ما أنتَ صانعُ؟

---

(١) **قارب الأولى**: من المقاربة والمحاذاة. **وقارب الثانية**: الزورق.

(٢) **نقدة**: أي جوهر وحقيقة عملك.

(٣) في (ب): غزل عزمك.

(٤) زيادة من ب.

(٥) **الجندل**: الصخر العظيم.

(٦) **لازم الأخذ**: ما يلزمُ أخذه من زاد السفر إلى الآخرة.

كأنك بحرب التَّلَف[١] قد قامت على ساق، فانهزمتْ جيوشُ الأملِ، وإذا بملكِ الموتِ قد بارزَ الروحَ، يجتذِبُها بخطَاطِيفِ الشدائدِ من تيارِ أَوْتَارِ العروقِ، وقد أُوثِقَ كتافُ الذبيحِ، وحارَ البصرُ لشدّةِ الهولِ، وملائكةُ الرحمةِ عن اليمينِ، قد فتحوا أبوابَ الجنةِ، وملائكةُ العذابِ عن الشمالِ، قد فتحوا أبواب النيرانِ، وجميعُ المخلوقاتِ تستوكِفُ[٢] الخبر، والكونُ كلُّه قد قامَ على صيحة؛ إما أن يقال: سَعِد فلانٌ، أو شقيَ فلانٌ، فحينئذٍ تتجلَّى أبصارُ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ [الكهف: ١٠١]، ويحك تهيأ لتلك الساعة، حَصِّل زاداً قبلَ العَوَزِ.

(للصمّةِ القُشيري):

تَمَتَّــعْ مِــنْ شَمِيْــمِ عَــرَارِ نَجْــدٍ فمــا بَعْــدَ العَشِيَّــةِ مِــنْ عَــرَارِ

وا أسفاه من حياةٍ على غرورٍ، وموتٍ على غفلةٍ، ومنقلَبٍ إلى حَسْرةٍ، ووقوفٍ يومَ الحسابِ بلا حُجةٍ.

يا هذا! مَثِّل نفسَك في زاويةٍ من زوايا جهنم، وأنت تبكي أبداً، وأبوابُها مُغْلَقَةٌ، وسقوفُها مُطْبَقَةٌ، وهي سوداءُ مظلمةٌ، ولا رفيقَ تأنَسُ به، ولا صديقَ تشكو إليه، ولا نومَ يُريحُ، ولا نَفَسَ به تستريحُ.

قال كعب[٣]: إنَّ أهلَ النار ليأكلونَ أيديهم إلى المناكب من الندامةِ على تفريطهم، وما يشعرون بذلك.

يا مطروداً عن الباب! يا مضروباً بِسَوْط الحجاب! لو وَفَّيْتَ بعهودنا ما رميناك بصدودنا، لو كاتبتنا[٤] بدمع الأسف لعفونا عن كلِّ ما قد سلف.

---

(١) **حرب التلف**: يشير إلى الموت.

(٢) **توكّف الخبر**: توقع الخبر وسأل عنه.

(٣) ما رواه كعب الأحبار هذا لم نجده في أي مصدر مُيسَّر بأيدينا، وهو مما يتعلق بغيب لا يُدرى إلا عن طريق النبوة، فلا نثبته إلا إذا تأكد بحديث عن الرسول ﷺ.

(٤) **كاتبتنا**: من المكاتبة، وهي أن يدفع العبد لسيده المال الذي اتفقا عليه أقساطاً وبعدها يصبح العبد حرّاً. والأقساط ـ هنا ـ دمع الأسف على ما سلف.

ولــو أنّهــم عنــد كشْــفِ القِنــاع وحَــلِّ العقــودِ ونَقْــضِ العهــودِ
وخَلْعِهـــمُ لعِـــذارِ الحيـــاءِ ولُبْسهـــمُ لبـــرودِ الصـــدودِ
أنــاخــوا بــأبــوابنــا ســاعــةً وأجْــرَوْا مَــدَامِعَهُــمْ فــي الخُــدُودِ
لعُــدنــا ســراعــاً إلــى وصلهــم وقُلْنــا: قلــوبَ المحبيــن[1] عــودي

* * *

(١) قلوب المحبين: هذا نداء بإسقاط أداة النداء (يا).

الفصل الثالث عشر

كم أخرجَ الموتُ نفساً من دارها لم يُدارِها[1]، وكم أنزل أجساداً بجارها لم يجارِها، وكم نقلَ ذاتاً ذات خَطَأ بأوزارِها، وكم أجرى عيوناً كالغيوث[2] بَعْدَ بُعْدِ مزارها.

يـا مُغْـرَمـاً بـوصـالِ عيشٍ نـاعـمٍ	سَتُصَـدُّ عنـه طـائعـاً أوْ كـارهـا
إنَّ المنيـةَ تُـزْعِـجُ الأحـرارَ عَـنْ	أوطـانِهـم والطيـرَ عـن أوكـارِهـا

إخواني! قد حامَ الحِمام[3] حول حِمَاكُم، وصاحَ بكم إذا خلا النادي وناداكم، وأوْلاكم من النصح حقَّكم، فما أحقكم بالتدبر وأوْلاكم، وهو عازِمٌ على اقتناصِكم، وما المقصودُ سواكم.

كم أخلى الموتُ داراً داراً؟ أم اسْتلبَ كسرى بن دارا؟ [أدَارَى][4] لما أخذ داراً؟ أما ترك العامرَ قفاراً؟ أما أذاق الغصصَ المُرَّ مِراراً؟ لقد جال يميناً ويساراً، فما حابى فقراً ولا يساراً.

يا هذا! مطايا العمر قد أعْنَقَتْ[5]، وأنتَ في مسامرةِ الأمل، معاوِلُ الساعاتِ تَهْدِمُ حائطَ الأجل، فرائسُ المُهَجِ في مَضَابِثِ[6] أَسَدِ المنايا، أَسِنّةُ القنا مُشْرَعَةٌ ولا دِرْعَ، عقارِبُ الخِدَع دائمةُ اللّسْعِ، غير أنَّ خَدَران الغفلة يمنع الإحساس بسريان السُّم، آه من مُثاقفٍ[7] ما ينتهي عن المقتل.

---

(١) يدارها: من المداراة.

(٢) في (ب): كالعيون.

(٣) الحِمام: الموت.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) أعنقت: من العَنَق: وهو السير السريع.

(٦) مضابث: كمخالب وزناً ومعنًى.

(٧) مثاقف: الرمح المُسوّى.

الناسُ في الدنيا ككيزانِ الدّولابِ[1]، فالشاب مثل الممتلي، والكهل قد فرغ بعضه، والشيخ لم يبقَ فيه شيءٌ.

الشاب المتقي في مقام ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، والكهل المنحط في مرتبة ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، والشيخ في حيز «تَجِدُنِي عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهم»[2].

يا من قد انطوى بُرْدُ شبابه، وخُبِّئَتْ خِلَعُ تَلَفه، وبلغت سفينتُه ساحلَ سفره، قف على ثنيّةِ الوداع، «فلم تبقَ إلا نظرةٌ تُغْتَنَمُ»، لو فتحتَ عين اليقظة لرأيت حيطانَ العمرِ قد تهدّمت، فبكيتَ على خرابِ دارِ الأجل.

صاح ديكُ الإيقاظِ في سَحَرِ ليلِ العِبَر فما تَيَقَّظْتَ! فستنتبه إذا نعق غرابُ البَيْن[3] بينَ البينِ[4]:

ومُشَتَّـتِ العَـزَمـاتِ يُنْفِـقُ عمـرَه حيـرانَ لا ظَفَـرٌ ولا إخفـاقُ

لا في الشبابِ وافقتَ، ولا في الكهولة رافقتَ، ولا في الشيبِ أفقْتَ، ولا من العتابِ أشفقتَ، وكأنّك ما آمنتَ بالمعاد ولا صدّقتَ!.

يا مقيماً على الهوى وليس بمقيم! يا مُبَذِّراً في بضاعة العمر، متى يُؤْنَسُ منكَ رُشْدٌ؟!.

يا أكمه البصرِ! لا حيلةَ فيه لعيسى، يا طويلَ الرقاد ولا نومَ أهل الكهف، كيفَ يُفلح من هو والكسل كندماني جذيمة[5]؟!.

---

(١) **كيزان الدولاب**: أوعية الناعورة: وهي دولاب ذو دلاء، يدور بدفع الماء فيخرج الماء من النهر.

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة: ذكره الغزالي في البداية، ولا أصل له في المرفوع إلى النبي ﷺ. كشف الخفا: ١/ ٢٣٤.

(٣) **نعق غراب البين**: صاح بالفراق، وبان: باين وفارق.

(٤) **البين**: الوصل.

(٥) كان جذيمة ملك الحيرة قد جمع غلماناً من أبناء الملوك يخدمونه، منهم عديّ بن نصر، وكان لعديٍّ هذا حظٌّ من الجمال فعشقته رَقَاش أخت جذيمة، فقالت له: إذا سقيتَ الملك فسَكِر فاخطبني إليه، وكان ما طلبت، ولما صحا جذيمة من سُكره ودرى ما فعل=

الدّنيا مضمارُ سباقٍ، وليل سُرًى، وطالبُ الراحة يخيبُ.

فـلا تَحْسَبُـوْا أنَّ المَعَـالِـي رَخِيْصَـةٌ	ولا أنَّ إدْرَاكَ العُلَـى هَيِّـنٌ سَهْـلُ
فَمَا كُلُّ مَنْ يَسْعَى إلى المَجْدِ نَالَهُ	ولا كلُّ مَنْ يَهْوَى العُلا نَفْسُهُ تَعْلُو

من تذكَّرَ حلاوةَ العاقبةِ نَسِيَ مرارةَ الصبرِ، الرجوليةُ بالهمَّةِ لا بالصورة، همة الكسّاحِ[1] حِطة في بئر الأنجاس.

قِنديلُ الفِكْرِ في مِحرابِ قلبِك مُظلِمٌ، فاطلب له زيتَ خَلْوة، وفتيلة عَزْمٍ.

بينك وبين المتقين جبلُ الهوى، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطوِ فضلَ منزلٍ تلحقُ، لو علوتَ نَشْزَ[2] الجَدِّ، بانتْ بانةُ الوادي.

(لمهيار)[3]:

إن كنـت ممّـنْ يطلـعُ الـوادي فسـلْ	بيـن البيـوتِ عـن فـؤادي مـا فعـلْ
عــزَّ هــواكِ فــأذلَّ جَلَــدِي	والحـبُّ مـا رقَّ لـه الجَلْـدُ[4] وذَلْ
أيـنَ ليـالينـا علـى الخَيْـفِ، وهـلْ	يـردُّ عيشـاً فـائتـاً قـولُـك: هَـلْ

يا مُقَيّداً بقيود الطرد ألَقِ نفسَك في الدجى على باب الذل؟ وقل: إلٰهي! كم لك سواي، وما لي سواك، فبفقري إليك وغِنَاك عني، إلا عفوتَ عني.

= ضرب وجهه بالتراب، وهاج، فخاف عدي على نفسِه فهرب منه، ولحق بقومه، وولدت رقاش مولوداً من عدي سمّاه جذيمة عمراً، وأحبه حبّاً شديداً، ثم كان أن ضرب عمرو في الآفاق، وفُقد زماناً حتى قيِّض له رجلان هما مالك وعقيل ابنا فارج كانا متوجهين إلى الملك بهدايا، فعرفا أنّه ابنُ أخت الملك وحملاه إليه، فضمّه جذيمة إليه، وقال للرجلين مكافئاً: حكّمتكما، فسألاه مُنادمته، فلم يزالا نديميه حتى فرَّق الموت بينهم، وفيهما قال متمّم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً:

وكنـا كنـدمـانـي جـذيمـة حِقبـة	مـن الـدهـر حتـى قيـل لـن نتصـدّعـا

من مجمع الأمثال، للميداني، باختصار برقم (٣٠١٧/ ٢/ ١٣٧).

(١) **الكسّاح**: كسح البيت: كنسه، والكسّاح: الكنّاس.

(٢) **النَّشْزُ**: المرتفع من الأرض.

(٣) في قصيدة يذكر بها مناقب علي بن أبي طالب. انظر: ديوان شعره: ٣/ ١٠٩ ـ ١١٦.

(٤) **الجَلْد**: القوي الشديد.

أَيَـا مُنعِمـاً لـم يَـزَلْ مُحْسِنـاً   بَـرَى جَسَـدِي سُخْطُـكَ الـدَّائِـمُ
إلـى النَّحـرِ مِنِّـي مضمـومـةٌ   يـداي كمـا يَفْعَـلُ النـادِمُ
يَـزِلُّ الحَكيْـمُ، ويكبـو الفـؤاد   وينبـو عـن الضَّـرْبَـةِ الصَّـارِمُ

يا هذا! ليس في المياهِ ما يقلعُ آثار الذنبِ من ثوبِ القلبِ إلا الدموعُ، فإنْ نَضَبَتْ ولم يزلِ الأثرُ فعليك بالاغترافِ من بحرِ الاعتراف.

ودَّعـتُ قلبـي يـومَ ودَّعتُهـم   وقلـتُ: يـا قلبـي! عليـك السلامُ
وصِحْـتُ بـالنـومِ: انصـرفْ راشـداً   فـإنّ عينـي مـن بعـدِهـم لا تنـامُ

احضر نادي المتهجّدين ونادهم: طوبى لكم، وجدتم قلوبكم، فارحموا مَنْ لا يجدُ:

إذا وصلتـم إلـى وادي العقيـقِ سلـوا   عـن حـالِ مُنقطـعٍ أَوْدَى بـه السهـرُ
وفتّشـوا عـن فـؤادٍ هـائـمٍ قلـقٍ   قـد ضـاعَ منـي فـلا عَيْـنٌ ولا أثـرُ

أنجعُ الوسائِلُ الذلُّ، وأبلغُ الأسبابِ في العفو البكاءُ، والعِيُّ عن ترتيب العذر بلاغَةُ المنكَسِر.

يـا مَـنْ أشكـو إليـه مـا يعلمُـه   والـدَّمْـعُ يُـذيـعُ كـلَّ مـا أكتمُـه
هـذا المُسَيْكِـنُ مَـنْ تَـرى يـرحَمُـه؟!   قـد هـان عليـك كـلُّ مـا يـؤلمـه
بالجسمِ مِن السقامِ ما يُحرضه[1]   والقلـبُ يـذوبُ مـن جوًى يُمرضه
مـا قـد حكـم الإلـه مَـنْ يَنْقضُـه؟   قـد أعـوزنـي الصبـرُ فمـن يُقـرضـه؟

* * *

---

(١) يحرضه: يهلكه.

الفصل الرابع عشر

قد خوّفَنا الموتُ بِمَنْ أَخَذَ منا، ونعلمُ هجومه علينا وقد أمِنّا، أما أذْكَرَتْنا المواعظُ مآلنا فما لنا ما لِنّا؟!.

لا تَـرْقُـدَنَّ لعينـك السهـرُ ... وانظـر إلـى مـا تَصْنَـعُ العبـرُ

انظـر إلـى غِيَـرٍ مُصـرَّفـة ... مـا دامَ يمكـنُ طـرفـك النظـرُ

فـإذا جهلـتَ ولـم تجـدْ أحـداً ... فسـل الـزمـانَ فعنـدَه الخبـرُ

فـإذا نظـرتَ تـريـدُ معتَبَـراً ... فـانظـر إليـك، ففيـك معتَبَـرُ

أنـتَ الـذي تنعـاه خِلْقتُـه ... ينعـاه منـه الشَّعْـرُ والبَشَـرُ[1]

يـا مـن يُـؤمّـلُ أنـت منتَظِـرٌ ... أمـلاً يطـولُ، ولَسْـتَ تُنْتَظَـرُ

مـاذا تقـول وأنـت فـي غَصَـصٍ؟ ... مـاذا تقـول وفـوقَـك المَـدَرُ[2]؟

مـاذا تقـول وقـد لحقـتَ بمـا ... يجـري عليـه الـريـحُ والمَطَـرُ؟

كـم قـد عَفَـتْ عيـنٌ لهـا أثـرٌ ... درسَـتْ ويـدرُس بعـدهـا الأثـرُ

يا من يُشَيّعُ ببدنه المَيْت، فأمّا قلبه ففي البيت، أتُخَلِّي بين الودود والدود، وتعود إلى المعاصي حين تعودُ؟! هلاّ أَجَلْتَ[3] بالبالِ ذكر البالي؟ وقلتَ للنفس الجاهلة: هذا لي.

مَنْ زار القبورَ والقلبُ غافل، وسعى بين الأجداثِ والفكرُ ذاهل، وشغلَهُ عن الاعتبارِ لَهْوٌ شاغل، فهو قتيلٌ قد أسكره القاتلُ:

ومـا أعطـى الصبـابـةَ مـا استحقَّـت ... عليـه، ولا قضـى حـقَّ المنـازل

مُـلاحَظُهـا بعيـنٍ غيـرِ عبـرى[4] ... وزائـرهـا بجسـمٍ غيـرِ نـاحـل

---

(١) البَشَر: الجلد.

(٢) المَدَر: قطع الطين اليابس (القاموس المحيط). أو الطين المتماسك (لسان العرب).

(٣) أجَلْتَ: أدَرْتَ.

(٤) عبرى: باكية، تسح عَبْرتها.

شيّع **الحسنُ** جنازَةً فوقفَ[1] على شفيرِ القبرِ فقال: إنَّ أمراً هذا آخره لحقيقٌ أن يُـزْهدَ في أوله، وإنَّ أمراً هذا أوله، لحقيقٌ أن يخافَ آخره.

إخواني! كيفَ الأمنُ وهذا **الفاروق** يقول: لو أنَّ لي طِلاعَ[2] الأرض ذهباً وفضةً لافتديت بها من هولِ ما أمامي قبل أن أعلمَ ما الخبر؟.

لما طُعِنَ **عمرُ** رضي الله عنه قال لابنه: ضع خدي على التراب. فوضعه، فبكى حتى لصقَ الطينُ بعينيه، وجعل يقول: ويلي وويلَ أمي إن لم يرحمني ربي.

ودخل عليه **كعب**، وكان قد قال له: إنّكَ ميتٌ إلى ثلاثة أيام، فلمَّا رآه **عمر** رضي الله عنه أنشد:

وواعـدنـي كعـبٌ ثـلاثـاً يَعُـدُّهـا ... ولا شـكَّ أنَّ القـولَ مـا قـالـه كعـبُ
ومـا بـي حـذارَ المـوتِ إنّـي لميـتٌ ... ولكـن حَـذارَ الـذنـبِ يتبعُـه الـذنـبُ

وا عجباً من خوف عمر مع كمالِه، وأَمْنك مع نقصانِك.

قيل لابن عباس: أيُّ رجل كان عمرُ؟ فقال: كان كالطائر الحذِر، الذي كأنَّ له بكلِّ طريقٍ شَرَكاً[3].

يا مسدودَ الفهمِ بكثرةِ الشواغلِ! أَحْضر قلبَك لحظةً للعظة.

يا جامداً على وضعِ طَبْعه! تحرّكْ إلى قُطْرِ[4] التذكرةِ.

يا عبدَ الطمعِ! طالعْ ديارَ الأحرارِ.

ما أطولَ غَشْية غَفْلتِكَ فلِمَن نُحَدِّث؟ قلبُك في غلافِ غفلة، وفطنتك في غشاوة غباوة، وحبلُ عزمك الجديد جذيذ[5].

لو خَرَجَ عقلُك من سلطانِ هواك، عادَتِ الدولةُ عادلةً.

---

(١) في (ب): فجلس.
(٢) **طلاع الأرض**: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل. النهاية في غريب الحديث.
(٣) **الشرك**: الفخ.
(٤) **قُطر**: بلد وناحية.
(٥) **جذيذ**: مقطوع.

لو صحَّ مزاجُ فطرتِك حَلا طعمُ النُّصح في فمك، المفروض عندك مرفوض، وكلام النصيحِ صوتُ الريح.

يا تلميذَ الهوى! أُخرج من وصفِ التبعيّة، يا مقيّدَ الوجود في فِناء[1] الفَناء! قامت قيامةُ المَلامةِ[2] وما تسمع، لقد ضَحَل[3] صوتُ النصيح، ولكنَّ صَلْخَ[4] صِماخِ[5] السمع مانعٌ.

يا هذا! لو وقفَ مرضُك رجونا لك البرءَ، ولكنَّ المرضَ يزيدُ، وقوةُ العزمِ تضعفُ:

متـى يلتقـي الأُلاّفُ والعيسُ كلّما ... تَصَعَّـدْنَ مـن وادٍ هبطـنَ إلـى وادِ

يا مقبلاً على المعاصي أَدْبِرْ، ويحك! إذا أُخرجْتَ من يدك[6] فمن يُحَصِّل؟ كم تَعِدُ بالتوبة ولا تفي؟ ويحك إنَّ العقوبة باللذة لا تفي، ضمانُك عَقِيم، ووعْدُكَ عاقِرٌ، إذا أقمتَ بناءَ توبة اكتريتَ[7] ألفَ نَقّاض، ويحك! لا تفعل، فإنّه ما سحبَ أحدٌ ذيل الهوى إلا وتعثّر، أُكتب قصةَ الندمِ بمداد الدمع، وفي الحال تصلُ:

سـألـتْ ودمـعُ العيـنِ سـايـل ... ودَعَـتْ وداعـي البيـنِ شـاغـل
فـأجـابَ دمعـي وهـو فـي ... صفـةِ الأَسـى سَحْبـانُ[8] وائـل
أعـرضـتُ عنـكَ فمَـنْ تـرومُ ... وبِنْـتُ منـك فمَـنْ تُـواصِـل
لـم يبـقَ مـن سُنـن الهـوى ... إلا الـوقـوفُ علـى المنـازل

---

(١) فِناء: باحة وساحة.
(٢) الملامة: المحاسبة واللوم.
(٣) ضحل: بُحّ.
(٤) صلخ: صمم.
(٥) صماخ: خَرق الأذن، وقيل: هو الأذن نفسها.
(٦) أخرجت من يدك: كناية عن انتهاء الحياة، وانقطاع العمل، وانتهاء فرصته.
(٧) اكتريت: استأجرت.
(٨) سَحْبان وائل: يضرب به المثل في البلاغة، فيقال: أفصح من سحبان: لَسِناً بليغاً، خطيب العرب غير مدافع، كان في خطبته يسيل سيلاً، المعروف أنه جاهلي، وفي الإصابة: أنه ممن أدرك النبي ﷺ ولم يره. انظر: رقم (٣٦٦٦) من مجمع الأمثال، للميداني.

يا مشرّداً عن الأوطان! إلى متى ترضى بالتمردك[1]؟! للقطا أُفْحُوص[2]، ولابن آوى[3] مأوى.

منذ خمسين سنة تجدِّف[4] في العبور إلى ساحل التوبة وما تلحقُ الشطَّ، قوةُ الأمل عُقْدةٌ في وجه منشار الجدّ، الرياءُ عيب في رئة الإيمان، يَسُل[5] المرضَ إلى السل، شدةُ الحرصِ على الفاني سَدَّة في كبد اليقين، ومن صبر على مرارة الدواء عوفي:

السُّقمُ على الجسمِ له تَرْدادُ ... والصبرُ يقلُّ والهوى يزدادُ
ما أبعدَ شُقتي وما ليَ زادُ ... ما أكثرَ بَهْرَجي[6] ولي نَقَّادُ

يا أربابَ الدَّنَس! يا أوساخَ الذنوب! ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، لا تقنعوا بصب ماء التوبة على الظاهر، بُلُّوا الشَّعْر، وأنقوا البَشَرة، ما لم تَسْبَحْ بدمع عينيك لم تأتِ بسُنَّةِ الغُسل:

فَلَوْ دَاوَاكَ كُلُّ طَبِيْبِ دَاءٍ ... بِغَيْرِ كَلامِ لَيْلَى مَا شَفَاكَا

أَبْلغُ المراهمِ لجراح الذنوب الندمُ، وأوطأُ فراشِ المعتذِرِ القلقُ، وأسرعُ الأوقاتِ إجابةً السحرُ، فاطرُدْ عن عينيك لذّةَ النوم، ونادِ في نادي الأسى مع القوم:

يا مَنْ بسهامِه لقلبي جَرَحا ... صِلْ مُشْتاقاً بغَيْرِكُمْ ما فَرِحا
ما نَاحَ له مُطَوَّقٌ[7] أو صدَحا ... إلاَّ شَرِبَ الدَّمْعَ وعَافَ القَدَحا

---

(١) **التمردك**: التصاغر مأخوذ من (مردك) العجمية، أي: رجل صغير، وفي لسان العرب: غلام رودك: ناعم، وجارية رودكة: حسناء في عنفوان الشباب، ويشير إلى الطراوة والتنعم.

(٢) **أفحوص**: بوزن عصفور، مَجْثَم القَطاة، لأنها تفحصه.

(٣) **ابن آوى**: حيوان، جمعه بنات آوى، وهو من الفصيلة الكلبية، أصغر حجماً من الذئب.

(٤) **تجدف**: تجديف الطائر: تحريكه جناحيه إلى خلفه أثناء الطيران، وجدف الملاح السفينة: دفعها بالمجدف.

(٥) **يسل**: أي يوصله إلى السلال، وهو المرض المعروف بالسل.

(٦) **البهرج**: المزيف.

(٧) **المطوّق**: الحمام له طوق كالقمري.

يا نائماً طول الليل أما تُحِسُّ ببَرْدِ السَّحَر؟! لقد نَمَّ النسيمُ على الزَّهْر، ودلّتْ أغاريدُ الحمامِ على دنو الفجر، صاحَ الديكُ فلم تنتبه، وأعادَ فلم تُفِقْ، [فَقَوّى][1] ضربَ الجناحين لطماً على غفلتك، صفق إما ارتياحه لسنا[2] الفجر، وإما على الدُّجَى[3] أسَفاً.

يـــا مَطُـــولاً[4] بـــالقيـــامِ	مستلـــذًّا بـــالمنـــامِ
قُـــمْ فقـــد فـــاتـــكَ يـــا	مغبـــونُ[5] أربـــاح الكـــرامِ
وَخَلَـــوْا دونَـــكَ بـــالمَـــوْ	لـــى وفـــازوا بـــالمـــرامِ
وكـــذا تسبقُـــك القَـــوْ	مُ إلـــى دارِ السَّـــلامِ

* * *

(1) زيادة من (ب).
(2) **سنا**: نور.
(3) **الدُّجى**: الظلام.
(4) **مطولاً**: مماطلاً، لا يفي ما التزم به.
(5) **المغبون**: المخدوع وضعيف الرأي.

الفصل الخامس عشر

إخواني! الدنيا دارُ الآفاتِ، الإثمُ بقيَ والالتذاذُ فات، بينا نرى فيها الغصنَ خَضِراً متمايلاً أصبحَ ذابلاً ذا بلى[1].

يـا أَيُّهـذا الـذي قـد غـرَّهُ الأمـلُ ودونَ مـا يـأمـلُ التنغيـصُ والأجـلُ
ألا تـرى أنمـا الـدُّنيـا وزينتُهـا كمنزِل الركبِ حَلّوا ثُمَّتَ[2] ارتحلوا
حتـوفُهـا رَصَـدٌ، وعيشُهـا نَكَـدٌ وصفـوُهـا كَـدَرٌ، ومُلكُهـا خَلَـلُ
تظـلُّ تُفـزِعُ بـالـرَّوْعـاتِ سـاكنَهـا فمـا يسـوغُ لـه عيـشٌ ولا جَـذَلُ[3]
كـأنّـه للمنـايـا والـرّدى غَـرَضٌ[4] تظـلُّ فيـه سهـامُ الـدَّهـرِ تَنْتَضِـلُ[5]
والنفـسُ هـاربـةٌ والمـوتُ يتبعُهـا وكـلُّ عثـرةِ رِجـلٍ عنـدَهـا جَلَـلُ
والمـرءُ يسعـى بمـا يسعـى لـوارِثِـه والقبـرُ وارثُ مـا يَسْعَـى لـه الـرَّجُـلُ

إخواني! الْبَسُوا للدنيا جُنَّةَ الهَجْر، واسمعوا فيها مِنْ واعظ الزَّجْرِ، واحسبوها يوماً صُمْتُوه للأجرِ، وصابروا ليلَ البلى، فما أسرعَ إتيانَ الفجر! ولا تبيعوا اليقينَ بالظنِّ، فحرامٌ بيعُ المَجْر[6].

لقد أبصرتْ عيونُ الفِطَن في نهارِ المشيبِ سبيلَ الرحيلِ، وسمعتْ آذانُ الفكرِ بقَعْقَعةِ الصلب[7] الصلب أذان التحويل.

لله درُّ أقوامٍ بادروا أيامَهم، وحاذروا آثامهم، جعلوا الصومَ طعامَهم،

---

(١) **بلى**: فناء.

(٢) **في (أ)**: ثم ارتحل.

(٣) **جذل**: سرور.

(٤) **غرض**: ما ينصب لترمى إليه السهام.

(٥) **تنتضل**: انتضل القوم: رمَوْا للسبق.

(٦) **المجر**: أن يشتري ما في بطن الناقة من حمل، وقد نهي عن بيع المجر.

(٧) **الصُّلب**: فَقار الظهر. **والقعقعة**: حكاية صوت السلاح. **الصَّلب**: الشديد القوي.

والصمْتَ كلامَهم، فالأبدانُ بين أهلِ الدّنيا تسعى، والقلوبُ في رياضِ الملكوت تَرعى، قاموا لخوفِ القيامة بالأوامرِ، ووقفوا أنفسَهم على الخيرِ، ما توقفوا كالمؤامر[1]. هجروا بالصيام لذيذَ الهوى في الهواجرِ، وصَمَتَ اللسان كأنه مقطوع في الحناجر بالخناجر، وجرى الدمع واصباً[2] حتى قد محا المحاجِرَ.

متى تَطْرُقُ طريقَهم[3] قبل طُروقِ الطوارِق؟ هذا ذِئبُ السِّقامِ قد عوى للعوائق، يا مَن أعماله فيما خلا رِيَا[4] للخلائق، كم داواك الطبيبُ؟ وكم رقى[5] بالرقائق؟ أين مَن ربا[6] في الربا، ونما بين النمارِق[7]، وأنْذَرَهُم حادي الموتِ لما حدا من الحدائق، وأمال مستقيمَهم فالتوى، فهل من هذا التوى[8] أنت واثق؟!.

ويحك! إنَّ الدنيا سراب مُخلَّف، فإن وُجِدَ شرابٌ أعطَش، اِزدهت فدهت[9]، على أنها تُذَمُّ وتُضَمُّ، كم عقَدت لمحبها عقد عهد، فلمَّا حَلَّتْ عنده حَلَّت[10]، إنها لعجوز وهي في عينك كالقمر، وقد قَمَر[11] هواها قلبَك، فما أبقى منه إلا قلبَ قَمَر[12].

(للشريف الرضي)[13]:

---

(١) **المؤامر**: المتردد المضطرب.
(٢) **واصباً**: دائماً.
(٣) **تطرق طريقهم**: تسير سيرهم، وتقتدي بهم قبل طروق المنايا.
(٤) **ريا**: أي رياء.
(٥) **رقى**: من الرقية.
(٦) **ربا**: نما.
(٧) **النمارق**: جمع نمرقة: الوسادة الصغيرة أو الطنفسة.
(٨) **التوى**: الهلاك.
(٩) **دهت**: أصابت.
(١٠) **حلت عنده حلت**: حلت الأولى: بمعنى نزلت عنده، وحَلَّت الثانية: نقضت العهد وذهبت.
(١١) **قمر**: قمرت فلانة قلبه، أي: شغفته حبّاً.
(١٢) **قلب قمَرَ**: أي رمق، وهي البقية القليلة، وهذا مقلوب عن كلمة قمر.
(١٣) انظر: الديوان: ٢/ ٤٧١.

شَـرَتِ الفـؤادَ رخيصـةً أعـلاقُـهُ[١] ومضـى يَعَـضُّ بَنَـانَـهُ المغْبُـونُ

أَفَنَيْتَ عمرك في طلبها، وما حصل بيدك منها إلا ما حصل بيد قيسٍ من ليلى.

صحا كلُّ عُذريِّ الغرامِ عن الهوى وأنـتَ علـى حُكْـمِ الصَّبـابـةِ نـازلُ

ولِّ الدنيا ظهرَكَ تنضَّ[٢] الآخرةُ لك نقابَها، تَعَرَّ عن الدنيا تُعزّ، وخُذْ قَدْرَ البُلغَةِ[٣] وجُزْ تَفُزْ.

إلى متى زِنْبيلُ[٤] حرصك على كاهل همتك، وأنتَ تسعى في مزابل طمَعك، تَحُشُّ[٥] وقودَ الحُطام لنارِ هواك، وقد أقمتَ موقداً من الشَّرهِ لا يفترُ، أما علمتَ أنَّه كلَّما تَرقَّى دخانُ أَتُونِ[٦] الهوى في برابخِ[٧] الحسِّ سوَّد وجهَ القلبِ.

أنتَ في جمع الحطامِ نظيرُ الزَّبَّال، وفي فِعْلِ الخيرِ غلامُ الحبَّال[٨]، علل الهمم مختلفة[٩] الأجناسِ، هذا الشفنين[١٠] لا يقربُ غيرَ زوجته أبداً، فإنْ ماتت لم يتزوَّجْ أبداً، وكذلك الأنثى والدجاجة مع أيِّ ديك كان.

---

(١) **أعلاقه**: جمع عِلْق؛ وهو الشيء النفيس.
(٢) **تنض**: ترفع.
(٣) **البُلْغَةِ**: ما يتبلغ به من العيش.
(٤) **زنبيل**: وعاء يصنع من الخوص يسع خمسة عشر صاعاً كالسلة والقفة.
(٥) **تحش**: تجمع على النار وقوداً.
(٦) **أتُون**: موقد.
(٧) **برابخ**: جمع بربخ، وهو منفذ الماء ومجراه، والمقصود به الجوارح، لأنها منافذ القلب.
(٨) **غلام الحبال**: كناية عن بطء الحركة وقلة النتاج، وفي نسخة: **(غلام الخبال)** أي: الفساد.
(٩) **في (ب)**: عالم الهمم مختلف.
(١٠) **الشفنين**: اليمام، ومفردها يمامة، وهي الحمامة الوحشية، وهذه الخاصة ذكرها الدسيري في (حياة الحيوان).

كلامي يدور حول ستور سمعك، وموانعُ الهوى تحجبُه أن يصلَ إلى القلبِ، فلو قد وصلَ إلى القلبِ أثَّرَ.

عضتْ رجلاً حيةٌ، فلم يعلم أنّها حية، فلم يتغير، فلما أُخْبِرَ أنّها حية مات، لأنه حين أُخبر انفتحت مسامُّه، فوصل السمُّ إلى القلب.

يا أُطروشَ الهوى! صاحِبْ مَنْ يسمع، يا عميَّ البصيرة امشِ مع من يُبْصر، تشبّه بالصالحين تُعَدَّ في الجملة، هذا الطاووس يحبُّ البساتين، فهو يوافِقُ الأشجار، إذا ألقت ورقها ألقى ريشه، فإذا اكتست اكتسى، لو سِرْتَ في حزب المتقين خطواتٍ، لعرفوا لك حقَّ الصحبةِ، يا مَنْ كانَ لهم رفيقاً فأصبحَ لا يعرف لهم طريقاً، أُطلبِ اليومَ أخبارهم، واتبع في السلوك آثارهم، فإن وقعت ببعضهم حملك إلى أرضهم.

(للمصنّف):

فـي شُغْـلٍ عـن الـرقـادِ شـاغـلُ	مَـن هـاجَـهُ البـرقُ بسفـحِ عـاقـلِ
يـا صـاحبـي هـذي ريـاحُ أرضِهِـمْ	قـد أَخبـرَتْ شمـائـلَ الشمـائـلِ
نسيمُهـم سُحَيْـريُّ الـريـحِ فمـا	تُشْبِهُـــهُ روائـــحُ الأصـــائـــلِ
مـا للصَّبـا مُـولعـةٌ بـذي الصِّبـا	أو الصَّبـا فـوقَ الغـرامِ القـاتـلِ
مـا للهـوى العـذريِّ فـي ديـارنـا	أيـنَ العَـذِيْبُ[1] مـن قُصـورِ بـابـلِ
لا تطلبـوا ثـاراً بنـا يـا قـومَنـا	دمـاؤنـا فـي أذرعِ الـرواحـلِ
لله درُّ العيـشِ فـي ظـلالهـم	وَلّـى وكـم أسـار فـي المفـاصـلِ
وا طـربـي إذا رأيـتُ أرضَهـم	هـذا وفيهـا دَمِيَـتْ مقـاتلـي
يـا طُـرةَ الشيـحِ سُقِيـتِ أدمعـي	ولا ابتليـتِ فـي الهـوى بمـا بُلـي
ميلُـك عـن زهـو وميلـي عـن أسـا	مـا طَـرَبُ المخمـورِ مثـلُ الثَّاكـل

يا من قد كثر تردده إلى المجلس، ولم تَزُل قسوةُ قلبه، لا تَضْجَرْ فللدوام أَثَر، جالس البكائين يتعدَّ إليك حزنُهم، فتأثير الصحبة لا يخفى، أما ترى دُوْدَ

---

(١) واد في شمال المدينة.

البقل أخضر؟ يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج، أقلُّ الأقسام[1] أن يبكي رحمةً لهم، إذا رأيتَ الثكلى تتقلقل فلا بد من رحمةِ الجنس.

(لمهيار)[2]:

ولمّا وقفْنا بالدِّيارِ تشابهتْ جسومٌ بَراهُنَّ البِلى وطلولُ
فباكٍ بداءٍ بيّنَ جنبيه عارفٌ وباكٍ بما جَرَّ الفِراقُ جَهُوْلُ

كان (**العاصمي**) قتيلَ عشقِ الدنيا، فَكُشِفَ له بالمُخَوِّفات نقابُ المحبوبة فسلا، ثم جُلِيت[3] عليه بالمشوقات محاسنُ الآخرة، فمال الجيْدُ إلى الجِيْد.

ألفيْتُها ولِلْحَدا[4] تغريدُ برامةٍ إن ذُكِرَتْ زَرودُ
ولاحَ برقٌ بِثنيّات الحِمَى تُشِيْمُه للأعينِ الرعودُ
فمالتِ الأعناقُ منها طرباً كما يُميلُ الناشدَ المنشودُ
هيهاتَ يَخْفى ما به متيَّمٌ دموعُه بوَجْدِه شهودُ

أتدرون ما أوجبَ اصفرارَ هذا التائب؟ ومن أيِّ شرابٍ أسكرَ هذا الشارب؟ وأيَّ كتاب أَقْدَم هذا الغائب؟..

كلّما زادَ كَرْبُهُ في هوى مَن يحبُّه
طارَ نحو الحبيبِ مِنْ شِدةِ الشوقِ قلبُه
دَنِفٌ كادَ ينقضي بَيَدِ البَيْن نحبُه
خَبِّرُونا عن العقيقِ متى سار ركبُه

* * *

(١) الأقسام: الأنصبة.
(٢) من قصيدة كتبها إلى الوزير عميد الدولة. انظر: ديوان شعره: ٣/ ١٨٨ ـ ١٩٣.
(٣) جليت: جلا العروس على بعلها: عرضها مجلوة.
(٤) في (أ): وللحمام.

الفصل السادس عشر

يا من نسبُه مُعرِقٌ في الموتى، وقد وعظوه وإنْ لم يسمعْ صوتاً، أدْرِكْ أمرَكَ فما تأمنُ فوتاً:

(لأبي النّواس):

ألا كـلُّ حـيٍّ هـالِـكٌ وابـنُ هـالـكٍ ... وذو نَسَـبٍ فـي الهـالكيـنَ عَـريـقِ
فَقُـل لغـريـبِ الـدّارِ: إنّـك رَاحِـلٌ ... إلـى منـزلٍ نـأيِ المَحـلِّ سحيـقِ
ومـا تُعـدِمُ الـدنيـا الـدنيـةُ أهلَهـا ... شُـواظَ حَـريـقٍ أو دُخـانَ حَـريـقِ
تُجَـرِّعُ فيهـا هـالكـاً فَقْـدَ هـالـكٍ ... وتُشْجـي فـريقـاً منهـمُ بفـريـقِ
فـلا تحسـبِ الـدُّنيا إذا مـا سكنتَهـا ... قـراراً، فمـا دنيـاك غيـرُ طـريـقِ
إذا امْتحـنَ الـدُّنيـا لبيـبٌ تكشَّفـت ... لـه عـن عـدوٍّ فـي ثيـابِ صـديـقِ
عليـكَ بـدارٍ لا يـزولُ ظـلالُهـا ... ولا يتـأذّى أهلُهـا بمضِيـقِ
فمـا يبلـغُ الـراضـي رضـاه بِبُلْغـةٍ ... ولا ينفـعُ الصـادي صَـداهُ بِـريْـقِ

يا راقداً وقد أُوذِنَ بالرحيل، يا مشيِّدَ البنيانِ في مدارجِ السيولِ، بادِرْ بالعملِ قبلَ انقضاءِ العمرِ، ولا تنسَ من يَعُدُّ الأنفاسَ للقائك:

ومـا هِـيَ إلا ليلـةٌ ثـم يـومُهـا ... ويـومٌ إلـى يـومٍ وشهـرٌ إلـى شهـرِ
مطـايـا يقـرِّبْـنَ الجديـدَ إلـى البِلَى ... ويدنينَ أشلاءَ الصحيحِ إلى القبرِ
ويتْـركـنَ أزواجَ الغيـورِ لغيـره ... ويَـقْسِمنَ ما يحوي الشحيحُ من الوفرِ

وا عجباً! أما تعلمُ ما أمامك؟! فتهيأ للرحيل، وأَصْلِحْ خيامك، وتأهَّبْ للرّدى، واقطعْ قطعَ المُدى[1] لمَرامك[2]، واجتهد أن ينشرَ الإخلاصُ في المحلّ

---

(١) المُدى: جمع مدية، وهي السكين.
(٢) في (ب): مدامك.

الأعلى أعلامَك، وأحضرْ قلبَك وسمعَك، وإن ملاّ[1] من ملامك[2]، وإيّاكَ والفتورَ فإنِّي أرى الدواءَ دوامك[3]، أُطلب ما شئتَ بالعزم وأنا زعيمٌ[4] لك بالظَّفَر.

مَنْ عزم على أمرٍ هيّأ آلاتِه. لمّا كان شُغْلُ الغرابِ النَّدبَ على الأحباب لبس السواد قبل النوح.

أَنِفَــتْ شُقَّــةُ المهــامِــهِ[5] أن تقْـ ـطــعَ إلا بــالشــدِّ والتَّــرْحــالِ
وأبــى الْمَجْــدُ أن يُنــالَ بغيــرِ الـ ـجِــدِّ فلْتنتبِــهْ عقــولُ الــرِّجــالِ

إذا وقعتْ عزيمةُ الإنابةِ في قلبِ مَنْ ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، قَلَعتْ قواعدَ الهوى من مَسْناةِ[6] الأمل.

ركب (ابنُ أدهم) يوماً إلى الصيد، وقد نُصبَ له فخُّ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ [يونس: ٩]، حوله حَبُّ ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، فصِيْدَ قبل أن يصيدَ، سمع هاتفاً يقولُ: ما لهذا خُلِقْتَ! ولا بهذا أُمرتَ! فكانت تلك العظة شربةً نَقَضَتْ قُولَنْجَ[7] الهوى.

يا له من سهمٍ ألقاه عن قَرَبوسه[8] وبُوسه[9]، كان راقدَ الفهمِ في ليلِ الغفلةِ، مشغولاً بأحلامِ المُنى، فَصيحَ به: قم، فقامَ، فقيلَ له: سِر، فاستقامَ.

(للشريف الرضي):

مــا أجلــبَ البــرقَ لمــاء الآمــاق رأى علــى الغَــوْر وميضــاً فــاشتــاق

---

(١) ملا: من الملل.
(٢) في (ب): (لامك) أي: شدتك.
(٣) دوامك: الدوام على العمل والحضور.
(٤) زعيم: كفيل ضامن.
(٥) المهامه: جمع مهمه، وهي المفازة والصحراء.
(٦) مسناة: سدّ يُبنى لحَجْزِ السيل أو النهر، به مفاتيحُ للماء تفتَحُ بحسب الحاجة.
(٧) القولنج: مغص وألم في الأمعاء، سببه التهاب القولون.
(٨) قرَبوس: حِنْوُ السرج، أي: المكان المنحني من السرج يجلس عليه الراكب.
(٩) البوس: التبختر والتكبر على الناس وإيذاؤهم.

وعظه خطيبُ اليقظةِ، فوصَلَتْ مَلامتُه إلى سمع الأنفَةِ، فنهضت حميّةُ الرجولية.

يا (ابن أدهم)! مبارزةُ الصيدِ أولى مراتبِ الشجاعةِ، أفترضى أن تستأسِرَ[1] لثعلب الهوى؟!.

يا (ابنَ أدهم)! قتلكَ حُبُّ الدنيا فَـثُرْ لأخذِ الثأر.

إن كانت لـك عزيمة ـ يـا (ابن أدهم) ـ فهذا الكُمَيْتُ وهـذا الأدهم[2]، فصادَفَ التحريضُ حريضاً[3] فنهضَ.

(للشريف الرضي):

أَتُـذكِّـرانـي طلـبَ الطـوائـل ... أَيْقَظْتُمـا مِنّـيَ غيـرَ غـافـل

قُـومـا فقـد مَلَلْـتُ مـن إقـامتـي ... والبيـدُ أولـى بـي مـن المَعـاقـل

شُنَّـا بـيَ الغـاراتِ كـلَّ ليلـةٍ ... وعَـوِّدانـي طَـرْدَ الهـوامـل[4]

إنْ كـانَ لا بـدَّ مـن المـوتِ فَمُـتْ ... تحـت ظـلالِ الأَسَـلِ الـذوابـل[5]

هتف به متقاضي الشوق: يا بن أدهم! دخلَتْ شهورُ الحَجِّ، فما قَعودُك ببلخ؟! فرحَّلَ الراحلةَ وراح، لاحتْ له نارُ الهدى، فصاحَ في جنود الهوى: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ ﴾ [طه: ١٠] فتجلّى له أنيسُ «تجدني»، فغاب عن وجودِه، فلمَّا أفاق من صعقة وجده، وقد دُكَّ طور نفسه، صاح لسانُ الإنابة: ﴿ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾[الأحقاف ١٥].

رويـــداً أيُّهـــا الحـــادِي ... سُقِيْـــتَ الـــرَّايِـــحَ الغـــادِي

فتلـــك الـــدارُ قـــد لاحَـــتْ ... وهـــذا الـــرَّبْـــعُ والـــوادي

---

(١) **تستأسر**: تسلّم نفسك أسيراً.

(٢) **الكُميت**: الخيل بين السواد والحمرة. **والأدهم**: الحصان الأسود.

(٣) **الحريض**: من أذابه الهم. **والتحريض**: الإثارة والإحماء.

(٤) **الهوامل**: الضوالّ من النعم. **وطردها**: سوقها سلاًّ وسرقة.

(٥) **الأَسَل الذوابل**: الرماح الطوال، مفردها: أسلة. والذوابل: مفردها: ذابلة، والقنا الذابل: الدقيق اللاصق الليط.

فلمّا خرجَ عن ديار الأُلفة[1]، أومأت اليقظةُ إلى البطالة.

(لابن المعتز):

سلامٌ على اللذّاتِ واللّهو والصِّبا ... سلامَ وداعٍ لا سلامَ قدومِ

يا (ابن أدهم)! لو عُدْتَ إلى قصرِكَ فتعبّدتْ فيه، قال العزم: كلا ليس للمبتوتة[2] نفقةٌ ولا سُكنى.

أَحِنُّ إلى الرَّملِ اليمانيِّ صبابةً ... وهذا لَعَمْري لو رَضِيتُ كثيبُ

ولو أنَّ ما بي بالحصى فَلَقَ الحصى ... وبالريحِ لم يُسْمَعْ لهنَّ هُبوبُ

أمرضته التُّخَم، فاستلذَّ طعمَ الجوعِ، وحَمّلَ جِلْدَه على ضعفِ جَلْده خُشونةَ الصوف.

حَمَلْتم جِبالَ الحُبِّ فوقي وإنَّني ... لأعْجَزُ عن حملِ القميص وأضْعُفُ

لاحَ له جمالُ الآخرة، فتثبتت في النظرِ عينُ اليقين، فتمَكّنَ الحُبُّ من حَبّةِ القلبِ، فقام يسعى في جمع المَهْرِ من كسبِ الفقرِ، طالَ عليه انتظارُ اللّقا، فصارَ ناطورَ البساتين، تقاضته المحبةُ باقي دَيْنِها، فسلّم الروحَ في الغربة، هذا ثمنُ الوصلِ فتَأَخّرْ يا مفلس.

دُونَ المعالي مُرتقًى شاهقُ ... فَطِرْ إلى ذِرْوَتِهِ أوْ قَعِ

مَنْ لم يخُضْ غمرتَها لم يُشِدْ ... قواعدَ المجدِ ولم يرتفعِ

كان إبراهيم إسكندريَّ[3] الهِمّة، فاحْتقرَ قصْرَ بلخٍ في جنب ما أَمّلَ، فانتخبَ سوابقَ العزم، وسارَ في جُند الجدِّ، حتى قطعَ ظلماتِ الطبعِ، وبلغَ إلى مطلعِ شمسٍ لا تغرُبُ، شكا إليه صفاءُ القلب من يأجوج وساوس النفس، فاستغاثَ بحامي المَسْكن، فقيل له: شُدَّ سدَّ العزم، فاستظهر بعد الزُّبَرِ بالقَطْرِ[4]، ثم انفردَ

---

(١) في (ب): الغفلة.

(٢) المبتوتة: المطلقة طلاقاً باتّاً.

(٣) إسكندري الهمة: إشارة إلى الرجل الطواف في سورة الكهف.

(٤) وهذا موافق لما في سورة الكهف، وفي (أ): بالزُّبَرِ بعد القَطْرِ.

من جندِ جوارحه فوقعَ بعين الحياة في السر ، فعاش بالتوفيق أبد الدهر .

أمـا تقـومـون كـذا أو فـاقعـدوا	مـا كـلُّ مَـنْ رامَ السمـاءَ يَصعَـدُ
نـام علـى الهـونِ الـذليـلُ ودَرَى	جَفْـنُ العـزيـزِ لِـمَ بـاتَ يسهـدُ
أَخَفُّكُـم سعيـاً إلـى سـؤددٍ	أحقكـم بـأنْ يُقـال سيِّـدُ
عـن تعـبٍ أو ردِّ سـاقٍ أولاً	ومَسَحَـتْ غُـرَّةَ سَبَّـاقٍ يـدُ
لـو شُـرِّفَ الإنسـانُ وهـو وادعٌ	لقطـع الصمصـامُ وهـو مُغْمَـدُ

* * *

الفصل السابع عشر

الدنيا دار المحن، ودائرةُ الفتن، ساكنُها بلا وطنٍ، واللبيبُ فيها قد فَطِن.

(للمصنِّف):

يـا مَـنْ مـالَ إلـى الـدُّنيـا وصَبَـا ... قـد أمْعَـنَ فـي الفـانـي طلبـا
اطلـب مـا يبقـى كيـلا تَشْقـى ... واتْبَـعْ حقّـاً ودعِ اللعبـا
وذَرِ الـدُّنيـا فلكـم قَتلـتْ ... مَكْـراً بسهـامِ هـوًى وصبـا
بَـرَّتْ ورَعَـتْ فـإذا اجتمعـتْ ... خـدعـتْ حتـى قطعـتْ إرَبـا
يـا عـاشقَهـا كـم قـد نَصَبَـتْ ... لهـلاكـكَ فـاحْـذَرْهـا سببـا
يـا آمِنَهـا كـم قـد سلبـتْ ... ولـداً بَـرّاً، أُمّـاً وأبـا
أيـنَ الجـارُ أمـا قَـدْ جـارَ ... فجـارَتْـه حتـى ذهبـا
أم أيـنَ التِّـرْبُ[1] أمـا تَـرِبَـتْ ... خـدّاه[2] أمـا سكـن التُّـرُبـا
كـم خـدّت خَـدّاً فـي الأخـدود ... وقـدَّت[3] قـدّاً[4] منتصبـا
كـم ثغـرٍ ملتثِـم ثَلَمَـتْ ... قـد كـان لـراشفِـه ضَـرَبـا[5]
فسقتـه المُـرَّ لـدى جَـدَثٍ ... وكـذاك الـدَّهـرُ إذا ضَـرَبـا[6]
وأتـت قصـراً يحـوي نصـراً ... فغـدا وقصـاراه خَـرِبـا
ومليكـاً فـي صَـوْلـة دولـة ... أضحـى فـي الحفـرة مغتـربـا
عَـرِّجْ بـالـدار علـى الآثـا ... رِ وَسَـلْ طلـلاً أمسـى شَحِبـا[7]
ينبيـكَ بـأنّهـمُ رحلـوا ... وثـوى مِـنْ بعـدِهُـمُ الغُـرَبـا

---

(١) التِّربُ: المماثل في العمر.

(٢) تربت خداه: كناية عن الموت والدفن في القبر.

(٣) قدّت: قطعت.

(٤) قدّاً: قامة.

(٥) الضَّرْب: العسل الأبيض الغليظ، وقيل: عسل البرّ.

(٦) ضرب: فرق وشتت وباعد.

(٧) شحباً: متغير اللون باهتاً بعد نُضرةٍ وطلاوةٍ.

بينــا الإنســـانُ يـــرى رأســاً — فهـــوى رأســاً فغـــدا ذَنَبــا
فتــأمَّـــلْ عـــاقبــةَ الــدُّنيــا — فلعلّـــكَ تصبِـــحُ مجتنبــا
وتـــدبّـــرْ مـــا صَنَعَـــتْ فلقـــد — أبـــدتْ بصنـــائعهـــا عجبــا
ينســـاك الأهـــلُ إذا رجعـــوا — عَـــنْ قبـــرِك لا تَسمَـــعْ كـــذبــا
تـــركـــوك أسيـــراً إذ ذهبـــوا — بتـــرابِ ضـــريحِـــكَ محتجبــا
وغَـــدَوْا فـــرحيـــنَ بمـــا أخـــذوا — وغَـــدَوْتَ بـــإثمـــك محتقبــا[١]
وتـــرى أعمـــالَـــكَ قـــد حَضَـــرتْ — فتُنكّـــسُ رأسَـــك محتئبــا
فَكِّـرْ فـي الـذَّنْـبِ ومـا احتقبتْ[٢] — كفَّـــاكَ عليـــكَ ومـــا اكتسبــا
كـــم بِـــتَّ علـــى ذنـــبٍ فَـــرِحــاً — وغـــدوتَ علـــى ذنـــبٍ طـــربــا
وعلمـــتَ بـــأنَّ الله يـــرى — فـــأســـأتَ ولـــم تُحْسِـــنْ أدبــا
فـــأعـــدَّ الـــزادَ فمـــا سفـــرٌ — كـــالمـــوتِ تـــرى فيـــه نَصَبــا
وأفِـــقْ والعمـــرُ بـــه رَمَـــقٌ — فكـــأنْ قـــد فـــاتَ وقـــد ذَهَبــا

يا كثيرَ الدَّرَنِ والدَّنَس[٣]! يا مَنْ كلّما أقبل انتكسَ! يا مَنْ أُمرَ بتركِ ما يفنى لما يبقى فعكس، جاء الأجلُ وحديثُ الأملِ هوس[٤].

يـا مؤثراً على الصوابِ عينَ الغلط، يا جاريـاً في أمرِه على أقبحِ نَمَط[٥]، يا مضيِّعاً وقتَه المغتنم الملتقط، أيُّ شيءٍ بقي بعد الشمَط[٦]؟! أتنسى ما سلفَ لك وفرط[٧]؟! وأبوكَ[٨] بزلة واحدةٍ هبط، ما عندكَ من التوبة خبرٌ، ولا لها فيك أثرٌ، تتوبُ من الذنبِ، فإذا بَدا لك بدا لك[٩].

---

(١) **محتقباً**: محتبساً ومأخوذاً.
(٢) **احتقبت**: اجترحت واكتسبت.
(٣) **الدنس**: الوسخ.
(٤) **هوس**: طرفٌ من الجنون، واختلاط في التفكير وفساد.
(٥) **نمط**: طريقة.
(٦) **الشمط**: بياض الرأس يخالط سواده.
(٧) **فرط**: سبق بغير روية.
(٨) يشير إلى آدم عليه السلام وأكله من الشجرة.
(٩) أي: إذا ظهر لك الذنب مرةً ثانيةً نشأ لك فيه رأي جديد، فقارفتَ الذنبَ مرة ثانية.

مَنْ عَلِم أنّ عندنا حسنَ المآب آب[1]، مَنْ خاف الجزاءَ بما في الكتابِ تابَ، من حذر أليمَ العذاب ذابَ، مَنْ سار في طريق الأنجاب انجاب[2]، من ذَكَرَ فِعلَ الموت بالأب والجدِّ جَدَّ، من تفكّر في مرارةِ الكاسِ كاس[3].

ويحك! دَعْ محبةَ الدنيا، فعابرُ السبيل لا يتوطّنُ، وا عجباً تضيعُ منك حبّةٌ فتبكي، وقد ضاع عمرك وأنت تضحكُ! تستوفي مكيال هواك وتطفف في كيل صلاتك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥].

تقف ببدنك في المحراب ووجهك ملتفتٌ للجراب[4]، ما يصلحُ مثلك في الحرب، أنتَ تفضَحُ صفَّ الجهاد، ما تَحْسُنُ الزرديةُ[5] على مخنَّثٍ[6].

خمسينَ سنةً في مكتب التعليم وما حَذَقْتَ أبا جاد[7]، غداً تُوَبَّخُ وقتَ عرض ألواح ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧]، بضاعتُك أيام عمرك وقد انتهبها قطاعُ الطريق، ورجعتَ إلى بيتِ الأسفِ بأعدالٍ[8] فارغةٍ، فانظر لعلّه تَخَلّفَ فيها شيءٌ تعامِلُ به بقيةَ عمرك، فقيمةُ عمرِ المؤمنِ لا قيمةَ له[9].

سُقْياً لِزَمانِنَا الذي كان لنا ... وا فَقْرِي أَبعْدَ ذا الفقرِ غِنى؟
ما أسرعَ ما تولّعَ البينُ بنا ... وا قُرْبَ منيَّتي وما نِلْتُ مُنى

كان (**فُضالة بن صيفي**) كثيرَ البكاء، فدخل عليه رجلٌ وهو يبكي فقال لزوجته: ما شأنه؟.

---

(١) **آب**: رجع.
(٢) **الأنجاب**: جمع نجيب، وهو الفاضل الكريم الحسيب النبيل المتفوق. **وانجاب**: انخرق وانشق وانقطع، وهنا: على معنى استجاب له الطريق.
(٣) **كاس**: عَقَل وتدبر.
(٤) **الجراب**: كيس النقود.
(٥) **الزَّرَدِيَّة**: الدرع.
(٦) **المخنث**: الرجل المتكسر المتثني من لين والمسترخي والساقط ضعفاً، ومن يفعل فعل الخُناث.
(٧) **أبا جاد**: الأوليات والأساسيات في التعليم.
(٨) **أعدال**: جمع عدل: أي: كيس من خيش.
(٩) **لا قيمة له**: أي لا يقدر بثمن، لأن سواه يعوض دونه.

قالت: زعم أنّه يريدُ سفراً بعيداً وما له زاد.

يا هذا! الآخرةُ دارٌ سكانُها الأخلاقُ الجميلةُ، فصادِقوا اليومَ سكانَها لتنزلوا عليهم يومَ القدوم، فإنَّ مَنْ قدِمَ إلى بلدٍ لا صديقَ له به نزل بالعراء.

يا هذا فنيَ العُمرُ في خدمة البَدنِ، وحوائجُ القلبِ كلُّها واقفةٌ، انهض إلى التلافي قبل التلفِ، الكَلف[1] يُداوى قبل أن يصيرَ بهقاً، والبَهق يلاطَفُ قبل أن يصيرَ برصاً، أما سمعتَ في بداية الزلل: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وفي وسطه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، وفي آخره: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أتبكي على معاصيك والإصرار يضحك؟! أتخادعُ التوبةَ وإنّما تمكر بدينك؟!.

رأيـــتُ النـــاسَ خُـــدَّاعـــاً إلـــى جـــانـــب خُـــدَّاع
يعيشـــون مـــع الـــذئـــبِ ويبكـــونَ مـــع الـــراعـــي

ويحك! حَصِّلْ كبريتَ عزيمةٍ قبل أن تقدحَ نارَ توبةٍ، وقبل نزولِ الحرب تُملأُ الكنائِنُ[2].

ويحك! لا تطمع أن تخرجَ إلى فضاءِ قلبك حتى تتخلّصَ من رَبَقات[3] نفسِك، كيف لا يَفْتقرُ إلى الرياضة لإزالة الكدر مَنْ أولُ غذائه دمُ الطمثِ[4]؟!.

ابك على ظلامِ قلبك يضيء، إذا بكت السحابُ على الربى تبسَّمت.

يا هذا! تسمع بالكيمياء وما رأيته صحَّ قط، اجمع عقاقيرَ التوبةِ في بوتقة

---

(١) **الكلف**: شيء يعلو الوجه لونه بين السواد والحمرة. **والبهق**: بياض يعتري الجلد يخالِفُ لونَه، ليس من البرص.

(٢) **الكنائن**: جمع كنانة، وهي وعاءُ السهام، والمعنى: تؤخذ الأهبة للأمر قبل وقوعه.

(٣) **ربقات**: جمع ربقة: حبل فيه عدة عُرى، يُشَد فيه البهم.

(٤) **الطمث**: الحيض. يشير إلى الدم الذي لولا العلوق لتهتَّك به جدار الرحم فكان حيضاً.

العزم، وأوقد تحتها نارَ الأسى على ما سلفَ، فإن تصَعّدَ منه نَفَسُ أسَفٍ، صار نحاسُ نحوسِك[1] ذهبَ سعادةٍ.

أترى في بستانِ التوبة ثَمَراً قد توجَّه صلاحُه؟ كأني أشمُّ ريحَ كبدٍ محترقةٍ، أي قلب قد لفحته نارُ الوجدِ ففاح نسيمُه؟.

أحسنُ منظومٍ في سلك الاعتذارِ خَرزُ[2] الذُّلِّ، أحلى نطقٍ بلجَ سَمْعَ القبولِ الاستغفارُ، أطربُ كلامٍ يحرِّك قلبَ الرحمةِ التَمَلُّقُ[3].

يا من بصدودهم لقلبي جرحوا ... وازدادَ بيَ الغرامُ لمّا نزحوا[4]
ما جُدْتُ بهم وهم بهجري سمحوا ... هذا المطروحُ ترى كم يُطَّرَحُ

قال (عبد الله بن مرزوق) لغلامه عندَ الموت: احملني فَاطْرَحْني على تلك المزبلة، لعلّي أموتُ عليها فيرى ذُلي فيرحَمني.

عُودوا وتعطّفوا على قلبٍ كئيبٍ ... لو جِيْبَ لَبانَ فيه حزنٌ ووَجيبُ[5]
يُدْعى للموتِ في هواكم فيجيبُ ... مَن أَمّلَ مثل فضلِكم كيف يَخيبُ

المذنبُ يأوي إلى الذل والبكاء كما يأوي الطفل إلى الأبوين، بكى أبوكم آدم على تفريطه، حتى جرت الأوديةُ من دموعه[6]، كان كلّما ذكر الجنةَ قَلِقَ، وكلّما رأى الملائكةَ تصعد يحترقُ، تذكَّر المعاهِدَ فَحَنَّ.

والذي بالبَيْنِ والبعد بَلاني ... ما جرى ذكرُ الحِمى إلا شَجاني
حبذا أهلُ الحمى من ساكنٍ ... شَفّني الشوقُ إليهم وبَراني
كلّما رُمْتُ سَلُوّاً عنهمُ ... جذبَ الشوقُ إليهم بعناني

---

(١) **نحوس**: جمع نحس، وهو ضد السَّعْد.
(٢) **خرز**: جمع خَرَزة، ما ينظم في سلك ليتزين به.
(٣) **التملق**: التودد بكلام لطيف، والتضرع فوق ما ينبغي.
(٤) **نزحوا**: رحلوا.
(٥) **جيب**: قطع. **وجيب**: خَفْق القلب واضطرابه.
(٦) هذا من باب المبالغات.

أحْسُـــدُ الطيـــرَ إذا طـــارتْ إلـــى	أرضِهـــم أو أقلعـــتْ للطيـــرانِ
أتمنَّـــــى أننـــــي أصحبُهـــــا	نحـوَهـم لـو أنني أُعْطَـى الأمـانـي
لا تـزيـدونـي غـرامـاً بَعـدَكـم	حَلَّ بي من بُعدكم ما قد كفاني
ذهـبَ العُمْـرُ ولـم أحـظَ بِكُـم	وتَقَضَّـى فـي تمنيكـم زمـانـي
يـا خليلـيَّ احفظـا عهـدي الـذي	كنتمـا قبـلَ النَّـوى[1] عـاهـدتمـانـي
واذكـرانـي مثـل ذكـري لكمـا	فمـن الإنصـاف أن لا تَـنْسَيَـانـي
وسـلا[2] مـن أنـا أهـواه علـى	أيِّ جُـرْمٍ صَـدَّ عنـي وجفـانـي

* * *

(١) النوى: البعاد.

(٢) سلا: اسألا.

الفصل الثامن عشر

أيها المشغول باللذّات الفانيات! متى تَسْتعدّ لمُلمّات[1] الممات؟! متى تَسْتدركُ هفواتِ الفوات؟! أتطمعُ مع حُبّ الوسادات[2] في لَحاق السادات؟! وأنّى تجعلك مثلهم أنّى وهيهات؟!.

يا مُدْمنَ اللذاتِ ناسٍ قبرَهُ[3]	أُذكر تهجُّمَ هاذمِ اللذاتِ
احذَرْ مكايده فهُنّ كوامِنٌ	في القلبِ والأنفاسِ واللحظاتِ
تمضي حلاوةُ ما احتقبتَ[4] وبعدها	تبقى عليك مرارةُ التبعاتِ
يا حسرةَ العاصين يومَ مَعادِهم	ولوَ انّهم سيقوا إلى الجنّاتِ
لو لم يكنْ إلا الحياءُ من الذي	سترَ الذنوبَ لأكثروا الحسرات

يا عظيمَ الجرأةِ! يا كثيرَ الانبساطِ! أما تخافُ عواقبَ هذا الإفراط؟!.

يا مؤثرَ الفاني على الباقي، غلطة لا كالأغلاط، ألك صبرٌ يقاوم ألمَ السياطِ؟! ألك قدمٌ يصلحُ للمشي على الصراط؟! أيعجبك لباسُ الصحّةِ؟! كلا! وثوب البِلا يُخاط، داءُ المنون داءٌ أعيى على بقْراط[5].

كم رَحّل الموتُ على غارب[6] اغتراب! كم ألحقَ تِرْباً بالأتراب في سِفْرِ التراب، إنّما الموتُ مُخرنبق[7] ليقول، ومُجَرْمِزٌ[8] ليغول[9].

---

(١) **ملمات**: جمع ملمة، وهي النازلة.

(٢) **الوسادات**: كناية عن النوم والكسل.

(٣) في (ب): غدرها.

(٤) **احتقبت**: ارتكبت إثماً.

(٥) **بقراط**: أبقراط: طبيب يوناني من أكبر الأطباء الأقدمين وأشهرهم، نحو (٤٦٠ـ٣٧٧ق.م)، يتعهد الأطباء في قَسَمِهم التقيد بمنهجه الأخلاقي المعروف بقسم أبقراط.

(٦) **الغارب**: ما بين السنام والعنق، ويقال: حبلك على غاربك: اذهب حيث شئت.

(٧) **مخرنبق**: في المثل: (مخرنبق لينباع) أي: ساكت لداهية.

(٨) **مجرمز**: منقبض من اجرَمَّزَ ـ بتشديد ـ: انقبض.

(٩) **ليغول**: ليهلك، ليأخذ من حيث لا يدري المأخوذ.

وكـمْ مِـنْ فتًـى يمسـي ويُصبـحُ آمنـاً   وقد نُسِجتْ أكفانُه وهو لا يدري!

يا شدةَ الوَجَل عند حضورِ الأجلِ، يا حسرةَ الفَوْتِ عند حضورِ المَوْتِ، يا خَجْلةَ العاصينَ، يا أسف المقصّرين!.

(للحجاج):

إلـى حَتْفِـي سَعَـى قَـدَمِـي   أَرَى قَـدَمِـي أَرَاقَ دَمِـي
وَهَـانَ دَمِـي فَهَـا نَـدَمِـي[1]   فَمَـا أَنْفَـكُّ مِـنْ نَـدَمِ

استلبْ زمانك يا مسلوب! وغالِبْ الهوى يا مغلوب! وحاسِبْ نفسك فالعمرُ محسوب، وامحُ قبيحَك فالقبيحُ مكتوبٌ، وا عجباً لنائم وهو مطلوبٌ، ولضاحِكٌ وعليه ذنوبٌ.

ألا ذكّـرانـي قبـلَ أن يـأتـيَ المـوتُ   ويُبْنَـى لجثمـانـي بـدارِ البلَـى بيـتُ
وعـرفنـي ربـي طـريـقَ سـلامتـي   وبصّـرنـي، لكنني قـد تعـاميـتُ
[وقالوا مشيبُ الرأس يَحْدو إلى البلى   فقلتُ: أراني قد قربتُ فأُدْنيتُ][2]

أين الدموعُ السواجمُ[3] قبل المنايا الهواجم؟! أين القلقُ الدائمُ للذنوبِ القدائم؟! أترى أثَّرتِ الملاوم[4] في هذه الأقاوم؟!.

أيها القاعدُ والموتُ قائم، أنائمٌ أنتَ عن حديثنا أم متناوم؟! لا بدّ ـ والله ـ من ضربةِ لازمٍ، يُقْرعُ لها سنُّ نادمٍ، لا بدّ من موجِ هولٍ متلاطمٍ، ينادي فيه نُوحُ الأسى ﴿لَا عَاصِمَ﴾ [هود: ٤٣][5]، لا بدّ من سقم السالم يَنسى فيه يا أمَّ سالم.

يـا مَـنْ سَيَنْـأى عـن بَنيـهِ   كمـا نـأى عنـهُ أبـوهُ

---

(١) **فها ندمي**: ها وهاءِ: هاتِ، تقول: ها يا رجل وهاءِ، وهائي يا امرأة. وندمي: أسفي.
(٢) زيادة من (ب).
(٣) **السواجم**: جمع ساجمة، وعين ساجمة: يقطر دمعها.
(٤) **الملاوم**: من اللوم، وهو: العذل.
(٥) **لا عاصم**: يشير إلى جواب نوح عليه السلام لابنه حين دعاه إلى السفينة فقال: سآوي إلى جبل. فقال له نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

مثِّلْ لنفسِك قولَهم: جاءَ اليقينُ فوَجِّهُوهْ
وتحللوا مِنْ ظُلْمِهِ قبلَ المماتِ وحَلِّلُوه

يا مؤخراً توبتَهُ بمُطْلِ التسويفِ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [المرسلات: ١٢]، كنت تقول: إذا شِبْتُ تبتُ، فهذي شهور الصيف عَنّا قد انقضت[1]، قدّر أنَّ الموتَ لا يأتي إلا بغتةً! أليسَ مرضُ الموتِ يَبغَتُ؟!.

ويحك! قد نفدَ السليطُ[2] فاستدرك ذُبالةَ[3] المصباحِ، في كلِّ يوم تضعُ قاعدةَ إنابةٍ، ولكنْ على شفا جُرُفٍ هارٍ، كم تعزِمُ على طاعةٍ وتوبةٍ، يا لَيْليَّ الهوى ما يبصِرُ نوبة[4]، تبيتُ من العزمِ في شِعار[5] (أُويس)، فإذا أصبحتَ أخذت في طريق (قَيْس)، تنقضُ عُرى العزائم عروةً عروة، وكلُّ صريع بالهوى رفيق (عروة)[6]، كم دفنتَ كثيراً من الأعزة؟ وما يرجع (كُثَيِّر) عن حُبِّ عَزّة.

جُنونُك مجنونٌ ولَسْتَ بواجدٍ طبيباً يداوي من جُنونِ جنونِ

خُلق قلبُك صافياً في الأصل، وإنّما كَدّرتْه الخطايا، وفي الخَلْوة يركدُ الكدرُ، تلَمّحْ سببَ هذا التكديرِ، فما يخفى الحالُ على مُتلمِّحٍ.

كنتَ مقيماً في دار الإنابة نظيفاً، فسافرْتَ في الهوى فعلاك وسخٌ، أفلا تحِنُّ إلى النظافة؟! ألا يُحرِّكُ البدويَّ ذِكْرُ نجد؟! طال مرضُك فاليوم بُحران[7]، أتدري ما البُحْران، تجتمع القوةُ والمرضُ فيختصمانِ، فإن غلبَتْه جاءت العافيةُ، وإن غلبها فالهلاكُ، هذه ساعةُ بُحْرانِكَ، والعقلُ يُقاوِمُ الهوى، فانظرْ مَنْ يغلِبُ؟

---

(١) **هذا شطر بيت في قصيدة لقيس بن الملوح:**
فهذي شهور الصيف عنّا قد انقضت فما للنوى ترمي بليلى المراميا
(٢) **السليط**: كل دهن عُصر من حَبٍّ.
(٣) **الذبالة**: الفتيلة.
(٤) **نوبة**: فرصة، وواحدة النوب، وناب إلى الله: تاب.
(٥) **الشِّعار**: ما وَلِيَ الجسد من الثياب، يشير إلى قرب حاله من حال أويس رضي الله عنه.
(٦) **عروة وقيس وكثير**: من عشاق العرب عرف أولهم بعفراء، وثانيهم بليلى، وثالثهم بعزة.
(٧) **بُحران**: مريض، وفي القاموس: بُحران المريض، مُوَلّد، وهذا يومُ بُحران، مضافاً. وفي لسان العرب: الأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة: بُحراناً، يقولون: هذا يومُ بحرانٍ.

وا عجباً كيف يَسْتأسِرُ أسدٌ لثعلبٍ؟! يا مستهاناً في خدمةِ النفس، أُخرجْ إلى ديارِ القلبِ تُعَزّ.

الفِيَلةُ في الهند عواملُ تَنقلُ رحالَ القومِ وتخدمُهم، فإذا خرجَتْ إلى من يعرف قدرها أُكرمت.

العُودُ في بلادِه خَشَبٌ، فإذا سُوفِرَ به إلى طالب الطِّيب أعِز.

تفّاحُ أصبهانَ في بلده فاكهة، فإذا جيءَ به إلى العراق دلّ على الطباعِ اللطيفة بِريحهِ.

الفهدُ في الصحراءِ بَهيمةٌ، فإذا وقع بِيَدِ مَنْ يعرفه، غضبَ فيُترَضَّى.

البازي في البرية طائر، فإذا صِيدَ فسريرُه كفُّ الملك.

يا مختارَ الكونِ! وما يَعرِفُ قَدْرَ نفسِه، أما أَسْجدتُ الملائكةَ بالأمسِ لك، وجَعَلْتُهم اليومَ في خدمتكَ؟! لما تكبّرَ عليك إبليسُ ـ وقد عَبَدَني سنين ـ طردتُه، أَفَتُصافيه على خلافي؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠]، أنا القائلُ قبلَ وجودِ أبيك للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، اِطلعوا من خَوْخاتِ تَعَبُّدكم، فانظروا ما أصنعُ، أخذتُ قبضةً من ترابٍ، فصببْتُ عليها قطراتٍ من ماء ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، قال الترابُ والماء: وأيُّ قدْرٍ لنا؟ فنزل دارَ تواضعهما عزيزُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، فانضمَّ صدفُ[١] بحرِ البدنِ على دُرِّ القلْبِ، فانعقدَ وصَلَحَ عَرشاً لصفة «ويسعني»[٢].

خلا المثَقِّفُ[٣] بالطفل داخلَ البيت، فسطّر في لوحِ سرّه القلمُ ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وأخرجه يومَ التخيير وقد حَذَقَ[٤] المكتوب ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، ثم قيل له: لا يحتمل موضعُ الخُلع وجودَ دُرِّ البذر، فاخْرُجْ إلى عالمِ الطَّبْعِ ـ أكلتِ يا دودةَ القزِّ فاذهبي

(١) صدف: غشاء الدر، وواحدته بهاء: صَدَفة.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) المثقف: المربي.
(٤) حذق المكتوب: مهر فيه.

إلى الغَزْلِ، وتشاغلي بالنسج ـ فنزل إلى دار المجاهدةِ، فظهر من ثمرةِ شجرتِه، صبرُ الخليل، وثبوتُ الذبيح، وجهادُ يوسف، وكمالُ محمد ﷺ، ثم جاء أولياء في هذه الدولة، فخجلتْ عند زهدهم الرهَبَة[1]، لا بل سبقوا تعبدَ الملائكة.

قال (سَرِيّ): ما فاتني وِرْدٌ قط فقدِرْتُ على إعادته، وذلك أنَّ الزمانَ الذي مضى فيه وظيفةٌ أخرى.

ما لي شُغْل سواه ما لي شُغلُ ... ما يصرفُ عن هواه قَلْبي عَذْلُ
ما أصنعُ إنْ جفا وخابَ الأملُ ... مني بدلٌ ومنه ما لي بدلُ

كانت (**ريحانةُ العابدةُ**) تقومُ من أول الليل، وتقول:

قامَ المحبُّ إلى المؤمَّلِ قومةً ... كادَ الفؤادُ من السرورِ يطيرُ

فإذا انقضى الليلُ، صاحَتْ: وا حَرَباه[2]، وا سَلَباه.

ذهبَ الظلامُ بأُنسه وبأُلفه ... ليتَ الظلامَ بأُنسِهِ يتجدَّدُ

دخلوا على (**زجلةَ العابدة**)، فكلّموها في الرفق بنفسها، فقالت: والله لأصلّينَّ لله ما أقلّتني جوارحي، ولأصومنَّ له أيامَ حياتي، ولأبكينَّ ما حملتْ الماءَ عيناي.

لا أقبلُ نصحَكم فَخَلُّوا عَذْلي ... ما أَعْذَبَ في الغرام طعمَ القَتْلِ
إنْ طُلَّ دمي فكم محبٌّ مثلي ... قد ضُرِّج باللِّحاظِ لا بالنَّبْلِ

أينَ أنتَ من الأحبابِ؟! كم بين القُشورِ واللُّباب؟!.

(الصرَّدُرَّ)[3]:

هل مُدْلِجٌ عندَه من مُبْكِرٍ خبرُ ... وكيفَ يعلمُ حالَ الرائِح الغادي؟

---

(١) **الرَّهَبَة**: جمع راهب.
(٢) **الحَرَب**: أن يسلب الرجل ماله.
(٣) من قصيدة له يمدح فيها الوزير ابن جهير. انظر: الديوان، ص١٠٥.

يا معجَباً بتعبّده! تأمّلْ فضائلَ السابقين، وقد هَدرْتَ شقاشِقَ كِبْرِك، النظرُ في سيرهم قَرَظٌ[1]، يجفف عفنَ الرعونةِ، مضى ـ والله ـ أهلُ المعاني، وتخلّفَ أربابُ الدعاوي.

هـاتيـك ربـوعُهـمُ وفيهـا كـانـوا بـانـوا عنهـا فليتهـمْ مـا بـانـوا
نـاديـتُ وفـي حُشـاشتـي نِيـرانُ يـا قـومُ متـى تحـوَّلَ السكـانُ؟

* * *

(١) قرظ: ورق السلم يدبغ به الأديم.

الفصل التاسع عشر

عجباً لراحلٍ ماتَ وما تزوّدَ للرحلةِ! ولمسافرٍ ماجَ وما جمعَ للسفرِ رَحْلَه، ولمنتقلٍ إلى قبرِه لم يتأهّبْ للنُّقلة، ولمُفرِّطٍ في أمرِه لم يستشرْ عقلَه.

(الصَّرَّدُر)[1]:

لا مِريةٌ في الردى ولا جَدَلُ ... العمرُ دَيْنٌ قضاؤه الأَجَلُ

للمرءِ في حَتْفِ نفسِه[2] شُغُلٌ ... فما تريدُ السيوفُ والأَسَلُ[3]

يَفْري الدُّجَى والضحى بأسلحةٍ ... سِيّانَ فيها الدروعُ والحُلَلُ

كأسٌ أُديرتْ[4] على لذاذتِها ... عُدّل فيها الزُّعافُ[5] والعَسَلُ

كلٌّ إلى غايةٍ يصيرُ، ولا ... تمييزَ إلا الإسراع والمَهَلُ

والناسُ ركبٌ يَهْوَوْن حثَّهمُ ... ولا يُسَرُّون أنَّهم نُزُلُ

وسوفَ تُطوى مسافةٌ ذَمَلت[6] ... بقاطعيها رَكائبٌ ذُلُلُ[7]

كيفَ يَعُدُّ الدُّنيا له وطناً ... مَنْ هُوَ عنها ينأى ويَنْتقِلُ

نَسْخو بأعمارِنا ونبخَلُ با ... لمالِ فتَبَّ السخاءُ والبَخَلُ

أضاعَ راقي الداءِ العُضالِ كما ... ضَيَّع في سَمْعِ عاشقٍ عَذَلُ

ولو نجا الهائبُ الجبانُ من ... الموتِ[8] تحامى إقدامَه البطلُ

---

(١) قاله يعزي أبا القاسم بن أيوب في زوجة أبيه أبي المعالي بن عبد الرحيم. انظر: ديوانه، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٣هـ، ص١٤٥.

(٢) في الديوان: (أنفه).

(٣) **الأسل**: الرماح.

(٤) في الديوان: (أدرت).

(٥) **الزعاف**: السمّ القاتل. أي: تساوي السم والعسل.

(٦) **ذملت**: يقال: سارت الذميلَ، والذميل: ضرب من السير.

(٧) **ذلل**: جمع ذلول؛ بيّنة الذل موطأة الأكناف.

(٨) في الديوان: (الحتف).

ما أسلموا هذه النفوسَ إلى ... الأجداث إلا إذْ ضاقتِ الحِيَلُ

ضرورةٌ ذلّت القُرومُ[1] لها ... وقد تقودُ المصاعبَ الجُدلُ[2]

ومن حذارٍ تبوَّأَ الكديةَ[3] الضَّبُّ ... وأوفى[4] الشواهِقَ الوَعِلُ

يُقادُ في عزّه الخَبَعْثَنَةُ[5] الضاري ويُدْهي[6] في ذلِّه الجُعَلُ

وهل يرُدُّ الأحبابَ إن ظعنوا[7] ... على محبٍّ أن يندبَ الطللُ

إخواني! مرَّ الأقران على مدرجةٍ، وخيولُ الرحيل للباقين مُسْرَجةٌ، سارَ القومُ إلى القبورِ هملجة[8] ، وباتت أرواحٌ من الأشباح مستخرجةً، إلى كم هذا التسويفُ والمَجْمَجَةُ[9]؟! بضائعكم كلُّها بهرجة[10] ، وطريقُكم صعبةٌ عوسجة[11] ، وستعرفونَ الخبرَ وقتَ الحشرجة[12] .

يا من قد ساخَ في الأوساخ إلى كم تُملي[13]؟! أتعبتَ[14] النُّساخَ .

يا من ضيَّعَ الشبابَ، وما يسمعُ العتابَ، وقد شاخَ، بادِرْ صُبابة[15] القُوى، واستدرك باقي الطِّباخِ[16] ، وتأهّبْ للرحيلِ فما هذه الدنيا بمَناخ[17] ،

---

(١) **القروم**: جمع قَرم، وهو السيد المعظم.

(٢) **الجدل**: جمع جديل، وهو الحبل المجدول من أدم، يكون في عنق البعير أو الناقة.

(٣) **الكدية**: الأرض الغليظة يحفرها الضب ليتخذها جحراً.

(٤) **أوفى**: يقال: أوفى على الجبل: أشرف.

(٥) **الخبعثنة**: الأسد.

(٦) **يُدهي**: يصيب بداهية.

(٧) في الديوان: (رحلوا).

(٨) **هملجة**: حسن سير الدابة في سرعة.

(٩) **المجمجمة**: المجماج هو المسترخي الرهل.

(١٠) **البهرج**: الباطل والرديء من الشيء.

(١١) **العوسجة**: شجرٌ فيه شوك، له ثمر كخرز العقيق.

(١٢) **الحشرجة**: تردد النفس في الحلق، وحشرج المحتضر: أوشك أن يموتَ.

(١٣) **تملي**: من أملى: استكتب، أي: جعله يكتب.

(١٤) **أتعبت النساخ**: كناية عن المبالغة في كثرة إملاء الذنوب والآثام.

(١٥) **صبابة**: بقية الشيء.

(١٦) **الطباخ**: القوة، ورجل به طباخ: به قوة وسمن، ووجد طُباخ.

(١٧) **مناخ**: من أناخ: أي: نزل، ومعناه: أن الدنيا ليس بدار مقام وبقاء.

كم باتَ مزمارٌ في بيتٍ فأصبحَ فيه الصُّراخُ.

أينَ مَنْ حَصَّنَ الحصونَ واحترس[1]، وعمّرَ الحدائقَ وغرس، ونصبَ سريرَ الكِبْرِ وجلس، وظنَّ بقاء النفس فخاب الظنُّ في نَفَس، نازلَه الموتُ فلمّا أنزلَه عن ظهر الفرسِ فُرِس[2]، ووجَّه وجهه إلى دارِ البلى فانطمسَ، وتركه في ظلامِ ظُلْمةٍ بين العَيْبِ والدَّنس؟ فالعاقلُ من بادرَ الندامةَ، فإنَّ السلامةَ خُلَس[3].

(لابن المعتز):

ألا مَنْ لقلبٍ في الهوى غيرِ منتهٍ وفي الغيِّ مِطْواعٌ وفي الرُّشدِ مُكْرَهِ
أُشاوِرُهُ في توبةٍ فيقولُ: لا فإنْ قُلتُ: تأتي فتنةٌ[4] قال: أينَ هِي؟

سابقةُ القَدَرِ قضَتْ لقومٍ، وعلى قومٍ قضت، بدليل ﴿سَبَقَتْ لَهُم﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، تلقيحُ ﴿سَبَقَتْ﴾ نوَّر قلوبَ الجن ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وخذلانُ ﴿غَلَبَتْ﴾ أعمى بصائرَ قريش ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

إذا هُزت صوارمُ القدر، تقلقلَتْ رقابُ المقرّبين، غَضِبَ على قومٍ فلم تنفعْهم الحسناتُ، ورَضيَ على قوم فلم تضرَّهم السيئاتُ، ما نَفَعَت عبادةُ **إبليس**، ولا ضرَّ عنادُ **السحرةِ**.

هبَّتْ عواصفُ الأقدار في بيْدِ الأكوان، فتقلّبَ الوجودُ وعمَّ الخبر، فلمَّا ركدتِ الريحُ، إذا (**أبو طالب**) غريقٌ في لُجَّةِ الهلاك، و(**سلمانُ**) على ساحلِ السلامةِ، و(**الوليدُ بنُ المغيرة**) يَقْدُم قومَهُ في التيه، و(**صهيبٌ**) قد قدِمَ بقافلةِ الرومِ، و(**أبو جهل**) في رقدةِ المخالفة، و(**بلالٌ**) ينادِي: الصلاةُ خيرٌ من النوم.

لما قُضيتْ في القِدم سلامةُ (**سلمان**) أقبلَ يناظِرُ أباه في دين قد أبَاه[5]، فلم

---

(١) **احترس**: تحفّظ وتوقّى.
(٢) **فرس**: كُسر عنقه.
(٣) **خلس**: جمع خُلسة: فرصة تغتنم.
(٤) **تأتي فتنة**: أي أتقارف شهوةً حراماً.
(٥) **أباه**: رفضه.

يعرفْ أبوه جواباً إلا القيد، وهذا الجواب المرذول قديمٌ من يوم ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فنزل به ضيف ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ ﴾ [محمد: ٣١]، فنال بإكرامه مرتبةَ **«سلمان منا»**[١].

سمعَ أنَّ ركْباً على نيّةِ السفرِ، فسَرَقَ نَفْسَه من حرزِ أبيه، ولا قَطْعَ[٢]، فوقفَ نفسَه على خدمةِ الأدلاّءِ[٣] وقوفَ الأذلاّءِ، فلما أحسَّ الرهبانُ بانقطاع دولتِهم، سلّموا إليه أعلامَ الإعلامِ على علاماتِ نبيِّنا محمد ﷺ، وقالوا له: إنَّ زمنَه قد أظلَّ، فاحْذرْ أنْ تَضِلَّ، وإنّه يخرجُ بأرضِ العربِ، ثم يهاجِرُ إلى أرضٍ بين حَرَّتينِ، فلو رأيتموه قد فَلَى الفلا[٤] والدليلُ شوقُه، وخَلَى الوطن خلاءً يزعجُه توقُه[٥].

(لأبي العلاء المعريّ):

وأبغضتُ فيكِ النَّخلَ والنّخلُ يانِعٌ ... وأَعْجَبَنِي مِنْ حُبِّك الطَّلْحُ[٦] والضّالُ

وأهوى لجرّاكَ السَّماوةَ[٧] والغَضَا[٨] ... ولو أنَّ ضَيفَيْهِ وُشَاةٌ وعُذَّالُ

رحلَ مع رفقةٍ لم يرفقوا ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ ﴾ [يوسف: ٢٠]، فابتاعه يهوديٌّ بالمدينة، فلمَّا رأى الحرَّتينِ توقّدَ حرُّ شوقِه، وما علمَ المنزلُ بِوجْدِ النازلِ.

---

(١) يشير إلى حديث النبي ﷺ: «سلمانُ منّا آلَ البيت» رواه الطبراني والحاكم، ورمزَ له السيوطيُّ بالصحةِ.

(٢) **ولا قَطعَ**: أي لا حدَّ على هذه السرقة.

(٣) **الأدلاّء**: يريدُ الرهبان الذين عندهم علمٌ بنبيِّ آخرِ الزمانِ رسولِنا محمَّدٍ عليه أفضل الصلوات وأتم السلام.

(٤) **فلى الفلا**: قطع الفلاةَ في رحلة الهجرة.

(٥) **توق**: اشتاق ونزع إليه.

(٦) **الطلحُ**: شجر عِظَام من العضاه ترعاهُ الإبل.

(٧) **السماوة**: موضع بالبادية ناحية العواصم (مختار الصحاح).

(٨) **الغضا**: شجر خشبُه من أصلب الأخشاب، وجمرُه يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ، وأهل الغضا: أهلُ نجدٍ لكثرتِه هنالك.

(للمتنبي)[1]:

أيــدري الــرَّبــعُ أيَّ دمٍ أراقــا؟ وأيَّ قلـوبِ هـذا الـركـبِ شـاقَـا
لنــا ولأهلِــهِ أبــداً قلــوبٌ تـلاقـى فـي جسـومٍ مـا تـلاقـى

فبينا هو يكابِدُ ساعاتِ الانتظارِ، قدمَ البشيرُ بقدومِ البشيرِ، و(سلمانُ) في رأسِ نخلةٍ، فكادَ القلقُ يلقيه، لولا أنَّ الحزمَ أمسكَهُ، كما جرى يوم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠]، ثم عجَّل النزول، ليلقى ركب البشارة[2].

خَليليَّ من نجدٍ قِفا بي على الرُّبى فقـد هـبَّ مـن تلـكَ الـرسـومِ نسيمُ

فصاحَ به المالكُ: ما لكَ ولهذا؟ انصرفْ إلى شُغْلِكَ. فأجابَ لسانُ وجْدِه:

كيف انصرافي ولي في داركم شغل

فأخذَ يضربه فأخذ حاله يترنَّمُ لو سمع الأُطروش.

خليلــيَّ لا واللهِ مــا أنــا منكُمــا إذا عَلَــمٌ مــن آلِ ليلــى بــدا ليــا

فلمّا لقيَ الرسولَ عرضَ نسخةَ الرهبانِ بكتابِ الأصلِ، فوافق ووافق[3].

يا محمّدُ! أنت تريدُ أبا طالب ونحنُ نريدُ سلمان.

أبو طالب إذا سئل عن اسمه، قال: عبد مناف، وإذا انتسبَ افتخر بالآباء، وإذا ذكرتِ الأموالُ عدَّ الإبلَ.

وسلمان إذا سئل عن اسمه قال: عبد الله، وعن نسبه، قال: ابن الإسلام، وعن لباسه قال: التواضع، وعن طعامه قال: الجوعُ، وعن شرابه قال: الدموعُ، وعن وِسادِه قال: السهر، وعن فخره قال: «سلمانُ منا»، وعن قصده، قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) انظر: ديوان شعره، ص٢٧٨.

(٢) في (ب): السيارة.

(٣) فوافق ووافق: أي وافق ما عنده من علامات النبوة التي تلقاها عن أهل الكتاب مما اتصف به رسول الله ﷺ، ووافقه فتشهّدَ شهادَةَ الحقِّ وأعلنَ إسلامه.

(للشبلي):

إنَّ بيتاً أنتَ ساكنُه   غيرُ محتاجٍ إلى السُّرُجِ
[وعليلاً أنتَ زائِرُهُ   قد أتاهُ اللهُ بالفَرَجِ][1]
وجهُك المأمولُ حُجَّتُنا   يومَ يأتي الناسُ بالحُجَجِ

* * *

---

(١) زيادة من المطبوع.

الفصل العشرون

يا مَنْ يمشي على ظُهورِ الحُفَر، ويرى السابقينَ إلى بيوتِ المَدَر، لو أصغى سمعُ التدبيرِ لسمعَ العِبَر، كفى بالموتِ واعظاً يا عمر[1].

لأبي العتاهية[2]:

وعظتْــك أجــداثٌ خُفُــتْ ... فيهــنَّ أجســادٌ سُبُــتْ
وتكلَّمَــتْ لــكَ بــالبِلَــى ... مِنهــنّ ألسنــةٌ صُمُــتْ
وأرتْــك قبــرَكَ فــي القبــورِ ... وأنــتَ حــيٌّ لــم تَمُــتْ

يا سادراً في سُكْرِ سرورِه، ويا سادلاً ثوبَ غرورِه، كأنّك بك قد اقتعدتَ غارِبَ الغُربة، واستبدلْتَ بالأترابِ التربة، سَيَقْسِمُ مالَكَ من لا يحمدُك، وستَقْدُم على من لا يعذُرُك، غداً يرجِع الحبيبان عنك: حبيبُك من أهلِكَ يقسمُ حبيبَك مِنْ مالِكَ، وأنتَ في قفرِ الفقرِ إلى ما أسلفتَ، تبكي على ما خَلَّفْتَ، بين أناسٍ كلُّهم أسيرُ الفرَق، وجميعُهم على مهادِ القَلَقِ.

مَحَلــةُ سَفْــرٍ كــان آخــرَ زادِهــمُ ... إليـه متـاعٌ مِـنْ حَنـوطٍ ومـن خِـرَقِ
إلـى مَنْـزلٍ سَـوَّى البِلـى بيـنَ أهلِـه ... فلم تَسْتَبِن فيه المُلوكُ مِنْ السُّوَقِ

إلى متى تبقى بدائك؟ أهذا الذي تفعلُه براؤك؟ لقد حلّ فَناؤك بفِنائك، وأخبرَ انتقاضُ بنائك بنَأْيِك، وإنَّ وراءَك طالباً لا تفوتُه، وقد نُصبَ لك علمٌ لا تجوزُه، فما أسرعَ ما يدرِكُكَ الطالبُ، وما أعجلَ ما تبلُغُ العلَمَ.

---

(١) **كفى بالموت واعظاً**: أثرٌ ضعيفٌ جدّاً، كما قال العراقي، لأنّ فيه الربيع بن بدر، وهو متروك، وقد رواه الطبراني عن عمار كما في كنز العمال: ١٥/ ٥٤٧، وكان نقشُ خاتم سيدنا عمر: (كفى بالموت واعظاً يا عمر).

(٢) انظر: ديوان شعره، ص٧٨ ـ ٧٩.

إخـواني! هذا الموتُ قد غـدا يقول: الرحيلُ غداً، كيف بكم إذا صاحَ إسرافيل في [الصور][1] بالصُّوَر؟ فأسمعَ العظامَ الباليةَ تحتَ المدَر، فاجتمعتْ من بطونِ السباعِ، وحواصلِ الطيرِ، وقـامتْ تبكي على فـواتِ الخيرِ، وسـارَ الخلائقُ كلُّهم حُفاةً عراةً، كلٌّ منهم مشغولٌ بما عَراهُ[2]، وقد رُجَّتِ الأرضُ، وبُسَّتِ الجبالُ، وذهلتِ العقولُ، وشابتِ الأطفالُ.

أيـا نفـسُ حقُّـكِ أن تَجْـزعـي	ويـا عيـنُ إيـاكِ أنْ تَهْجعـي
ويـا أُذُنـي إنْ دعـاكِ الهَـوَى	فـإيـاكِ إيـاكِ أنْ تسمعـي
وبـالله يـا جَفْـنَ عينـي القـريـحَ	ضَـرِّجْ بفيـضِ الـدِّمـا أدْمُعِـي
ويـا كُـلَّ جـارحـةٍ لـيْ عليـكِ	حفيـظٌ فـابْكـي ونُـوحِـي معـي
يسيـرُ بنـا الـدَّهـرُ مِـن مَـوْضـعِ	نُـرحَّـلُ عنـه إلـى مَـوْضِـعِ
إلـى حيـثُ لا العيـنُ فيـه تَـرى	ولا الأذْنُ إنْ خـاطبـوهـا تعـي
فيـا ويلَنـا مِـنْ طـريـقٍ هنـاكَ	طـويـلٍ بعيـدِ المـدَى مُسبِـعِ[3]

يا أهلَ الذنوبِ والخطايا! ألكم صبرٌ على العقوبة؟ ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥]، إذا شاهدتَ من اشترى لذةَ ساعةٍ بعذاب سنين ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، من أراد النجاةَ منها فليتب ﴿قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

كيف أمِنَ العُصاةُ وعيدَ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؟! كيف نَسُوا غِبَّ[4] الزلل؟! ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

إخواني! مَثِّلوا أهلَ الجنَّةِ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، ومعهم تـوقيع ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢]، فلما وصلوا إلى الجنان ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وبَدَأهم الخزنةُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، وبشّروهم بالبقاء الدائم: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقرأت

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) **بما عراه**: أي بما نابه ونزل به.
(٣) **مسبع**: كثير السباع.
(٤) **غِبّ**: الغب من كلِّ شيءٍ عاقبتُه وآخرُه.

الأملاكُ من سِجلِّ الإملاك مبْلغَ الثمن ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، وجميعُ المراداتِ داخلةٌ في إقطاع ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، وقد اسْتُرْجِحَ في الميزان ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وأتمُّ التمام ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وهـذا السـرورُ بتلـكَ الكُـرَبْ ... وهـذا النعيـمُ بـذاكَ التّعَـبْ

ويحك! ميّزْ بعقلِكَ [وحسِّك][1] بين الدارينِ، وأحضر الذنبَ والعقابَ والمَخْ العاقبتين.

هذا الحيوانُ البهيمُ ينظرُ في العواقبِ، هذا **الأيّلُ**[2] يأكلُ الحياتِ، فيشتدُّ عطشُه فيحومُ حولَ الماءِ، ولا يشربُ، لعلمه أنَّ الماءَ يُنفِذُ السمومَ إلى أماكن لا يبلغُها الطعامُ، ومن عادتِه أنَّه يسقطُ قرنُه كلَّ سنةٍ، وهو سلاحُه، فيختفي إلى أن ينبتَ.

هذه **الحيةُ** تختبئ طولَ الشتاءِ بالأرضِ، فتخرجُ وقد عشيَ بصرُها، فتحكُّه بأصولِ الرازايانجِ لأنَّه يزيلُ العشا.

هذا **الفهدُ** إذا سَمِنَ علمَ أنَّه مطلوبٌ وشحمُه يمنعه من الهرب، فهو يسترُ نفسَه إلى أن ينحلَّ الشحمُ.

هذه **النملةُ** تدَّخِرُ في الصيفِ للشتاءِ، فإذا خافتْ عفنَ الحبِّ أخرجته إلى الهواءِ، فإذا حذرتْ أن ينبتَ نقرت موضعَ القطميرِ[3].

أَسَمِعْتَ يا مقطوعَ الحيلةِ؟ متى تَدَّخِرُ من صيفِ قوتِكَ إلى شتاءِ عَجْزِك؟ هذه السمكةُ إذا حبستْها الشبكةُ جَمزَتْ[4] بكلِّ قُوَّتها لتقطعَ الحابِسَ، لو نهضتَ بقوَّةِ العزمِ لا نخرقتْ شبكةُ الهوى.

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) **الأيل**: الوعل.
(٣) **موضع القطمير**: الشق في الحبة والنواة.
(٤) **جمزت**: وثبت.

إذا مدَّ النهر اغتنمتْ هذا المدَّ الزنابيرُ ، فبنتْ منه بيوتاً ، لأنَّه لا يصلحُ لها غيرُه ، مدَّ بحرُ الشباب وما بنيتَ بيتَ جِدّ ، فحَدِّثني ما الذي تصنعُ في القَحْلِ؟! إن فاتك زمنُ المدِّ ، فمَدُّ اليدِ للسؤالِ حيلةُ المفلسِ.

يا مُحصَراً عن الوصول لا يجزئُهُ الهَدْيُ ، يا منقطعاً في الطريق عن جملةِ الوفدِ ، تحامَل إلى بعضِ خِيَم أهل الوصلِ ، وأشهدْ على وصيتِكَ ذَوَيْ عدل ، ونادِ في النادي بصوتِ الذُّل:

وإذا وَصَلْتـمْ سـالميـنَ فبلِّغـوا | تحيةَ مَنْ قدْ ظنَّ أنْ لا يرى نجدا

ابسُط في الدجى يدَ الطلبِ ، فأطيبُ ما أكلَ الرَّجُلُ مِنْ كسبِ يده ، وقُلْ بلسانِ التملُّقِ:

أحبـابَنـا أنـا ذلـك العبـدُ الـذي | راعَيْتمـوهُ نـاشِئـاً وَوَليـدا
حالتْ به الأحوالُ بعد فِراقِكُمْ | فـرَمَـى بِـأُسْـرَتِـه وجـاءَ فـريـدا

وإذا جلستَ في ظلامِ الليلِ بين يدي سيدِك ، فاستعمل أخلاقَ الأطفالِ ، فإنَّ الطفلَ إذا طلبَ من أبيه شيئاً فلم يعطِه بكى عليه:

بَلَغَ المُنى مَنْ حلَّ في وادي مِنًى | غيْـري فـإنِّـي مـا بلغـتُ مُـرادي
وبكَيْتُ مِنْ ألمِ الفراقِ وشِقْوتِي | فبكى الحجيجُ بأسرِهم والوادِي

يا مَنْ قد نزلَتْ به بليةُ الطَّرْدِ ، تَروَّحْ إلى حديثِ المناجاةِ وإن لم يُسمع منك ، وابعث رسائلَ الأحزانِ مع رياحِ الأسحارِ ولو لم تصل.

يـا نسيـمَ الصَّبـا بَلِّـغْ خطـابـي | واشفِ مني الجَوى بِحَمْلِ الجوابِ
طُفْ بساحاتِ ذلك الرَّبعِ واحملْ | ذرةً مِـنْ تُـرابِ ذاك الجنـابِ
قُلْ لمولاي يا مُنى الروحِ والقلبِ | ومَـنْ فيـهِ ذلَّتـي وانْتِحَـابـي
كنتُ أخشى الوُشاةَ فيكَ ولكنْ | جفوةُ الحُبِّ لم تكنْ في حسابي

* * *

الفصل الحادي والعشرون

يا ساعياً لنفسه في المهالك! دنا الرحيلُ، نِضْوُ[1] النُّقْلة[2] بارِك، متى تذكرُ وحشتَك بعدَ إيناسك؟ متى تقتدي من ناسِكَ بناسِك[3]؟ كأنّك بك قد خرجتَ عن أهلِكَ وولدِك، وانفردتَ من عَددِكَ وعُددِك[4]، وقتلَكَ سيفُ الندمِ ولم يَدِك[5]، ورحلتَ ولم تحصِّلْ من ندمِكَ إلا عَضَّ يَدِك[6].

كأنّكَ لم تَسْمعْ بأخبارِ مَنْ مضَى ... ولم تـرَ في الباقين ما يصنعُ الدّهْرُ
فـإنْ كنتَ لا تـدري فتلك ديارُهم ... محاهـا مجالُ الـريح بعْدَكَ والقَطْرُ
علـى ذاك مَرُّوا أجمعـون، وهكـذا ... يمـرّون حتـى يَنْشُرَنَّهُـمُ[7] الحشرُ
فَحَتّامَ لا تَصْحُو وقدْ قَرُبَ المدى ... وحتّامَ لا ينجابُ عنْ قلبِكَ السُّكْرُ
بلْ سوفَ تَصْحو حتى ينكَشِفَ الغطا ... وتذكرَ قولي حينَ لا ينفعُ الذِّكرُ

يا من يذنبُ ولا يتوبُ، كم كُتِبَتْ عليك ذنوب؟ خلِّ الأملَ الكذوب، فربَّ شُروق بلا غُروب، وا أسفى أين القلوب؟ تفرّقتَ بالهوى في شُعوب[8]، ندعوك إلى صلاحِكَ ولا تؤوب، وا عجباً الناسُ ضُروب[9].

---

(١) **النضو**: المهزول من الإبل.

(٢) **النقلة**: الاسم من الانتقال.

(٣) **ناسك الأولى**: إنسانيتك وعالمك، **وناسك الثانية**: العابد الزاهد.

(٤) **العدة**: ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح.

(٥) **لم يَدِكَ**: لم يؤدِّ ديتك.

(٦) كناية على الندم على التفريط.

(٧) **في (ب)**: يستردهم.

(٨) **شعوب**: جمع شعب: وهو الصدع والتفرق في الشيء.

(٩) **ضروب**: أصناف وأنواع.

متى تنتبه لصلاحك[1] أيها الناعسُ؟! متى تطلبُ الأُخرى يا مَنْ على الدنيا ينافِسُ؟ متى تذكر وحدتَكَ إذا انفردتَ عن مؤانس؟ يا من قلبُه قد جفا وجفنُه ناعس! يا مَنْ تحدّثُه الآمالُ! دعْ هذه الوساوسَ، أين الجبابرةُ الأكاسرةُ الشجعانُ الفوارس؟! أين الأُسْدُ الضواري والظِّباءُ الكوانسُ[2]؟! أين مَنِ اعتادَ سَعَةَ القصورِ، حُبس من القُبورِ في أضيقِ المحابس؟! أين الرافِلُ[3] في أثوابه عَرِيَ في ترابه عن الملابسِ؟! أين الغافلُ في أمله عن أجلِهِ سَلَبه كفُّ المُخالسِ[4]؟! أين حارسُ الأموالِ، أُخِذَ المحروسُ، وقُتِل الحارسُ؟!.

يا مُضمِراً حُبَّ الدنيا إضمارَ الجَمَلِ الحقود، نبعثُ مِنْقاشَ اللَّومِ وما يصلُ إلى شظايا[5] المحبّةِ.

الدنيا جيفةٌ قد أَرَاحَتْ[6]، ومزكومُ الغفلةِ ما يدري، سوقٌ فيها ضجيجُ الهوى، فمن يَسْمعُ المواعظَ؟!.

عَلَّمَتْنـي بهجـرهـا الصبـرَ عنهـا فهــي مشكــورةٌ علــى التقبيــحِ

إن أردتَ دواءَ حُبِّها فأولُ ما في الشُّربة الصبرُ.

انفردْ في صومعةِ الزهدِ، واحفر خندقَ الحذرِ، وأَقِمْ حارسَ الورعِ، ولا تطلُع من خوْخَةِ مسامحةٍ، فإنَّ البَغْيَ في الفتى صَنَاعٌ[7].

(لصُّرَّدُرِّ)[8]:

---

(١) في (ب): لخلاصك.
(٢) **الكوانس**: جمع كانس، وكنس الظبي: دخل في كُناسه، وهو موضعه في الشجر يكتنّ فيه ويستتر.
(٣) **الرافل**: يقال: رفل في ثيابه: أطالها وجرّها متبختراً.
(٤) **المخالس**: كناية عن الموت، لأنه يأخذُ الإنسانَ على غفلةٍ وخلسةٍ.
(٥) **شظايا**: جمع شظية، الفلقة من العصا.
(٦) **أراحت**: أنتنت.
(٧) **صناع**: ماهر اليدين، يشير إلى أن عدم الاحتراز من الشبهات، والتهاون فيها يؤدي بالإنسان إلى الظلم والبغي، الذي يأخذ بيده إلى الهلاك.
(٨) قاله في مدح أبي القاسم بن رضوان. انظر: ديوانه، ص١٣١.

النّجا النّجا مِنْ أرض نجدٍ قبل أن يَعْلَقَ الفؤادُ بوَجْدِ
كم خليٍّ غدا إليه وأمسى وَهْوَ يهذي بَعلْوةٍ[1] وبهند

حَصّنْ حِصْنَ التُّقى بسورِ القناعة، فإنَّ لِصَّ الحِرْصِ يطلبُ ثُلْمةَ، غريمُ الطبعِ[2] متقاضٍ مُلِحٌّ، والشرهُ شَرَكٌ، وخُمارُ[3] المنى داءٌ قاتلٌ، بينا الحريصُ يَمُدُّ وترَ الأملِ انقطعَ، هل العيشُ إلا كأسٌ مشوبةٌ بالكدر ثم رسُوبُها الموت ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال (**محمد بن واسع**): لو رأيتُم رجلاً في الجنة يبكي، أما كنتم تعجبون؟.

قالو: بلى.

قال: فأعجبُ منه في الدنيا رجلٌ يضحَكُ ولا يدري إلامَ يصير؟.

ضحك بعضُ الصالحين يوماً، ثم انتبه لنفسه، فقال: تضحكينَ؟! وما جُزْتِ العقبةَ[4]، والله لا ضَحِكتُ بعدَها حتى أعلمَ بماذا تقعُ الواقعة؟.

يا نسيمَ الشمالِ باللهِ بلِّغْ ما يقولُ المُتيَّمُ المُسْتَهامُ
قل لأحْبابِنَا: فداكُمْ مُحِبٌّ ليس يسلُوْ ومقلَةٌ لا تنامُ
كلُّ أُنسٍ ولذةٍ وسرورٍ قبل لُقياكُم عليَّ حَرَامُ

فَرَّغَ القومُ قلوبهم من الشواغل، فَضُربت فيها سرادقاتُ المحبوب، فأقاموا العينَ تحرسُ تارةً، وترشُّ الأرْضَ أخرى، هيهات! هانَ سهرُ الحراسِ لما علموا أنَّ أصواتَهم بسَمْعِ الملك.

(لابن المعتز):

أَيُّها المالِكُ الذي سهري فيه كَطَعْمِ الرُّقادِ بلْ هُوَ أحلى

---

(١) **علوة وهند**: اسما علم للإناث.
(٢) **غريم الطبع**: ما يقتضيه الطبع ويطلبه.
(٣) **الخُمار**: بقية السكر.
(٤) **العقبة**: يريد الجسر المضروب على متن جهنم.

غَـرضـي مـا يـريـدُه بـي حبيبـي   لو سَقاني مُهْلاً[1] لما قلتُ مَهلا
لســتُ أدري أطــالَ ليلــيَ أم لا؟   كيـف يَـدْري بـذاك مـن يتَقلّـى
إنَّ للعــاشقيــنَ فــي قِصَـرِ الليـلِ   وفــي طـولِـه عــن النّـوم شُغْـلا
لــو تفــرَّغــتُ لاستطــالــة ليلــي   أو لِـرَعْـيِ النُّجـوم كنـتُ مُخِـلاَّ
وغــرامُ الفــؤادِ مُــذْ غِبـتَ عنــه   لـم يَحُلْ عَنْ هـواكَ حـاشى وكـلا

قلوبُ العارفين مملوءة بذكر الحبيب، ليس فيها سَعةٌ لغيره.

قـدْ صِيغ قلبي على مِقدار حُبِّهِمُ   فمـا لحُـبٍّ سـواهُـمْ فيـه مُتَّسـعُ

إنْ نطقوا فبذكره، وإنْ تحركوا فبأمره، وإنْ فَرِحوا فَلِقُربه، وإن تَرِحوا فلعتبه.

واللهِ ما طلعـتْ شمـسٌ ولا غَـرَبـتْ   إلاّ وأنـتَ مِنِّـي قلبـي وَوَسـوْاسـي
ولا جَلَسْــتُ إلـى قـومٍ أُحَـدِّثُهـم   إلاّ وأنـتَ حَـدِيثي بيـن جُـلاّسـي
ولا هَمَمْتُ بشُرْبِ الماءِ مِنْ عَطَشٍ   إلاَّ رأيـتُ خَيَـالاً مِنْـكَ فـي الكَـاسِ

أقواتُهم ذكرُ الحبيب، وأوقاتُهم بالمناجاةِ تطيبُ، لا يصبرونَ عنه لحظةً، ولا يتكلّمون في غيرِ رضاه بلفظةٍ.

حيـاتـي منـكَ فـي رُوح الـوصـالِ   وصبـري عنـكَ مِـنْ طَلَـبِ المُحَـالِ
وكيـفَ الصبـرُ عنـك وأيُّ صَبْـرِ   لعطشــانٍ عــن المــاءِ الــزُّلالِ
إذا لَعِــبَ الــرِّجَــالُ بكــلِّ شــيءٍ   رأيــتُ الحُـبَّ يلعـبُ بـالـرجـال

كم تُدْرَسُ أخبارُهم وما تَدْرُس[2]، لئِنْ طَواهم الفَناءُ لقد نشرهم الثناءُ، لو سمعتَهم في الدُّجا يَعُجُّون، لو رأيتهم في الأسحار يضُجُّون، لولا نسائِمُ الرَّجاءِ كانوا يَنْضُجُون.

مــا لــيَ عــن وصلِـكَ اصطبـارُ   إليــكَ مــن هَجْــرك الفِــرارُ

---

(١) مُهلاً: النحاس المذاب، أو دردي الزيت، وأيضاً القيح والصديد.
(٢) تدرس الأولى: من المدارسة والمطالعة، وتدرس الثانية: لا تنمحي ولا تزول آثارها.

أصبحتُ ظمآنَ ذا جفونٍ ... مياه أَخْلافِها[1] غِزارُ
أرومُ كتمانَ ما أُلاقي ... وبالمآقي له اشتهارُ
ومِنْ نسيمِ الصَّبا إذا ما ... هبَّتْ على أرضكم أغارُ
آهٍ لذكرى ديارِ سَلْمى ... لا أَجْدَبتْ تلكمُ الديارُ
لَهَفي لعيشٍ بها تولّى ... نظيرُ أيامها النّضَارُ
إذ أعينُ الدهرِ راقداتٌ ... وفي غُصون الهوى ثمارُ

* * *

(١) أخلاف: جمع خلفٍ، وهي حلمة الضرع، وأيضاً ضرع الناقة.

الفصل الثاني والعشرون

أيها الحاطِبُ على أزْرِه[١] وِزراً وآثاماً! تنبّهْ ترَ الدنيا أحلى ما كانت أحلاماً، كم نكّسَ الموتُ فيها أعلاماً أعلى ما[٢]، كم أذلَّ بقهره أقواماً أقوى ما[٣]، لا كان مفتاحٌ أمسى له الموت خِتاماً.

مَــنْ علــى هــذه الــديــارِ أقــامــا	أو صَفَــا ملبــسٌ عليــه فَــدَامــا
عُــجْ بنــا نَنْــدُب الــذيــن تــولَّــوْا	بــاقتيــادِ المَنــونِ عــامــاً فعــامــا
تــركــوا كــلَّ ذرْوةٍ مِــن أشــمٍّ	يحسـرُ الطـرْفَ ثـم حَلُّـوا الـرَّغـامـا
يـا لحـا الله مهمـلاً حَسـب الـدهـرَ	نــؤومَ الجفــون عنــه فنــامــا
هــلْ لنــا بــالغيــنَ كــلَّ مــرادٍ	غيــرَ مــا يمــلأ الضُّلــوع طعــامــا
وإذا أعــوزَ الحــلالُ فشَــلَّ اللهُ	كفّــاً جَــرَتْ إليهــا حــرامــا

التبعاتُ تبقى واللذاتُ تمرُّ، وغِبُّ الأرْي[٤] وإنْ حلا فهو مُرٌّ، وكأنْ قد عوى في دار العوافي ذئبُ الضرّ، وما يُلهى شيءٌ من الدنيا ويَسُرُّ إلا يؤذي ويضر، وقد بانت عيوبُها، وليس فيها ما يَغُرُّ، وإنّما يعشقها الجهولُ، ويأنفُ منها الحرُّ.

تَــذِلُّ الــرجــالُ لأَطْمــاعهــا	كــذُلِّ العبيــدِ لأربــابهــا
ولا تَجْنِيَــنَّ ثمــارَ المُنــى	فتَجْنــي الهــوانَ بــأعقــابهــا

إخواني! ربّما أورد الطمعُ ولم يصدُرْ، كم شاربٍ شَرِقَ[٥] قبل الرِّيّ!.

مَنْ أخطأَتْهُ سهامُ المنيةِ قيّده عِقالُ الهرم، ألا يَتيَقظُ الغافلُ بأضرابه! ألا

---

(١) **الأزر**: الظهر.

(٢) أراد أعلى ما تكون.

(٣) أراد أقوى ما تكون. وفي الفقرتين من الجناس اللفظي اكتفاء.

(٤) **الأريُ**: العسل.

(٥) **شرق**: غصّ.

ينتهي العاقل بأَوْصابه[1]، أَيَسْلَمُ والرامي تحتَ ثيابه؟!.

يا مريضاً قد أتعب الأطباءَ ما به، كأنّك بالدنيا التي تقول: مرحباً، قد حَلَّتِ الحُبى[2]، وتفرقتْ تفرُّقَ أيدي سبأ[3].

ويحك! أخوك مَن عذَلكَ لا من عذَرك، صديقُك من صَدَقك لا مَنْ صدَّقك.

ويحَك! من يُطْربُك يُطغيك، وما لا يَعْنيك يُعَنّيك، تتوب صباحاً فإذا أمسيتَ تَحُوْل[4] وتَعُوْلُ[5]، وتقولُ غير أنّك تَنْقُضُ ما تقولُ، تتلوَّن دائماً كما تتلونُ الغُول.

يا عبدَ الهوى! إنْ دعا أمّنْتَ، وإن ادَّعى آمنت، كم قال لكَ الهوى وسمعت: «أنا مكّارٌ» وتبعتَ، واللهِ لقد أفتُّك[6] أضعافَ ما أفدتك، ولقد أعذر مَن أنذر، وما قصَّر من بصَّر.

لمّا رأى المتيقظون سَطْوةَ الدنيا بأهلِها، وخداعَ الأمل أربابها، لجؤوا إلى حِصْن الزهد، كما يأوي الصيدُ المذعور إلى الحرم، لاحَ له حَبُّ المشتهى، فلمّا مدوا إليه أيدي التناول، بانَ لأبصارِ البصائر خيطُ الفخِّ، فطاروا بأجنحةِ الحذَر، وصوَّتوا إلى الرعيل الثاني ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]، جمعوا الرحْلَ قبل الرحيل، وشَمّروا في سواء السبيل، فالناس في الغفلات، وهُم في قَطْع الفلاةِ ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡ﴾ [البقرة: ١٤١]، لو رأيتَ مطايا أجسامِهم وقد أذابَها السُّرى[7]، فهي تَحنُّ مما تُجِنُّ[8] فتبكي الحداةَ.

---

(١) **أوصابه**: أمراضه.

(٢) **الحُبى**: جمع حَبْوة، يقال: حلَّ فلانٌ حبوته؛ كناية عن الاستعداد للرحيل.

(٣) **سبأ**: بلدة بلقيس. **وتفرق أيدي سبأ**: أي تبددوا وضرب بما أصاب سبأ المثل لأنه لما غرق مكانُهم وذهبت جنّاتُهم تبددوا في البلاد.

(٤) **تحول**: تتغير.

(٥) **تعول**: تميل عن الحق.

(٦) **أي**: أضعت منك.

(٧) **السُّرى**: المشي في الليل.

(٨) **تحن مما تُجن**: أي حنينها مما أكنَّت في صدورها من الشوق والمحبة.

(للمصنِّف):

حَنّـت فـأَذكَـتْ لـوعتـي حنينـا أشكـو مـن البَيْـنِ وتشكـو البَيْنـا
قد عاثَ في أشخاصها طولُ السُّرى بِقَـدْرِ مـا عـاثَ الفـراقُ فينـا
فَخَلِّهـا تَمْشِـي الهُـوَيْنـا طـالَمـا أضحَتْ تُباري الريـحَ فـي البرينا
وكيـف لا نـأوي لهـا وَهْـيَ التـي بهـا قطعنـا السَّهـلَ والحُـزونـا
إن كُـنّ لـم يُفْصِحْـنَ بـالشكـوى لنا فهـنٌّ بـالإرزام[1] يشتكينـا
قـد أقـرَحـتْ بمـا تَحِـنُّ كبـدي إنَّ الحـزيـنَ يُسعِـدُ الحـزينـا
وقـد تَيَـاسـرتَ بهـنَّ جـائـراً عـن الحمـى، فـاعْـدِل بهـا يمينـا
يقـولُ صَحْبـي: أتـرى آثـارَهُـمْ نَعَـمْ، ولكـنْ لا أرى القَطينـا
لـو لـم تَجِـدْ ربـوعُهـم كـوَجْـدِنـا للبَيْـن لـم تُبـلَ كمـا بُلينـا
أَكلَّمـا لاح لعينـي بـارقٌ بَكَـت فـأبـدت سِرِّيَ المصَـونـا؟!
لا تـأخـذوا قلبـي بـذنـبِ مُقلتـي وعَـذِّبـوا الخـائـنَ لا الأمينـا

دارت قلوبُ القومِ في دائرة الخَوْف دورانَ الكرة تحتَ الصولجان، فهاموا في فلوات القلق، فمِنْ خائفٍ مُستجيرٍ، ومِنْ واجِدٍ يقول، ومن سكرانَ يَبُثُّ.

إذا لَعِـبَ الـرجـالُ بكـلِّ شـيءٍ رأيـتُ الحُـبَّ يلعـبُ بـالـرجـالِ

طالَتْ عليهم باديةُ الرياضة، ثم بدَتْ الرِّياض، فاستوطنوا فِرْدوسَ الأنسِ في قُلّةِ[2] طُور القلب[3].

شَقِينـا فـي الهـوى زمنـاً فلمّـا تـلاقَيْنـا كـأنّـا مـا شَقينـا
سَخِطْنـا عنـدمـا جَنَـت الليـالـي فمـا زالَـتْ بنـا حتـى رَضينـا
فمَـنْ لـم يَحْـيَ بعـد المـوتِ يـومـاً فـإنّـا بعـدَ مـا مِتْنـا حَيينـا

وقفتُ على قبرِ بعضِ الصالحين فقلتُ: يا فلانُ، بماذا نلتَ تردُّدَ الأقدامِ إليك؟[4].

---

(١) **الإرزام**: الصوت الشديد، وأرزم الرعد: اشتد صوته.
(٢) **القُلة**: أعلى الجبل وقمته.
(٣) في (ب): الطلب.
(٤) يريد زيارة الناس له في قبره.

فقال لي هاتف: أقدمتُ على ردِّ الهوى بلا تردُّد، فتردَّدَت إليّ الأقدام، كان عطرُ إخلاصي خالصاً، فعبقَ نشرُهُ بالأرواحِ.

(لمهيار)[1]:

جَرتْ مع الرسمِ لي محاورةٌ فَهِمتُ منها ما قالَه الرَّسْمُ
هلْ لكَ بالنازلينَ أرضَ مِنًى يا عَلَمَ الشوقِ بعدَنا عِلْمُ

أدلجَ القومُ طولَ الليل في السُّرى، وخافوا عِوَزَ الماءِ فتَمَّموا المزادَ[2] بالبكاءِ.

سَلُوا غَيْرَ طَرْفِي إنْ سَأَلْتُمْ عَنِ الْكَرَى فمَا لِجُفُونِ العَاشِقِيْنَ مَنَامُ

سكن الخوفُ قلوبهم فأذابها، فإذا بها في محلّة الأمن، نُحِلوا المعرفة فتحلَّوْا، فعُمّر قَصْرُ القلبِ للملك، وقنعَتِ الحواشي في القاع بالخِيَم.

وكم ناحلٍ بينَ تلكَ الخيامِ تَحْسَبُه بعضَ أطنابِها!

يا هذا! سرادقُ المحبة لا يُضرَبُ إلا في قاع [فارغ][3] نَزِهٍ، «فرغ قلبك من غيري أسكُنْهُ».

(للشريف الرضي)[4]:

تركُوا الدارَ فلمّا نزلوا القلبَ أقاموا
يا خليليَّ اسْقِيَاني زمنٌ[5] الوجدِ مُدامُ
وصِفَا لي قُلعة الركب وللليلِ مُقام
ومِنًى، أين مِنًى مِنّي؟ لقد شطَّ[6] المَرام

---

(١) من قصيدة كتبها إلى الأستاذ أبي طالب بن أيوب. انظر: ديوان شعره: ٤/ ٢٢ ـ ٢٧.

(٢) **المزاد**: أي المزادة وهي الراوية، والجمع: مزاود.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) كتب به إلى الملك قوام الدين يتنجز وعداً له عليه عام (٣٩٧هـ). انظر: الديوان: ٢/ ٢٨٢.

(٥) في (ب): ومن.

(٦) **شطَّ**: بَعُدَ.

هـل علـى جمـعٍ[1] نـزولٌ وعلـى الخَيـفِ[2] خيـامُ

يحقُّ[3] لأبدانِ المحبين أن تذوبَ، ولسماءِ أعينهم تَهمي[4] وتَصُوب[5]، لو حملوا جبالَ الأرض مع كرِّ الكُروب، كان [ذلك][6] قليلاً في حب المحبوب.

(لابن المعتز):

رأى خُضـوعـي فصَـدَّ عَنّـي فـازددتُ ذُلاً فـازداد تيهـا
قلـتُ لـه خـاليـاً وعَيْنـي قـد أحـرَقَ الـدمـعُ مـآقيهـا[7]
هـل لـيَ فـي الحُـبِّ مـن شبيـهٍ قـالَ: وأبصـرتَ لـيْ شبيهـا؟!

* * *

(١) جمع: المزدلفة لاجتماع الناس بها.
(٢) الخيف: ما ارتفع عن موضع مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل، ومنه قيل: مسجد الخيف بمنى، لأنه في خيف الجبل، وخيف مكة موضع فيها عند منى، وفي الحديث: «نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة» يعني المحصب.
(٣) حق يحِق: وجب ووقع بلا شك (القاموس المحيط).
(٤) همت العين: صبت دمعها.
(٥) تصوب: ينصب دمعها ينهمر.
(٦) زيادة من (ب).
(٧) في (ب): ما يليها.

الفصل الثاني والعشرون

إخواني! شمّروا عن سُوق الدَّأَب في سُوق الأدَب، واعتبروا بالراحلين وسلوا السَّلَبَ[1] قبل أن يفوتَ الغرضُ بالمرض إنْ عَرَضَ، فكأنّكم بمبسُوط الأملِ قد انقبضَ، وبمشيدِ[2] المُنى قد انتقض.

يـا سـاكـنَ الـدُّنيـا تـأهّـبْ ... وانتظـرْ يـومَ الفـراقِ
وأعـدَّ زاداً للـرَّحيـلِ ... فسـوفَ يُحْـدَى بـالـرِّفـاقِ
وابـكِ الـذنـوبَ بـأدمُـعٍ ... تنهـلُّ مـن سُحُـب المـآقِ
يـا مَـنْ أضـاعَ زمـانَـه ... أرَضيـتَ مـا يفنـى ببـاقِ

أين عزائمُ الرجال؟ أين صرائمُ[3] الأبطال؟ تُدْعَى وتتَوانى! هذا محال.

أَشْتـاقكُـمْ ويحـولُ العـزمُ دونكـمْ ... فـأدَّعـي بُعْـدَكُـمْ عنّـي وأعتـذرُ
وأشتكـي خَطـراً بينـي وبينكُـمُ ... وآيـةُ الشـوقِ أن يُسْتَصْغَـرَ الخَطَـرُ

إنْ همَمْتَ فبادِرْ، وإن عَزْمتَ فثابِرْ، واعلم أنَّه لا يُدْرِكُ المفاخِرَ من رضي بالصفِّ الآخر.

قال **عمر بن عبد العزيز** رحمة الله عليه: «خُلِقَتْ لي نفسٌ توّاقة، لم تزل تتوقُ إلى الإمارةِ، فلما نلتُها تاقَتْ إلى الخلافةِ، فلما نلتُها تاقَتْ إلى الجنَّةِ».

---

(١) **السلب**: المسلوب، وسلب القتيل: ما معه من ثياب وسلاح ودابة.

(٢) **المشيد**: البناء المعمول بالشيد ما يطلى به الحائط من جص أو بلاط، والمشيّد: المطوّل، ويطلق المشيد للواحد، وبالتشديد «المشيّد» للجمع. قال تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال: ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

(٣) **صرائم**: جمع صريمة، وهي العزيمة على الشيء.

(لأبي فراس):

بَـدَوْتُ وأهلـي حـاضِـرُونَ لأنَّنـي ... أرى أنَّ داراً لسـتُ مِـنْ أهلِهـا قَفْـرُ
وَمَا حَاجَتِي مِنَ المَالِ أَبْغِي وُفُورَه ... إِذَا لَمْ يَفِرْ عِرْضِي فَلا وَفَرَ الوَفْرُ
وقـال أُصَيْحـابـي: الفـرارُ أوِ الـرَّدى ... فقلْـتُ: هُمَـا أَمْـرَانِ أَحْـلاهُمـا مُـرُّ
سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ[1] ... وفِـي اللَّيْلَـةِ الظَّلْمَـاءِ يُفْتَقَـدُ البَـدْرُ
ولو سدَّ غيري ما سددتُ اكْتفَوْا به ... وما كانَ يغلو التِّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ[2]
ونحـنُ أنـاسٌ لا تـوسُّـطَ عنـدنـا ... لنَـا الصَّـدرُ دُونَ العَـالَمِيـنَ أو القَبْـرُ
تهـونُ عَلَيْنَـا فـي المَعَـالـي نُفُـوسُنَـا ... ومَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ المَهْرُ

ابتُليَتِ الهممُ العاليةُ بعشقِ الفضائل، شجرُ المكارهِ يُثمر المكارم.

متى لاحت الفريسة قذفت الغابة السَّبُعَ.

إذا استقام للجواد الشَّوطُ[3] لم يُحْوِجْ راكبه إلى السَّوْط.

من ضرب يوم الوغى وجه الهوى بسَهْم، ضرب مع الشجعان يوم القِسْمة بِسَهم.

من اشتغل بالعمارة استغلَّ الخراج.

إذا طلع نجمُ الهمةِ في ظلام ليلِ البَطالة، ثم ردَفه قمرُ العزيمة ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

يا طالباً للدَّعَة أخطأْتَ الطريقَ، علةُ الراحةِ التَّعب، إن لم تكن أَسداً في العزم ولا غزالاً في السَّبْق، فلا تتثعلبْ.

---

(١) جدهم: الجد والاجتهاد، وجد في الأمر: لم يهزل.

(٢) الصُّفر: النحاس الجيد. معدِن تصنع منه الأواني، وضبطه أبو عبيدة بكسر الصاد. والتّبر: فتات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا، قالوا: ما كان من الذهب غيرَ مضروب تبر، فإذا ضرب دنانير فهو عَيْنٌ.

(٣) الشوط: مكان بين شرفين من الأرض، ويطلق على الجزء من كل عمل، والجري مرة إلى الغاية.

يا هذا! الجدُّ جَناحُ النجاة، وكسلُكَ مُزْمِن.

من كَدَّ كَدَّ العبيدِ تنعّم تنعُّمَ الأحرار.

من امتطى راحلةَ الشوق لم يَشُقَّ عليه بُعدُ السفر.

(للمتنبي):

عَلى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ   وتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

يا هذا! ركائبُ الرحيلِ قد أُنيختْ بالجنابِ ولم تتحوَّجْ، وناقدُ السلعِ قائمٌ على البابِ ونَقْدُكَ بَهْرج، كيف يَلْحق السابقين كسلانُ أعرجُ؟! ولو تنقلْتَ على عَيطَموسِ[1] العزم، وهوجاءِ[2] الطلب، وعسجور[3] القصدِ، وجَعْلباةِ[4] السير، ومُشْمَعلة[5] الجِدِّ، وصلْتَ الديجورَ[6] بالضحى، لانقطعَتِ الديمومةُ القذَفُ[7] ولكنّك استوطأْتَ مهادَ الكسلِ، وإبرُ النحلِ دونَ العسل.

قيل لبعض أهلِ الرياضةِ: كيف غلبتَ نفسَك؟.

فقال: قمتُ في صفِّ حزْبِها بسلاحِ الجِدِّ، فخرجَ (مَرْحَبُ)[8] الهوى يُدافِعُ، فعلاهُ (عليٌّ) العزمِ بصارمِ الحزم، فلم تمضِ ساعةٌ حتى ملكتُ خيبرَ.

وقيل لآخر: كيف قدرتَ على هواك؟.

فقال: خَدَعتُه حتى أَسَرْتُه، واستلبتُ عوده فكسرتُه، وقيدتُه بقيد العُزلةِ، وحفرتُ له مَطْمُورةَ الخمولِ في بيتِ التواضعِ، وضربتُه بسياطِ الجوعِ فَلانَ.

---

(١) التامة الخلق من الإبل.

(٢) المسرعة من الإبل.

(٣) الصلبة من النوق.

(٤) الطويل من النوق في عجرفة.

(٥) النشيطة من النوق.

(٦) **الديجور**: الظلام.

(٧) **الديمومة**: الفلاة الواسعة لا ماء فيها. **والقذف**: البعيدة التي تتقاذف بمن يسلكها.

(٨) يشير إلى الفارس اليهودي مرحب الذي قتله سيدنا علي رضي الله عنه في غزوة خيبر.

يا فُلان! ألك في مجاهدةِ النفسِ نيةٌ؟ أم النيّةُ نَيّةٌ؟[1] أتعبْتَني وأنتَ أنتَ، يا خَنْشَليلاً[2] في كلِّ دَرْدَبِيسٍ[3] إلى متى تجولُ في طلب هُجول[4]؟.

ما نفشَتْ[5] غنمُ العيونِ النواظر في زروعِ الوجوهِ النواضرِ إلا وأُغيرَ على السَّرح.

من تعرّضَ للعنقفير[6] لقي الأمَرّيْن[7].

المتعرض للنَّبلة[8] أبله.

ما عزَّ **يوسف** إلا بترك ما ذلَّ به **ماعز**[9].

ولو رَكَدَ كَدَرُ دُهنِ الذهنِ سَمَتْ ذُبالةُ[10] المصباح.

إخواني! إلى متى سُكْرٌ عن المقصودِ؟ ألا صَحْوُ ساعة؟.

أريقوا قَرْقَفَ[11] الهوى قبلَ هجوم صاحبِ الشَّرطة، اكسروا الظُّروف ظَرْفاً[12] ليُعلمَ حُسْنُ قصدِكم للتوبة، ولْيَشْغَلْكُم ذِكْرُ النَّأْيِ عن صَوتِ النَّاي، والفكرُ في خرابِ المعاني عن لغاتِ الأغاني، فكم مِنْ شابٍّ ما شَابَ، وكم من

---

(١) **النّيء**: بكسر النون والهمز كَنِيْعٍ: اللحم الذي لم ينضج.

(٢) **الخنشليل**: البعير السريع، والضخم الشديد.

(٣) **دردبيس**: الماضي في الأمور.

(٤) **هُجول**: جمع هَجْل، وهو المفازة الواسعة.

(٥) **نفشت الإبل والغنم**: رعت ليلاً بلا راع، والنفش لا يكون إلا بالليل.

(٦) **العنقفير**: الداهية.

(٧) **الأمرَّيْن**: بفتح الهمزة وتشديد الراء، الفقر والهرم، وبكسر الهمزة: الشر والأمر العظيم.

(٨) **النبلة**: السهم، ويشير إلى الحديث القدسي: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»**.

(٩) **ماعز**: هو ابن مالك، أقرَّ بالزنى وتاب، وطلب من رسول الله ﷺ أن يطهِّره، فأقام عليه الحدّ.

(١٠) **الذبالة**: الفتيلة، والجمع «الذُّبال» تمتص الزيت وتشب فيها النار.

(١١) **قرقف**: خمر.

(١٢) **الظروف**: أوعية الخمر. **ظَرفاً**: كياسة.

راجٍ راجَ[1] له أنْ خاب، ما أسرعَ افتراقَ الصاحبين إذا صاح بَيْن.

فمفترقٌ جارانِ دارُهما عُمُرُ

مَثَلُ أهل الدنيا في غفلتهم وطول آمالهم كمثلِ الحاج، نزلوا منزلاً، فقامَ أقوامٌ يقطعون الصخورَ، يبنون البيوتَ، فقال المتيقظون: «وَيْحَكم! ما هذا البلَهُ؟! الرحيلُ بعدَ ساعة».

لو عَلمَ الوَرْدُ قِصَرَ عُمُره ما تبسّمَ، بينما هو يَنْشُرُ بزَّ ريحه في شَمَالِ البُكور، بزَّه[2] الناطورُ، فإذا به في زجاجةِ الزُّورِ[3]، فانتبه أنتَ ولا تَغْترَّ بزورٍ.

نسيمُ الدُّجَى يفتحُ مستغلَقَ الْجُنْبُذ[4] وخوفُ سَموم النهار يعيدُ النَّيْلُوْفَرَ إلى الماءِ، اسمع يا مَنْ لا يحرّكُه تشويقٌ، ولا يزعجُه تخويفٌ.

إذا المــرءُ كـــانـــت لـــه فكـــرة ففـــي كـــلِّ شـــيءٍ لـــه عِبْـــرة

تزوّج (صِلَةُ بن أَشْيَم) فأدخله ابنُ أخيه الحمّام، ثم أُدخلَ إلى بيتِ المرأةِ، وقد طُيِّبَ، فقامَ يصلِّي، فمَدَّ الصلاةَ إلى الفجر، فعاتبه ابنُ أخيه فقال: إنّك أدخلتني أمسِ بيتاً أذكرتني به النارَ، ثم أدخلتني بيتاً أذكرتني به الجنةَ، فما زال فكري فيهما حتى أصبحتُ.

كَفَـى حَـزَنـاً ألا أُعَـايِـنَ بُقْعَـةً مِنَ الأرْضِ إلاَّ ازْدَدْتُ شَوْقاً إليكُمُ
وإنّي متى مَا طَابَ لي خَفْضُ عِيْشَةٍ تَـذكَّـرتُ أيَّامـاً مَضَـتْ لـي لَـدَيْكُـمُ

مرَّ بعضُ الفقراء بامرأة فأعجبتْه فتزوجها، فلمّا دخلَ البيتَ نزعُوا خُلْقَانَه[5]، وألبسوه ثياباً جُدُداً، فلما جُنَّ عليه الليلُ طلبَ قلبَه فلم يَجدْهُ، فصاحَ: خُلْقاني خُلْقاني.. فأخذَها ورجعَ.

---

(١) حصل وتهيأ.
(٢) **بزه الناطور**: قطعه الناطور.
(٣) **الزور**: مجلس الغناء واللهو.
(٤) **الجُنْبُذ**: كالجلنار من الرمان.
(٥) **خلقان**: جمع خَلَق، ثوب خَلَق: أي بالٍ.

(للشريف الرضي):

ما سَاعَفتْني اللَّيالي بَعْدَ بُعْدِهِمُ ... إلاَّ ذَكَرْتُ ليالِيْنَا بِذِي سَلَمِ
ولا اسْتَجَدَّ فؤادِي فِي الزَّمَانِ هوًى ... إلاَّ ذَكَرْتُ هَوى أيَّامِنَا القُدُمِ
لا تَطْلُبَنَّ لِيَ الأبْدَالَ بَعْدَهُمُ ... فَإنَّ قَلْبِيَ لا يَرْضَى بغَيْرِهِمِ

* * *

الفصل الرابع والعشرون

يا طويلَ الأمل في قصيرِ الأجلِ! أما رأيتَ مستَلَباً[1] وما كَمَل؟! أتؤخِّرُ الإنابةَ وتُعجِّلُ الزللَ؟!.

يَـا مَـنْ يَعُـدُّ غَـداً لتَـوْبَتِـهِ   أَعَلَـى يَقِيْـنٍ مِـنْ بُلُـوغِ غَـدِ
المَـرْءُ فِـي زَلَـلٍ عَلَـى أَمَـلٍ   ومنيَّـةُ الإنْسَـانِ بَـالـرَّصَـدِ
عَجِّـلْ بهَـا لا تَنْسَهَـا لِغَـدٍ[2]   لَعَـلَّ يَـوْمَـكَ آخِـرُ العَـدَدِ

يا أخي! التوبةَ التوبةَ قبل أن تصلَ إليكَ النوبةُ.

الإنابةَ الإنابةَ قبل أن يُغلقَ بابُ الإجابةِ.

الإفاقةَ الإفاقةَ، فيا قُرْبَ وقتِ الفاقةِ.

إنّما الدُّنيا سوقٌ للتَّجْرِ[3]، ومجلسُ وعظ للزَّجْر، وليلُ صيفٍ قريبُ الفجر.

المُكنْةُ[4] مزنةُ صيفٍ، الفُرْصةُ زَوْرة[5] طَيْفٍ، الصِّحةُ رقدةُ ضيفٍ، الغِرَّة نقدةُ زيفٍ، الدنيا معشوقة وَكيف[6]، البدارَ البدارَ فالوقتُ سيفٌ.

يا غافلاً عن مصيرِه! يا واقفاً في تقصيره! سبَقَك أهلُ العزائمِ وأنت في اليقظة نائم، قف على الباب وقوفَ نادمٍ، ونكِّسْ رأسَ الذلِّ وقل: أنا ظالم، ونادِ

---

(١) مستلباً: سلبت روحه وقبض.

(٢) **لا تنسها**: من النسيئة؛ أي لا تؤخرها. وفي (ب): أيام عمرك كلها عدد.

(٣) **تَجْر**: جمع تاجر.

(٤) **المكنة**: القدرة والاستطاعة.

(٥) **زورة**: اسم مرة من زار.

(٦) **وَكِيف**: فاسد العقل.

في الأسحار: مذنبٌ وواجم[1]، وتشبّه بالقوم، وإن لم تكنْ منهم وزاحِمْ، وابعث بريح الزفرات سحابَ دمعٍ ساجِم[2].

قُمْ في الدُّجى نادِباً، وقف على الباب تائباً، واستدرك من العمرِ ذاهباً، ودعِ اللهو والهوى جانباً، فإذا لاحَ الغُرورُ رأى راهباً، وطلقِ الدنيا إن كنتَ للأخرى طالباً.

ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

يا مَنْ ضاعَ قلبُه! أُطلبه مِنْ مظانِّ إنشادِ الضوال[3]، الضائعةُ إنّما تُنْشَدُ في المجامع، فاطلبْ قلبك في مجالسِ الذكرِ، أو بينَ أهلِ المقابرِ، وربّما دخلتَ بيتَ الفكرِ فرأيتَه، فأيُّ موضعٍ غلَبَ على ظنك وجودُه فلا تقصّرْ في البحثِ عنه.

هذه النُّسورُ والرَّخَمُ[4] - على كثافة طبعها - إذا رأت جيشاً تبعته، لما ترجو من قتالٍ يوجب قتلى، أو إخداجَ[5] حاملٍ، أفما ترجو أنتَ في المجالسِ إجابةَ دعوةٍ أو حضورَ قلبٍ؟!.

يا نائماً طول الليل! سارت الرفقةُ، رحلَ القومُ كُلُّهم وما انتبهتَ من الرَّقْدة.

ويحك! أتدري ما صنعتَ بنفسك؟ دخلتَ دار الهوى فقامرتَ بعمرك، كنتَ أمسِ قلبَ أمس، فتراك تصحيف ترى[6].

لاحتْ لكَ العاجلةُ، فَهِمْتَ[7] كأنكَ ما فَهِمْتَ، فلما تَبدَّلْتَ تَبلَّدْتَ.

---

(١) **واجم**: عابس مطرق من حزن شديد.

(٢) **ساجم**: متتابع.

(٣) **الضوال**: جمع ضالة، وهي الضائعة من كل ما يُقتنى.

(٤) **الرخم**: جمع رَخَمَة، طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة.

(٥) **إخداج**: إلقاء الولد قبل تمام الأيام، وإن كان تام الخلق.

(٦) يريد: كنت سما، وهو مقلوب أمس، فصرت ثرى وهو مُصَحّف (ترى)، ويشير بالسما إلى الأصل الملكوتي للروح.

(٧) **فهمت**: من هام بالدنيا يهيم، أي: أحب يحب.

أخبرني عن تخليطك فالطبيبُ لا يُكْذَبُ[١]، سِحْنتُك[٢] تعلّمني فاسمع أُحَدِّثْكَ[٣]: استكثرتَ من بُرُودات الغَفلة، فقعد نشاطُ العزم، فلو قاوَمْتَها بحراراتِ الحذرِ لقامَ المُقْعَدُ، أما تعلمُ أنَّ مطاعِمَ المطامعِ تولِّدُ سَدَداً في كبدِ الجِدِّ، المحنةُ العظمى موافقةُ الهوى من غير تدبر، أنت ترى تدبر، أنت ترى ما تشتهي فتُضرَبُ الحدَّ.

يا أسيراً في قَبْضة الغفلة، يا صريعاً في سكرة المُهلةِ، أما يخطرُ بقلبِكَ خطرُ أمرِك؟!.

ويحك! قد وَهَن العظمُ [العظيم][٤]، وما شابت همَّة الأمل، أَخْلقَ بُرْدُ الحياة، وما انكفَّتْ كفُّ البطالة، قَرُبَتْ نوقُ الرحيلِ، وما في المزاد زادٌ، قُدِّمتْ معابرُ العبورِ، وأنتَ تلهو على الساحلِ. أكثرُ العُمُر قد مرَّ، وأنت تتغلغل في تضييع الغابر[٥]، أتُرَجِّحُ الفانيَ على الباقي؟ تَثَبَّتْ ففي الميزانِ عَيْنٌ، وإن حرّكك حظٌّ عن حظٍّ فَالْحظ الحظَّ الأحَظَّ، واللهِ لو شغلك نيلُ الجنة عن الحقِّ لحظةً كان في تدبيرك وَكْسٌ[٦].

ويحك! أنا بدك اللازم فالزم بدك[٧]، خاصَمْتُ عنك قبل وجودِ ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ [البقرة: ٣٠]، واعتذرت عنك في زلل ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولقنتك العُذْرَ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ [الانفطار: ٦]، وواصلتك برسائل «**هل من سائل**»[٨].

إذا لم يكنْ بيني وبينَك مُرْسَلٌ ... فريحُ الصَّبا مِنِّي إليك رَسُولُ

---

(١) **يُكذَب**: أي لا يخبر بغير حقيقة الوجع، ولا يغش بموضع الألم.

(٢) **سحنتك**: السحنة: هيئة الرجل ولونه.

(٣) مجزوم بجواب الطلب «اسمع».

(٤) زيادة من (ب).

(٥) **الغابر**: الباقي، وتأتي بمعنى الماضي الهالك، فهي من الأضداد.

(٦) **وكس**: نقص.

(٧) **أنا بدك اللازم**: أي عوضك ونصيبك. **فالزم بدك**: فالزم نصيبك وعوضك.

(٨) رواه الإمام أحمد والنسائي عن جبير بن مطعم. انظر: كنز العمال، رقم (٣٣٥٦): ٢/ ١٠٤.

كان بعضُ الأغنياءِ كثيرَ الشكرِ، فطالَ عليه الأمدُ فبَطِرَ وعصى، فما زالت نعمتُه، ولا تغيّرتْ حالتُه، فقال: يا ربِّ تبدَّلتْ طاعتي، وما تغيّرتْ نعمتي، فهتف به هاتف: يا هذا! لأيامِ الوصالِ عندنا حرمةٌ حفظناها وضيعتها.

(المهيار)[1]:

ليتَ شِعْري مَا الَّذي ألهاكَ عنّا ... سَلْ بِسَلْعٍ سكنا[2] كان وَكُنّا

دَبَّ أم ذنب سوَى أن تتجنّى ... أَهَوًى أحدثْتَهُ أم كاشحٌ[3]

تاب رجلٌ ممن كان قبلكم، ثم نقض، فهتف به هاتف في الليل:

فإنْ عُدْتَ عُدْنا والودادُ سليمُ ... سأتركُ ما بيني وبينَك واقفاً

وتتركُ مثلي، والحفاظُ قديمُ ... تُواصِلُ قوماً لا وفاءَ لعَهْدِهِمْ

يا ناقضي العهود انظروا لمَنْ عاهدتم، تلافَوا خَرْقَ الخطايا قبل أن يتَّسعِ.

فالهجرُ صعبٌ شديدُ ... عُودُوا إلى الوَصْلِ عُودُوا

نا لديكم بعيدُ ... تذكَّرُونا فما عَهْدُ

وهل تعودُ زَرُودُ[4] ... هل يَرجعُ البانُ يوماً

يا هذا! أَقبِلْ علينا، تَرَ من إقبالنا [عليك][5] العجبَ «**احفظِ الله يحفظْك، اطلبِ الله تجدْه أمامك**»[6]، مَنْ كان لنا عيناً على قلبه، أجرينا له جامكيةً[7] أمين.

غِبْتَ وأشجاني على القُربِ ... أنتَ على البُعدِ همومي إذا

---

(١) مطلع قصيدة كتبها إلى عميد الرؤساء أبي طالب بن أيوب في المهرجان. انظر: ديوان شعره: ٤/ ١٦٨ ـ ١٧٢.

(٢) في الديوان: (شجناً).

(٣) **كاشح**: المتولي عنك بوده.

(٤) **زرود**: وزان ثمود، موضع، وقيل: اسم رمل مؤنث، والمراد الأحبة سكان هذا الموضع.

(٥) زيادة من (ب).

(٦) حديث ابن عباس المشهور رواه أحمد الترمذي.

(٧) **جامكية**: أجر الموظف ويسمّى الراتب أو المرتب.

لا أُتبِـعُ القلـبَ إلـى غيـرِكُـمْ   عيـنٌ لكـمْ وعيـنٌ علـى قلبـي

يا هذا! حَفْرُ النهرِ إليك، وإجراءُ الماء ليس عليك، احفر ساقيةَ ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾ إلى جنب بحر ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإذا بالَغ فيها معولُ الكَدِّ، فاضَتْ عليك مياهُ البحرِ «**فبي يَسمعُ وبي يُبصرُ**»[١].

ألْقِ بذرَ الفكر في أرضِ الخَلْوة، وسُقْ إليه ساقيةً من ماءِ الذكرِ، لعلّها تُنبتُ لك شجرةَ «**أنا جليسُ من ذكرني**»[٢].

(للشريف الرضي)[٣].

يُـرَنِّحُنـي إليـكَ الشـوقُ حتـى   أميـل مـن اليميـنِ إلـى الشمـالِ
كمـا مـالَ المُعَـاقِـرُ عـاودَتْـهُ   حُمَيّـا الكـأسِ حـالاً بعـدَ حـالِ
ويـأخُـذُنـي لـذكـراكَ ارْتيـاحٌ   كمـا نَشَـطَ الأسيـرُ مـن العِقـالِ
وأيْسَـرُ مـا ألاقـي أنّ همّـاً   يُغَصِّصُنـي بِـذا المـاءِ الـزلالِ

هَبَّتْ رياحُ الخوفِ، فقلقلتْ قلوبَ الخائفين، فلم تترك ثمرةَ دمْعٍ في فَننِ[٤] جَفْنٍ.

إذا نزل آبُ[٥] في القلبِ، سكنَ آذار[٦] في العينِ.

---

(١) حديث قدسي رواه البخاري.
(٢) رواه الديلمي بلا سند عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، وعند البيهقي عن أبي بن كعب قال: قال موسى عليه السلام: «**أقريب أنت فأناجيكَ أم بعيد فأناديكَ؟ فقيل له: يا موسى! أنا جليس من ذكرني**». وعند أبي الشيخ نحوه في الثواب عن كعب، وقد روى الحاكم عن أنس وصححه بلفظ: قال تعالى: «**عبدي أنا عند ظنك بي، وأنا معك إذا ذكرتني**» (كشف الخفا، ص٢٣٢، رقم ٦١١).
(٣) من قصيدة طويلة له. انظر: الديوان: ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٨.
(٤) فنن: غصن، والجمع أفنان.
(٥) **آب**: هو الشهر الثامن بالتقويم الميلادي، وهو من شهور الصيف الحارة. يقال: آب اللهاب.
(٦) **آذار**: هو الشهر الثالث بالتقويم الميلادي، ويأتي في نهاية فصل الشتاء. يقال: آذار أبو الزلازل والأمطار.

لا تَبلُني بجوًى يزيدُ خُضوعي ... يَكفيكَ أنّ النّارَ بينَ ضُلوعي
وحياةِ سُقمي في هَواكَ فإنّهُ ... قَسَمُ الهَوَى وحَقِّ فيضِ دموعي
لأُوَكّلَنَّ عليكَ عَينيْ بالبكا ... ولأَعْشَقَنَّ عليكَ طولَ هُلوعي

كانتْ مع (**هشام بن حسان**) جاريةٌ في الدار، فكانَتْ تقول: أيُّ ذنب عَمِل هذا؟ مَنْ قَتَلَ هذا؟ فتراه الليلَ كلَّه يبكي.

تركتَ الفؤادَ عليلاً يُعادُ ... وشَرّدْتَ نومي فما لي رُقاد

كان **فتحُ الموصليُّ** يبكي بالدموعِ ثم يبكي الدمَ، فقيلَ له: على ماذا بكيت الدم؟.

فقال: خوفاً على الدموع أن لا تكونَ ما صحَّتْ لي.

يا مَنْ لفؤاد وامقٍ ما يصحو ... قدْ طالَ لعُظْمِ ما عَنَاه الشَّرْحُ
والعينُ لها دمٌ ودمعٌ سَحٌّ[1] ... ذا يكْتُبُ شَجوَهُ وَهَذَا يَمْحُو

* * *

(١) **السح**: الصب والسيلان من فوق، وعين سحّاحة: صبابة للدمع.

الفصل الخامس والعشرون

يا مَنْ يعظهُ الدهرُ ولا يقْبل! ويُنذِرهُ القهرُ بمنْ يرحلُ، ويضمُّ العيبَ إلى الشيبِ وبئسَ ما يفعل، كنْ كيف شئتَ فإنما تُجازى بما تعمل.

دَعْني فـإنَّ غـريـمَ العقـلِ لازَمَنـي ... وذا زمـانُـك فـامْـرحْ فيـه لا زَمَنـي
ولّـى الشَّبـابُ بمـا أحببْـتَ مِـنْ مِنَـحٍ ... والشَّيْبُ جَاءَ بِمَا أَبْغَضْتَ مِنْ مِحَن
فمـا كـرهـتُ ثَـوّى عنـدي وعَنَّفنـي ... ومـا حرَصْتُ عليـهِ حينَ عنّي فَنِـي

يا جائراً! كلَّما قيل: أَقْسِطْ[١] قَسَطَ، يا نازلاً فِسطاطَ[٢] الهوى على شاطئ الشطَط، يا مُمْهَلاً لا مُهْمَلاً! ما عندَ الموتِ غَلَطٌ، كم سَلَبَ وضيعاً وشريفاً سلْباً عنيفاً وخَبَط، أمَا مضَغَ الأرواحَ؟! فلما طال المضْغُ اسْترط[٣]، أما يكفي نذيرُهم؟! بلى قد خَوَّف الفَرَط[٤]، تالله ما يبالي حَمَامُ الحِمام أيَّ حبٍّ لَقَطَ؟! أما خطَّ الشيبُ خطَّ النَّهْي عن الخطايا لما وَخَط[٥]؟! أما آذن الشبابُ بالذهابِ فماذا بعد الشَّمَط[٦]؟!.

مـا إنْ يطيـبُ لـذي الـرعـايـة لـلأ ... يَّـام لا لَعِـبٌ ولا لَهْـوُ
إذ كـان يَطْـرَبُ فـي مسـرَّتِـه ... فيمـوتُ مـن أجـزائـه جُـزْوُ

يا مدْعوّاً إلى نجاتِه وهو يتوانى! ما هذا الفتورُ والرحيلُ قد تدانى؟! يا مقبلاً على هفواته لا يألو بُهتاناً، كأنّك بالدمعِ يجري عند الموت تَهْتاناً[٧]، وشُغْل التَّلَفِ

---

(١) **أقسط**: أعدل. **وقسط**: جار وظلم.
(٢) **فسطاط**: الخيمة الكبيرة.
(٣) **استرط**: ابتلع.
(٤) **الفرط**: التقصير وتضييع الأمر حتى يفوت.
(٥) **وخط**: خالط.
(٦) **الشمط**: بياض شعر الرأس يخالط سواده.
(٧) **تهتاناً**: متتابعاً.

قد أوقدَ من شُعَلِ الأسَفِ نيراناً، وأنتَ تبكي على تفريطِكَ حتى [لقد][1] أقرحْتَ[2] أجفاناً، والعملُ الصالحُ ينادي مَنْ كان أجفانا[3]: احذَرْ زلَلَ قدمِكَ، وخَفْ حلولَ ندمِك، واغتنمْ وجودَكَ قبل عدَمِك، واقبَلْ نصحي ولا تخاطر بِدَمِكَ.

إذا مـا نهـاكَ امـرؤٌ نـاصـحٌ	عـن الفـاحشـاتِ انْـزَجِـرْ وانْتَـهِ
وإمّـا عَلَـوْتَ إلـى رُتْبـةٍ	فكُـنْ حَـذِراً بعـدهـا أن تَهِـي[4]
وإمّـا تـرى مُهْجَـةً فـي الثـرى	فـلا تَغْتَـرِرْ بـالمُنَـى أنـتَ هِـيْ

خاصِمْ نَفْسَكَ عند حاكِم عقلِكَ، لا عندَ قاضي هَوَاك، فحاكمُ العقلِ يَدينُ، وقاضي الهوى يجَوْرُ.

كان أحدُ السلفِ إذا قهرَ نفسَه بتركِ شهوةٍ أقبلَ يهتزُّ اهتزازَ الرامي إذا قَرْطسَ[5].

لما عرف القومُ قَدْرَ الحياةِ، أماتوا فيها الهوى فعاشوا، انْتَهَبُوا بأكفِّ الجِدِّ من الزمنِ ما نثَرهُ زمنُ البطالة.

وركـبٍ سَـرَوْا والليـلُ مُلْـقٍ رُوَاقَـه	علـى كـلِّ مُغْبَـرِّ الطَّـوالِـع قـاتـمِ
حَدَوْا عزماتٍ ضاقَتِ الأرضُ بينها	فصـارَ سُـراهُـمْ فـي ظُهـورِ العـزائـمِ
تُـريهـم نجـومُ الليـلِ مـا يَبْتغـونَـه	على عاتقِ الشِّعْرى وَهَامِ النَّعائمِ
إذا طَرَّدوُا[6] في معْركِ الجدِّ قَصَّفُوا	رماحَ العطايا في صدورِ المكارمِ

هان عليهم طولُ الطريقِ لعلمهم أين المقصدُ، وحَلَتْ لهم مراراتُ البِلاَ حُبّاً لعواقب السلامة، فيا بُشراهم يومَ ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) **أقرحت**: أقرح: أخرج بها القروح، أي: الجروح.
(٣) **أجفانا**: من الجفاء، وهو ضد البر والصلة.
(٤) **تهي**: تضعف وتسقط.
(٥) **قرطس**: أصاب القرطاسَ، أي: الهدف.
(٦) **طرَّدوا**: مبالغة طَرَدَ، أي: راهنه في سبق.

قِفْ بالدِّيارِ فَهَذِهِ آثَارُهُم ... تَبْكِي الأحِبَّةَ حَسْرةً وتشوُّقا
كَمْ قَدْ وقفْتُ بِهَا أُسَائِلُ مُخْبِراً ... عَنْ أهْلِها أو صَادِقاً أو مُشْفِقا
فأجابني داعي الهوى في رَسْمِها: ... فارقْتَ مَنْ تَهوَى فَعزَّ الملتقى

يا ربُوعَ الأحباب! أينَ سكانُك؟! يا مَواطنَ أولي الألباب! أين قُطَّانُك؟! يا جواهرَ الآداب! أين خُزّانُك؟!.

(لمهيار)[1]:

يُطْرِبُنِي للمنازِلِ اليومَ مَا ... أَسَأرَ[2] عندي أيامُها القُدُمُ
وتُطبيني[3] على فصاحةِ شَكْوايَ ... إليها ربوعُها العُجُمُ
عَليَّ يا دارُ جهدُ عيني، وما ... عليَّ عارٌ أن تبخلَ الدِّيَمُ[4]
لكِ الرضا من جمامِ[5] أدمعِها ... أو دَمِها إنْ سَقى ثراكِ دمُ
أما وعهدِ الغادينَ عنكِ وأ ... شجانٍ بواقٍ لي فيكِ بعدَهُمُ
وما أطالَ المُنى[6] وأعرضَ من ... عيشٍ كأنَّ اختلاسَه حُلْمُ
هل هو إلاّ أنْ قيلَ: جُنَّ بهم ... نَعَمْ! على كلِّ حالةٍ نَعَمُ
بِتْنا وأطواقُنا يدٌ ويدٌ ... ورُسْلُ أشواقِنا فمٌ وفمُ

يا هذا! تنزَّه في أخبار المحبين إن لم تكن منهم، إنَّ أهلَ الكوفةِ يخرجون للتفرّجِ على الحاجِّ، اقْعُدْ على جانبِ وادي السَّحَرِ لعلَّ إبلَ القومِ تمرُّ بكَ.

خُذني على قَطَنٍ[7] يمينا ... فعسى أُريك به القطينا[8]

---

(١) من قصيدة قالها وكتب بها إلى أبي طالب بن أيوب في النيروز. انظر: ديوان شعره: ٣/ ٢٥٧ ـ ٢٦١.
(٢) **أسأر**: السؤر: بقية الشيء، وأسأر منه شيئاً: أبقى.
(٣) **تطبيني**: تستميلني وتستهويني.
(٤) **الديم**: جمع ديمة، وهي السحابة الممطرة.
(٥) **الجمام**: معظم الماء.
(٦) في الديوان: (الصبا) بدلاً من (المنى).
(٧) **قطن**: جبل لبني أسد في نجد يتغنى به المحبون.
(٨) **القطين**: الساكن.

مِنّـــي تعلّمـــتِ الحَمَـــامُ النـــوحَ والإبـــلُ الحنينـــا

وا أسفَ المتقاعِدِ عنهم، وا حسرةَ البعيدِ منهم.

سَلُوا عن فؤادي ساكني ذلك الوادي فقـد مـرَّ مجتـازاً علـى يمْنَـةِ الـوادي
مضى يطلبُ الأحبابَ والقومُ قد سَرَوْا فَضَلَّ، ومرُّوا مُسْرعينَ مع الحادي
فهـا أنـا أبكيهـم وأبكيـه بعـدَهـم وتطلبُهم عيني مع الرائِح والغادي

وا حاجتَنا إلى رؤيةِ القومِ، ويا شدةَ إيثارِهم البعدَ عنّا، إنْ رأينا شخصاً فأعلمتْنا الفراسةُ أنّه منهم، كانت همّتُه الهربَ منا، وما ذاك إلا للتبايُنِ بين أفعالنا وأعمالِهم، فلنبكِ على هذه الحالِ.

عَجِبـــتْ لمـــا رأتنـــي أنـــدبُ الـــرَّبْـــعَ المُحيـــلا
واقفـــاً فـــي الـــدار أبكـــي لا أرى إلا الطُّلـــــــــولا
كيـــف نبكـــي لأُنـــاسٍ لا يَمَلُّـــون الـــذَّمِيـــلا[1]
كلّمـــا قلـــتُ اطمـــأنَّـــتْ دارُهـــم صـــاحـــوا الـــرحيـــلا

كان بعضُ الصالحين يتسترُّ بإظهارِ الجنون، فتبعه مريدٌ فقال له: والله ما أبرحُ حتى تكلِّمني بشيء ينفعني، فإنِّي قد عرفْتُ تَسَتُّرَكَ، فسجدَ، وجعلُ يقول في سجوده: «اللهمَّ سِتْرَكَ» فمات.

أسميـك (سُعـدى) فـي نَسيبي تـارةً وآونـــة (أسمـــا) وآونـــة (لُبنـــى)
حَذاراً من الواشِين أن يسمعوا بنا وإلا فَمَن (سُعدى) لديكَ ومَنْ (لُبنى)

* * *

---

(١) **الذميلا**: ضرب من السير.

الفصل السادس والعشرون

يا مخدوعاً قد فُتنَ! يا مغروراً قد غُبن! مَنْ لكَ إذا سُوّيَ عليك اللَّبِنُ؟ في بَيْتٍ قطُّ ما سُكن، سَلْبُ الرفيقِ نذيرٌ، والعاقلُ فَطِنٌ.

أنــــتَ فـــي دارِ شَتـــاتٍ ... فتـــأهَّـــبْ لشتـــاتِـــك

واجْعـــلِ الـــدنيـــا كيـــومٍ ... صُمتَـــه عـــنْ شَهـــواتِـــك

وليكُـــن فِطْـــرُك عنـــدَ الـ ... ـلـــهِ فـــي يـــومِ وَفـــاتـــك

إياكَ والدُّنيا فإنَّ حبَّك الدنيا مبتوتٌ، واقْنعْ منها باليسير، فما يَعُزُّ القوتُ، ياقوتُ الندمِ يُغني عن الياقوت، احذَرْ منها، فإنّها أسحرُ من هاروتَ وماروتَ، ليس للماء في قبضةِ ممسكٍ ثبوتٌ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

أين مَنْ جمع المال وملأ التخوت[١]؟! تساوى تحت اللُّحودِ الساداتُ والتُّحُوتُ[٢]، ما نفعه إنْ جالَ في البأس جالوتُ، ولا ردَّ عنه إن طال القومَ طالوتُ، ولا منع أصحابَه حلولُ التابوت، لقد أخرجَ الموتُ من قَعْرِ اليمّ الحوتَ، قل للذين تَديَّروا[٣] تدبروا أين البيوت؟! جُوزوا على الذين جُوزوا[٤] فقد وعظ الخُفوت[٥].

كم مسؤولٍ عن عذره في قبره مَبْهوت، لقد أنطق الوعظُ الصخورَ الصُّموت،

---

(١) **التخوت**: أوعية تصان فيها الثياب (معربة).

(٢) **التحوت**: الأسافل.

(٣) **تديَّروا**: عمروا الديار.

(٤) **جوزوا الأولى**: مروا على الجواز. **وجوزوا الثانية**: حوسبوا من المجازاة.

(٥) **الخفوت**: الذين يموتون فجأة.

أما يكفي زجراً أنك تموت، بادِرْ عُمُراً في كلِّ يومٍ يفوت، قلْ: أنا تائب إلى كم سُكوت؟.

قد تعوَّدَتْ منك النفسُ في المجلس النطقَ بالتوبة، فهي تسخو بالكلام لعلمها أنه على غيرِ أصْلٍ، ولو تَيَقَّنَتْ صدقَ عزمِك لتوقفتْ عن القول.

هذا العصفورُ إذا كان على حائط فَصِحْتَ به لم يبرحْ، فإذا أهويتَ إلى الأرضِ كأنك تتناولُ حجراً تَلَمّحَ يدَكَ فارغة فلم ينْفُر، فإذا وضعْتَ يدَك على حجرٍ رأى الجِدَّ فَفَرّ.

يا هذا! قولُك: أنا تائبٌ؛ مِنْ غيرِ عَزْمٍ نفخٌ في غَير ضَرَمٍ[1]، بَيضُ الترابِ[2] لا يخرجُ منه فَرْخٌ.

إخواني! العمرُ أنفاسٌ تسيرُ بلْ تطيرُ، الأملُ منامٌ لا تُرى فيه إلا الأحلامُ، هذا سيفُ الموتِ قد دنا، فإنْ ضربَ قَدَّنا[3]، هذا الرحيلُ ولا زادَ عندنا، انتبهوا من رُقاد الغفلةِ، تيقّظوا من نومِ التسويف[4]، عَرِّجوا عن طريق البَطالةِ، ابعدوا عن ديار الوحشة.

الفترةُ حيضُ الطِّباع، ووقوعُ العزيمة رؤيةُ النقا[5]، فحينئذٍ يتوجَّهُ الخطابُ بالتوجه إلى محراب الجِد.

أولُ منازلِ الآخرة القبرُ، فمَنْ ماتَ فقد حطَّ رحْلَ السفر، وسائرُ الورى سائر[6].

مَن كان في سِجْن التقى فالموت يُطْلِقُهُ، ومن كان هائماً في بوادي[7] الهوى فالموتُ له حبس يُوثقه، موت المتعبدين عِتْقٌ لهم من استرقاق الكدِّ،

---

(١) ضرم: الاتقاد والاشتعال، وفي (أ): في بَلْبَسه.
(٢) يشير إلى البيض الذي يُلقى على التراب ولا يحضن لا يفقس.
(٣) قدَّنا: قطعنا.
(٤) في (ب): العطلة.
(٥) النقا: الطهر.
(٦) سائر الأولى: جميع الناس. وسائر الثانية: من السير والذهاب.
(٧) بوادي: جمع بادية

ورِفقٌ بهم من تَعَبِ المجاهدة، وموتُ العصاةِ أسرى استرقاقِ طولِ العذابِ.

من كان واثقاً بالسلامة من الجناية فَرِحَ بفك [باب][1] السجن، لما توعَّدَ فرعونُ السحرةَ بالصَّلب أنساهم أملُ لقاءِ الحبيب مرارةَ الوعيد ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

يا فرعونُ! غايةَ ما تفعل أن تحرّق الخِيم[2]، والركب قد سرى ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

مَنْ لاحتْ له مِنًى نسي تعب المَدْرَج.

(المهيار)[3]:

متى رُفعتْ لها بالغَوْرِ نارُ	وقَرّ بذي الأراكِ لها قَرارُ[4]
فكلُّ دمٍ أراقَ السيرُ منها	بحُكْمِ الشوقِ مَطْلولٌ جُبَارُ[5]

لا بدّ للمحبوبِ من اختبار المحبِّ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥].

أسلم **أبو جندل بن سُهيل** فقيّدَه أبوه، فلمّا نزل رسولُ الله ﷺ الحُديبيّةَ خرجَ أبو جندل يرسُفُ في قيده، فدخلَ في الصحابةِ، فقال سهيلُ: هذا أول مَنْ أُقاضيك عليه، فاستغاثَ أبو جندلٍ: يا معشرَ المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين، فيفتِنُوني عن ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لابدَّ مِنَ الوفاءِ**»[6] فرُدَّ إليهم، فقَدَمُه تسعى إليهم، وقلبُه يجهّزُ جيوشَ الحِيَلِ في الخلاصِ.

(المهيار)[7]:

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) في (ب): الجسم.
(٣) مطلع قصيدة يمدح بها شرف المعالي القناني. انظر: ديوان شعره: ٢/ ٦.
(٤) **الغور وذو الأراك**: اسما موضعين.
(٥) **الجُبار**: الهدر. **ومطلول**: مهدور.
(٦) قال ﷺ: «**إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم**»، ذكره البخاري في كتاب (الشروط)، باب (الشروط في الجهاد)، رقم (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢)، راجع: فتح الباري: ٥/ ٣٨٨؛ وسيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٨.
(٧) مطلع قصيدة يهنئُ فيها الوزير أبا المعالي بالنيروز. انظر: ديوان شعره: ١/ ٣٣٢ـ٣٣٦.

أَنْـــذَرَتْنِـــي أمُّ سَعْـــدٍ أنَّ سَعْـــدا   دُوْنَهـا يَنْهَـدُ لـي بـالشَّـرِّ نَهْـدا[1]
وعلـــى مـــا صَفَحُـــوْا أو نَقَمُـــوْا   مـا أرَى لـي مِنْـكِ يـا ظَبيـةُ بُـدّا

لما أسلمَ **مصعبُ بن عمير** حبَسَهُ أهلُهُ، فأفلَتَ إلى الحبشة، ثم قَدِمَ مكةَ، فدخلَ على رسول الله ﷺ، فأرسلَتْ إليه أُمُّه: يا عاقُّ! أتدخلُ بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنتُ لأبدأ بأحدٍ قبلَ رسولِ الله ﷺ، فأرادَتْ حبسَه، فقال: والله لئن حَبَستِني لأحْرِصَنَّ على قتلِ مَنْ يتعرَّضُ لي، فتركَتْهُ.

وعَـاذِلُـونَ لِحَـوْبـي[2] فـي مَحبَّتِهِـمْ   يـا لَيْتَهـم وَجَـدُوا مِثْـلَ الَّـذِي أَجِـدُ
لَمَّا أَطَالُوا عِتَابي فِيْكِ قُلْتُ لَهم: لا تُفْرِطُوا بَعْضَ هذا اللومِ واقْتَصِدُوا

جَمعَ حبسُ التعذيبِ بين **بلال وعمّار**، مصادرَيْنَ على بذل الدين، فزوّروا نطقَ عمار على خطِّ قلبِه، فلم يعرفوا التزويرَ، وأصَرَّ بلالٌ على دعوى الإفلاسِ، فسلّمُوه إلى صبيانهم في حَديدةٍ يصهرونه في حرِّ مكة، ويضعونَ على صدرِه وقتَ الرَّمْضاء صخرةً، ولسانُ محبته يقول:

(للمتنبي):

بِعَيْنَيْـكَ مـا يَلقَـى الفُـؤادُ وَمَـا لَقِـي   وللشَّـوْقِ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّـي ومَا بَقِـي

واعجباً! أَيُلامُ ذو حسٍّ على عشقِ يوسُف؟!.

قَدِمَ **الطفيلُ بن عمرٍو الدَّوْسِيّ** مكةَ، فقالَتْ له قريشٌ: لا تَدْنُ من محمدٍ، فإنّا نخاف أنْ يَفتِنَكَ، فَسَدَّ أذنيه بقُطنَتَيْن، ثم تفكّر، فقال: واللهِ ما يخفى عليَّ الحَسَنُ من القبيحِ، فانطلقَ فسمعَ من رسولِ الله ﷺ فأسلمَ.

وما كُنْتُ مِمّنْ يَدْخُلُ العِشْـقُ قَلْبَـهُ   ولكنَّ مَنْ يُبْصِرْ لَحَاظَكِ[3] يَعْشَـقِ

قطَّعَتْ قريشٌ لحمَ خُبيب، ثم حَمَلوه إلى الجِذْعِ ليُصْلَبَ، فقالوا: أَتُحِبُّ

---

(١) ينهد نهداً: يصمد له، ويشرع في قتاله.
(٢) **الحَوْب**: الهم والحزن والوجع.
(٣) في (ب): جفونك.

أنَّ محمداً مكانَك؟ فقال: والله ما أحبُّ أني في أهلي وولدي، وأنَّ محمداً شِيك بشوكةٍ، ثم نادى: وا محمداه[1].

إنَّ في الأسرِ لَصَبّاً دَمْعُهُ في الخدِّ صَبُّ[2]
هُوَ بالرُّومِ مُقيمٌ وَلَهُ بالشَّامِ قَلْبُ

لما بُعثِ معاذُ إلى اليمنِ، خرجَ الرسولُ ﷺ يُودِّعه، ودموعُ معاذٍ ترشُّ طريقَ الوداعِ.

ولمَّا تزيلنا من الجِزْعِ وانتأى مشرِّقُ ركبٍ مُصعدٍ عن مُغَرِّبِ
تبينْتُ أنْ لا دارَ مِنْ بعْدِ عالجٍ تَسُرُّ، وأنْ لا خُلةً بعدَ زينبِ

كانت الدنيا بمثلهم عَسَلاً، فتعَلْقَمتْ[3] بمثلكم، خلَتِ الديارُ من الأحباب، فلمَّا فرغَتْ رُدِم الباب.

(للنابغة):

وقفتُ فيها أَصِيلاً كي[4] أسائِلَها أعيتْ[5] جواباً وما بالربعِ من أَحَدِ
أضحَتْ قِفاراً وأضحى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

جُزْ ببعض أنديتِهم نادها، وابكِ فَقْدَ الأحبابِ مَع ناديها.

(للبحتري):

إذا جُزْتَ بالغَوْرِ اليماني مُغْرِّباً وحاذَتْك صحراءُ الشواجر يا سعدُ
فنادِ ديارَ العامرِيةِ باللِّوى: سَقَتْ رَبْعَكِ الأنواءُ، ما فَعَلَتْ هندُ

* * *

---

(١) انظر قصته في يوم الرجيع: سيرة ابن هشام: ٢/ ١٧٢.
(٢) صبّاً: محبّاً. صب: منسكب.
(٣) **تعلقمت**: صارت مُرَّة كالعلقم.
(٤) في ديوان النابغة:
«وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أسائلها عيَّتْ جواباً وما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ»
والأصيل: العشي، وجمعه أُصُل وآصال، وتصغير: أُصُل: أصيلال.
(٥) وفي الديوان: «عَيّتْ» بحذف الألف.

الفَصْلُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

إنَّ الدنيا مذ أَبانَتْ مُحبَّها أَبانَتْ[١] حالَها، لقد روّت وما روت[٢]، ووارَتْ فأَرتْ مآلها، لقد عرَفَ إدبارَها مَنْ قد أَلِفَ إقبالها، وما اطمأنّتْ أرضُها إلا وزُلزلت زِلزالَها.

قـلْ لِمـنْ فـاخَـرَ بـالـدُّنيـا وحـامَـى	قَتَلَـتْ قبلـك سـامـاً ثـمّ حـامـا
نَـدفـنُ الخِـلَّ، ومـا فـي دفننـا	بعـدَه شـكٌّ، ولكِـنْ نتعـامـى
إنّ قُـدّامَـكَ يـومـاً لـو بِـهِ	هُدّدَتْ شمسُ الضحى عادتْ ظلاما
فـانتبـهْ مِـنْ رَقْـدةِ اللهـوِ وقُـمْ	وانـفِ عَـنْ عَيْـنِ تمـادِيْكَ المنـامـا
صـاحِ صِـحْ بـالقَبْـرِ يُخْبِـرْكَ بمـا	قَدْ حَوَى، واقْرأ على القَوْمِ السّلاما
فـالعظيـمُ القـدْرِ لـو شـاهَـدْتَـه	لـم تجـدْ فـي قبـرِه إلا العِظَـامَـا

تالله لقد ركضَ الموتُ فأسرعَ الركضَ، وبثَّ الجنودَ وطبّق الأرضَ، وما حمَلَ على كتيبةٍ إلا وَفَضَّ[٣]، ولا صاحَ بجيشٍ إلا جاشَ وارْفَضَّ[٤]، ولا لَوَّح إلى طائرٍ في البُرْجِ إلا انقضّ، إذا تكلَّمَتْ قوسُه بالنبضِ أسكَنَتِ النبضَ[٥]، بينا الحياةُ تُعرَبُ بالرفعِ جَعَلَ الشكلَ الخفضَ.

أين مصونُ الحصونِ؟ أُزعِجَ عنها، أينَ مقصورُ القصورِ؟ أُخْرِجَ منها، نقله هاذمُ اللّذاتِ[٦] نَقْلاً سريعاً، ومَقَلَهُ في بحرِ الآفات مُقْلاً[٧] فظيعاً، وفَرَّق بينهُ

---

(١) **أبانت** الأولى: أبعدت وقطعت. **وأبانت** الثانية: أظهرت وأوضحت.

(٢) **ما روّت**: من الري وهو ضد الظمأ.

(٣) **فض**: شتت وبعثر.

(٤) **جاش**: تدفق واضطرب. **ارفضّ**: تفرق.

(٥) **النبض** الأولى: إطلاق السهم. **والنبض** الثانية: حركة القلب.

(٦) كناية عن الموت.

(٧) **مقله مقلاً**: غمسه غمساً.

بالبين وبينَ بنيه، وطَرَقه بطارقِ النقضِ فأنقضَ ما كان يَـبْنيه، لقد ولَّى ولا وليٌّ ذو وُدٍّ ينفعه، وبَان فبانَ[1] لباني الدنيا مصرعُه.

هجَره واللهِ مَنْ هاجرَ إليه، ونَسِيَه نسيْبُه وقد كان يحنو عليه، فلا صديقُه صَدَقَه في مودَّتِه، ولا رفيقُه أرفقَه في شِدَّتِه.

حَلُّـوا ـ واللهِ ـ بالبـلاءِ في البِلَى، وودّعهم من أوْدعَهم ثَـمّ[2] ثُمَّ قلـى، وانفردوا في الأخدود بين وَحْشِ الفَلا، وسألوا الإقالةَ فقيلَ: أمّا هذا فلا.

لو نطقَ الموتى بعد دفنهم لندِموا على غيّهم وأَفْنهم[3]، ولقالوا: رحَلْنا عن ظُلَمِ شرورنا إلى ظُلَم قبورِنا، وخَلَوْنا عن الأَخِلاّء بتُرابنا في آفاتٍ لا تُرى بنا، أفتَرى محبَّنا إذ ظَعَنّا بِمَنْ قد اعتاضَ عنا؟.

وهذا مصيرُك بعدَ قليل، فتأهّبْ يا مقيمُ للتحويل، يا سليماً[4] يَظُنُّ أنّه سليم، جوارحُك[5] جوارحُك، سورُ تقواكَ كثيرُ الثُّلَم، وأعداؤك قد أحاطوا بالبلد، ويحك! قبل الرَّمْي تُراشُ[6] السِّهامُ، وبين العجز والتواني ينتج التَّوى[7].

يا قالي القائِل للنصائح وَأَوِدَّاؤُك[8] داؤك، كيف تجتمع همتك مع غَوْغاءِ المُنى وضوضاءِ الشهواتِ؟! كيف تتصرّفُ في مصالحك والشواغلُ[9] للشوى[10] غُلّ[11]؟! كم صادفْتَ الهدى فصدفْتَ[12]! لقد خَدع قلبَك الهوى فاسترق

---

(١) **بان**: انقطع وذهب. **فبان**: ظهر وتبين.
(٢) **ثَمَّ**: هناك
(٣) **أَفْنهم**: نقص عقلهم وحمقهم.
(٤) **سليماً**: ملسوعاً، يقال للديغ: سليم، تفاؤلاً بسلامته من السم.
(٥) الأولى: بمعنى الأعضاء، الثانية: بمعنى الآلات الجارحات.
(٦) **تراش**: يوضع لها الريش ويحملها في انطلاقها.
(٧) **التوى**: الهلاك.
(٨) **أوداؤك**: أحبابك.
(٩) **الشواغل**: جمع شاغلة ما يشغل الإنسان عن مقصده.
(١٠) **الشوى**: اليدان والرجلان والأطراف.
(١١) **الغُل**: بضم الغين، القيد المعروف.
(١٢) **فصدفت**: أعرضت.

فاسترَقّ[1]، أضرُّ ما عليكَ سوءُ تدبيرك.

آهٍ للابسِ شعارِ الطَّردِ وما يشعر به، وا أسَفاه لمضروبٍ ما يحسُّ صوت السوط! عجباً لمن أُصيبَ بعقله وعقلُه معه! يا مُعثَّرَ الأقدامِ مع إشراقِ الشمسِ! يا فارغَ البيتِ من القوتِ في أيّامِ الحصاد.

أمَلـي مِـنْ أمَلـي مـا ينقضـي	وغَـرامـي مِـنْ غـرامـي قـاتلـي
كلّمـا أفنيـتُ عـامـاً فـاسـداً	جـاء عـامٌ مثلُـه مِـنْ قـابِـلِ
كلَّمـا أمَّلـتُ يـومـاً صـالحـاً	عـرضَ المقـدورُ لـي فـي أملـي
وأرى الأيـامَ لا تُـدنـي الـذي	أرْتَجـي منـك وتُـدْنِـي أجلـي
وأرى الآمـالَ بـي سـابحـةً	فـي بِحـارٍ مـا لهـا مِـن سـاحـلِ

يا جرحى الذنوبِ قد عرفتم المراهم، أُخْرجوا من قَصْرِ مِصْرِ الهوى، وقد لاحتْ مدينةُ مَدْيَن، أُطلبوا بئرَ الشُّربِ، وإن صَدَرَ الرِّعاءُ فلعلَّ حضورَ **موسى** يتفق، متى استقامَتْ لكم جادةُ البكاء فلا تُعرِّجوا عنها، كان **عمر بن عبد العزيز** وفتح **الموصلي** يبكيان الدم.

قـولـوا لسكـانِ الحِمَـى	تبـدَّلَ الـدَّمـعُ دمـا
وكـلُّ شَهْـدٍ بَعْـدَكـمُ	قـد صـارَ مُـرّاً عَلْقمـا

إذا تكاثَفَتْ كثبانُ الذنوبِ في بوادي القلوب، نَسَفَها نَفَسُ أسفٍ في نَفَس، يا أهلَ الزَّلل قُوْا[2] أنفسَكم، فقد جمع [قسرُ][3] القهرِ بين الناقص والتام، لقد تاب الله على المؤمنين ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

لسـتُ وإن أعـرضْتُـمُ	أيئـس مِـنْ أن تَعْطِفـوا
فـلا بَـرَى[4] وجـدي بكـم	ولا أزال[5] الشَّغَـفُ
وصبـرُ يعقـوبٍ معـي	حتـى يُـرَدَّ يـوسُـفُ

---

(١) **استرقَ** الأولى: من السرقة، واسترقَّ الثانية: من الرق.

(٢) **قُوا**: من الوقاية. وفي (ب): قوّموا.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) **برى**: ضعف وهزل.

(٥) في (ب): أفاق.

يا من كان له قلب طيب، ووقت حسن، فاستحال خلُّه خمراً، ابكِ على مافقدْتَ في بيتِ الأسَف، لعلَّ انحدارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحةً من الوجدان يُطْفئ نَجيَّ البلابل.

ما أحسنَ ما كنتَ فتغيّرتَ، ما أَجْودَ جادَّتك فكيفَ تَعثَّرْتَ؟!.

وكنّا جميعاً قبلَ أن يظهرَ الهوى ... بأنعمِ حالَيْ غِبطةٍ وسُرورِ
فما بَرِحَ الواشون حتى بَدَتْ لنا ... بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ

البكاء على الفائتِ مِعْولُ الحزين.

(لأبي تمام):

وأنجدتُمُ مِنْ بعدِ إتْهَامِ دارِكُمْ ... فيا دمْعُ أنجِدْني على ساكني نَجْدِ
لَعمري قد أخلقتُمُ جِدَةَ البكا ... عليّ، وجدَّدْتم بِهِ خَلَقَ[1] الوجدِ

يا معاشرَ المطرودين عن صحبةِ أهلِ الدّينِ.

تعالَوْا نُقِمْ مأتماً للفراقِ ... ونَنْدُب إخواننا الظّاعنينا

هلموا نُرِق دَمْعَ تأسفنا على قُبْحِ تخلّفنا، ونبعثُ مع الواصلين رسالةَ مُحْصَر، لعلّنا نحْظى بأجرِ المصيبةِ.

أنجعُ المراهِم لجراحاتِ الذنوبِ الدموعُ، هَتْكةُ الدَّمعِ سِترٌ على الذنبِ.

قد كنتُ أصونُ دمْعتي في الآماق ... سَتراً للحُبِّ وهو ما ليس يُطاقْ
حتى صاحَ الوجدُ عن صحيحِ الأشواق ... ما حيلةُ من بُلي بهجرٍ وفراقْ

كان (**محمد بن المنكدر**) كثيرَ البكاء، فسئل عن ذلك فقال: آيةٌ من القرآن أبكتني: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، كيف لا تذهبُ العيونُ من البكاءِ، وما تدري ماذا أُعِدَّ لها؟!.

---

(١) **الخَلَق**: البالي المتهاوي.

سبقتْ السعادةُ **لمحمدٍ** ﷺ قبل كونه، ومضت الشقاوةُ **لأبي جهلٍ** قبلَ وجودِه، وخوف العارفين من سوابقِ الأقدارِ.

قَلْقَلَ الأرواحَ هيبةُ ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. مع تَحكُّمِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] قَوِي قلق العلماء.

أتُـــرى ســـألـــوا لمَّـــا رَحَلُـــوا	مَـــاذَا فَعَلُـــوا أم مَـــنْ قَتَلُـــوا؟
أحليـــفَ النَّـــومِ أَقِـــلَّ اللَّـــوْمَ	فَعِنْـــدي اليَـــوْمَ بِهِـــم شُغْـــلُ
أدْنـــى جَـــزَعـــي لـــم يَبْـــقَ معـــي	قلـــبٌ فَيَعـــي[1] مُنْـــذُ احْتَمَلُـــوا
جَلَـــدي سَلَبُـــوا، جَسَـــدِي نَهَبُـــوا	كَمَـــدي وَهَبـــوا، كَبِـــدِي تَبَلُـــوا[2]
لمَّـــا ذَرَفَـــتْ عَيْنِـــي وَقَفَـــتْ	أتُـــرى عَـــرَفَـــتْ مَـــا بِـــي الإبِـــلُ
وَلَحَـــا الـــلاَّحي[3] وهُـــوَ الصَّـــاحي	وهُـــمُ رَاحِـــي[4] وأنَـــا الثَّمِـــلُ
هَيْهَـــاتَ أَفِيْـــق إذْ لَيْـــسَ أُطِيْـــق	هـــذا أَيَلِيْـــق فَمـــا العَـــدلُ

* * *

(١) فيعي: يدرك.

(٢) تبلوا: أسقموا.

(٣) اللاحي: اللائم.

(٤) راحي: خمرتي.

الفَصْلُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

تَيَقَّظْ لنَفْسِك يا هذا وانتبه ، وأحضِرْ قلبَكَ[1] ومَيِّزْ ما تَشْتَبه ، أمَا هذا منزلُك اليوم ، وغداً لستَ به؟! .

إذا مـا انجلـى الـرَّأيُ فَـاحْكُـمْ بِـهِ	ولا تَحْكُمَـــنَّ بِمَـــا يَشْتَبِـــهْ
وَنَبِّـــهْ فُـــؤادَكَ مِـــنْ رَقْـــدَةٍ	فَـــإنَّ المُـــوَفَّـــقَ مَـــنْ يَنْتَبِـــهْ
وَإنْ كُنْـــتُ لَـــمْ أَنْتَبِـــهْ بـالَّـــذي	وَعَظْـتُ بِـهِ فَـانْتَبِـهْ أَنْـتَ بِـهْ

لقد أمكنتك[2] الفُرصةُ أيها العاجزُ ، ولقد زال القاطعُ ، وارتفع الحاجزُ ، أيـن الهمـمُ العـاليـة؟! وأيـن النجـائـز[3]؟! أمَـا تخـافُ هـاذمَ اللـذات والمُنى المناجِز[4]؟! أمَا اعوجاجُ القناةِ دليلٌ على الغامز[5]؟! أمَا الطريقُ طويلةٌ وفيها المفاوز؟! أما القبور قنطرةُ العبور فَمن المُجاوِز؟! أما يكفي من التنغيص حملُ الجنائز؟! أما العدوُّ محاربٌ فهل مِنْ مُبارز؟! أما الأمنُ بعيدٌ والهُلك ناجزٌ[6] ، والقنا مشرَعٌ والطعنُ واخزٌ؟! .

تالله تطلبُ الشجاعةَ مِنْ بين المَعَاجز[7] ، وترومُ إصلاحَ فارِكٍ[8] وتقويم ناشزٍ[9] ، إن لم يكن سبقُ **الصدِّيقِ**[10] فلتكن توبةُ **ماعز**[11] .

ما هذه الغفلةُ والبِلى مصيرك؟! وكم هذا التواني فلقد أَوْدَى[12] تقصيرُك ،

---

(١) في (ب) : عقلك .

(٢) في (ب) : أمكنت .

(٣) جمع نجيزة ، وهي الوعود المنجزة المُوْفى بها .

(٤) **المناجز** : صفة لهاذم ، أي : المبارز المقاتل ، والمنى معطوفة على اللذات .

(٥) **القناة** : الرمح . **والغامز** : الرامي ، يقال : غمز المُثقِّف القناة : إذا عضَّها وعصرها .

(٦) **ناجز** : حاضر معجل .

(٧) **المَعَاجز** : جمع مَعْجَزَة ، وهي العجز ، والعجز : الضعف .

(٨) **فارِك** : مبغضة لزوجها .

(٩) **ناشز** : خارجة عن الطاعة .

(١٠) **الصدّيق** : أبو بكر رضي الله عنه .

(١١) **ماعز** : ماعز بن مالك ، الذي تاب وطهره رسول الله ﷺ من الزنى .

(١٢) **أودى** : أهلك .

أما صاح بك في سلَبِ صاحبك نَذيرُك، أفلا تتأهب لقَدْ ساءَ تدبيرُك؟!.

أُبْ[١] يا شاردَ الطبع منْ سَفَر الهوى، وأَذِبْ جامدَ العين[٢] بنيران الأسى، لعل شفيعَ الاعتراف يُسألُ في أسير الاقتراف، نَقِّ عَيْنَيْكَ مِنْ عُيُوبِك، وخَلِّص ذَنُوبَك[٣] من بحر ذُنُوبِك، وصُنْ صندوقَ فمِك بقُفل صَمْتك، واطْوِ طَيْلسانَ لِسانِك عن بَذْلَةِ نُطقِك، واغْضُضْ عينَك عن عيبِ غيرِك حفظاً لدينك، واكفُفْ كفَّكَ مكتفياً بما كَفَّكَ[٤]، وابْنِ منْبرَ التذكيرِ لواعظِ القلبِ في ساحة الصَّدْر، ونادِ في شجعانِ العزائمِ وزهّاد[٥] الفِكْر: هَلُمّوا إلى عقدِ مجلس الذكر. واحذر عينَ العدوِّ أن يُوقِعَ تشتيتَ الهمِّ في جمع العزم.

فإنْ رماكَ القدرُ بسهمِ الفتورِ عن قوس الحكمة من يد «لكلِّ عاملٍ فَتْرةٌ»[٦]؛ فاتَّقِ بجُنَّة الاعتذار، فإن أَلْقى كُرةَ قلبِكَ إلى صَوْلجانِ التقليب في بيداءِ «المؤمنُ مُفْتَنٌ توابٌ»[٧]؛ فجُلْ في ميدان الذّل.

فإنْ دَبَّ ذِئْبُ الهوى فعاثَ في مزرعةِ التُّقى، فأقمْ ناطورَ القلق، فإن أفْلَتَ دجّالُ الطَّبع فأقامَ صليبَ الزلل، وأطلقَ خنزيرَ الشرَه، فالجأ إلى حَرَم التوبةِ، واستغِثْ بعيسى العون، لعلّه ينزلُ من سماء الألطاف، فيُهلكَ الدّجّالَ[٨]، ويقتلَ الخنزيرَ، ويكسِرَ الصليبَ.

---

(١) **أُبْ**: عد وأنب.

(٢) في (ب): الدمع.

(٣) **ذَنوبك**: دَلْوك.

(٤) **بما كفك**: بما أُعطيته فكفاك.

(٥) في (ب): رهبان.

(٦) لم نجد هذا الحديث بهذا اللفظ فيما رجعنا إليه من كتب الحديث، لكن جاء في (مسند الحارث): «**لكل عابدٍ فترة، ولكل فترة شرة**». وفي (مسند الإمام أحمد) بلفظ: «**إنَّ لكل عمل شرة ثم فترة، فمن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل، ومن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى**»، وفي (مسند الشهاب) بلفظ: «**إنَّ لكل عامل شرة، والشرة إلى فترة**».

(٧) لم نجد هذا الحديث بهذا اللفظ، ولكن جاء في (مسند الإمام أحمد) بلفظ: «**إنَّ الله يحبُّ العبدَ المؤمنَ المفتنَ التوابَ**».

(٨) يشيرُ إلى علامة من علامات الساعة الكبرى التي تواترت بها الأحاديث، وهي نزول المسيح عليه السلام، وقتله للدجال عند باب اللد في فلسطين.

اجلسْ ليلةً على مائدة السَّحرِ، وذُقْ طعمَ المناجاة يُنْسِكَ كلَّ لذّة، أرواحُ[1] الأسحارِ لا يَسْتنشقها مزكومُ غَفْلةٍ، إنَّها لتأتي بألْطافِ الحبيب، ثم تعود فيحاءَ[2] تطلبُ رسالة، فمَنْ لم يكتب كتاباً فماذا يبعث؟!.

لو وقَفْتَ على جَادَّةِ التهجد ليلةً لرأيتَ ركْبَ الأحباب، لو سِرْتَ في أعراض القوم لحرَّكَ قلبَكَ صوتُ الحُداة، أقبلَتْ رياحُ الأسحارِ فاحْتَشَمَتْ[3] تقبيلَ أقدامهم، وحركت أذيالَ أثوابهم.

(للشريف الرضي)[4]:

وأمسَتِ الريحُ كالغَيْرَى تجاذِبُنا	على الكثيبِ فضولَ الرَّيطِ واللِّممِ[5]
يشي بنا الطِّيْبُ أحياناً وآونةً	يُضيئنُا البرقُ مجتازاً على إِضَمِ[6]
يُوَلِّعُ الطلُّ بُرْدَيْنا وقد نَسَمَتْ	رويحةُ الفَجْرِ بين الضّالِ والسَّلَمِ[7]

حديثُ القومِ مع الدُّجى يَطُول، يسيحون في فَلَوات خَلَواته، يندبون أطلالَ الحِبِّ، ويرتاحون إلى تَنَسُّمِهِ لشدة الطَّرَب.

وإنّي لأسْتنْشي الشَّمال إذا جَرَتْ	حَنيناً إلى أُلَّافِ قلبي وأحبابي
وأُهْدي مع الريحِ الجَنوبِ إليهمُ	سلامي وشكوى طولِ حُزني وأوْصابي[8]

واعجباً لرسائلَ تُحْمَلَ في الأسحار، لا يَدْري بها الفَلَكُ، ولأجوبةٍ تَرِدُ إلى الأسرارِ، ولا يعلم بها المَلَكُ.

---

(١) **أرواح**: نسائم.
(٢) **فيحاء**: فائحة الريح العطر.
(٣) **احتشمت**: من احتشم، أي: استحيى وخجل.
(٤) انظر: الديوان: ٢/ ٢٧٤.
(٥) **الريط**: جمع ريطة، ملاءة من نسيج وكل ثوب رقيق. **واللمم**: جمع لِمَّة، الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهي جُمَّة.
(٦) **إضم**: واد في المدينة المنوّرة.
(٧) **يولع**: يجعل فيه لمع البياض. **الضال والسلم**: نوعان من الشجر.
(٨) **أوصابي**: أوجاعي وأمراضي.

يـا حَبَّـذَا رَنْـدُ العَقِيْـقِ وبـانُـهُ سُقِـيَ العَقِيْـقُ وأهْلُـه وزَمـانُـهُ
راقَـتْ خمـائلُـه ورقَّ نسيمُـهُ وَصَفَـتْ على حصبائِـه غُـدْرانُـهُ
وَشَكَـتْ تباريـحَ الصبابـةِ وُرْقُـهُ وتمـايَلَـتْ بيـدِ الصَّبـا أفنـانُـهُ
يا مفرَداً في حُسْنِهِ صِلْ مُدْنَفاً[1] فـي حُـزْنِـهِ لَعِبَـتْ بـه أشجـانُـهُ
صبّـاً إذا ذَكَـرَ العقيـقَ وأهلَـه صـابَـتْ[2] مـدامِعُـه وجُـنَّ جَنـانُـهُ

اجتمع المحبون في مساجد التعبّدِ أولَ الليل، فرماهم الوَجْدُ في آخره على قوارِع الطرق.

مَشَوْا إلى الراحِ مَشْيَ الرِّخِّ وانصرفُوا والراحُ تَمْشي بهم مَشْيَ الفرازين[3]

فأرواحٌ أزعجَها الحبُّ، وأقلقها الخوفُ، سبحان من أمسكها باللُّطف.

قومٌ إذا هُجِرُوا مِنْ بعدِ ما وُصِلُوا مـاتُـوا وإنْ عـادَ مَـنْ يهـوَوْنَـه بُعثـوا
ترى المحبينَ صَرعَى في ديارِهِمُ كَفِتْيَـةِ الكهـفِ لا يـدرونَ مـا لبثـوا
واللهِ لـو حلَـفَ العُشّـاقُ أنهـمُ سَكْرَى مِنَ البينِ يومَ البين ما حَنَثُوا[4]

مجلسنا بحرٌ يرده الفيل والعصفور، [يأخذ كلٌّ منهم على قَدْر حَوْصَلَتِه][5]، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

أطيار البلاغة قد خرجت من برجِ القلبِ، فأظهرتْ صناعتها في الجوى بالقلب، ثم رُفعت على غصن اللسان، تستريح إلى التغريد، فأين الطروب؟!.

سَحائبُ التفهيم قد هَطَلت بِوَدْقِ[6] البيان، أفتَرَاهـا اخْضَرَّتْ ريـاضُ الأذهان؟! ونحن في روضةٍ طعامُنا فيها الخشوعُ، وشرابُنا فيها الدموعُ، ونَقْلُنا[7]

---

(١) **المدنف**: المريض الذي اشتد مرضه وأشفى على الموت. وفي (ب): مفرداً.
(٢) **صاب**: نزل.
(٣) **الفرازين**: جمع فرزان، وهو الشطرنج، معرب فرزين: وهو بمنزلة الوزير للسلطان. انظر: تاج العروس: ٢/ ٣٠٠.
(٤) في (ب): موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا.
(٥) زيادة من (ب).
(٦) **الودق**: المطر، شديده وهينه.
(٧) **النَّقْل**: ما يؤكل مع الشراب، كاللوز والجوز ونحوه.

هذا الكلامُ المطبوع، نداوي أمراضاً أعجزت بختيشوع[1]، ونَرْقى الهاوِي[2] ونرقى الملسوع، فليتَه كان كلَّ يومٍ لا كلَّ أسبوع.

(لِصُرَّدُرّ)[3]:

يـا صِحَـابِـي وأيـنَ مِنّـي صَحْبـي ... فَتَنَتْهـم[4] عيـونُ ذاك السِّـرْبِ
كلمـاتٌ[5] أسمـاؤهـن استعـاراتٌ ... ومـا هـنَّ غيـرُ طَعْـنٍ وَضَـرْبِ
أرنـي ميتـةً تطيـبُ بهـا النَّفْـسُ ... وقتـلاً يَلَـذُّ غيـرَ الحُـبِّ
لا تَـزُلْ بـي عـن العقيـق ففيـه ... وَطَـري إنْ قضيتُـه أو نَحْبـي
لا رعيتُ السُّوامَ إن قلتُ للصحبةِ: ... خِفِّـي عنّـي، وللعيـسِ: هُبّـي

وحدي أتكلّم، وجدي يتألّم، ألا مَنْ تَـرَى[6] يتعلّم؟ ألا مُودّع يُـتَسَلَّم؟.

(لابن المعلِّم):

هـو الحمَـى ومغـانيـهِ معـانيـه ... فـاحبـسْ وعـانِ بليلـي مـا تعـانيـه
ما في الصحابِ أخو وَجْدٍ تُطارِحُه[7] ... حـديـثَ نجـدٍ ولا صَـبٌّ تُجـاريـه
إليـكَ عَـنْ كـلِّ قلـبٍ فـي أماكِنـه ... سـاهٍ وعـنْ كـلِّ دمـعٍ فـي مـآقيـه
يُوهِي[8] قِوَى جَلَدِي مَنْ لا أبوحُ به ... ويَسْتَبِيـحُ دَمـي مَـنْ لا أُسَمّيـه
يبلـى فمـا فـي لسـانـي مـا يُعـاتِبُـه ... ضَعْفاً، بلى في فؤادِي ما يُداويه[9]

* * *

---

(١) **بختيشوع**: أسرة أطباء كانت في الخلافة العباسية، منها جبرائيل طبيب الرشيد والأمين، وولده بختيشوع بن جبريل (ت ٨٧هـ) طبيب المتوكل.

(٢) **الهاوي**: العاشق.

(٣) قاله في مدح الوزير أبي نصر محمد بن محمد بن جهير، يهنئه بعيد الأضحى والمهرجان. انظر: الديوان، ص٩٣.

(٤) في الديوان: (صرعتهم).

(٥) في الديوان: (لحظات).

(٦) في (ب): مريد.

(٧) **تطارحه**: تبادله الحديث وتحاوره فيه.

(٨) **يوهي**: يضعف.

(٩) في (ب): يداريه.

الفصل التاسع والعشرون

إخواني؟ تفكّروا في مصارعِ الذين سبقوا، وتدبَّروا مصيرَهم أين انطلقوا؟ واعلموا أنَّ القوم انقسموا وافترقوا، فمنهم قوم سَعِدوا، ومنهم قوم شَقُوا.

المــرءُ مثــلُ هــلالٍ عنــدَ طلعتِــهِ	يبــدو ضئيــلاً لطيفــاً ثــم يَتَّسِــقُ
يــزدادُ حتــى إذا مــا تــمّ أعْقَبَــهُ	كرُّ الجديدَيْن[1] نقصاً ثمّ يمتحق
كــان الشبــاب رداء قــد بَهِجْــتُ بــه	فقــد تطــايــرَ منــه للبِلَــى خِــرَقُ
وبــاتَ مُنْشَمِــراً يحــدو المشيــبُ بــه	كالليلِ ينْهَضُ في أعجازِه الفلقُ[2]
عجبتُ والــدهــرُ لا تفنــى عجــائبُــهُ	للــراكنيــنَ إلــى الــدنيــا وقــد صُــدقــوا
وطــالمــا نُغِصــوا بــالفَجْــعِ ضــاحيــةً	وطالَ بالفَجْعِ والتنغيصِ ما طُرِقوا
دارٌ تغَــرُّ بهــا الآمــالُ مهلكــةً	وذو التجــاربِ فيهــا خــائــفٌ فَــرِقُ
يــا لَلــرِّجــالِ لِمخــدوعٍ بــزخــرُفهــا	بعــدَ البيــانِ ومغــرورٍ بهــا يَثِــقُ
أقــولُ والنفــسُ تــدعــونــي لبــاطِلهــا:	أينَ الملوكُ ملوكُ الناسِ والسُّوَقُ[3]؟
أيــن الــذيــن إلــى لــذّاتهــا رَكنــوا	قــد كــانَ لهــم فيهــا عيــشٌ ومــرتفَــقُ
أمســتْ مســاكنُهــم قَفْــراً معطَّلــةً	كــأنّهــم لــم يكــونــوا قبلهــا خُلِقــوا
يــا أهــلَ لــذاتِ دارٍ لا بقــاءَ لهــا	إنّ اغتــراراً بظِــلٍّ زائــلٍ حُمُــقُ

أين مَنْ كان في سرور وغِبْطَة؟! أين مَنْ بسَطَ اليد في بسيطة البَسْطَة[4]؟! لقد أوقفهم[5] الموتُ في أصعبِ خُطَّة[6]، جَسَروا[7] على المعاصي فانقلبتْ

---

(١) **الجديدين**: الليل والنهار.

(٢) **الفلق**: الصبح ينشق من ظلمة الليل.

(٣) **السُّوق**: جمع سوقة: عامة الناس.

(٤) **البسطة**: الزيادة.

(٥) في (ب): أوقعهم.

(٦) **الخطة**: الأمر أو الحالة، وفي المثل: «جاء وفي رأسه خُطة» أي: أمرٌ قد عزم عليه. وفي الحديث: «**إنّه قد عرضَ عليكم خُطة رُشْد فاقبلوها**» أي: أمراً واضحاً في الهدى والاستقامة.

(٧) **جسر**: مضى ونفذ.

على الجيم النقطةُ[1]، بينا هم في الخطأ خطا إليهم صاحبُ الشرطة، هذا دأْب الزمانِ فإنْ صفا فغلطة.

كم تخوَّنَ[2] الموتُ منا إخواناً، وكم قَرَن في الأجداث أقراناً[3]، كم مُترَفٍ أبدلهُ الموت ديداناً، وهذا أمر إلينا قد تدانى، كم مُعِدٍّ عُوْداً لعيده صارت ثيابه أكفاناً، أَوَ ما شاهدنا مصرعَها وما كفانا، كم مَسْرورٍ بقصرِه عُوّض من قَصْرِه أعطاناً[4]، أفترى هذا الأَمْنَ، من أعطانا؟.

نِمْنـا وصَـرْفُ الـدَّهْـرِ ليـس بنـائـم ... خُـزِمْنـا لـه قَسْـراً بغيـر خَـزائِـمِ[5]

من جرى[6] إلى شهواته مستعجلاً، تعثَّر بحَسَكِ الأَسَفِ، تَلَمُّحُ العواقبِ قَبْلَ الفِعلِ أمانٌ من ألم الندم، قد عرفتم عقابيلَ[7] قابيلَ، وعلمتُمْ حُسنَ سَرابيل[8] هابيل.

الشَّرْيُ[9] يوجد في أعقابه ضَرَبٌ[10] ... خيرٌ من الأَرْيِ[11] في أعقابه نَدَمُ[12]

الهوى مطمورةٌ ضَيّقةٌ في حبس وَعر، ومذ خُلِقَ الهوى خُلِقَ الهوانُ، لا يتصرّف الهوى إلا في رَبْعِ قلبٍ فارغٍ من العلم.

---

(١) أي: خسروا.
(٢) **تخوَّن**: تنقّص.
(٣) **قَرَنَ**: جَمَعَ. **والأقران**: جمع قِرْن، وهو المثل والشبيه.
(٤) **أعطان**: جمع عَطَن، مَبارِكُ الإبل.
(٥) **خُزِمْنا**: ذللنا. **خزائم**: جمع خِزامة وهي حلقة من شَعَر تُجعل في وَتَرَةِ أنفِ البعيرِ يُشدّ فيه الزمام.
(٦) **في (ب)**: سعى.
(٧) **عقابيل**: جمع عُقبول، بقية العلة والعداوة والعشق.
(٨) **سرابيل**: جمع سِربال، وهو القميص، وأراد لباس التقوى.
(٩) **الشَّرْي**: الحنظل.
(١٠) **ضَرب**: الضرب: العسل الأبيض الغليظ، وهو كناية عن الحلاوة التي تُعقب المرارة.
(١١) **الأري: العسل.**
(١٢) **في (ب)**: لسع.

الجهلُ خندقٌ يحول بين الطالب والمطلوب، والعلم يدلُّ على القنطرة.

كتابةُ العلم في ليل الجهلِ تَفْتَقِرُ إلى مِصباحِ فطنةٍ، ودُهْنُ الذهنِ غالٍ.

ما قَدِرَ لصٌّ قطُّ على فَطِنٍ، متى نام حارسُ الفكر انتبه لِصُّ الهوى.

مَنْ ثبتَ قلبُه في حربِ الشهواتِ لم يتزلزلْ قدمُه، أول ما ينهزِمُ من المهزومِ عقلُه.

ما دمْتَ في حربِ العدوِّ، فلا تُبالِ بالجراحِ، فإنّه قد يُصابُ الشجاعُ، إنّما المهادَنةُ دليلُ الذُّل.

تأثيراتُ الذنوب على مقاديرها، وقعَتْ غلطةٌ من **يُوسفَ** فَقُدَّ القميصُ[1]، وقويتْ زلةُ **آدم** فخرجَ عُرياناً من الثياب، أين عزيمةُ توبةِ **ماعِز** لا عزيمةُ **توبة**[2]؟! أين هَمُّ **أويسٍ** لا غمُّ **قيسٍ**[3]؟!.

ما لم يكن لك محرِّكٌ من باطِنك فالخَلْقُ تضربُ في حديدٍ باردٍ.

(لصُرَّدُرّ):

ظلَلْـــتُ أكُـــرُّ عليـــه الـــرُّقـــى وتـــأبـــى عـــريكتُـــه[4] أن تلينـــا

ويحك؟ مَنْ زَمَّ[5] جوارحَه، ولازم البابَ، كان على رجاءِ الوصولِ، فكيفَ بمَنْ لا زَمَّ ولا لازَمَ!.

طوبى للزّهـاد، لقد مـرُّوا في المُطلَق[6]، مَـنْ يرافقُني إلى ديـار القـوم؟

---

(١) هذا من الإسرائيليات التي تتنافى مع عصمة الأنبياء، وأراد بالغلطة: (الهمة) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤]، والتحقيق: أن يوسف عليه السلام ما همّ هو بدليل ﴿لَوْلَآ﴾ التي هي امتناع لوجود، فامتنع الهم لوجود البرهان.

(٢) أراد به توبة الحميري صاحب ليلى الأخيلية.

(٣) أراد به قيس بن الملوّح صاحب ليلى العامرية.

(٤) **العريكة**: الطبيعة والنفس، يقال: لين العريكة: سلس منقاد، والجمع: عرائك.

(٥) **زمَّ**: أي جعل لها زماماً يقودها إلى فعل الخير والبعد عن المعاصي.

(٦) **المطلق**: إشارة إلى أنَّ الدنيا لم تقيدهم، ولم يقعوا في شباكها.

ما أجوزُ على البلدان، إنما أمضي على السَّماوة[1]، وهذه خيامُ **ليلى** فأَينَ **ابنُ الملوَّح**:

هــذي منــازِلُهُــمْ ومــا لــي ... بعـــدَ بُعْــدِ القـــوم خُبْــرُ
[ويلـــي! أحَظِّـــي كلُّـــه ... مِـــن دونِـــه صَـــدٌّ وهَجْــرُ][2]

كان (سَريٌّ) يدافِعُ أوّلَ الليل، فإذا جُنَّ أخذ في البكاء إلى الفجرِ:

أقطــعُ ليلــي وجيــشُ وَجْــدي ... مِــنْ عَــنْ شمــالــي وعــن يَمينــي
تَــاللهِ لــو عــادنــي[3] رســولٌ ... لعــادَ عــن مُــدْنَــفٍ حَــزيــنِ
مــا حِيْلَتــي فِيْــكَ غَيْــرَ أنِّــي ... أَسْــرِقُ مــن زَفْــرتــي أنينــي

ذلُّوا له ليَرْضى، فإذا رأيتَهم قلتَ: مَرْضى.

(لصُرَّدُرّ)[4]:

مــرضٌ بقلــبٍ[5] مــا يعــادُ ... وقتيــلُ حُــبٍّ مــا يُقــادُ
يــا آخـــرَ العُشّــاقِ مــا ... أبصــرتَ أوَّلَهــم يُــذادُ؟
يقضـــي المتيَّـــمُ منهـــمُ ... نَحْبــاً، ولــو رُدُّوا لعــادُوا

يأْنَسون في الدُّجى بالظلام، ويطربون بنَوْح الحَمام، مرضى الأبدان من [طول][6] الغرام، أصحاء القلوب مع السِّقام، إذا ذكَرْتَ حبيبَهم رأيتَ المستهامَ قد هَام.

(لمهيار)[7]:

---

(١) **السماوة**: بادية الشام. ويشير إلى عبور خالد بالجيش من العراق إلى الشام عبوراً رائعاً سجله التاريخ بانبهار دون عقبة الصاد، اللهم إلا مشقة الطريق والصبر عليه.
(٢) زيادة من (ب).
(٣) **عادني**: زارني. **وعاد**: رجع.
(٤) كتب به إلى الشريف أبي جعفر البياضي يداعبه. انظر: الديوان، ص١٥٨.
(٥) في الديوان: «بعليل».
(٦) زيادة من (ب).
(٧) من قصيدة كتبها إلى العميد نجم الدولة. الديوان: ٤/ ٩٣.

وأنــتَ إنْ كنــتَ رفيقــاً فــأَعِــدْ ذِكْــرُ الحِمَــى أطيــبُ مــا غُنّينــا
أعــد فَمِــنْ آيــةِ سُكّــانِ الحِمَــى وذكــرِهِــمْ أن يُــذهــبَ الشُّجــونــا
شجواً كشجوي يا حَمامُ ساعدي إنَّ الحــزيــنَ يُسْعِــدُ[1] الحــزينــا
كــم مِــنْ دمــوعٍ رَدَّهــا صَــوْبَ دمٍ تَخْلُــجُ البــرقَ علــى يَبْــرينــا[2]

قال (**الشبلي**): لقيتُ جاريةً حبشيةً، فقلتُ: من أين؟ فقالت: مِنْ عندِ الحبيب، قلتُ: وإلى أين؟ قالتْ: إلى الحبيب، قلتُ: ما الذي تريدين من الحبيب؟ قالتْ: الحبيب، قلتُ: فكم تذكرين الحبيبَ؟ فقالتْ: ما يسكنُ لساني عن ذكراه حتى ألقاه:

وحرمةِ الوُدِّ ما لي عنكمُ عِوضُ وليس لي في سِوَاكُم بعدَكمْ غَرَضُ
وَمِنْ جنوني[3] بِكُمْ قَالُوا: بِـهِ مرضٌ فَقُلْتُ: لا زالَ عَنّي ذلك المرضُ

رئي (**معروف**) في المنام كأنَّه تحتَ العرش، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ملائكتي! مَنْ هذا؟ فقالوا: أنت أعلم، هذا معروف قد سَكِرَ من حُبِّك، فلا يفيقُ إلا بينَ يديك.

فــداوِ سُقْمــاً بجســمٍ أنــت مُتْلِفُــهُ وأَبْــرِدْ غَــرَامــاً بقلــبٍ أنــتَ مُضــرِمُــهُ
ولا تَكِلْنــي علــى بُعــدِ الــدّيــارِ إلــى صبري الضعيفِ، فصبري أنتَ تعلمُهُ
تَلَــقَّ قلبــي فقــد أرسلتُــه فِــرَقــاً[4] إلــى لقــائِــكَ والأشــواقُ تَقْــدُمُــهُ

* * *

(١) **يسعد**: يعين.
(٢) موضع في البحرين شرقي جزيرة العرب.
(٣) في (ب): حديثي.
(٤) **الفِرَق**: جمع فِرْق وفِرقة: أقسام.

الفصل الثلاثون

إخواني! البِدارَ البِدارَ، والجِدَّ الجِدَّ، فالخصمُ مُعِدٌّ، والقصمُ مُجِدٌّ[1]:

مَكْرُ الزمانِ علينا غيرُ مأمونِ ... فلا تُظَنَّنَّ أمراً غيرَ مظنونِ
بل الْمخُوفُ علينا مَكْرُ أنفسِنا ... ذاتِ المنى دونَ مَكْرِ البِيضِ والجُونِ[2]
إنَّ الليالِيَ والأيامَ قد كَشَفَتْ ... مِن مَكْرِها كلَّ مستورٍ ومكنونِ
وحدَّثَتْنا بأنّا مِن فرائِسِهَا ... نواطقاً بفصيحٍ غيرِ مَلْحونِ
واستشهدَتْ مَنْ مَضَى منّا فأنبأنا ... عَنْ ذاكَ كلُّ لقًى[3] منّا ومدفونِ
وأمٌّ سُوءٍ إذا ما رامَ مُرْتَضِعٌ ... أخلافَها صُدَّ عنها صَدَّ مَزْبُونِ[4]
ونحن في ذاكَ نُصْفيها مودَّتَنا ... تبّاً لكلِّ سفيهِ الرأي مغبونِ
نشكو إلى اللهِ جَهْلاً قدْ أضَرَّ بنا ... بل ليسَ جَهْلاً، ولكنْ علمُ مفتونِ
أغوى الهوى كلَّ ذي عَقْلٍ فلستَ تَرى ... إلا صحيحاً له أفعالُ مجنونِ
حتى متى نشتري دنيا بآخرةٍ ... سفاهةً ونبيعُ الفَوْقَ بالدُّونِ
نبني المعاقلَ والأعداءُ كامنةٌ ... فيها بكلِّ طريرٍ[5] الحدِّ مسنونِ
ونجمعُ المالَ نرجو أن يُخلِّدنا ... وقد أبى قبلَنا تخليدَ قارونِ
نظلُّ نَستنفقُ الأعمارَ طيِّبةً ... عنها النفوسُ ولا نَسْخُو بماعونِ[6]
وما تأخَّرَ حيٌّ بعدَ ميتِهِ ... إلا تأخُّرَ نَقْدٍ بعدَ عُربونِ[7]

---

(١) **قصم**: كسر كسراً فيه انفصال وإهلاك. والقصم هنا: الهلاك. **ومجد**: من أجد، صار ذا جد واجتهاد، وأجد: أحكم.

(٢) **البيض والجون**: يشير إلى النهار والليل.

(٣) **لقى**: كلُّ مُلقًى لهوانِه.

(٤) **أخلافها**: أثداءها. **مزبون**: مدفوع بشدة.

(٥) **الطرير**: ذو المنظر والرواء.

(٦) **الماعون**: اسم جامع لمنافع البيت كالقِدر والفأس والقصعة والمطرقة، مما جرت العادة بإعارته.

(٧) **العربون**: بوزن العُرجون، والعَرَبون كذلك بفتحتين، هو ما يعجَّلُ من الثمن، على أن يحسب منه إذا مضى البيع وإلا استحق للبائع، على خلاف في ذلك.

يا مَنْ إذا دُعيَ إلى نفعه نبا ونشزَ![1] يا جامعاً لغيره ما جمع وكَنَزَ، يا مُتَثَبِّطاً في الخير، فإذا لاحَ الشرُّ جَمَزَ[2]، كأنّك بالألمِ وقد ألمَّ، فنكى[3] ونكزَ[4]، وَكَـدَ[5] التبـارُ[6] الروحَ بالتباريح[7]، واشتدّ العَلَزُ[8]، وأخَذَ النَّفَسُ النَّفْـسَ، فاضطرَّها وحفزَ[9]، ودار[10] في فَلَك الفوت، فإذا ملَك الموتِ قد بَرَزَ، فسماك بالمقبورِ، وبالمثبورِ قد نَبَزَ[11]، فتأهّبْ فالسعيدُ منا مَنْ تأهَّبَ للخيرِ وانتهزَ.

لقد عَلَتْ سنُّك وانتهَيْتَ، وما انتبهتَ ولا انتهيتَ[12]، أتعبتَ ألفَ رائضٍ ولم تؤدِّ الفرائضَ.

كم ضيّعْتَ عمُراً طويـلاً! حمَلْتَ فيـه وِزْراً ثقيلاً، كم نَصَبَ لكَ الموتُ دليلاً، إذ ساقَ العزيزَ ذليلاً، لقد حَمَل إلى القبورِ جيلاً جيلاً، ونادى في الباقين رحيلاً رحيلاً، لكنَّ الهوى أعادَ الطَّرْفَ كليلاً، وما كان الذي رأيتَ قليلاً.

يا مَريضاً عَجِيبـاً، كمْ أتعبتَ طبيباً! لقد تنوّع ضُروباً[13] فأخذ كلُّ عضوٍ نصيباً، إلامَ يبقى الغُصنُ رطيباً؟ مَنْ يَرُدُّ بُرْدَ الصِّبَا قشيباً[14]، لقد أمسـى قريباً وَستُبصرُ يوماً غريباً.

---

(١) **نبا ونشز**: تجافى وتباعد وارتفع.
(٢) **جمز**: أسرع ووثب إليه.
(٣) **نكى**: من النكاية، أي: قتل وجرح.
(٤) **نكز**: نكس.
(٥) **وَكَدَ**: أصاب.
(٦) **التبار**: الهلاك، من تبر: هلك.
(٧) **التباريح**: الآلام.
(٨) **العَلَزُ**: القلق والهلع والخفة التي تصيب المريض.
(٩) **حفز**: دفع وحث.
(١٠) في (ب): ودارت.
(١١) **نبز**: أي لقبه بالهالك. **المثبور**: الهالك.
(١٢) **انتهيت الأولى**: قاربت النهاية. **وانتهيت الثانية**: لم تمتنع من المعاصي.
(١٣) **ضروب**: جمع ضرب: أصناف.
(١٤) **بُرد**: كساء مخطط يلتحف به، جمع أبرد وبرود. **قشيباً**: جديداً.

عجباً لك! لا الدهرُ يَعِظُك، ولا الحوادثُ تنهاك[1]، والساعاتُ تُعَدُّ عليك، والأنفاسُ تُعَدُّ منك، وأحبُّ أمريك إليكَ أعْوَدُهُما بالضَّرَرِ عليك.

يا هذا! مَنْ جَلا عينَ بصيرتِهِ مِنْ قَذَى الهوى، جلّى على بصرِهِ عرائسَ الهُدى، الصُّـوَرُ تزاحِمُ المعاني، فمن حَلَّها حُلِّيَ بمغنى المعنى، فتَعلَّمْ حلّها بالتدريج.

كلُّ ذرةٍ من الكونِ تخبِرُ بلغةٍ بليغةٍ عن حكمةِ الفاطرِ، غيرَ أنهُ لا يفهمُ نطقَ الجوامِدِ إلا العقلُ.

نظرُ الأبصارِ اليومَ إلى الصانعِ بواسطة المصنوعِ تدريجٌ إلى رفع الوسائطِ غداً.

يا محبوساً في سجنِ غفلتِهِ اخْرجْ مِنْ ديارِ إدبارِك، واعبُرْ في مَعْبرِ اعتبارِك، قِفْ على بعضِ بقاعِ قاعٍ ترى كيفَ قد نَمَتْ خُضرةُ خُضْرَتِـهِ بأسرارِ الخالق إذ تَمَّتْ، تَلَمَّحْ أصنافَ النباتِ في ثيابِ الثباتِ، قد برَزَتْ في عيدِ الربيع تميسُ طرباً بالرِّي، تأمّلْ مُختَلِفَ الألوانِ في الغصنِ الواحدِ، فإنَّ صباغَ القدرةِ صَناع[2]، اسمعْ غِناءَ الوُرْقِ على عيدانِ العيدانِ[3] لعلَّ مقاطعَ السجوعِ توجبُ رجوعَ المُقاطِع:

ولقَـدْ تَشْكُـو فَمَـا أفهَمُهَـا	ولَقَـدْ أشْكُـو فَـلا تَفهمُنِـي
غيـرَ أنِّـي بـالجَـوى أَعْـرِفُهـا	وهـي أيضـاً بـالجَـوَى تَعْـرِفُنـي

الحمائمُ نوائحُ المشتاقين، قد رَضِيَتْ من خِلَعِهم بجريان الدموع:

نـاحَـتْ سَحَـراً حمامـةٌ فـي غُصـنٍ	قـد جَـرَّعَهـا الفـراقُ كـأسَ الحَـزَنِ
تبكـي شَجَنـاً[4] تلقتْـه مِنِّـي	مـا يبكـي بـاكٍ إلا ويـروي عنّـي

وا عجبـاً! متى يُـثمرُ لـك وجودُ الثَّمرِ معرفـة المُنعِمِ، كم تنضـجُ الثمار

---

(١) في (ب): تنذرك وترعدك.

(٢) **صَناع**: ماهرة مُجيدة.

(٣) **عيدان الأولى**: جمع (عود) لآلة الغناء، **وعيدان الثانية**: **الأغصان**.

(٤) **شجناً**: شجنت الحمامة: رددت صوتها، عدته العرب نواحاً، والشجن: الهم والشاغل والحزن.

وتتناولها، وثمرةُ عرفانـك بَعْدُ فَجَّةٌ، ليـس حظُّك من النبـاتِ إلا الأكـلُ، أين التدبرُ[1] لعجيبِ الصَّنْعة والصُّنع؟!.

يا مؤثراً ضَنْكَ الحسِّ على فضاءِ العقلِ، كيف تبيعُ صفاءَ التأملِ بكَدَرِ الإهمالِ؟!.

مِنَ العجبِ أن ندعوكَ إلى تَلَمُّح العِبَر في الغَيْرِ! وأنتَ ما تبصرُ نفسَك، تدبّرْ قطرةً من ماءٍ صُبَّتْ على إيقاد نارِ الشهوةِ، كيف ظهرتْ فيها عن حركاتِ اللّذة رقومُ نُقوشٍ عَقَدتْها يدُ القدرة، كما تظهرُ الصورةُ في ثوب السقلاطوني[2] عن حركاتِ الشدِّ.

تأمَّلْ نطفةً مغموسَةً في دمِ الحيض، ونَقَّاشُ القدرةِ يَشُقُّ سمعَها وبصَرها مِنْ غيرِ مِسَاس، كيف تُربّى في حِرْزٍ مصونٍ عن مِشْعبٍ[3]، بينا هي ترفُلُ في ثوبِ نطفةٍ اكتستْ رداءَ عَلَقة، ثم اكتسَتْ صِفَةَ مُضغة، ثم انقسمَتْ إلى عظمٍ ولحم، فاستترتْ من يدِ الأذى بوقاية جلدٍ، ثم خرجتْ في سربالِ الكمالِ تسحبُ مطارفَ الطرائفِ، فبينا هي في صورةِ طفلٍ دَرَجت درجةَ الصبيّ، فتدرَّجَتْ إلى النطق، وتشبثتْ بذيلِ الفهم.

فكم مِنْ صوتٍ بين أرجل النقل من تحريك جلاجل العبر في خلاخل الفكر، كلما رنَّتْ غَنَّت ألسنُ الهدى في مغاني المعاني، وكيف يسمعُ أطروشُ الغفلة؟ هذا بعضُ وصْفِ الظاهر، فكيف لو فهمتَ معنى الباطن؟!.

الآدمي كتابٌ مسطورٌ، وشخصُه رِقٌّ منشور، قلبُه بيتٌ معمورٌ، همُّه سقفٌ مرفوعٌ، علمُه بحرٌ مسجورٌ، من ينتفع بأسماعِكُم بعدي؟!.

ومـا تُحسِـنُ الأيـامُ تكتـبُ مـا أُمـلـي

* * *

---

(١) في (ب): التدبير.

(٢) منسوب إلى سقلاطون: بلد بالروم.

(٣) مِشْعب: مثقب.

الفصل الحادي والثلاثون

يا جامعاً المالَ لغيرِه، تاركاً للتزوُّد في سيره، أَتحْظى بشرِّ كسبِكَ، ويُحَصِّلُ سواكَ بخيرِه:

سابَقَ إلى مالِكَ وُرّاثُهُ	ما المرءُ في الدُّنيا بلبّاثِ
كم صامتٍ[1] يخنُقُ[2] أكياسَه	قد صاحَ في ميزانِ ميراثِ

أين جامعُ الدنيا طَرَحها واطَّرح؟ أين اللاهي بها حَزِنَ بعد أن فَرِح؟ جالَ في وصف الحرب عنها فاغْتيلَ وجُرح، وظَنَّ الأمرَ سهلاً، فإذا الرجلُ ذُبح، بينا هو في لذّاتِه يغتَبِقُ ويصطبح[3]، برّحَ به[4] أمرٌ مُرحِّلٌ فما برح، نزل ـ والله ـ لحداً ضيقاً فما ينْفَسح، وصمَتَ تحت الثرى، فكأنّه لم يَنْطِقْ ولم يَصِحْ، وكُتِبَ على قبره: ما أخَّرَ خَسِرَ، وما قَدَّمَ ربح، وعُدِلَ إلى قصره بعد الدفن فافتُتِح، وأصبحتْ سهامُ الوارثِ في ماله تنتطِح.

يا مُعرِضاً عن الهدى والأمرُ مُتَّضِحٌ، أوَ مَا حالُك كهذا الحال الذي شُرِح؟! كأنَّكَ بك في ضِيق خِناقِك تبكي على قبيحِ أخلاقك، وخيَلُ الدموعِ تجري في حَلَباتِ آماقِكَ، وقد تحيَّرْتَ عند التفافِ ساقك بساقك، وأُسِرْتَ ـ لا بقيدٍ ـ عن حركات إطلاقِك، وناداك تفريطُك: هذا بعضُ استحقاقك.

لا تكذِبنّ فإنني	لكَ ناصحٌ لا تَكْذِبَنَّهْ

---

(١) **الصامت**: الساكت وما لا نطق له، ومن المال: الذهب والفضة، يقال: ما له صامت ولا ناطق: أي لا يملك شيئاً.

(٢) **يخنق**: كناية عن ربط كيس النقود حبساً لها فيه.

(٣) **يغتبق ويصطبح**: شراب المساء والصباح.

(٤) **برّح به**: جهده.

فـاعْمَـلْ لِنَفْسِـكَ مـا استطعـ ـتَ فـإنّهـا نـارٌ وَجَنَّـهْ

إخواني! كم مِنْ حريصٍ قد جمعَ المال جمعَ الثُّريا[1]؟ فرَّقته الأقدارُ تفريقَ بناتِ نَعْشٍ[2].

يا ذا اللُّبِّ! حدّثني عنكَ أتُنفِقُ العمرَ الشريفَ في طلب الفاني الرذيل؟!.

ويحك! إنَّ الهوى مِرْعادٌ مِبْراقٌ بلا مطر، الدنيا لا تساوي نقلَ أقدامِك في طلبها، أرأيتَ غزالاً يعدو خلفَ كَلْب؟! الدنيا مجازٌ[3] والأخرى وطن، والأوطارُ في الأوطانِ أطوارٌ[4]، إيثارُ ما يفنى على ما يبقى بِرْسامٌ حادٌّ[5].

يا أبناءَ الدنيا! إنّها مذمومة في كل شريعة، والولد ـ عند الفقهاء ـ يتبعُ الأمَّ[6].

يا مَنْ هو في حديثها أنطقُ من **سَحْبان**[7]، وفي انتقادِ الدنانير أنسبُ من **دُغْفُل**[8]، فإذا ذكرتِ الآخرةُ فأبله من **باقلٍ**[9]، حيلتُك في تحصيلها أدقُّ من الشَّعر، وأنتَ في تدبيرها أصنعُ من النحل، وعينُ حِرْصِكَ عليها أبصرُ من

---

(١) **الثريا**: نجم سمي بذلك لكثرة أنجمه مع صغر منظره.

(٢) **بنات نعش**: سبعة كواكب تشاهَدُ في جهة القطب الشمالي، شُبِّهت بحَمَلة النعشِ، واحدها ابنُ نعش، وأوسط بنات نعش السها، وهو أخفاها.

(٣) **مجاز**: جسر.

(٤) **الأوطار**: جمع وَطَر، أي: الحاجة، **أطوار**: حالاتٌ شتى مفردها طَوْر، يشير إلى أن المسافر في الدنيا لا يحتاج إلا إلى ما يبلّغه المقيل، حيث الحاجات الأخروية المتنوعة التي تتحقق بالأعمال الصالحة.

(٥) **بِرْسام حاد**: البرسام: عِلةٌ معروفة، وهي ذاتُ الجنبِ؛ التهاب في الغشاء المحيط في الرئة، أي علة شديدة حادة.

(٦) في حالة الرق والزواج من الأمة.

(٧) **سحبان**: اسم رجل من وائل، كان لَسِناً بليغاً يضرب به المثل في البيان والفصاحة، فيقال: (أفصح من سحبان).

(٨) **دُغفلُ**: هو دغفل بن حنظلة النسّابة، أحدُ بني شيبان، وفي المثل: (أعلم من دُغْفل).

(٩) **باقل**: اسم رجل، يضرب به المثل في العيِّ، قال الأموي: من أمثالهم في باب التشبيه: «إنه لأعيا من باقل» (انظر: لسان العرب، مادة: بقل).

العُقاب، وبطنُ أَمَلِكَ أعطشُ من الرمل، وفمُ شَرَهِكَ أشربُ من الهِيمِ[1]، تجمعُ فيها الدُّرَّ جمع الذَّرِّ، يا رفيقاً في البله لدودِ القزِّ، ما انتفعتَ بموهبة العقل.

كَـدُودٌ[2] كـدودِ القـزِّ ينسـجُ دائمـاً ويَهْلِـكُ غمّـاً وسـطَ مـا هـو نـاسِجُه

ويحك! إنَّ سرورها أقتلُ من السّمِّ، وإنَّ شرورها أكثرُ من النمل، إنّها في قلبك أعـزُّ من النَّفْـسِ، وستصيرُ عندَ الموتِ أهونَ من الأرض، حرصُك بعد الشيبِ أحَرُّ من الجمرِ، أبقيَ عُمْرٌ يا أبردَ من الثلج؟!.

يا من هو عن نجاته أنومُ من فهد! ضَيَّعْتَ عُمْراً أنفسَ من الدُّرِّ، أنتَ في الشرِّ أجرى من جواد، ومن الخير أبطأُ من أعرج.

تسعى إلى العاجلِ سَعْيَ رُخٍّ، وتمشي في الآجلِ مَشْيَ فِرْزان[3].

الزكاة عليك أثقلُ من أُحُدٍ، والصلاةُ عندَك كنقل صخرٍ على ظهرٍ، وطريقُ المسجدِ في حُسْبانِ كَسَلِكَ كفَرْسَخَيْ ديرِ كعبٍ، صَدْرُكَ عند حديثِ الدنيا أوسعُ من البحرِ، ووقتُ العبادةِ أضيقُ من تسعين[4]، معاصيك أظهرُ[5] من الشَّمس، وتوبتُكَ أخفى من السُّها[6]، إنْ عَرَضَتْ خطيئةٌ وثبتَ وُثوبَ النَّمِرِ، فإذا لاحت طاعةٌ رُغْتَ رَوَغانَ الثعلبِ، تُقْدِمُ على الظلمِ إقدامَ السَّبُعِ، وتخطفُ الأمانةَ اختطافَ الحُدَأة.

يا أظلمَ من الجُلُنْدَى[7] ما تأمنُكَ غِزْلانُ الحَرَمِ.

---

(١) **الهيم**: الإبل العطاش، ويقال: كثيبٌ أهيم، وكثبانٌ هِيْمٌ وهي رمال لا يرويها ماء السماء.

(٢) **كدودٌ**: صيغة مبالغة من الكد، وهو الشدة في العمل وطلب الكسب.

(٣) **رخ**: الرخ طائر خرافي بالغَ القُدامى في وصفه، وهو أيضاً حجر في الشطرنج ويسمّى القلعة، مكانه زوايا الرقعة، و(الفرزان): هو الشطرنج، معرب فرزين: وهو بمنزلة الوزير للسلطان. انظر: تاج العروس: ٢/ ٣٠٠.

(٤) **عد التسعين** أن تجعل أنملة السبابة في أصل الإبهام.

(٥) في (ب): أشهر.

(٦) **السُّها**: كوكب صغير خفيُّ الضوء في بنات نعش.

(٧) **الجُلُندى**: اسم ملك عُمان، ومن الأمثال: «أظلم من الجُلُندى»، والجلندى: ملك من ملوك عمان يقال هو المعني بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]. ذكره الزمخشري (انظر الأعلام: ٢/ ١٣٣).

يا كنعانَ[١] الأمل، يا نُمرودَ[٢] الحيل، يا نُعمانَ[٣] الزلل، أنت في حُبِّ المال شِبْهُ الحُباحِبِ[٤]، وفي تدبيرِ تبذيرِ العُمُرِ رفيقُ حاتِمٍ[٥]، تمشي في الأمل على طريقِ أشْعَبَ[٦]، وسَتَنْدَم ندامةَ الكُسَعيِّ[٧].

يا عُذْرِيَ الهوى في حُبِّ الدُّنيا، يا كوفيَّ الفقهِ في تحصيلها، يا بصريَّ الزّهدِ في طلبِ الآخرة، إنَّما يُتْعَبُ في تعليم البازيّ ليصيدَ ما له قَدْرٌ، ولما تعلَّمَ بازيُّ فكرِكَ أرسلتَه على الجيف.

ويحك! تَفَكَّرْ قبل سلوكِ طريق الهوى في كثرة المعاثرِ والصدمات، أوَ مَا المكروهاتُ في طيِّ المحبوبات كوامن؟!.

يا مُطلِقاً نفسَه في محظورِ شهواتها، اذكر الغَمْسَ في الرَّمْسِ.

---

(١) **كنعان**: هو ابن نوح عليه السلام دعاه أبوه ليركب السفينة فأبى، وأمّل في الجبل أن يمنعه من الماء، ولكن هيهات إذ لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، قال سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

(٢) **نمرود**: اسم ملك، قتله الله بِبَقّةٍ دخلت في أنفه، والده كنعان بن سنحاريب.

(٣) **نعمان**: هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة.

(٤) **الحباحب**: ذباب يطير بالليل يضيء ذنبه.

(٥) **حاتم**: هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو عدي، فارس، شاعر، جواد، جاهلي، توفي في السنة الثامنة من مولد النبي ﷺ.

(٦) **أشعب**: يعرف بابن حميدة المعروف بالطَّمع. قال في «الميزان»: هو مدنيٌّ له نوادر، كان مزّاحاً لطيفاً، قال الأزدي: لا يكتب حديثه، وقلَّ ما روى، له ترجمة في (تاريخ دمشق) و(بغداد)، وذكره مغلطاي في حاشية (أسد الغابة)، والذهبي في (الميزان) برقم (٩٩٣): ١/ ٢٥٨، طبعة دار المعرفة.

(٧) **الكسعي**: رجل من كسع اسمه محارب بن قيس، كان يرعى إبلاً له بواد معشب، فبينما هو كذلك إذ أبصر نبعة في صخرة فقال: ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتعهدها حتى إذا أدركَتْ قطعها، وجففها، فاتخذ منها قوساً، ثم رمى بها ليلاً قطيعاً وراء قطيع من الحمر، وظن أنه أخطأ في كلِّ مرة، فغضب فكَسر قوسَه، ثم في الصباح تبين أنها أصابت كل ما رمته، فندم وعضَّ أصبعه وقطعها.

يا ذا البالِ الناعمِ فوق الأرض! اذكر الناعمَ البالي تحتها.

أتلفّق والزمانُ يفرّق؟! أتؤلِّفُ والجديدان[1] يمزق؟! أتُصَفِّي والدهر يُرنِّقُ[2]؟! أتؤمّلُ والموتُ مُفوّق[3]؟! ويحك! إنَّ القاصدَ قاصمٌ، وما للعاصي عاصِم، أنت في أربْابِ الذنوب غريقٌ، وفي رُوم الهوى بِطريق[4]، فاحذر عقابَ الأكابر يا قليلَ الخبرة بالطريق، اطلب رفْقةً إذا لم تعرف القبلةَ بالعلاماتِ، ففي المساجدِ محاريب.

إذا رأيت قِطارَ التائبين متصلاً فعلِّقْ عليه.

أهـلَ الغـرام تجمّعـوا	فـاليـومُ يـومُ عتـابِنـا
نَعَـقَ الغُـرابُ بيننَـا	فغُـرابُنـا أغـرى بنـا
إنَّ الـذيـن نُحِبُّهـم	قـد وُكِّلـوا بعـذابنـا
قـومُـوا بنـا بحيـاتكـم	نَمْضـي إلـى أحبـابنـا
قـومٌ إذا ظَفُـروا بنـا	جـادُوا بعَتـقِ رقـابنـا

من مشى إليَّ هرولتُ إليه[5]، دعوناك بالوسائط فلم تحضُرْ، فأتى المرسِلُ ينزل إلى سماء الدنيا[6]، النطقُ متشابه، والذوقُ مُحكَمٌ.

---

(١) **الجديدان**: هما الليل والنهار. وفي (ب)؛ الحدثان، وهما بمعنى واحد.

(٢) **يرنق**: يكدر.

(٣) **مفوق**: فوّق السهم: عمل له فُوقاً، والفُوق من السهم حيثُ يثبتُ الوتر منه، وهما فوقان، ويشير إلى استعداده للرمي بسهمه النافذ.

(٤) **بِطريق**: القائد في جيش الروم.

(٥) يشير إلى الحديث القدسي: «**من جاءني يمشي أتيته هرولة**» رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب(١٥)؛ ومسلم في كتاب التوبة، باب (١١)، والترمذي وابن ماجه وأحمد.

(٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**» وفي رواية له: «**ينزل ربنا**» أخرجه البخاري في التهجد: باب الدعاء والصلاة في آخر الليل، وفي الدعوات: باب الدعاء نصف الليل، وفي التوحيد: باب قول الله سبحانه وتعالى: «**يريدون أن يبدلوا كلام الله**»؛ و أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، والترمذي في الدعوات، وأبو داود في الصلاة، وأحمد=

ولمـا رأيـتُ الحُـبَّ قـد مُـدَّ جِسـرُه ونوديَ بالعُشّاقِ قوموا بنا فَاسْروا
خرجتُ معَ الأحبابِ كيما أحوزُه فصادفني الحِرْمانُ وانقطعَ الجِسْرُ
ومالَت بنا الأمواجُ من كلِّ جانبٍ ونادى منادِ الحُبِّ قـد غرقَ الصَّبْـرُ

* * *

= وابن ماجه وابن خزيمة في التوحيد وغيرهم. وتجده في فتح الباري: ١٣/ ٤٦٤، ٣/ ٢٩. وقال الحافظ ابن حجر: استدل بهذا الحديث من أثبتَ الجهة، وقال: هي جهة العلو، وأنكر ذلك الجمهور، لأنَّ القول بذلك يفضي إلى التحيّز، تعالى الله عن ذلك، هذا، وقد حمل الجهوية النزول على ظاهره وحقيقته، ولم يلتفتوا أمام هذه النصوص المتشابهة إلى المحكم الذي هو أمّ الكتاب. قال البيضاوي: لما ثبت بالقواطع أنّه سبحانه منزَّهٌ عن الجسمية والتحيز، امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، وهناك من ضبط اللفظ هكذا «يُـنْـزِل» أي ملكاً، ويقويه ما رواه النسائي من طريق الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد بلفظ: «**إنَّ الله يمهل حتى يمضي شطر الليل ثم يأمر منادياً يقول**: . . .»الحديث، قال القرطبي: وبهذا يرتفع الإشكال. هذا وقد علّقَ الإمامُ النوويُّ على حديث «النزول» في شرحه صحيح مسلم قال: هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء ومختصرهما:

أنَّ أحدَهما: وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلّمين: أنه يؤمن بأنّها حق على ما يليقُ بالله تعالى، وأنَّ ظاهرَها المتعارَف في حقنا غيرُ مراد، ولا يُـتَـكَلَّمُ في تأويلها مع اعتقادِ تنزيه الله تعالى عن صفاتِ المخلوق، وعن الانتقال والحركات وسائر سماتِ الخلق.

والثاني: مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف، وهو محكيٌّ هنا عن مالك والأوزاعي أنه تُتأول على ما يليقُ بها بحسب مواطنها. . . وقد أوّل الحديث بتنزل رحمته وأمره وملائكته، كما يقال: فعل السلطان كذا، إذا فعله أتباعه بأمرِهِ هو، أو على سبيل الاستعارة، ومعناه: الإقبال على الداعية بالإجابة واللطف، والله أعلم. انظر شرح النووي على صحيح مسلم: ٦/ ٣٦-٣٧.

الفصل الثاني والثلاثون

يا هذا! لو عاينتَ قِصَر أجَلِك لزهدتَ في طول أملِك، وليقتلنَّك ندمُك إن زَلّت بك قدمُك.

(للمتنبي)[1]:

إلى كم ذا التواني[2] في التواني؟ وكم هذا التمادي في التمادي[3]؟
وما ماضي الشَّبابِ بِمُسْتَرَدٍّ ولا يومٌ يمرُّ بِمُسْتعادِ
متى لَحَظَتْ بياضَ الشيبِ عيني فقد وجَدَتْه منها في السواد
[متى ما ازددتُ مِن بعدِ التناهي فقد وقعَ انتقاصِي في ازديادي][4]

إلى متى تحرِصُ على الدنيا وتَنْسى القدرَ؟! مَن الذي طلبَ ما لم يُقدَّر فقَدِر؟! لقد آذاك إذ ذاكَ النَّصَبُ، وأوقعك الحِرْصُ في شرَكِ[5] الشِّرْكِ إذ نُصِب.

أتحمِلُ على نفسِكَ فوقَ الجهد؟! ولو قنعت أراحك الزهدُ، فلماذا تحمِلُ ما آذى ولِمَنْ؟! ومَنْ ينفعُك إن قتلتَ نفسَك يا هذا ومَنْ؟! تحمل على الهم الهمَّ لأمرٍ لو قُضِيَ تَمَّ؟ أحرصاً على الدنيا؟! لا كانت! أم شكّاً في عيوبها؟! فقد بانت!.

رَأَيْتُ ظُنُونِي بِهَا كَالسَّرَابِ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ سَرَابِي سَرَى بِي

---

(١) من قصيدة قالها في مدح علي بن إبراهيم التنوخي. انظر: شرح الديوان، للعكبري: ١/ ٣٥٦؛ والديوان، ص٧٨.
(٢) في الديوان: (التخلف).
(٣) **التمادي**: التطاول والانتظار.
(٤) زيادة من (ب).
(٥) **شرك**: حبالة الصائد. يشير إلى خطر مغالبة القدر، والحرص على ما لم يُقَدَّر، وهذا يوقع الإنسان في الشرك، حيث يريد أن يوجد ما لا يريد الله خلقه.

كم غرَّتِ الدنيا فَرْخَها فعَرَّت[1]! ثم ذبحته بِمُدْية ما مرَّت، إنَّها لتقتلُ صيّادَها، وتأكلُ أولادَها.

عــزيــزٌ علــى مُهجتــي غَــرَّنــي وسلَّــمَ لــي الــوَصْــلَ واستسلمــا
فلمّــــا تَمَلَّكَنِــــي واحتــــوى علــى مُهْجَتِــي ســلَّ مــا سَلَّمــا

والله لو كنتَ في رِياشها أكْسَى من الكَعْبَة لم تخرجْ منها إلا أعرى من الحجرِ الأسود.

قيل لراهبٍ: ما الذي حبّب إليك الخلوة، وطردَ عنك الفترة[2]؟.

قال: وثبةُ الأكياسِ من فخِّ الدنيا.

وقيل لآخر: لم تخليْتَ عن الدُّنيا؟.

فقال: خوفاً ـ والله ـ من الآخرة أن تتخلى عني.

من غَرس في نفسِه شرفَ الهِمَّةِ فنبتَ[3] نَبتْ[4] عن الأقذار، ومن استقرَّ ركنُ عزيمته وثَبَتَ، وثبتْ[5] نفسُه عن الأكدار:

قـد انقضـى العُمْـرُ وأنـتَ فـي شُغُـلٍ فاجْسُرْ على الأهوالِ إن كنْتَ رَجُلْ

يا زَمِنَ[6] الهِمَّةِ! يا مُقْعدَ العزيمة! يا عليلَ الفهم! يا بَعيدَ الذهن!.

أمَا اشْتَقْتَ مغنى الهوى حينَ طابَ ومَنْبَـتَ غُصْـنِ الصِّبـا حيـنَ مـالا
أمــا آنَ مِــنْ نــازحٍ أن يَحِــنَّ وللـوَصْـلِ مِـنْ هـاجـرٍ أنْ يُـدالا

سارَ المجدّونَ وتَركُوْك، ونجا المخفُّون وخلّفوك، نادِهِمْ إن سمعوك، واستَغِثْ بهم إنْ رحموك.

---

(١) فعرّت: ألحقت بهم المعرّة، أي: العار والعيب.
(٢) الفترة: الفتور وضعف الهمة في العبادة.
(٣) فنبت: من الإنبات، أي: ترعرع.
(٤) نبت: تجافت وتناءت.
(٥) ثبت الأولى: من الثبات، وثبت: من الوثوب.
(٦) الزمن: المريض.

أيُّهـا الـراحلـونَ مـن بَطْـنِ خَيْـفٍ ... ورِكـابُ النَّـوى بهـم تَـتَـرامـى[1]

إنْ أَتَيْتُـم وَادي الأَرَاكِ[2] فـاهْـدُوا ... لِحَبِيْبِـي تحيَّتِـي والسَّـلامـا

وَرِدُوا مـاءَ نـاظـري عِـوَضَ الغُـدْ ... رَانِ وارْعُوْا بين الحشا[3] لا الخُزامى

[واطلبـوا إلـيَّ قلبـي وآيتـه أن ... تجدوا فيه مِنْ هواهُم سِهَاما][4]

يا من أبعَدَتْـهُ الخطايـا عنهم، ادْرُج[5] مرحلةَ الهوى وقـد وصلْتَ، أنت تَـتَعلَّلُ للكسلِ بالقَدَر، فتقول: لو وفقني، ولكسَبِ الشهوات بالندب إلى الحركة ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك: ١٥] ، أنت في طلب الدنيا قَـدَرِيٌّ[6]، وفي طلب الدين جَبْريٌّ، أيُّ مذهبٍ وافقَ غرضَك تَمذْهَبْتَ به! أوليس في الإجماع ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]؟! جسدُك عندنا وقلبُك في البيت، نحن في وادٍ وأنت في واد.

بَكَـرتْ صُبْحـاً عـواذلُـهُ ... ورسيـسُ[7] الحـبِّ قـاتلُـه

هـو فـي وادٍ ولَسْـنَ بـه ... والهـوى عنهـن شـاغلُـه

يتَمَنَّيْـنَ السُّلـوَّ لـه ... ومُنـاهُ مَـنْ يـواصِلُـه

لابدَّ - واللهِ - مِن قَلَقٍ وحُرْقة، إمّا في زاوية التعبدِ أو في هاويةِ الطَّرْد، إما أنْ تَحرقَ قلبك بنار الندم على التقصير، والشوق إلى لقاء الحبيبِ، وإلا فـ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ [التوبة: ٨١]:

شَجَـاكَ الفـراقُ فمـا تَصْنَـعُ ... أَتَصْبِـرُ لِلْبَيْـنِ أمْ تَجْـزَعُ

---

(١) **ترامى**: تتّابع.

(٢) **الأراك**: شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوّارة العود، يستاك بفروعه، قال أبو حنيفة رضي الله عنه: هو أفضل ما استيك بفرعه من الشجر، وأطيب ما رعت الماشية رائحة لبن.

(٣) **الحشا**: ما انضمت عليه الضلوع، والجمع أحشاء.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) **ادْرُجْ**: أُطوِ.

(٦) **قدري**: يريد من ينفي القدر، ويرى أن الإنسان يخلق أفعاله الاختيارية. والجبري عكسه.

(٧) **رسيس الحب**: بقيته وأثره.

إذا كنْتَ تبكي وهُمْ جِيْرةٌ   فماذا تقولُ إذا ودَّعُوا؟

القلقَ القلقَ يا مَنْ سُلِبَ قلبُه، والبكاءَ البكاءَ يا مَن عَظُمَ ذَنْبُه.

كان (الشبلي) يقول في مناجاته: ليتَ شعري ما اسمي عندكَ يا علامَ الغيوبِ؟ وما أنتَ صانعٌ في ذنوبي يا غفّارَ الذنوب؟ وبم تختمُ عملي يا مقلِّبَ القلوبِ؟.

وكان يصيحُ في جوف الليل: قرةَ عيني، وسرورَ قلبي! ما الذي أسقطني من عيْنِك؟ أقلتَ: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف: ٧٨]؟.

هِجرانُكَ قاتلي سريعاً   والهجرُ من الحبيبِ قاتلْ
إنْ كنتَ نَسيتَني فعندي   شُغلٌ بكَ لا يزالُ شاغلْ
قلبي يهواكَ ليتَ شِعْري   ما أنتَ بذا المحبِّ فاعلْ[1]
حقّاً قد قلتُ يا سروري   لا تنكر دعوايَ ولي دلائلْ
شوقٌ وجوًى ونارُ وَجْدٍ   تُذكَى بعظائم الدلائل[2]
سائلْ دمعي فجفنُ عيني   لا يبرحُ بالبكاءِ سائلْ
إنْ جُنَّ الليلُ يا حبيبي   فالقلبُ يُجَنُّ في الرسائلْ
أبكي ما كانَ مِنْ وصالٍ   والحزنُ تُهيِّجُه المنازِلْ
هذا خدِّي على ثراكم   لا أَبرَحُهُ ولا أُزايلْ
إنْ أنتَ طردتني فويلي   بعدَ الإعراض مَنْ أُواصِلْ
كلاَّ والجودُ لي شفيعٌ   والجودُ مقدَّمُ الوسائلْ

* * *

(١) هذا البيت وما يليه من أبيات لا تستقيم وزناً فلتنظر.
(٢) في (ب): البلابل.

الفصل الثالث والثلاثون

يا مَنْ بين يديه الأهوالُ والعجائب! وقد[1] نوى له الدهرُ النوائب، أمَا سَهْمُ المصائبِ كلَّ يومٍ صائب! أحاضرٌ فتحمل من عَتْبنا كلاًّ[2]؟ كلا! بل أنت غائب.

وكيفَ قَرّتْ لأهلِ العلمِ أعينُهم ... أو استلذوا لذيذَ النومِ أو هَجَعوا
والموتُ يُنذِرُهم جهراً علانيةً ... لو كان للقومِ أسماعٌ لقد سمعوا
والنارُ ضاحيةٌ[3] لابدّ مَوردُهم ... وليس يَدْرونَ مَنْ يَنْجو ومن يَقَعُ
قد أمسَتِ الطيرُ والأنعامُ آمنةً ... والنونُ[4] في البحر أن يَغْتالَها[5] فزِعُ
والآدميُّ بهذا الكسبِ مرْتَهَنٌ[6] ... له رقيبٌ على الأسرارِ يطَّلِعُ
حتى يوافيه يومَ الجمْعِ منفرِداً ... وخصمُه الجِلْدُ والأبصارُ والسَّمعُ[7]
إذ النبيُّونَ والأشهادُ قائمةٌ ... والجنُّ والإنسُ والأملاكُ قد خضعوا
وطارت الصُّحْفُ في الأيدي مُنَشَّرةً ... فيها السرائرُ والأخبارُ تُطَّلَعُ

---

(١) في (ب): وقِدماً.
(٢) **الكل**: الثِّقْل.
(٣) **ضاحية**: بارزة.
(٤) **النون**: الحوت.
(٥) **غاله يغوله واغتاله**: إذا أخذه من حيث لا يدري، ويقال: الغضبُ غول الحِلْم، لأنه يذهب به، واغتاله: قتله غيلة، أي: غدراً.
(٦) يشير إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، أي: مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما يخلصها وإما أوبقها، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٩] فهم غير مرهونين، لأنهم الملائكة ـ على قول ـ وأولاد المسلمين لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم ـ على قول آخر ـ، أو الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وعلى هذا **فمرتهن**: محاسب.
(٧) يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت: ٢٠].

فكيــفَ سَهْــوُكَ والأنبــاءُ واقعــةٌ عمــا قليــلٍ ولا تَــدْري بمــا يقــعُ؟
أَفــي الجنــانِ نعيــمٌ لا انقطــاعَ لــه أم الجحيــمُ فــلا تُبْقــي ولا تَــدَعُ؟
تَهــوْي بســاكنهــا طَــوْراً وتَــرْفعُهــم إذا رَجَوْا مَخرجاً من غمِّها قُمعوا[1]
طــال البكــاءُ فلــم يُــرْحَــمْ تَضَــرُّعُهــم هيهــاتَ لا رقَّــةٌ تُغْنــي ولا جَــزَعُ
لينفــعَ العلــمُ قبــلَ المــوتِ عــالِمَــهُ قد سال[2] قومٌ به الرُّجعى[3] فما رجعوا

يا من عمره يُقَدُّ[4] بالساعات، ويُعَدُّ بالأنفاس، يا خِلَّ[5] الأملِ خَلِّ[6] أحاديثَ الوَسْواس! يا طويلَ الرُّقادِ إلى كم ذا النعاس! قد بقيَ القليلُ لا ريب، وهذا الشيبُ يقلعُ الأغْراسَ[7]، إنَّ في المقابر لعِبَراً وما أدراك ما الأدراس؟![8] تــاللهِ لــو ســكــنَ اليقيــنُ في القلبِ، لضربْتَ أخمــاســاً في أســداس[9]

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ [الحج: ٢١ـ٢٢].

(٢) **سال**: أي سأل خففت فيه الهمزة.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ. . .﴾ [المؤمنون].

(٤) **يقد**: القد: المقدار، يقال: هذا على قد هذا.

(٥) **خِلّ**: خليل.

(٦) **خَلّ**: اترك وتخلَّ عن.

(٧) **الأغراس**: جمع غَرْس، وهو الشجر الذي يغرس، يشير إلى سطوة الشيب على العمر.

(٨) **الأدراس**: جمع دَرَس، وهو الخلق البالي من الثياب وغيرها، ويقصد الأجساد التي بليت في القبور.

(٩) في المثل «ضرب أخماساً لأسداس». انظر: مجمع الأمثال، للميداني (٢١٩٩): ١/٤١٨ يضرب لمن يظهر شيئاً ويُريد غيره، أنشد ثعلب:

الله يعلــمُ لــولا أنَّنــي فَــرِقٌ مــن الأميــرِ لمــا تبــتُ ابــن نبــراسِ
فــي مــوعــد قــالــه لــي ثــم أخلفنــي غــداً غــداً ضــربي أخمــاســاً لأســداس

والخِمسُ والسِّدْسُ: من أظماء الإبل، والأصل في المثل أن الرجل إذا أراد سفراً بعيداً عوّد إبله أن تشرب خمساً ثم سِدساً، حتى إذا أخذتْ في السير صبرت على الماء.

وضرب بمعنى بيّن وأظهر، والمعنى: أظهر أخماساً لأجل أسداس: أي رقى إبله من الخمس إلى السِّدس. والأخماس: جمع خمس، والأسداس جمع سُدْس، والسِّدْس سِتّ، قلبت السين الأخيرة تــاء لتقرب من الدال التي قبلها، والسين والتاء حرفــان=

هل تجدُ لماضي العمرِ لذةً والباقي على القياس؟!

لماذا التهوكُ[1] في البوار[2]؟ وجرُّ الأذيال في الخسار، كأنّك لم تسمع بِجَنّة ولا نار، لهيبُ حِرْصكَ ما يُطْفا، وشرُّ شرهِكَ[3] ما يَخْفى، أترى هذا على ماذا؟! أليس لما إذا نيل آذى؟!.

أنتَ في طلبِ الدُّنيا أصبر[4] من ضَبّ، تَبيتُ في عشقها أسهرَ من صَبٍّ[5]، أين ما حلا في الفم وحَلِيَ في العين؟! ذهبَ الكلُّ وأنت تدري إلى أين.

ما أصعبَ السِّباحةَ في غديرِ التِّمْساح، ما أشقَّ السفر في الأرض المَسْبَعة[6].

إن المفروحَ به هو المحزون عليه، غير أنَّ عين الهوى عمياء. طائرُ الطمع يرى الحَبَّةَ لا الشَّرَك[7].

ضَيَّعتَ سُهَادَكَ[8] بِسُعَادِك، رَمتْكَ إلى الهندِ هِنْدٌ، صَيَّرتْ نهارَك ليلاً ليلى. ويحك! ربَّاتُ الظَّلْم[9] ظُلَمٌ، كم أراق الهوى دماً في دِمَن[10]، ويحكَ دع سلمى وسل ما ينفعك، دَعَةٌ[11] لمثلك تركُ دَعْدٍ للنوى، وسعادة لك هجرة لسعاد.

= مهموسان، فصار التقدير: سدْت، ولتقارب الدالَ والتاء مخرجاً أبدلت الدال تاء لتوافقها في الهمس، ثم ادغمت التاء في التاء فصارت (ستّ)، والسُّدْسُ: جزء من ستة.

(١) في (ب): التهول. **والتهوك**: التحامق والتحاير.

(٢) **البوار**: الهلاك، إشارة إلى حطام الدنيا.

(٣) **الشره**: غلبة الحرص.

(٤) **أصبر**: أي أصبر عن الماء، لأن الضب لا يرد الماء. تقول العرب: «لا أفعل حتى يَرِد الضبُّ»؛ وذلك لأن العرب ترى أنّ الضبّ لا يرد الماء. وفي (ب): (أحير) لأن الضب كثيراً إذا ما خرج من جحره لا يهتدي إليه.

(٥) **الصَّبُّ**: العاشق، والصبابة: الشوق، وقيل: رقته وحرارته.

(٦) **المسبعة**: أرض تكثر فيها السباع.

(٧) **الشرك**: الفخ.

(٨) **سُهادك**: يقظتك وأرقك.

(٩) **الظَّلم**: بفتح الظاء وتشديدها: ماء الأسنان وبريقها.

(١٠) **دمن**: جمع دمنة: وهي الآثار والأحقاد القديمة.

(١١) **دعة**: راحة ورغد في هجرك لدعد، أي: المحبوبة.

قطْعُ الطَّمَعِ من خَضِرِ الدنيا بموسى اليأس[١] يجمعُ للقلبِ عزمَ الخَضِر ومُوسى وإلياس.

يا معاشـر الفقراء الصادقين قد لبسـتم حُلَّةَ الفقر، فتحلَّـوا حِلْيَةَ الكتمان، اصبروا على عَطَش الزُّهد، ولا تشربوا من مشرعة مَنٍّ، فالحرةُ تجوعُ ولا تأكلُ بثَدْييها[٢].

لا تسألوا سِوى مولاكُم، فسؤال العبد غيرَ سيدِه تشنيعٌ عليه.

إنّ الفقيرَ تركَ الدنيا أَنَفَةً[٣]، رآها قاطعاً فقاطع، جاز على جيفة مُسْتحيلة[٤]، فَسَدَّ مِنْخَرَ الظَّرْفِ[٥] وأسرع، الأنفُ الأشَمُّ[٦] لا يشَمُّ رذيلة.

بَيْنَا هُو في قَطْع فيافي[٧] القناعة، وقع بكنز ما وجده الإسكندر، فقلبُهُ أغنى من قارونَ، وبيتُه أفرغ من فؤاد أم موسى.

كـان (إبراهيم بن أدهم) يعطي عطـاء الأغنياء وهو فقير، ويستدين عليهِ ثم يؤثر به.

(للشريف الرضي)[٨]:

وهـــم يُنفـــدِون المـــالَ فـــي أوّلِ الغنـــى
ويستـــأنفـــون الصَّبْـــرَ فـــي آخـــرِ[٩] الصبـــرِ

---

(١) **خضر الدنيا**: حلاوة الدنيا وخضرتها. **وموسى اليأس**: سكين اليأس منها.
(٢) هذا مثل يضرب في صيانةِ الرجل نفسَه عن خسيس مكاسبِ الأموال، والمعنى: لا تكونُ المرأةُ الحرةُ ظِئراً، وإن آذاها الجوع. (انظر: مجمع الأمثال، للميداني: ١/ ١٢٢).
(٣) **أنفة**: حمية واستكباراً.
(٤) **مستحيلة**: متغيرة نتنة.
(٥) **الظرف**: الكياسة والعقل.
(٦) **الأشم**: المرتفع العزيز.
(٧) **فيافي**: جمع فيفاء، صحراء ممتدة.
(٨) قاله يرثي قوماً من عشيرته انقرضوا، عام (٣٨٣هـ). انظر: الديوان: ١/ ٥٠٢.
(٩) في الديوان: «أول».

مغـاويـرُ فـي الجُلّـى[1] مغـاييـرُ فـي الحِمَـى[2]
مفـاريـجُ للغُمّـى[3] مـداريـكُ للـوَتْـرِ[4]
وتـأخـذُهـم فـي سـاعـة الجـود هـزةٌ
كمـا خـايـلَ المِطْـرابُ[5] عـن نَـزوةِ الخمـرِ[6]
فتحسبهـم فيهـا نَشـاوى[7] مـن الغِنـى
وهُـم فـي جـلاليـبِ[8] الخَصـاصـةِ والفقـرِ
عظيـمٌ عليهـم أن يَمُنّـوا بـلا يـدٍ
وهَيـنٌ عليهـم أن يبيتـوا[9] بـلا وَفْـرِ
إذا نـزل الحـيَّ الغـريـبُ تقـارَعُـوا[10]
عليـه، فلـمْ يَـدْرِ المُقـلَّ[11] مـن المُثـري
يميلـون فـي شِـقِّ الـوفـاء مـع الـرَّدَى
إذا كـان محبـوبُ البقـاءِ مـع الغَـدْرِ

---

(١) **الجُلَّى**: الأمر العظيم الهام.
(٢) في الديوان: «للحمى».
(٣) **الغُمّى**: الداهية.
(٤) **الوتر**: الثأر.
(٥) **المطراب**: من الطرب: خفة تصيب الإنسان لشدة حُزن أو سرور، ومِطْراب: من صيغ المبالغة.
(٦) **نزوة**: نزت الخمر: مزجت فوثبت، ونوازي الخمر: جَنادعها عند المزج وفي الرأس.
(٧) **نشاوى**: جمع نشوان، والنشوة: السكر.
(٨) **جلاليب الخصاصة**: جلاليب: جمع جلباب: الملحفة، والخصاصة: الفقر، وفيه تشبيه بليغ.
(٩) في الديوان: «يفيئوا».
(١٠) **تقارعوا**: من القُرْعة، أي: السهمة، والتقارع: الاختيار، وإلقاء القرعة: طريقة يتعين بها النصيب، فهي طريقة من طرق القسمة، وهي مشروعة باتفاق الفقهاء، وتعتورها الأحكام الخمسة، وقد ذكرت في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله في يونس عليه السلام: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]. وكان ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه.
(١١) **المقل**: اسم فاعل من أقل: أي أفتقر.

أحكمَ القومُ العلمَ، فحكَمَ عليهم بالعملِ، فقاطعوا التسويفَ الذي يقطعُ أعمار الأغْمار[1]، وانتبهوا فانتهبوا الليلَ والنهارَ، أخرجوا قويَّ العزائمِ إلى الأفعال، فلما قضوا ديونَ الجِدِّ قَضَتْ علومُهم بالحذَرِ من الرَّد، أقدامُهم على أرض التعبّدِ قد ألِفت الصفُون[2]، تعتمدُ على سنابك الحذر، فإذا أثَّرَ عندها النَّصَبُ، رَاوَحَتْ بين أرجل الرجاء، قلوبٌ كالذّهبِ ذَهَبَ غِشُّه، أنفاسُهم لا تخفى، نفوسُهم تكاد تُطْفا، لونُ المحبِّ غَمَّازٌ[3]، دَمْعُ المشوقِ نمَّامٌ[4].

أُخفـي كمـدَ الهـوى ودمعـي ... فـي الخـدِّ علـى هـواكِ شـاهـد
فـالجفْـنُ بلـوعتـي مُقِـرٌّ ... للعـاذِلِ واللسـانُ جـاحـد

اشتدَّ الخوف يوماً بإبراهيمَ بن أدهمَ، فسأل الراحةَ فعوتبَ:

لـو شئتَ داويتَ قلْباً أنتَ مُسْقِمُه ... وفـي يـديْكَ مـن البلـوى سـلامتُـه
عـلامـةٌ كُتبـتْ فـي خـدِّ عـارِفكـم ... مَـنْ كـان مثلي فقـد قـامَتْ قيـامتُـه

ضجّت الناقةُ لِثِقَلِ الحَمْلِ، رأتْ عظامَها قد فَرِغَتْ[5]، فَفَغَرت[6] فمَ الشكوى فَرَغَتْ[7]:

يـا حـاديَ العيـسِ قـدْ بَـراهـا[8] ... حمـلُ همـومٍ لهـا عِظـامِ

---

(١) **الأغمار**: جمع غمرة، وهو غير المجرب للأمور من الرجال.

(٢) **الصفون**: جمع صافن، وهو الذي يصف قدميه.

(٣) **غمّاز**: الغمز الإشارة بالجفن أو العين طلباً إلى ما فيه من معايب، وأصله: غمزت الكبش: إذا لمسته هل فيه من شحم؟.

(٤) **نمام**: النمّ: التحريش والإغراء، ورفع الحديث إشاعة له وإفساداً، وتزيين الكلام بالكذب، والنمام هو: القتات: من يسمع أحاديث الناس من حيث لا يعلمون سواء نَمَّها أو لم يَنُمَّها، والنمام من النم، وهو نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر، والاسم: النميمة، ويفسر النمَّام كذلك بالقتات و«**لا يدخل قتات الجنة**» كما في الحديث الشريف، ودمع المشوق نمّام من حيث إنه يكشف عن شوقه وينشره بين الناس.

(٥) **فرغت**: صارت هشة.

(٦) **فغرت**: فتحت فمها.

(٧) **فرغت**: من الرغاء، أي: صوتت.

(٨) **برى**: براه السفر يبريه: هزله.

رِفقــاً بهــا إنهــا جُلــودٌ مُلْصَقــاتٌ علــى عِظــامِ
أشــواقُهــا خَلْفَهــا وشــوقــي خِــلافَ أشــواقِهــا أمــامــي

تمادى في قلبِ العارفِ جبلُ الخوفِ وجبلُ الحزنِ، فلما وصلَ إسكندر[1] الفكرِ عبَّى[2] زُبَرَ[3] الهمومِ، حتى إذا ساوى بين الصَّدَفين[4]، صاحَ بجنودِ الْفهمِ ﴿ ٱنفُخُواْ ﴾ [الكهف: ٩٦]، فاستغاثَ الواجد لتراكم الكُرَبِ.

أيــا جَبَلَــيْ نَعمْــانَ بــاللهِ خَلِّيــا
نسيــمَ الصَّبَــا يَخْلُــص إلــيّ نسيمُهــا
أجِــدْ رَوْحَهــا أو تُشْــفَ منــي حــرارةٌ
علــى كَبِــدٍ لــم يَبْــقَ إلا صميمُهــا
[لأنّ الصَّبــا ريــحٌ إذا مــا تَنَسَّمَــتْ
علــى نَفْــسِ مكـروبٍ تجلَّــت[5] همـومُهــا][6]

* * *

(١) يشير إلى ذي القرنين الذي بنى الردم بين الناس وبين يأجوج ومأجوج.
(٢) عبّى: عبى الجيش: أصلحه وهيأه، ويقال: عبأته بالهمزة.
(٣) زبر: جمع زبرة: قطعة.
(٤) **الصدف**: كل بناء عظيم مرتفع تشبيهاً بصدف الجبل، وهو ما قابلك من جانبه، والصدف: منقطع الجبل المرتفع.
(٥) **تجلت**: ذهبت.
(٦) زيادة من (ب).

الفصل الرابع والثلاثون

إخواني! رحيلُ مَنْ رحل عنّا نذيرٌ لنا منا، وما جرى على مَنْ تَقدَّمنا وعظٌ لنا.

(للشريف الرضي)[1]:

ما أسرعَ الأيامَ في طَيِّنا … تمضي علينا ثم تمضي بنَا

في كلِّ يومٍ أمَلٌ قد نأى … مرامُهُ عن أجلٍ قد دنا

أنذرَنا الدَّهْرُ وما نرعوي[2] … كأنّما الدهرُ سِوانا عَنَى[3]

تعاشياً[4] والموتُ في جِدِّهِ … ما أوضحَ الأمرَ وما أبْيَنَنا

والناسُ كالأجمالِ قد قُرِّبَتْ … تنتظرُ الحيَّ لأنْ يَظْعَنَا

تدنو إلى العُشْب ومِنْ خَلفِها … مُغامرٌ يطرِدُها بالقنا

أينَ الأُولى[5] شادوا مبانيهمُ … تهدّموا قبلَ انهدام البِنا

لا مُعدِمٌ[6] يحميه إعدامُه … ولا يقي نفسَ الغنيِّ الغِنَى

كيف دفاعُ المرءِ أحداثَها … فرداً وأقرانُ الليالي ثِنى

خَطَّ رجالٌ وَرَكِبْنا الذُّرى … وعُقْبةُ السيرِ لمنْ بَعْدَنا

والحازمُ الرأي الذي يَغتَدي … مستقلِعاً[7] يُنذرُ مستوطنا

لا يَأمنُ الدهْرَ على غِرّةٍ … وعَزّ ليثُ الغاب أن يُؤمَنا

---

(١) قاله يعزي الوزير أبا علي الحسن بن أحمد عن ولد له عام (٤٩٦هـ). انظر: الديوان: ٢/ ٤٨٨.

(٢) **نرعوي**: ننزجر.

(٣) **عنى**: قصد.

(٤) **تعاشياً**: الأعشى: الذي لا يبصر بالليل، التعامل مع الأمور الواضحة تعامل الأعشى مع المرئيّ.

(٥) في الديوان: «إن الألى».

(٦) **مُعدِم**: لا مال عنده.

(٧) **مستقلِعاً**: أعد عدة الرحيل، وقلع أطناب خيمته للرحيل.

كـــم غـــارسٍ أَمّـــلَ فـــي غَـــرْسِـــه فـــأعجـــلَ المقـــدارُ[1] أن يُجتنـــى

ما هذا التقصيرُ في العمرِ القصيرِ؟! ما هذا الزهو يا من إلى البِلى يصير؟! كم فَرَّقَ الموتُ مِيرةَ أمير! كم أزار الألحادَ[2] من وزير! وسوّى في القبور بين مَنْ هُجِرَ وزِير[3]، أين الأبطالُ الذين خاطرُهم خطير[4]؟! طال ما اقتتلوا حتى كسروا القنا على القناطير[5]، تالله لقد أمسَوْا حين أصبحتْ خيلُ الموتِ تَعثي[6] وتُغير[7]، ونزلوا لحداً كَبِئرٍ غير كبير، ورأوا كلَّ منكرٍ من مُنْكَرٍ[8]، وكل نكير مِنْ نكير[9]، فهم مفترقون في القبور، فإذا اجتمعوا بنفخة الصور، عاد شرابُ [الفراق][10] قد أدير، ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

يا غافلاً والموتُ يسعى في طلبه! يا مشغولاً مفتوناً بِلَعبه! يا مشترياً راحةً تَفْنى بطولِ تعبه! أماعُدت[11] مريضاً ورأيتَ كَرْبَ كُرَبِه؟! أما شيّعتَ ميتاً فرجعتَ إلى سـلَبه[12]؟! أما تخلَّى عن مالِهِ وتخلى[13] بمكتسَـبِهِ؟! أَنفعَهُ عُلوُّ عَزِّهِ أم عُلوُّ نسبِه، لقد ناجاك قبره، وناداك أمره، فانتبه، ولقد ضرَّه هواه، فلا تَلْهجْ أنت به.

---

(١) **المقدار**: القدر.
(٢) **الألحاد**: جمع لحد: الشق في جانب القبر.
(٣) **زير**: فعل مبني للمجهول من زار.
(٤) **خاطرهم**: من خاطر: صاول وراهن وجازف. **وخطير**: المماثل في الشرف والرفعة.
(٥) **القناطير**: الغنائم الكثيرة المكدّسة.
(٦) **تعثي**: تفسد.
(٧) **تغير**: من الإغارة، وأغار على العدو إغارة وغارة: دفع عليهم الخيل، والغارة: الاسم من الإغارة.
(٨) منكر الأولى: القول الجافي الخشن، ومنكر الثانية: اسم الملك الذي يبعث لسؤال الميت.
(٩) **نكير الأولى**: أي صعب وشديد، ونكير الثانية: اسم الملك الذي يبعث لسؤال الميت.
(١٠) زيادة من (ب).
(١١) **عُدْتَ**: زرت.
(١٢) **سلبه**: السَّلَب: كل ما يسلب، يقال: أخذ سَلَبَ القتيلِ: ما معه من ثياب وسلاح ودابة، والمقصود هنا ما يتركه الميت للورثة.
(١٣) **تخلى الأولى**: ترك. **وتخلى** الثانية: أي اختلى بآثامه وأصبح رهيناً لها.

لا تغرنَّكَ السلامةُ فمع الخواطي[١] سهم صائب.

نظر شابٌّ إلى شيخٍ ضعيفِ الحركةِ فقال: يا شيخُ! مَنْ قيَّدَكَ؟ فقال: الذي خَلَّفتُه يفتُل قيدَك[٢].

من أخطأَتْهُ[٣] سهامُ الموتِ قيَّدَهُ طولُ السنينَ فلا لهوٌ ولا غَزَلُ
وضاقَ من نفسِه ما كان متَّسِعاً حتى الرَّجاء وحتى العزمُ والأملُ

الشبابُ باكورةُ[٤] الحياةِ، والشيبُ رداءُ الرَّدى، إذا قرعَ المرءُ بابَ الكهولةِ فقد استأذن على البلَى.

يا رهينَ[٥] الإثم على العقوبة! ليس لك من يَسْتفكُّكَ إلا التوبةُ، المنقطع في فيْدٍ[٦] يتلقى الحاجَّ منكسَ الرأس، رُبَّ خجلةٍ تمَّمَتِ الناقصَ.

كان بعضُ الأشياخِ يقول: إلٰهي! من عادة الملوك أنهم إذا كَبِر لهم مملوكٌ أعتقوه، وقد كبرتُ فأعتقني.

وقف أعجميٌّ عند الكعبة، والناس يدعون وهو ساكت، ثم أخذ بلحيته فرفعها، وقال: يا خداه شيخ كبير.

لما أتَوا والشيبُ شافعُهم وقد توالى عليهمُ الفَرَقُ[٧]
قلنا لتلك الصحائف انقلبي بيضاً فإنّ الشيوخَ قد عتقوا

---

(١) **الخواطي**: جمع خاطئة، وهذا مثل يُضرب لمن يكثر الخطأ ويصيب أحياناً.
(٢) **يفتل قيدك**: أي يُعدُّ لك ما تراه من قيد، فالجهد المبذول، والسنون المتتابعة، واللهاث وراء الحطام، ألا يورث ذلك ضعفاً؟!.
(٣) **أخطأته**: لا يقصد بذلك أن السهام تخطئ حتى تصيب، إنما أراد أنها لم تسدد إليه، ولو سُدّدَتْ لنفذت فيه، ما يردها عنه رادّ.
(٤) **باكورة**: باكورة كل شيء: المعجل المجيء والإدراك منه، ومنه باكورة الثمر: أوله.
(٥) **رهين الإثم**: مأخوذ به، وحبيسه، ومرهون به.
(٦) **فيد**: اسم مكان في طريق الحاج من العراق إلى مكة.
(٧) **الفرق**: الخوف.

يا معاشرَ الشباب! انتهبوا القُوى في التقوى، فلو قد حلّ المشيبُ حلّ التركيب[1].

إذا هلكَ أميرُ الشباب وقع الشتات في العسكر.

الشباب رياضٌ والمشيبُ قاعٌ قَفْرٌ، فاستصحبوا الزاد قبل دخول الفلاة.

يا قومنا! الفوائد فوائت، كفٌّ من تبذير يؤذي، فكيف ببيدرٍ مِنْ رعونة؟!.

إذا كانت القلوبُ عُمياً عن الفكر، واتفقت عُنَّةُ[2] الفهم فلا وجه لنسل الفضائل.

الخوف ذَكَرٌ، والرجاءُ أنثى، ومخنّثُ البطالة إلى الإناث أميل.

من زرعَ بذرَ العمل في أرجاء الرجا، ولم تقع عليه شمسُ الحذر، جاءت ثمارُه فَجَّةً.

الجاهل ينام على فراش الأمن، فيثقل نومه، فتكثر أحلام أمانيه، والعالم يضطجع على مِهادِ الخوف، وحارس اليقظةِ يوقظه، مَنْ عرف معنى الوجود عرف عزَّةَ النجاة.

النفس طائر قد أُرسل من عَبّادَان[3] التعبد، مُحَمَّلاً كتابَ الأمانةِ إلى دار المُلك، والعدو قد نَصَب له صنوفَ الأشراك[4]، يلوح في ضِمْنها الحَبُّ المحبوبُ، فإنْ تمَّ كيدُه فهو صَيْدُه، وإنْ خَبِرَ الخبرَ عَبرَ.

يا أطيارَ الفهوم! احذري مراعيَ الهوى، فَثَمَّ عُقْبانُ التلف[5]، ومن نجا منه بعد المحاربة أُفلِتَ مكسورَ الجناح.

---

(١) **حلّ** الأولى: نزل. وحلّ الثانية: انفك. **التركيب**: تركيب أجزاء البدن.

(٢) **عُنّة**: العجز عن إتيان النساء. والعنين: الذي لايأتي النساء أو من لا يولد له، والفحل لا يلقح.

(٣) **عبّادان**: موضع تحت البصرة قرب الخليج العربي، كان فيه مشاهد ورباطات وقوم منقطعون للعبادة، ينسب لها نفر من رواة الحديث.

(٤) **الأشراك**: جمع شَرَك، وهي حِبالة الصائد.

(٥) **فثَمّ عقبانُ التلف**: ثَمَّ: هناك، عُقبان: جمع عقاب، وهو من جوارح الطير حيث شَبَّه التلفَ والموتَ به.

واعجباً لبُلْبِل الفطنة كيف اغتر بفخِّ الفتنة؟! .

(للشريف الرضي)[1] :

يا قلبُ! كيف عَلِقْتَ في أشْراكهم	ولقـد عَهِـدتُـكَ تُفْلِـتُ الأشـراكـا
لا تَشْكُـوَنَّ إلـيَّ وَجْـداً بعـدهـا	هـذا الـذي جـرّتْ عليـك[2] يـداكـا

مَنْ حَدَّقَ ببصره إلى طُرَفِ الدنيا طُرِفَتْ عينُه[3]، من أصْغى إلى حديث الهوى أورثه الصَّمَمَ عن النصائحِ، خَسّتْ همّةُ فرعونَ فاستعظمَ الحقيرَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] .

يا دنِيَّ النفسِ حِمارُك ينهقُ من كَفِّ شعيرٍ يراه، الدُّنيا كلُّها كجناحِ بعوضة! فما نسبةُ مصرَ إليها؟! صَبِيٌّ يشغلُه لونُ الصَّدفَةِ، والمتيقظُ يرى الدُّرَّةَ.

يا هذا! إذا لاحت لك شهوةٌ فقف متدبّراً عواقبها، وقد بردَتْ حرارةُ الهوى، فبين النجاة والهلاك صبرُ فَواقٍ[4]، واعجباً أنفقْتَ المالَ المسروقَ وبقي القطعُ.

أبكــي زَلَلــي وأشتكــي آثــامــي	فـي سَفْـكِ دمـي تقـدَّمـتْ أقـدامـي
مــا أبصـرتُ إلا والبِــلا قُــدّامــي	مـا أسـرعَ مـا أصـابَ قَلْبِـيَ الـرامـي

ضرَّ ـ واللهِ ـ التخليطُ آدمَ، ونفعتِ الحميةُ يوسفَ، ملك هواه فملك زليخا، أمرضَها حُبُّهُ، فأرادت تناول مقصودِها في زمان الحِمْيـة، فصاحَ لسـان طِبِّـهِ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، فخلَطَتْ في بُحْرانِ[5] المرض ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ [يوسف: ٢٥]، فلمّا صحَّ الذهنُ قالتْ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] .

---

(١) انظر: الديوان: ٢/١٠٨ـ١٠٩.

(٢) في الديوان: «عليّ».

(٣) **طُرَف**: جمع طرفة، وهي المستحدث العجيب. **وطُرِفَتْ عينه**: أصيبت بشيء فدَمَعَتْ.

(٤) **فواق**: ما بين الحلبتين من الوقت.

(٥) **بحران**: الأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة: بُحراناً، يقولون: هذا يوم بُحران.

لمّا نظر يوسفُ في عواقبِ الذنب ونهاية الصبر، فكَفَّ الكَفَّ، أُطْلِعَ بتعليم التأويل على عواقبِ الرؤيا.

دخل اليومَ موسى وعظي، إلى مدينة قلبكَ، فوجدَ فيها رجلين يقتتلان، القلبَ والهوى، فاستغاثه الذي من شيعته، وهو القلب على الذي من عدوه وهو الهوى، فوكزه موسى فقضى عليه، فكان قتلُ الهوى سبباً للخروج من قَصْرِ مصرِ الغفلة، إلى شعيبِ اليقظة، فالآن يناديك لسانُ المعاملة: هل لك في بلوغ غَرَضِك ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ﴾ [القصص: ٢٧]، فإنْ وَفَّيتَ انقلبتَ إلى لذاتك مسروراً، استُرْجِحَ لك التكليمُ في طور الجنة، فإنْ صحبْتَ فرعونَ الهوى غَرِقْتَ [بعبورك][1] يومَ اليمِّ.

* * *

---

(١) زيادة من (ب).

الفصل الخامس والثلاثون

يا هذا! إنّما خلقتِ الدنيا لِتجوزَها لا لتحُوزَها، ولِتَعْبُرَها لا لِتعمرَها، فاقتلْ هواكَ المائلَ إليها، واقْبَل نصحي، ولا تعوِّلْ[١] عليها.

(لورقةَ بن نوفل):

لا شيءَ مما ترى تبقى بشاشَتُهُ ... يبقى الإلهُ ويُودِي[٢] المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هُرمُزٍ يوماً عساكِرُهُ[٣] ... والخُلْدَ قد حاولَتْ عادٌ فما خَلَدوا
ولا سليمانُ إذ تجري الرياحُ له ... والإنسُ والجنُّ فيما بينها تَرِدُ
أينَ الملوكُ التي كانتْ نوافلُها ... من كلِّ أَوْبٍ إليها راكب[٤] يَفِدُ
حوضٌ هنالك موروُدٌ بلا كَدَرٍ[٥] ... لابدَّ من وِرْدِه[٦] يوماً كما وردوا

الدُّنيا مزرعةُ النوائب، ومشرَعَةُ المصائب[٧]، ومفرقةُ المجامع، ومجرية المدامع، كم سَلَبتْ أقواماً أقوى ما كانوا، وبانَتْ[٨] أحلى ما كانت أحلاماً فبانوا[٩].

ففَكِّرْ في أهل القصور والممالك، كيف مُزِّقوا بكفِّ المهالك، ثم عُدْ

---

(١) **تعوِّل عليها**: تحمل عليها وتعتمد.
(٢) **يودي**: يهلك ويفني.
(٣) في (ب): خزائنه.
(٤) في (ب): وافد.
(٥) في (ب): كذب.
(٦) في (ب): وردها.
(٧) **مشرعة**: مورد الشاربين.
(٨) **بانت**: فصلت وقطعت.
(٩) **بانت**: ظهرت. **وبانوا**: ذهبوا وغابوا.

بالنظر في حالك، لعلّه يتجلى القلبُ الحالك، إنَّ لذاتِ الدُّنيا لَفوارِكُ[1]، وإن موجَ بلائها لمُتدارك[2]، كم حجَّ كعبتَها قاصدٌ فقتلته قبلَ المناسِك، كم علا ذروتها مغرورٌ فإذا به تحت السنابك[3]، كم غرَّت غِرّاً بفخِّها فما استقرت حتى صيد باشك[4]، خَلِّها واطلب خُلةً ذاتَ سرورٍ وسُرُرٍ[5] وأرائك[6]، تالله ما طيبُ العيش إلا هنالك.

إخواني! ما قعودُنا وقد سار الرّكبُ، ما أرى النيّة إلا نَيَّةً[7]، يا مسافرين مَنْ عَزَم يتزوَّدْ[8]، يا راحلين بلا رواحل[9]، وُطِّنُوا على الانقطاع، ليت المحترِزَ نجا فكيفَ المُهْمِلُ؟!.

يا أقدامَ الصبرِ تحمَّلي فقد بقي القليلُ، تذكَّري حلاوةَ الدَّعَةِ[10] يَهُنْ عليك مُرُّ السُّرى، قد علمت أين المنزل، فاحْدُ لها تَسِرْ.

(لمهيار)[11]:

تَغنَّ بالجرعاءِ[12] يا سائقَها فإنْ وَنَتْ شيئاً فَزِدْها الأَبرَقا

---

(١) **فوارك**: جمع فاركة: المبغطة لزوجها.

(٢) **متدارك**: متتابع.

(٣) **السنابك**: جمع سُنبك، والسنبك: طرف حافر الدابة.

(٤) **باشك**: البشك: العجلة والسرعة (قاموس).

(٥) **سُرُر**: جمع سرير.

(٦) **أرائك**: جمع أريكة، وهي سرير في حجلة، أو سرير منجد مزين في قبة (قاموس).

(٧) **نَيّة**: فجة.

(٨) في (ب): تزوّد.

(٩) **رواحل**: جمع راحلة، وهي الجمل الصالح للركوب، القوي على الأسفار والأحمال، والذكر والأنثى فيه سواء، والهاء فيها للمبالغة، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله على النجابة وتمام الخَلْق وحسن المنظر.

(١٠) **الدعة**: خفض العيش وطيبه.

(١١) من قصيدة كتب بها إلى الأستاذ أبي الحسن المختار بن عبد الله بن الذهبي الكاتب. انظر: ديوان شعره: ٢/ ٣٢١_٣٢٦.

(١٢) **الجرعاء والأبرق وحاجر**: أماكن.

وأغنِ عن السِّياطِ في أُرْجوزةٍ[1] | بحاجرٍ ترَ السِّهامَ المُرَّقا
واستقبلِ الريحَ الصبا بخُطمِها[2] | تجدْ سُرى ما وجدتْ منسّقا[3]
إنّ لها عندَ الحمى وأهلِه | تعلُّقاً من حبها وعَلَقا[4]
وكلُّ ما تزجرهُ حُداتُها | رعى الحمى ربُّ الغمام[5] وسَقى
حواملاً منها هموماً ثَقُلتْ | وأنفُساً لم تُبقَ إلا رَمَقا
تحْمِلْنَنَا وإنْ عَرَيْنَ قصَباً | وإنْ دَمِينَ أذْرُعاً وأَسْوُقا
دامَ عليها الليلُ حتى أصبحَتْ | تحسَبُ فجرَ ذاتِ عرقٍ[6] شَفَقا
عرِّج على الوادي فَقُلْ عن كبدي | ما شئتَ للبان الجوى[7] والحُرَقا

الجنة ترضى منك بالزهد، والنار تندفع عنك بترك الذنب، والمحبّةُ لا تقعُ إلا بالروح.

إنَّ سلطانَ حبِّه | قال: لا أقبلُ الرِّشا[8]
فَسَلُوه - فَديْتُه[9] - | لِمْ بقلبي تَحرّشا[10]

ما سلك الخليلُ طريقاً أطيبَ من الفلاة التي دخلها لما أُخرجِ من كفةِ المنْجَنيق.

---

(١) **الأرجوزة**: قصيدة على بحر الرجز.
(٢) **الخُطم**: جمع خِطام، وهو حبل يوضع في أنف الدابة.
(٣) في الديوان: «منطلقاً».
(٤) في الديوان: «إن حملت لعلقاً وعَلَقاً». **والعَلَق**: جمع عَلَقة: ما يتعلق به. **والعَلَق**: الهوى يكون للرجل في المرأة.
(٥) **الغمام**: السحاب.
(٦) **ذات عرق**: مَهَلُّ أهل العراق، وهو الحد بين نجد وتهامة. **والمَهَلُّ**: الميقات الذي يحرم عنده الحاج والمعتمر.
(٧) **الجوى**: شدة الوجد وهوى الباطن.
(٨) **الرشا**: رشوة.
(٩) **فديته**: جعلت نفسي فداء له، وهذا أسلوب التفدية يعبّرون به عن محبتهم للمفدَّى.
(١٠) هذا البيت غير موجود في (ب).

زيارةٌ تسعى فيها أقدامُ الرضا على أرض الشوق، شابهت ليلة «**فزجَّني في النور، وقال: ها أنت وربك**»[1].

زُرناك شوقاً ولو أنَّ النَّوى بسَطَتْ فُرُشَ الفلا بيننا جَمْراً لـزُرْناك

رآه جبريلُ وقد ودَّع بلدَ العمارةِ[2]، فظنَّ ضعفَ إقدامِ المتوكلِ[3]، فعرض عليه زادَ «**ألك حاجة**»، فرده بأنَفةٍ: «**أما إليك فلا**» قال: فسل مولاك، قال: «**علمه بحالي يغنيه[4] عن سؤالي**»[5].

تملَّكُوْا واحتكَمُوا فصارَ قلبي لهُمُ
تَصرَّفُوا في ملكهمْ فلا يُقالُ ظلَمُوا
إنْ وصلُوا مُحبَّهُمْ أوْ قَطَعُوا فَهُمُ همُ
يا أرضَ سَلْعٍ أخبري وحدِّثيني عنهمُ
[تبكيهمُ أرضُ منًى وتشتكيهمْ زَمْزَمُ][6]
يا ليت شعري إذ غدَوْا أأَنجَدوا أم أتهموا[7]
ما ضرّهم حين سَرَوْا لو وَقفوا فَسلَّمُوا

---

(١) راجع: السيرة الحلبية: ١/ ٣٢٦ فقد ذكر لها روايات متعددة.
(٢) في (ب): العادة.
(٣) **المتوكل**: يشير إلى إبراهيم عليه السلام.
(٤) في (ب): يغنيني.
(٥) قال الآلوسي في (روح المعاني: ١٧/ ٦٨) عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]: «روي عن أُبيّ بن كعب قال: حين أوثقوه ليلقوه في النار قال ـ عليه السلام ـ: «لا إلـه إلا أنت، سبحانك، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا إبراهيم! ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فاسأل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي». ويروى: أن الوزغ كان ينفخ في النار. ثم قال الآلوسي: وقد جاء ذلك في رواية البخاري.
(٦) زيادة من (ب).
(٧) **أتهم**: فيقال أتهم الرجل: أتى تهامة، قال الممزَّق العبدي: «فإن يتهموا أُنجِدْ خلافاً عليهم».

أبدانُ المحبين عندكم وقلوبهم عند الحبيب، طرقَ طارقٌ بابَ (أبي يزيدَ) فقال: ها هنا أبو يزيد؟ فصاح مِنْ داخلِ الدار: أبو يزيد يطلبُ أبا يزيد فما يجده.

(لمهيار)[1]:

وبجرعاءِ الحمى قلبي فَعُجْ[2] بالحمى واقرأ على قلبي السَّلاما
وترجَّلْ فتحدثْ عَجَباً إنَّ قلباً سارَ عن جسم أقاما
قلْ لجيرانِ الغَضا آهٍ على طيبِ عيشٍ بالغضا لو كان داما
حَمِّلوا ريحَ الصبا نشْرَكمُ قبلَ أن تحملَ شِيحاً وخُزامى
[وابعثوا لي بالكَرَى طيفَكُمُ إنْ أذِنتُم لعيوني أن تناما][3]

بَلَغتْ بالقوم المحبةُ إلى استحلاء البلاء، فوجدوا في التعذيب عُذوبةً، لعلمهم أنّه مرادُ الحبيب.

أَرِضَاه أسْخَطُ أو أرضى تَلَوّنَه وكلُّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبُ

ضَنِيَ (سويدُ بن شعبةَ) على فراشه، فكان يقولُ: والله ما أُحِب أن الله نقصني منه[4] قُلامةَ ظُفْرٍ.

تَعجَّبُوا من تَمنّي القلبِ مُؤْلِمَهُ وما درَوْا أنه خِلْوٌ من الألمِ

أمر الحجّاجُ بصلب (ماهانَ) العابدِ، فرُفِعَ على الخشبة وهو يسبِّح ويهلِّل ويعقد بيديه حتى بلغ تسعاً وعشرين فبقى شهراً بعد موته، ويده على ذلك العقد مضمومة.

لتُحْشَرَنَّ عِظامِيْ بعدما بَلِيَتْ يومَ الحسابِ وفيها حبُّكُم عَلِقَ

---

(١) من قصيدة يمدح بها الوزير زعيم الدين أبا الحسن في النيروز. انظر: ديوان شعره: ٣/ ٣٢٧-٣٣١.

(٢) عُج: أمر من المضارع: يعوج، ماضيه عاج، يقال: عاج به: عطف إليه، ومال، وألمّ به، ومرّ عليه، وهو عطف رأس البعير بالزمام، وزجر الناقة.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) الضمير يعود على الضنا والمرض.

مَرُّوا على مجذومٍ قد مزَّقَهُ الجُذامُ، فقالوا له: لو تداويتَ، فقال: لو قطّعني إرْباً إرْباً ما ازددتُ له إلا حُبّاً.

إنْ كـــانَ جيــرانُ الغَضـــا رَضُــوا بقتلــي فَــرِضَـــا
واللهِ مـــا كنـــتُ لِمَـــا يَهْــوى الحبيـــبُ مُبْغضـــا
صِـرْتُ لهــمْ عَبْــداً ومـــا للعبـــدِ أنْ يعتَــرِضَـــا
هــمْ قلّبــوا قلبــي مِــنَ الشْــ ــشَــوقِ علــى جَمْــرِ الغَضـــا
يـــا ليـــتَ أيـــامَ الحِمَـــى يعـــودُ منهـــا مـــا مَضَـــى
مَـــنْ لمـــريـــضٍ لا يَـــرَى إلا الطبيـــبَ المُمْـــرِضـــا

كان (الشبلي) يقول: أَحبَّكَ الناسُ لنعمائك وأنا أحبُّك لبلائك.

مَـــنْ لقتيـــلِ الحـــبِّ لـــو ردَّ عليـــه القـــاتِـــلُ
يَجْـــرحُـــه النَّبْـــلُ ويَهْـــوَى أنْ يعـــودَ النـــابـــلُ[(١)]

قلّبَهمُ الزهـدُ في قَفرِ الفقرِ على أكفِّ الصبر، فقطعَ[(٢)] أوداجَ أغراضِهم بسكين المَسْكنة، والبلاء ينادي ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، والعزم يجيب: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

سقاهُم رحيقَ[(٣)] القُرْبِ فأورثَهم حريقَ الحبِّ، فغابوا بالسُّكْرِ عن رُؤيةِ النفس، فعربدوا على رَسْم الجسم، فهاموا في فلوات الوَجْد يستأنسون بالحمام والوحش.

يا منيـةَ القلبِ ما جِيـدي بمُنْعطِف إلـى سِـواكُـم ولا حَبلـي بمنقـادِ
لـولا المحبـةُ ما اسْتَعْظَمْتُ[(٤)] بارقةً ولا سألتُ حَمامَ الدَّوْحِ إسعادي[(٥)]

---

(١) النابل: الحاذق بالنبل ورامي النبال.
(٢) في (ب): فقلع.
(٣) الرحيق: الخمر أو أطيبها أو الخالص أو الصافي.
(٤) في (ب): استعملت.
(٥) إسعادي: في الحديث: «لا إسعاد ولا عقر في الإسلام». والإسعاد: هو أن تقوم المرأة=

ولا وقَفْتُ على الوادي أُسائِلُه ... بالدّمعِ حتى رثَى لي ساكنُ الوادي

* * *

= فتقوم معها أخرى من جاراتها إذا أصيبت إحداهن بمصيبة فيمن يعزّ عليها بكت حولاً، وأسعدها على ذلك جاراتها وذوات قراباتها، فيجتمعن معها في عداد النياحة وأوقاتها يتابعنها ويساعدنها ما دامت تنوح عليه وتبكيه، فإذا أصيبت صواحباتها بعد ذلك بمصيبة أسعدتهن، فنهى النبي ﷺ عن هذا الإسعاد، فالإسعاد: المساعد في المناحة، والمساعدة عامة في كل معونة.

الفصل السادس والثلاثون

أيها المغترُّ بالدنيا كم خدَعَتْ! ما واصَلَ وَصْلَها محبٌّ إلا قَطعَتْ، وما ناولتْ نوالاً إلا ارتجعتْ، اختبأت مريرَها[١]، فلما اعتقلتْ أسيرَها جرَّعَتْ[٢]، متى رأيتَها قد توطَّنتَ فاعلمْ أنّها قد أزمعَتْ[٣].

يـا محبَّ الـدُّنيـا الغـرورِ اغتـراراً — راكبـاً فـي طِـلابِهـا الأخطـارا

يبتغـي وصلَهـا فتـأبـى عليـه — وتـرى أُنسَـهُ فتُبـدي نِفَـارا

خـابَ مـن يبتغـي الـوصـالَ لـديهـا — جـارةٌ لـم تَـزَلْ تسـيء الجـوارا

كـم محـبٍّ أرتْـهُ أُنسـاً فلمَّـا — حـاولَ الـوصـل[٤] صيّرتـه ازْوِرَارا

شِيـبَ حُلْـوُ اللّـذاتِ منهـا بِمُـرٍّ — إنْ حَلَـتْ مَـرَّةً أمـرَّتْ[٥] مِـرارا

فـي اكتسـابِ الحـلالِ منهـا حِسَابٌ — واكتسـابُ الحـرام يُصلـي النـارا

ولبـاغـي الأوطـارِ منهـا عَنـاءٌ — سيقضـي[٦] ومـا قضـى الأوطـارا

كُـلُّ لـذَّاتِهـا مُنَغَّصـةُ العيـشِ — وأربـاحُهـا تعـودُ خسـارا

وليـالـي الهمـوم تمضـي طِـوالاً — وليـالـي السـرور تمضـي قِصـارا

وكفـى أنهـا تَضِـنُّ وإن جـادت — بِنَـزْرٍ أفنَـتْ بـه الأعمـارا

وإذا مـا سَقَـتْ خمـورَ الأمـانـي — صَيَّـرتْ بعـدَهـا المنايـا خُمـارا[٧]

كـم مليـكٍ مسلَّـطٍ ذلَّلَتْـهُ — بعـد عـزٍّ فمـا أطـاق انتصـارا

ونعيـمٍ قَـدْ أعقَبَتْـهُ بِبُـؤسٍ — ومَغـانٍ قَـدْ غـادَرتْهـا قِفَـارا

---

(١) مريرها: علقمها.

(٢) جرّعت: سقت.

(٣) أزمعت: ثبتَتْ على الرحيل أمرها.

(٤) في (ب): الزور.

(٥) أمرّت: أذاقت المُرَّ.

(٦) في (ب): سوف يقضي.

(٧) الخمار: بقية السكر.

أيهـا المستعيـرُ منهـا متـاعـاً عـن قليـلٍ تَسْتَـرجـعُ المُسْتعـارا
عُـدْ عَـنْ وصـلِ مَـن يُعيـرُكَ مـا يَفْنـى ويبقـى إثْمـاً ويُكسِـبُ عـارا
قـد أَرتْـكَ الأمثـالَ فـي سـالـفِ الـدْ ـدَهْـرِ وهـا قـدْ أَرَتـك فيـك اعتبـارا
وجـديـرٌ بـالعُـذرِ مـن قـدَّمَ الـ أعْـذارَ فيمـا جَنـاه والإنـذارا
فتَعـوّضْ عنهـا بِخَلَّـةِ صِـدْقٍ والتمِـسْ غيـرَ هـذه الـدارِ دارَا
والبـدارَ البـدارَ بـالعمـلِ الصـا لـح مـا دُمْـتَ تستطيـعُ البـدارا

إلى متى في طلبها؟ إلى كم الاغترار بها؟ تدورُ البلادَ ناشداً[1] ضالَّةَ المنى، وتلك ضالةٌ لا توجد أبداً، فسَيقْتُلك الحرصُ غريباً، ولكن لا في فيافي «**فيا طوبى للغرباء**»[2].

أظـنُّ هـواهـا تـاركـي بِمَضَلَّـةٍ مِـنَ الأرضِ لا مـالٌ لـديَّ ولا أهـلُ
ولا أحـدٌ أُفضـي إليـه وَصِيتـي ولا وارثٌ إلا المطيـةُ والـرَّحـلُ

أيها المتعِبُ نفسَه في جَمْعِ المال، عُقابُ الوارثِ على مَرقَبِ الانتظار، أَفهمتَ أم أشرحُ لك؟ العُقابُ لا تُعاني الصيد، وإنّما تكونُ على موضع عالٍ، فأيُّ طائر صاد صيداً انقضَّتْ عليه، فإذا رآها هرب وترك الصيد، ما لك تجمع مالك[3]؟ وما لك منه إلا ما تُخلِّفُ! والزمان يستحثك[4] للذهاب وأنت للأذهاب[5] تؤلف، المالُ إذا وصل إلى الكرام عابرُ سبيل، وإكرامُ عابرِ السبيلِ تجهيزُه للرحيلِ، جسمُ البخيلِ كلُّه يعرَقُ إلا اليد، كفُّه مكفوفةٌ ما ينفقُ منها خرزةً.

تحَلَّـى بـأسمـاءِ الشهـورِ فكفُّـه جُمادى[6] وما ضَمَّتْ عليه المُحرَّمُ

---

(١) في (ب): منشداً.
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٢٣٢)، والترمذي (١٣)، وابن ماجه في كتاب الفتن (١٥)، والدارمي في كتاب الرقاق (٣٢)، والإمام أحمد: ١/ ١٨٤ بلفظ: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء**».
(٣) **ما لك** الأولى: استفهام، **مالك** الثانية: المال.
(٤) في (ب): يشتتك.
(٥) **للأذهاب**: جمع ذهب.
(٦) **جُمادى**: كحبارى من أسماء الشهور معرفة مؤنثة، ويقال للبخيل: جَمادِ كقطامِ ذمّاً له، =

يا فرعونيَّ الكِبْرِ، تَفْرَحُ بمالٍ سيُسْلَبُ منك، فتستعيرُ كلمة ﴿أَلَيْسَ لِي﴾ [الزخرف: ٥١]، يا نَمْروديَّ الجهلِ، تشدُّ أطنابَ الحيلِ على الدنيا في أرجُل نُسورِ الأمل، ثم تَرمي نشَّابَ الأغراض، إن وقف لك غرض فتستغيث الأكوان من يدك ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

من فهم علم التوحيدِ تجرَّدَ للواحد بقطع العلائقِ، أما ترى كلمتَيْ الشهادة مجرّدةً من نقط.

إذا أعرضَتْ الدنيا أَقبلتْ إليك الآخرة: «**من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه**»[1].

عَقَر سليمانُ الخيلَ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ [صَ: ٣٦]، لما عُقِدَتِ الخِنْصرُ[2] على التوحيد مُيِّزَتْ على باقي الأصابع بالخاتم.

يا أطفالَ التوبةِ! ما أُنكر حنينكم إلى الرَّضاع، ولكن ذوقوا مطاعمَ الرجالِ، وقد نسيتُم شربَ اللبن.

إذا تحصّنَ الهوى بقلعةِ الطبعِ، فَانْصِبوا مجانيقَ العزائِمِ وقد انهدَم السورُ.

أنتم تخرجون لقتل سَبعٍ ما آذاكم؛ ليُقَال عن أحدكم: ما أجلده! فكيف تتركون سَبُعَ الهوى وقد أغار على سرح[3] القلوب؟!.

إنما يُتْحَفُ الملوكُ[4] بالباكورة[5]، فافهموا يا صبيان [التوبة][6] إذا أهديتُم فالرطب لا الحشَف[7].

= وهو جَماد الكفِّ، وجَمَد: بخل، وظلت العين جمادى: جامدة لا تدمع، وهي جمود، والمجمد: البخيل، والقليل الخير.

(١) رواه ابن عساكر وأبو نعيم بلفظ: «**ما ترك عبدٌ لله أمراً لا يتركه إلا لله إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه**». راجع: فيض القدير بشرح الجامع الصغير: ٥/ ٤٣٥.

(٢) **عقدت الخنصر**: في ابتداء العد.

(٣) **السرح**: السوائم من الماشية.

(٤) في (ب): تتحف الملوك.

(٥) **الباكورة**: أول كل شيء.

(٦) زيادة من (ب).

(٧) **الحشف**: يابس التمر ورديئه.

يا أطيارَ الشباب، إما عَبّادان[1] التعبد، وإما استفراخُ[2] العلم، وإلا فالذبح، تريدون نيلَ الشهوات وحصولَ المراتب، والجمعَ بين الأضداد، لا يمكن.

هــواكَ نجــدٌ وهــواهــا الشــامُ   وذا وذا يــــا مــــيُّ لا يَلْتَـــامُ[3]

ما زلتُ أُعالِجُ مسمارَ الهوى في قلبِ العاصي، أميلُ به تارةً إلى جانب التخويف، وتارةً أخرى إلى ناحية التشويقِ، فلمَّا ضعفَ الماسكُ بإزعاجي له، اتّسعَ عليه المجال فجَذَبْتُه.

أَنِفْتُ لصبيِّ اللعبِ من بيع جوهرِ العمر النفيس بصدف الهوى، فشدَدْتُ عليه في الحجْرِ ليعلم بعد البلوغ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

* * *

---

(١) **عبّادان**: موضع فيه قوم مقيمون للعبادة والانقطاع.

(٢) **استفراخ العلم**: تحصيله وطلبه.

(٣) **لا يلتام**: أي لا يلتئم ولا يجتمع.

الفصل السابع والثلاثون

إخواني! جُدُّوا فقد سُبقْتُم، واستعدُّوا فقد لُحِقْتم، وانظُروا بماذا من الهوى علقْتُم؟ ولا تَغفلوا عما له خُلِقْتم، ذهبتِ الأيامُ وما أطعتُم، وكُتبتِ الآثامُ وما أصغيتم، وكأنكم بالصادقين قد وصلوا وانقطَعْتم، أهذا التوبيخ لغيركم؟! أو ما قد سمعتم؟!.

(الصُرَّدُرَّ)[1]:

ما ضاعَ من أيامنا هل يُغرمُ ... هيهاتَ والأزمانُ كيف تُقَوَّمُ
يومٌ بأرواحٍ يُباعُ ويُشْترى ... وأخوه ليس يُسامُ فيه دِرْهَمُ
لي وِقفةٌ في الدارِ لا رجَعَتْ بما ... أهوى ولا يأسي عليها يُقدِمُ
وكفاكَ أنّي للنوائبِ عاتبٌ ... ولصُمِّ أحجارِ الديارِ مُكلِّمُ
ومن البلادةِ في الصبّابةِ أنّني ... مستخبِرٌ عنهنَّ مَنْ لا يَفهمُ
وإذا البليغُ شكا إليه بثَّه ... عبثاً فما بالُ المطايا تُرزِمُ[2]
كلٌّ كَنَى عن شَوْقه بلُغاتِه ... ولربما أبكى الفصيحَ الأعجمُ
نرجو سلوكاً في رسومٍ بيْنَها ... الأغصانُ سُكْرٌ[3]، والحمامُ متيّمُ
هذي تميل إذا تنسَّمتِ الصَّبا ... والوُرْق تذكرُ إلفها فترَنَّمُ

آه على زمان فات! وعلى قلبِ حيٍّ مات، كيف الطمع فيما مضى؟ هيهات.

رُدُّوا عليَّ لياليَّ التي سلَفَتْ

---

(١) قاله في مدح الوزير أبي المعالي بن عبد الرحيم. انظر: الديوان، ص٣٤.

(٢) **ترزم**: الإرزام صوت الناقة إذا رئمت ولدها، ترزم: تحن على ولدها. ورئمت الناقةُ ولدها: عطفت عليه ولزمته.

(٣) **سُكْرٌ**: نشوى بمداعبة النسيم وروعة الجو، وقد شرح ذلك في البيت التالي.

أين الزمان الذي بان أتراه بان[1]؟ أين القلب الصافي كان وكان؟ .

سُقْياً لمنزلةِ الحمى وكثيبِها ... إذ لا أرى زَمَناً كأزماني بها
ما أعرفُ اللذاتِ إلا ذاكراً ... هيهات قد خَلَّفْتُ أوقاتي بها

يا منْ[2] كان له قلب فانقلب، قيامُ السَّحرِ يستوحشُ لك، صيامُ النهارِ يسألُ عنك، ليالي الوصالِ تعاتبُك:

أينَ أيّامُك والدَّهرُ ربيعٌ ... والنَّوى معزولةٌ والقُربُ والِ

[يا مَنْ كان قريباً فطُرِد][3]، يا مَنْ كان مشاهِداً فحُجبَ، يا عزيزي ما ألفتَ الشقاء فكيف تصبر؟ أصعبُ الفَقْر ما كان بعدَ الغنى، وأوحشُ الذُّلِّ ما كان بعدَ العز، وأشَدُّهُما العمى على الكِبَر.

يا هذا! بِتْ بِبَيْتِ الأحزانِ من قبل البياتِ[4]، وَثِبْ إلى المُثيب[5] وَثْبةَ ثَباتٍ، ولا تجاوزِ الجنابَ، ودُرْ حول الدار، واستقبِلْ قِبلةَ التضرعِ، وقُلْ في الأسحار:

قد قَلِقَ الجنبُ وطارَ الكرى ... وأظلمَ الجوُّ وضاقَ الفضا
لا يَعْطشُ الزرعُ الذي نَبْتُهُ ... بصَوْب إنعامِك قد رُوِّضا
إن كان لي ذنب تجرَّمْتُه ... فاستأنِفِ العفوَ وهبْ ما مضى
لا تَبْرِ عُوداً أنت ريَّشْتَه ... حاشى لبَاني المجدِ أنْ يَنْقُضا
وكيفَ لا أبكي لإعراضِ مَنْ ... يُعرِض عني الدّهْرُ إنْ أعْرضا
قد كنتُ أرجوه لنيلِ المُنى ... فاليومَ لا أطلُبُ إلا الرِّضا

يا من قد فقدَ قلبَه وعدِمَ التّخيُّل في طلبه، تَنَفّسْ من كَرْبِ الوجدِ، فبريدُ

---

(١) بان الأولى: ذهب ومضى. وبان الثانية: ظهر.
(٢) في (أ): أين من.
(٣) زيادة من (ب).
(٤) البيات: من بيَّت العدوَّ: أوقع به، ويشير إلى ما يُوقِعُ الموت بالإنسان.
(٥) المُثيب: أي الله سبحانه وتعالى.

اللطفِ يحمِلُ المُلطَّفَات، ريحُ الأسحارِ رِكاب[1] الرسائل، ونسيمُ الفجرِ تَرجمانُ الجواب.

(لمهيار)[2]:

فيا ريحَ الصَّبا اقترحي ... على الأحشاءِ واحتكمي
أراكِ نَسَمْتِ تَخْتَبِرينَ ... ما عَهْدي وما ذِمَمي
فهذي في يَدِيْ كَبِدِي ... وذا في وَجْنَتَيَّ دَمِي
سلامٌ كلَّما ذُكِرتْ ... ليالينا بذي سَلَمِ

إخواني! صُعَداءُ[3] الأنفاسِ واصلٌ لا يُمنعُ، لسانُ الدمعِ أفصحُ من لسانِ الشكوى، شجوُ التائب يُطْرِبُ سمعَ الرِّضا، حزنُ النادمِ يَسُرُّ قَلبَ التعبُّد، قلقُ المسكين محبوب الرَّحْمة، أسى مَنْ أساء فَرَحُ العفو، بكاءُ المُفرّط يُضْحك سنَّ القبول، دمعُ المحزون مخزون لخزانة الخاص، ريحُ نفسِ آسِفٍ أطيبُ من ندٍّ ندٍّ[4]، قطرةٌ من المدامع على الخدِّ أنفعُ من ألفِ مَطرةٍ على الأرض.

ضمَّنْتُ حالي قِصّةً ورفعتُها ... فأتانيَ التوقيعُ يشرحُ حالَهُ
فأتيتُ ديوانَ الهوى فلكثرةِ ... العشّاقِ لم يتهيا لي إيصالُهُ
حتى إذا أوصلتُها نظروا إلى ... شخصٍ تَبَقَّى للعيونِ خيالُه
قلتُ: ارْحَمُوا هذا الفقيرَ فإنّهُ ... مِن حينِ هَجْرِكُمُ تمزَّقَ بالُه

يا دائرةَ الشقاء أين أوّلُكِ؟ يا أرضَ التيه أين آخرُكِ؟ يا أيوبَ البلاءِ إلى كم على الكُناسة[5]؟ متى يَنْسَخُ الزَّمِنَ زَمَنُ ﴿ٱرْكُضْ﴾ [ص: ٤٢]؟.

سمعتُ حمامةً هَتَفتْ بليلٍ ... وقد حَنَّتْ إلى إلفٍ بعيدِ

---

(١) الركاب: الإبل يسار عليها.

(٢) من قصيدة كتب بها إلى العميد علي بن المزرع يعاتبه على تأخير رسمه. انظر: ديوان شعره: ٣/ ٢٨٧ ـ ٢٩١.

(٣) صعداء: تنفس ممدود مِنْ تَوجُّع.

(٤) ند الأولى: من التندية، وهي التلطيف. وند الثانية: الطيب.

(٥) هذا من الإسرائيليات لا تليق بسيدنا أيوب عليه السلام.

فـأزعجَـتِ القلـوبَ وأقلقَتْهـا ... فمـا زِلنـا نقـولُ لهـا أعيـدي
أرى مـاءً وبـي عطـشٌ شـديـدٌ ... ولكـنْ لا سبيـلَ إلـى الـورودِ

تعلّقْ بالليلِ فهو شفيعٌ مُشفَّعٌ، تَمسَّكْ بالبكاء فهو رفيق صالحٌ، ادخلْ في زمرة المتهجِّدين على وجه التطفل في فلوات الخلوات بلسان التذلل:

يـا راحـمَ عبـرةِ المسـيءِ المحـزونِ ... دمْعـيَ مبذولٌ وحـزنُ قلبيَ مخـزون
شوقي يسعى إليك والصبرُ حَرْون[1] ... مَنْ تهجـرُه أنتَ تُـرى كيف يكـون

أبواب الملوك لا تُطْرَقُ بالأيدي ولا بالحجارة إلا بِنَفس مُحتاجٍ:

(لمهيار)[2]:

آهٍ والشـوقُ مـا تـأوَّهـتُ مِنْـهُ ... لِلَيـالٍ بـالسَّفْـحِ لـو عُـدْنَ أُخـرى
قلِّبـوا ذلـك الـرمـادَ تُصِيبُـوا ... فيـه قلبـي إن لـم تُصيبـوا الجَمْـرا

يا هذا! إذا رأيتَ نفسَك متخبطةً لا مع المحسنين[3] ولا مع التائبين، فابسط ردَاءَ الأسفِ، واجلِسْ مع رفيقِ اللهفِ، وابعثْ رسالةَ القلقِ مع بريدِ الصُّعَداءِ[4]، لعلّه يأتي الجواب بكشف الجوى:

ولـي زفـراتٌ لـو ظهـرْنَ قتلْنني ... لشوقِ لُيَيْلاتي[5] التي قـد تولـتِ
إذا قلتُ هذي زفرةُ اليوم قد مَضتْ ... فمَـنْ لـي بـأُخْرى مثلَ تِيكَ أظَلَّتِ
حلفـتُ لهـم بـاللهِ مـا أمُّ واحـدٍ ... إذا ذكَـرَتْـهُ آخـرَ الليـلِ حنّـتِ
وما وَجْـدُ[6] أعْرابيـةٍ قـد فَتَّ[7] بهـا ... صروفُ النوى[8] من حيث لم تكُ ظَنّتِ

---

(١) **الحرون**: الدابة تقف حين يطلب جريها وترجع القهقرى.
(٢) من قصيدة كتبها إلى صديق. انظر: ديوان شعره: ١/ ٤٠٦ ـ ٤١١.
(٣) في (ب): المحبين.
(٤) **الصعداء**: تنفس طويل في مشقة، وتنفس بتوجع.
(٥) **لييلاتي**: جمع لييلة: تصغير ليلة.
(٦) **وَجْد**: محبة.
(٧) **فتّ**: أضعف وأوهن.
(٨) **صروف النوى**: الصروف: التقلبات والغِيَر، والنوى: البعد والفراق.

تَمنَّتْ أحاليبَ الرِّعاءِ وخَيْمةً بنَجْدٍ فلم يُقَدَّرْ لها ما تمنَّتِ
إذا ذكرتْ ماءَ العُذيب[1] وطيبَهُ وبردَ حَصاهُ آخرَ الليلِ أنَّتِ
لها أنَّةٌ وقتَ العشاءِ وأنَّةٌ سُحيراً فلولا أنَّتاها لَجُنَّتِ
بأكثرَ[2] مني لوعةً غيرَ أنني أُجَمْجِمُ[3] أحشائي على ما أَجَنَّتِ

نيرانُ الخوفِ في قلوب التائبين ما تخبو، وقلقُ المذنبين مما جَنَوْا لا يسكُنُ، وضجيجُ المحبين في جيش الشوق ما يفْترُ:

واهاً لزمانِنا الذي قد سلفا[4] أبقى[5] مَرَضي وليس لي منه شِفَا
ذابتْ روحي وما أرى غيرَ جَفا هذا رَمَقي[6] تسلَّمُوه بوَفَا

* * *

---

(١) **العذيب**: وادٍ في شمال مدينة الرسول ﷺ.
(٢) **بأكثر مني**: الباء هنا ـ زائدة في خبر «ما» من قوله: «حلفت لهم بالله ما أم واحدٍ» التي عملت عمل «ليس» أي: ما أم واحد، وما وجد أعرابية (أكثر مني لوعة).
(٣) **أُجَمْجِم**: أخفي ولا أبدي، يقال: جمجم الشيء في صدره: أخفاه ولم يُبْدِه.
(٤) في (ب): كان صفا.
(٥) في (ب): أبكى.
(٦) **رمقي**: بقية حياتي.

الفَصْلُ الثَّامِنُ والثَّلاثُونَ

أَلاَ يعتبرُ المقيمُ منكم بمَنْ رَحَل؟ أَلاَ يندَمُ من يعلمُ عواقبَ الكسل؟ آهٍ لغافلٍ كلّما جَدَّ الموتُ هزل، ولغافلٍ كلَّما صَعَدَ العمرُ نزَل.

أَعِدْ علـى فكـرِك إتـلافَ[1] الأُمَـمْ ... وقفْ على ما في القبورِ من رِمَمْ

ونـادِهِـم أيـنَ القـويُّ منكـمُ ... القاهرُ، أم أين الضعيفُ المُهتَضَمْ

تفاصلتْ[2] أوصالُهم فوقَ الثَّرى ... ثـم تسـاوَتْ تحتَـه كـلُّ قـدَمْ

قبـرُ البخيـلِ والكـريـمِ واحـدٌ ... مـا نفـعَ البخـلُ ومـا ضـرَّ الكـرمْ

وا عجبـاً لغـافـلٍ أمـامَـه ... هجـومُ مـا لا يُتَّقـى إذا هَجَـمْ

إذا تخطَّـاهُ علـى عهـد الصِّبـا ... أو الشبـابِ لـم يَفُتْـهُ[3] فـي الهَـرمْ

أمـا كفـى الإنسـانَ مـوتُ بعضِـه ... وهْوَ المشيبُ المستطيرُ في اللِّمَمْ[4]

أيُّ خليليـنِ أقـامـا أبـداً ... مـا افترقَـا؟ وأيُّ حَبْلٍ مـا انصَـرمْ؟

إنَّ النجـومَ الـدائـراتِ أبـداً ... تضحَـكُ مـن مُبْتَسِـمٍ إذا ابتَسَـمْ

إخواني! بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكُم عِبرةٌ فيمن مضى؟ أما لكم؟! ما هذا الغرور الذي قد أمالَكُم[5]؟! ستَتْرُكون على رغم آمالِكم ما لَكُمْ.

إخواني! صدقتم الأملَ فكذَّبَكُم، وأطعتم الهوى فعذَّبكم.

أما أنذركم السقمُ بعد الصحة، والتَّرحةُ بعد الفرحةِ، في كلِّ يومٍ يموتُ من

---

(١) في (ب): أسلاف.
(٢) **تفاصلت**: تفرقت وتفككت.
(٣) **لم يفته**: لم يسبقه، ما غاب عنه، لم يفلت منه.
(٤) **اللِّمَم**: جمع لِمة: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن. **والمستطير**: المنتشر.
(٥) **أمالكم**: انحرف بكم وأخرجكم عن الاستقامة.

أشباحكم ما يكفي في نَعْي أرواحكم، ويُحلُّ بِعُقْوتِكم[١] وفِنائكم ما يخبُركم عن شتاتِكم وفَنائكم.

فخذوا حِذْركمُ قبل النوائب، فقد أُتيتم من كل جانب، [وتذكروا سهر أهل النارِ في النار، واحذروا فوتَ دارِ الأبرار][٢]، وتخوّفوا يومَ الفصلِ بين الفريقين أن يصيبَكم من البَيْنِ البينُ.

إخواني! أبصارُكم قويةٌ، وبصائرُكم ضعيفةٌ، ومن تراءى هواه توارى عنه عقلُه، سبحان من ظَهَر لخلقه بخلقه، غير أنَّ عالمَ الحسِّ لا يرونه.

أما قَلَّبَكَ مِنْ نطفةٍ إلى علقةٍ، وأنت كالجمادِ، فلمَّا نَفَخَ فيك الروحَ بعثَ الزادَ ينساقُ إليك من دم الأمِّ، فتناولته باجتذابِ السُّرةِ، إذ لو طَرَق الحلقومَ تَلفْتَ، فلمَّا خرجتَ إلى فَلاة الدنيا، رأيتَ إداوَتَي[٣] الثديين معلقتين لشُرْبك، وكانت عُمورُ[٤] الأسنانِ تكفي في اجتذاب المشروب، فكلّما اعتصرتَه خرج مغربلاً لئلا يقعَ شَرَقٌ[٥]، فلما قَوِيَتِ الْمِعَى، وافتقَرْتَ إلى غذاء فيه صلابة أَنبتَ الأسنان لتقطع، والأضراس لتطحن.

ومن العجائب أنه أخرجَك غبيّاً[٦] لا تعلم شيئاً، فلو أخْرجَك عاقلاً لرأيتَ من أَطَمِّ المصائبِ تقلبَكَ في الخِرَقِ والعصائبِ، ثم جعلَ بكاءك حينئذ متقاضياً بالمصالح، وبَثَّ القُوى في باطنك، فقوةٌ تطلبُ الغذاء، وثانيةٌ تجتذبه إلى الكبد، وثالثةٌ تمسكه لها حتى تطبخه فيصير دماً، ورابعة تهضمه، وخامسة تُفرِّقُ بين صَفْوه وكدَره، وسادسة تتولّى قسمته، فلو بُعِثَ إلى الخد ما يبعث إلى الفَخذِ صار بمقداره، وسابعة تدفع ثَفْلَه[٧].

---

(١) بعُقوتكم: العقوة: الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة حولها.
(٢) زيادة من (ب).
(٣) إداوتَي: مثنى إداوة: إناء صغير يُحمل فيه الماء.
(٤) عمور: جمع عَمْر: لحم اللثة.
(٥) شَرَق: يقال: شرق بالماء: غصَّ.
(٦) غبيّاً: يقال غبي عنه: جهله ولم يفطن إليه.
(٧) ثفلة: الثفل: بالثاء المثلثة: ما استقرَّ تحت الشيء من كدرة.

أفيَحْسُن بعد تفرقة الجامكية[١] على العَسْكر أن يثبوا في المخالفة للمُنْعِم؟.

ثم انظر إلى هذا الهواء الذي قدْ ملأ به الفضاءَ، كيف تنتصبُ منه النَّفْس إلى النَّفَس، ثم هو للأصوات من حيث المعنى كالقرطاس[٢]، تُرْقَمُ[٣] فيه الحوائج، ثم يَنْمَحِي فيعود نقيّاً، فأقوام يرقمون فيه الذكر والتسبيح، وآخرون يرقُمون فيه كلَّ قبيح، وكم بَيْنَ من يرقم تلاوةَ القرآن وبين من يرقم أصوات العيدان؟!.

ثم تأمل آلاتِ الأصوات، ترى الرئةَ كالزِّقِّ، والحَنْجَرةَ كالأنبوبِ، فإذا ظهر الصَّفْرُ أخذَ اللسانُ والشفتان في صناعته ألحاناً، فهو كالأصابع المختلفة على فمِ المزمار.

ثم تـأمَّلِ الأرضَ كيف مدَّهـا بسـاطاً، وأمسكها عن الاضطراب لتصحَّ السكنى، ثم يزلزلُها في وقتٍ، ليفطنَ الساكنُ لقدرةِ المُزعج، وجعل فيها نوعَ رَخاوةٍ لتقبلَ الحفر والزرع، ورفع جانبَ السماء لينحدر الماء، وفرّقَ المياه بين الجزائرِ ليرطبَ الهواء، وأودعَ المعادن كما تودع الحاجاتُ في الخزائن.

ولمَّا بثَّ الطير صَانَ عَنْها السُّنبلَ لأنه قوتك بقشورٍ صُلبةٍ قائماتٍ كالإبر، لئلا تستفَّهُ فتموتَ بَشَماً[٤] فيفوت الحظّان[٥].

ثم تأمَّل الرمانة كيف حُشيت بالشحم بين الحَبِّ ليكون غذاءً لها إلى وقت عَوْدِ المِثْل، ثم بين كلِّ حشوتين لفافة لئلا يتصاكَّ فيجريَ الماء.

ثم جاء بالشمس سراجاً ومُنضِجاً للثَّمَر، تجري لتعمر الأماكن، ثم تغيبَ ليسكنَ الحيوانُ، ولما كانت الحوائجُ قد تعرض بالليل جعل القمر خَلَفاً، ولم يجعل طلوعَه في الليل دائماً، لئلا ينبسط الناس في أعمالهم كانبساطهم بالنهار،

---

(١) **الجامكية**: ما يأخذ الموظف من رواتب.
(٢) **كالقرطاس**: كالكاغد، والقرطاس: الصحيفة من أي شيء كانت.
(٣) **يرقم**: يكتب، والمِرْقم: القلم.
(٤) **بَشَماً**: من البشم؛ وهي التخمة.
(٥) **الحظان**: حظ الإنسان وحظ الطائر.

فيؤذي الحريصَ كَلالُه[1]، وما قدَّرَ غيبةَ القمر في بعض الليل جعل أنوارَ الكواكب كشعل النار في أيدي المقتبسين.

ولما كانت حاجةُ الخلق إلى النار ضرورية أنشأها، وجعلها كالمخزون، تُسْتَنْهَضُ وقت الحاجة، فتمسك بالمادة قدرَ مرادِ المُمْسِك.

ثم انظر إلى الطائر، لما كان يختَلِسُ قُوْتَه خوف اصطياده، صَلُبَ مِنقارُه لئلا يَنْسَحِجَ[2] من الالتقاط، لأنَّ زمانَ الانتهابِ لا يحتمل المضغَ، وجعل له حَوْصلةً يجمعُ فيها الحَبَّ، ثم ينقلُه إلى القانصة[3] في زمان الأمن، فإن كانت له أفراخٌ أسهمهم[4] من الحاصل في الحوصلة قبل النقل.

فإن لم يكن له حنَّةٌ[5] على أفراخه أُغْنُوا عنه باستقلالهم من حين انشقاق البيضة كالفراريج.

وا عجباً! كيف يُعصى مَنْ هذهِ نعمُه، وكيف لا تموتُ النفسُ حُبّاً لمن هذه حِكَمُه، إن دنَتْ همتُك فخَفْ من عقوبته، وإن علتْ قليلاً فارغبْ في معاملتِه، وإن تناهت فتعلّق بمحبته.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم[6]

إن قَصُرَتْ همتُك فآثرتَ قطعَ الشوكِ صحبك حمار، وإن رضيتَ بسياسة الدواب رافقك بغلٌ، وإن سددتَ بعض الثغور أُعْطيتَ فرساً، فإن كنتُ تحسِنُ السباق كان عربيّاً، فإن عزمت على الحج ركبت جملاً، وإن سَمَت همتُك إلى المُلك فالفيلُ مركوبُ الملوكِ.

رأيتُ عَلِيّاتِ الأمور منوطةً بِمُسْتَودَعاتٍ في بطونِ الأَساوِدِ

---

(١) كلاله: تعبه.
(٢) ينسحج: ينقشر.
(٣) القانصة: المعي للحيوان، جمعها قوانص.
(٤) أسهمهم: أعطاهم سهماً من الطعام.
(٥) حِنَّة: من العطف والحنو.
(٦) صدر بيت للمتنبي وعجزه: وتأتي على قدر الكرام المكارم.

ليسَ كلُّ الخيلِ للسباقِ، ولا كلُّ الطيورِ تحمِلُ الكتبَ، من الناسِ من شغلُه في الدنيا سوداء[1]، ومنهم من لا يلهيه في الجنة قصر، ولا يسليه عن حبيبه نهر، قوته في الدنيا الذكرُ، وفي الآخرة النظر.

يقـولُ أُنـاسٌ لـو تنـاسـى وصْلَهـا   وواصـلَ أُخـرى غيـرَهـا لسَـلاهـا
فـلا نظَـرتْ عيـنٌ تلَـذُّ بغيـرِهـا   ولا بَقِيَـتْ نفـسٌ تُحـبُّ سـواهـا

* * *

---

(١) أي: جارية سوداء.

الفصل التاسع والثلاثون

أيُّها الغافِلُ في إقامتِه عن نُقْلتِه! الجاهلُ وقد ملا بما يُملي[1] بطنَ صحيفته، ألك زاد لسفرك على طول مسافته؟!.

خفِ اللهَ وانظرْ في صحيفتِكَ التي حَوَتْ كلَّ ما قدَّمْتَهُ مِنْ فِعالكا
فقدْ خَطَّ فيها الكاتبانِ فأكثروا ولم يبقَ إلا أنْ يقولا فذالكا
واللهِ ما تَدْري إذا ما لَقِيتَها أَتُوضَعُ في يمناكَ أو في شِمالِكا
فلا تحسبَنَّ المرءَ يبقى مخلَّداً فما الناسُ إلا هالكٌ فابكِ هالِكا[2]

يا من تُحصَى عليه اللفظةُ والنظرة، مزِّقْ بيدِ الجِدِّ أوقات[3] الفترة[4]، وتأهَّبْ فما تدري السيرَ عشاءً أو بُكرة، واعتبر بالقرناءِ فالعِبْرَةُ تبعثُ العَبْرة[5]، وتزوَّد لسفرةٍ ما مثلها قطُّ سفْرَة، واقنَعْ باليسير فالحسابُ عسيرٌ على الذَّرَّة، وإياكَ والحرامَ وانظر من أين الكِسْرة[6]؟ قبل أن تلقى ساعةَ حسرة، وتُلقى بعدها في ظلمة حُفرة.

لا يَغُرَّنَّكَ الزَّمانُ بِيُسرٍ وسرورٍ ولا يَرُعْكَ بعُسْرِه
إنَّ مرَّ الزَّمانِ يمحقُ عُسْرَ المرءِ في لحظةٍ ويَذْهبُ بِيُسرِه
وسواءٌ إذا انقضى يومُ كسرى في نعيمٍ له[7] وصاحب كِسْرَه[8]

---

(١) ملا: بمعنى ملأ. يُملي: يلقي على الكتبة.
(٢) في (أ): إلا هالك وابن هالك.
(٣) في (ب): أثواب.
(٤) الفترة: الفتور والضعف.
(٥) العِبرةُ: بكسر العين، من الاعتبار والاتعاظ. والعَبرة: بفتح العين، الدمعة.
(٦) الكِسرة: القطعة اليسيرة من الخبز، وهو كناية عن القليل المكتسب التافه.
(٧) في (ب): ويوم.
(٨) صاحبِ كِسرة: أي فقير لا يملك إلا كسرة خبز.

أَتُرى في عين العِبْرة رمَد؟ أما تُبْصِرُ أنْ لاحَ الأمد[١]؟ يا دائم المعاصي ما غيّرهُ الأبد، تُصلي ولولا التعودُ لم تكدْ، القلبُ غائبٌ إنّما جاءَ الجسد، الفِكر يجـولُ في طلبِ الدنيا من بلدٍ إلى بلدٍ، يا مُعرِضاً عن بحرِ برّنا لا تقنعْ بالثَّمَد[٢]، يا مقتولَ الهوى ولكن بلا قَوَد، بين الهوى و المُنى ضاع الجَلَد، أما يجول ذكر الموت في الخَلَد[٣]؟ أرأيتَ أحداً من قبلك خَلَد؟ رُبَّ يوم معْدودٍ[٤] ليس في العدد، إنّما الروحُ عاريةٌ في هذا الجسد، هذا بحرُ الغرورِ يقذفُ الزَّبَد، كم ركبهُ جاهلٌ فغرِقَ قبل البَلد، هذا سهمُ المنون يَفْرِي حِلَقَ الزَّرَد[٥].

إخواني! دنا الصباح، فقولوا لمن رقد: أين الوجوه الصِّباحُ؟ مرَّت على جُدَدٍ، أين الظباءُ الملاح؟ اغتالها الأسد، هذا هو المصير. أما يَرْعَوِي أحد؟!.

قال (**عمر بن عبد العزيز**) لأبي حازم: عظني، فقال: اضطجع، ثم اجعل الموتَ عند رأسك، ثم انظر ما تُحبُّ أن يكونَ فيكَ تلك الساعةَ فجُدَّ فيه الآن، وما تكرهُ أن يكونَ فيك فدَعْه الآن.

أيها الطالبُ للدنيا وما تجِدُ! كيف تجدُ الآخرةَ وما تطلب؟ ما مضى من الدنيا فحُلُمٌ، وما بقي فأمانيّ، «**سبعةٌ يظلهم الله في ظله... منهم: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**»[٦].

اسمع يا من أجابَ عجوزاً على مَزْبلةٍ، ويحك! إنّها سوداء، ولكن قد غَلَبت عليك، عُرِضَتْ على نبينا ﷺ بطحاءُ مكة ذهباً فأبى، يا محمد! ممن تعلمت هذه القناعة؟ قال لسان حاله: من عَجَلةِ أبي[٧]. الحريصُ دائمُ السُّرى وما يَحْمَدُ

---

(١) **الأمد**: الغاية والنهاية.
(٢) **الثمد**: الماء القليل لا أصل له يَمدُّه.
(٣) **الخَلَد**: العقل.
(٤) **معدود**: أي في حساب طويل الأمل أنه سيعيشه، لكن في القدر أنه يموت قبله.
(٥) **يَفري**: يقطع. **الزرد**: الدرع المزرودة، وهي التي تداخلتْ حِلقُها بعضُها في بعض، وهذا كناية عما يُظنّ أنه يقي من الموت.
(٦) رواه البخاري في كتاب الأذان (٢٦)؛ ومسلم، كتاب الزكاة (٩١).
(٧) أي: إشارة إلى أكلة آدم من الشجرة ابتغاء الخلود.

الصَّباح، مَنْ لا له همَّةٌ سوى [جمع][1] الحُطام معدودٌ في الحشرات.

يا أطيارَ القلوب! إلى كم في مزبلةِ الحَبْس؟ اكْسِري بالعزم قَفَصَ الحَصْرِ، واخْرجي إلى فضاءِ صحراءِ القدس، رُوحي خماصاً من الهوى تعودي بطَاناً من الهُدَى. بَيْن أبِ الحركة وأمِّ القصدِ ينتجُ ولدُ الظَّفَر، لا يُنال الجَسِيمُ بالهُوَيْنا، حَمْلُ النفس على حمل المشاق مَدْرَجَةٌ إلى الشرف. وا عجباً مِنْ توقُّفِ الكُسالى والدُّرُ يُنْثر، أشهودٌ كَغُيّاب؟! أكانونُ في آب[2]؟!.

الحربُ خصامٌ قائم وأنت غلامٌ نائم، أُدخل بسلامتك لابسَ لأمتِك[3]، ليس في سلاح المحارب أحدٌ من نَبْلةِ عزم، أَجْرَأُ الليوثِ وأحدُّها صائد[4].

ليس عزماً ما مَرِضَ المرءُ فيه ليس همّاً ما عاقَ عنه الكلام[5]

طِرْ بجناح الجِدِّ من وَكْرِ الكَسل تابعاً آثار الأحباب تصل.

(للشريف الرضي)[6]:

تَلَفَّتُّ حتى لم يَبِنْ مِنْ ديارِهم[7] جَنَابٌ[8] ولا مِن نارِهِنَّ وقُودُ
وإنّ التفاتَ القَلْبِ مِنْ بعْدِ طَرْفه طَوالَ الليالي نحوَهُم[9] ليَزيدُ
ولو قال لي الغادونَ: ما أنت مُشْتَهٍ غداةَ جَزَعْنا الرَّمْلَ قلتُ: أعودُ
أأصبرُ والوَعساءُ بيني وبينكم وأعلامُ خَبْتٍ[10]؟ إنّني لجليدُ

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) **آب وكانون**: من أشهر السنة الشمسية، الأول لهّاب تشتد فيه الحرارة، لأنه من أَشْهُرِ فصل الصيف، والآخر تشتدُّ فيه البرودة، لأنه من أَشْهُرِ الشتاء. **والكانون**: الموقد سمي باسم الشهر، لأنه توقد فيه النار دفعاً للبرد.
(٣) **اللأمة**: الدرع أو السلاح. **ولأمة الحرب**: أداته.
(٤) في (ب): وأجرُّها للصيود.
(٥) البيت للمتنبي.
(٦) انظر: ديوان شعره: ١/ ٣٩٠.
(٧) في الديوان: «بلادكم».
(٨) في الديوان: «دخان».
(٩) في الديوان: «نحوكم».
(١٠) **أعلام خَبْتٍ**: أعلامُ معالم بارزة، صحراءُ بين المدينةِ والحجاز.

يا مخنَّثَ العزمِ! أين أنت والطريق؟ سبيلٌ نَصَبَ فيه آدمُ، وناحَ لأجلِه **نوحٌ**، ورُميَ في النارِ **إبراهيمُ الخليلُ**، وأُضْجعَ للذبح **إسماعيلُ**، وبيْعَ **يوسُفُ** بدراهمَ، [وذهَبتْ من البكاءِ عينُ **يعقوب**][1]، ونُشر بالمنشار **زكريا**، وذُبح الحصورُ **يحيى**، وضَنِيَ بالبلاء **أيوبُ**، وزادَ على المقدار بكاءُ **داود**، وتنغَّص في الملك عيشُ **سليمانَ**، وتحيّر بِرَدِّ ﴿لَن﴾ **موسى**، وهام مع الوحوش **عيسى**، وعالجَ الفقر **محمد** ﷺ.

فيـا دارَهـم بـالحَـزْن إنَّ مـزارَهـا قـريـبٌ ولكـنْ دونَ ذلـك أهـوالُ

أوَّل قدم في الطريق بَذْلُ الروح، هذه الجادَّةُ، فأين السالك؟! هذا قميصُ يوسفَ، فأين يعقوبَ؟ هذا طورُ سَيْناء، فأين موسى؟ يا جنيدُ احْضُر، يا شبلي اسْمعْ.

بِـدَمِ المُحِـبِّ يُبـاعُ وَصْلَهُـم فَمَـنِ الـذي يَبتـاعُ بـالسِّعْـرِ

* * *

---

(١) زيادة من (ب).

الفصل الأربعون

إخواني! اعتبروا بالذين قطَنوا وخَزَنُوا، وكيف ظَعَنوا وحزِنوا! وانظر إلى آثارهم تَعْلَم أنّهم قد غُبِنوا، لاحتْ لهم لذاتُ الدنيا فاغترّوا وفُتِنوا، فما انقشعت سحابُ المُنى حتى ماتوا ودُفِنوا.

جَمعُوا فما أَكلوا الذي جمعُوا ... وبَنَوا مساكِنَهم فما سَكَنُوا
فكأنّهم كانوا بها ظُعُناً ... لما استراحوا ساعةً ظَعَنُوا

يا مَنْ قد امتطى بجهله مطا[1] المطامع، لقد ملأ الوعظُ في الصباح والمساء المسامعَ، أين الذين بلغوا آمالهم؟ فما لهم في المنى مُنازع، وما زال الموتُ يدور على بُدِور الدور حتى طوى الطوالع، صار الجنْدلُ فِراشهم بعد أن كان الحريرُ فيما مضى المضاجعَ، ولقوا ـ والله ـ البِلا في تلك البلاقع.

قال (**شداد بن أوس**): لو أنَّ الميتَ نُشِرَ، فأخبرَ أهل الدنيا بألمِ الموت، ما انْتَفعوا بِعَيْشٍ، ولا التذُّوا بنوم.

وقال (**وهب بن منبّه**): لو أنَّ ألمَ عرقٍ من عروقِ الميتِ قسم على أهل الأرض لوسعهم ألماً.

وكان (**عمرُ بن عبد العزيز**) يجمع الفقهاء كلّ ليلةٍ فيتذاكرون الموتَ والقيامة ثم يبكون، حتى كأنَّ بين أيديهم جنَازة.

وقال (**يحيى بن معاذ**): لو ضُرِبت السماء والأرضُ بالسياط التي ضرب بها ابن آدم لانقادت خاشعة للموت والحساب والنار.

يا هذا! الشيبُ أذان، والموت إقامة، ولستَ على طهارة، والعمر صلاة، والشيب تسليم.

---

(١) **مطا**: الظهر.

يا من قد خَيَّمَ حبُّ الهوى في صحراء قلبه، اقْلَع الأطنابَ[1] فقد ضُرب بوقُ الرحيل، أما تسمعُ صوتَ السوط في ظهور الإبل؟! أما ترى عَجَلة السَّلْبِ وقِصَرِ العمر؟! شارفَ الركبُ بلدَ الإقامة فاستَحثَّ المطيَّ، يا مشاهدةً ما تَمّتْ بُغْيَتُها حتى وقع النَّهْبُ فيها، اسْتَلِبْ زمَنَك لكَ قبل أن تُسْلَبَ الجملةُ، الأيامُ تسرعُ في تبذير مجموع صورتك وأنت تسرعُ في تبذير معانيك.

يا شبّان الجهل، يا كُهولَ التفريط، يا شيوخ الغفلة، اجلسوا معنا ساعة في مأتم الأسَف.

يا سحائبَ الأجفان أمطري على رباع[2] الذنوب.

يا ضيف الندم على الإسراف اسكن شغاف[3] القلوب.

يا أيام الشيب إنما أنتِ بين داعٍ ووداع، فهل لماض من الزمان ارتجاع.

قِفَا ودِّعا نجداً ومَنْ حَلَّ بالحمى ... وقَلَّ لنجدٍ عندنا أن تُودّعا
فليْس عُشَيّاتُ الحِمى برواجعٍ ... عليكَ ولكنْ خَلِّ عينيك تَدْمعا
تلفَّتُّ نحوَ الحمى حتى وجَدْتُني ... وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً[4] وأخدعا[5]
وأَذكرُ أيامَ الحِمَى ثم أَنْثَني ... على كَبِدِي مِنْ خَشيةِ أن تَصَدَّعا

إخواني! سكرانُ الهوى بعيدُ الإفاقة، فلو تذكر إقامةَ الحد طارَ السُّكر، مَنْ تحسَّى مرق الهوى احترقتْ شفتاه، مَنْ أكل من الظُّلمِ ثمرةً أداها قَوْصَرة[6].

ويحك! اغسل العثرةَ بعَبْرة، وادفع الحَوْبة بتوبة، ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فسحة، قبل أن تموت وتفوت، وتعلو بعد الخيل على تابوت،

---

(١) **الأطناب**: جمع طنب، وهو الحبل.
(٢) **رباع**: جمع ربع: الدار بعينها.
(٣) **شغاف**: غلاف القلب - جلدة دونه - وسويداء القلب أو حبته.
(٤) **الليت**: صفحة العنق.
(٥) **الأخدع**: عرق في الرقبة، إذا قطعه الذابح لا يبقى معه حياة، ويسمى الودج، وهما وَدَجان من الجداول التي تجري فيها الدماء.
(٦) **القوصرة**: ما يكتز فيه التمر من البواري.

قبل أن ترى السمع والبصر قد كلاَّ، وتقول: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ فيقال: ﴿كَلَّآۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، قبل أن يصيرَ دمعُ الأسى من جفن أَسَا[1]، ويقال: هلاّ كان هذا قبل هذا، هلاّ.

أَتَتْـركُ مَـنْ تُحِـبُّ وأنـتَ جـارُ ... وتطْلُبُـه إذا بَعُـدَ المَـزارُ
وتبكـي بعـدَ نـأْيِهِـمُ اشْتيـاقـاً ... وتسـألُ فـي المنـازل أيـن سـاروا
تَـرَكْـتَ سـؤالَهـمْ وهـمُ حضـورٌ ... وتـرجـو أن تُخبِّـرَكَ الـديـارُ
فنفْسَـك لُـمْ ولا تَلُـمِ المطـايـا ... ومُـتْ كَمَـداً فليـسَ لـك اعتـذارُ

يا مَنْ أجلُه يذوبُ ذوبانَ الثلج في الحرِّ، أَيَنْقَشعُ غيمُ العمر لا عن هلال الهدى؟! أتؤثر الفاني المرذول على النَفيس الباقي؟!.

أَرَضِينـا بِثَنِيّـاتِ اللِّـوى ... عـن زَرُودٍ يـا لَهـا صَفقـةُ غَبْـنِ

ما تَخفَى علاماتُ الإدبارِ عليك، يُفَتِّشُ دارُك فلا يُرى سِوَاكٌ للطهارة، يدك لا تطهر للصلاة بل هي ملاعقُ للأكل، ليسَ في البيتِ مصحفٌ بل تقويم[2]، أينفعُ وجود التقويم مع عدمِ التقويم[3]؟! يا مهتمّاً بالنظر في الطالِع! طالِعْ ما قد خبئ لك، كأنك بالموت قد طَلَعَ، وما طالعَ فكرُك عاقبة، اسمع حسابي حقّاً وما أَرْجُم، ودَعْ لكلماتي هذي قول الهازل المنجم، إن ضُمَّ الندمُ على التفريط إلى العزيمة على الإنابة فساعةُ سَعْدٍ، وإن اجتمعَ في القلب حُبُّ الدنيا على إيثار الكَسلِ فقِرانُ نَحْسٍ.

* * *

انتهى الجزء الأول من تقسيم المحققين

ويليه الجزء الثاني وأوله الفصل الحادي والأربعون

---

(١) **الأسى**: الحزن. **أسا**: من الإساءة والخطأ، أي: أساء.

(٢) ما يضبط به التاريخ كالروزمانة، وثمة تقويم زمني وتاريخي وفلكي.

(٣) الإصلاح والتعديل والتصحيح. والثقاف: تقويم المعْوَجّ.